

حَضْرَةُ الْعِرَاقِ

تأليف
نَجْمَةُ مِنَ الْبَاحِثِينَ الْعِرَاقِيِّينَ

الجزء الثاني

بغداد ١٩٨٥

المصوّر القديمة

(٢)

الفصل الأول

الادولة ونظام الحكم

د. سامي سعيد الأحمـد

كلية الآداب - جامعة بغداد

ملك وسلطته

في الوقت الذي تبدأ فيه معلوماتنا عن الادارة مع قراءة المدونات بعد ظهور الكتابة في حدود اواسط الالف الرابع ق.م فإن العصور الطويلة التي سبقت التاريخ منذ نشوء القرى الاولى لابد أن تكون قد شهدت رؤساء اداروا امور الجماعة وانظمة حكم لا نعرف عنها الآن شيئاً • ففي جانب من القرية عند موقع تل الصوان جنوب سامراء عثر على دار واسعة ذات غرف كثيرة ربما كانت قصرا لرئيسها الا ان عدم وجود الكتابات جعلت معرفتنا لا تعدو التخمين •

ورد في اثبات ملوك السومريين ذكر ملوك حكموا قبل الطوفان في مدن سومرية جنوبي العراق غابت غالبية اخبارهم ، الامر الذي يفسر الارقام الخيالية التي أعطيت لفترات حكمهم • وظهرت في عصر العبيد المستوطنات

الزراعية الواسعة التي مارس سكانها الزراعة الكثيفة المعتمدة على الارواء والسيطرة على مصادر الماء (شق الترع وبناء السدود والخزانات ودرء اخطار الفيضان)، وتغطية الاستهلاك المحلي بانتاجها، واستعمال الفائض لتبادل مايفتقر اليه البلد من المواد الضرورية من الخارج كل هذه لابد ان تكون قد رعتها حكومة مركزية قوية اشاعت النظام وحققت الامن وقامت بواجباتها خير قيام لم تصلنا اخبارها . ويوضح نظام الحكم في الدوليات السومرية الاولى خلفية طويلة وتطورا سياسيا غير معروف لدينا الان وقد يكون الكهنة في بادىء الامر هم الحكام الاوائل خاصة وان المعتقدات الدينية تؤكد بان البشر قد خلقوا لخدمة الالهة وتوفير ما تحتاجه . وان اله كل مدينة هو ملكها الحقيقي وقد يكون الكهنة في البداية هم الملوك . وشهدت الفترة السومرية الاولى صراعا بين الملك والكهنة والامثلة متوفرة عن كهنة كان لهم نفوذ واسع مثل دودو كاهن لكش زمن اتمينا وكان الاخير في البداية كاهنا اعلى لاله المدينة .

واضاف ايناتارزى حاكم لكش جميع صلاحيات الكاهن الاعلى لوظائفه وقسم رئاسة مختلف معابد المدينة بين افراد عائلته . ومرت ازمة زادت فيها حدة المنافسة بين الملك والكهنة حتى وضع اورواينمگينا(اوروكاجينا) حدا لاستغلالهم . وترينا اصلاحاته بان سلطة الملك اخذت بالاستقلال التام عن الكهنة ونمت حوله طبقة جديدة من موظفيه . وقد يكون المعبد نفسه (او جناح خاص في الاغلب) هو المكان الذي كان يسكن فيه الملوك الاوائل ويديرون منه امور الدولة وكان لقب گلگامش في البداية السيد (آين) ثم اتخذ لقب الملك وكان السيد يعيش في معبد اله المدينة وهو كاهنه الاعلى .

من المعقول الافتراض بان الملك بادىء ذي بدء كان عبارة عن شخص هو المقدم بين اقاربه اختير لتزعّم المدينة في الحرب . ففي حالة تعرض البلاد للخطر وخاصة الهجوم الخارجي او الفيضان يعمد اهل البلدة الى

اختيار حاكم منهم تتوفر فيه صفات الزعامة من حنكة وشجاعة لادارة دفة الدولة يخولونه صلاحيات واسعة واطلقوا عليه اسم الملك . ويظهر ان الزعماء الذين اختيروا بهذه الطريقة قد استأثروا بالسلطة وادعوا ارتباطهم بالالهة واختيار الاخيرين لهم كمثليهم بين الناس واورثوا منصبهم لابنائهم .

كانت المهام الدينية في بداية نشوء الملكية بيد الحاكم ولما كثرت واجباته انفصلت المهام الدينية عن الزمنية فاختص الكهنة بامور الدين وتفرغ هو لشؤون الدولة فسكن في قصر خاص به مع اسرته وحاشيته وسي الحاكم انسي (وكيل الاله) او الملك . والمعروف ان الملك كان حاكما مستقلا يدير اكثر من دويلة مدينة واحدة في وقت قد يكون فيه الانسي تابعا للملك . واذا جاوزت منطقة حكم الانسي ما وراء حدود مدينته واعترف به معبد انليل في مدينة نقر فيحمل انذاك لقب ملك ويحمل كل حاكم في مدينة تابعة للانسي لقب حاكم (كورنيتا) في وقت كانت به ادارة المعبد بيد موظفين خاصين يشرف عليهم الانسي . وكان موظفو الدولة مسؤولين امام الانسي ومرتبطين به يستحصلون له الضرائب عن القطعان والقوارب ومصائد السمك ورسوم الدفن والطلاق . وعاش الملك او الانسي في قصر ، وعثر على قصور في مواقع كيش واريديو وادب . وان قصري المدينتين الاوليين متشابهان وهما بانيتان كبيرتان متجاورتان كل منهما ذو غرف كثيرة مفتوحة على ساحات مما قد يدل على رسوخ منصبه وقوته . وعثر في قصر كيش على قاعة كبيرة مع صف من اعمدة اربعة في الوسط .

ادار الانسي ممتلكات اله المدينة وهو القائد في الحرب والقاضي ورأس السلطة الدينية والمسؤول عن الاعمال العامة . وتدل ضخامة المقبرة الملكية في اور وثراء مكتشفاتها على رفعة مركز الملك خلال عصر فجر السلالات . وترينا نصوص شروباك من عصر فجر السلالات الثالث ان الملك كان ذا مركز

سام ، واحتوى قصره على الكثير من الموظفين امثال الوكلاء والحجاب والسقاة والموسيقيين والطباخين حيث نعرف وجود ١٤٤ ساقيا و ١٣٢ موسيقارا ومغنيا و ٦٥ طباحا . وتؤكد اسطورة ايتانا والنسر على هبوط الملكية الى الارض بعد الطوفان في مدينة كيش ، وكانت الملكية حسب ما يظهر قد عادت الى السماء عند حلول الطوفان لحمايتها من الخطر . فالملكية كانت مقدسة وهي هبة الالهة الى البشر حتى يعيشوا في نظام وأمن . وتذكر الاسطورة انه لما نزلت الملكية وشاراتها الى الارض وبحث الاله انليل والالهة عشتار عن راع للبشر ، حيث لم يكن في الارض آنذاك ملك فلم يجدا احدا في البداية فنصب الاله انليل ملكا من البشر . وقد اختير للملكية عند نزولها بعد الطوفان ايتانا الراعي ، وتذكر الاسطورة صعود ايتانا الى السماء للحصول على نبتة تشفيه من العقم . وتبدأ الاسطورة بالعبارة (ان مدينة كيش تبكي) لان ملكها عقيم مما يعرض سلامة البلدة بعد وفاته الى الخطر . وبسبب حلول الملكية في كيش اولا ظل ملك كيش يتمتع بمركز كبير . ولما سيطر ميسا نسيادا ملك اور على كيش فضل استعمال لقب ملك كيش الذي اتخذه سرجون الاكدي بعد ذلك . وتذكر اسطورة ايتانا كون الصولجان والتاج وعصا الراعي وغيرها من اشارات الملكية موضوعة امام الاله انو ملك الالهة في السماء .

وتذكر اسطورة سومرية كيف ان الالهة انا انما لما ارادت رخاء مدينتها اوروك ، صممت على زيارة اريدو لجلب معالم المدينة منها ، وعددت الاسطورة مائة عنصر من عناصر التحضر تضمنت التسعة الاولى منها القيادة والتاج والصولجان واشارات الملك مما يدل على الاهمية الكبيرة التي علقها السومريون على الملكية كعنصر اساس لنشوء المدينة . وفي نص من فترة لاحقة ذكر الناسخ اعداء الدولة وغزاتها في الشمال والشرق او مناطق السهوب بانهم (لا يعرفون بيوتا وليس لهم ملوك) ، فالملكية بنظرهم هي

اساس النظام والتمدن ، وگلگامش كما تصوره الملحمة ابن الهة وملك عظيم فكان رغم ظلمه لرعيته يحميهم من الاخطار ويدراً عن قطعانهم الوحوش وحتى انه قتل الوحش الذي هو اصل الشر على الارض . فوجود گلگامش استتب الامن بكل مكان اضافة الى كونه ، كما تبدأ الملحمة ، قد رأى كل شيء وخبر البلاد دلالة على اقتناع شعبه بخبرته ومعرفته التامة بالامور . ويخاطب الملك السومري في التراتيل الدينية براعسي البلاد المخلص . وفي قصة گلگامش وشجرة الخولوبو أحال الاله شمش انا عندما شكت اليه اغتصاب الشجرة التي استنبتها ، الى گلگامش ملك مدينتها (اوروك) الذي ارجع لها شجرتها بالقوة .

اعتقد العراقيون القدامى بان الالهة هي التي تختار الملك وتقدم له وظائفه ومنذ البداية هو ملك البلاد . وكان الملك (ربما في غالبية المدن السومرية) ينتخب من قبل المجلسين الحاكمين في الدولة . ونقرأ في نص سومري (اجتمع اهل كيش واختاروا للملكية ابخور كيش من اهالي كيش) . وافتخر بعض الملوك باختيار الالهة لهم من بين رجال مدينتهم ، فاثميننا واورواينمگينا (أوروکاجينا) وجودية اخبرونا بان يد الاله قد اختارتهم من بين ٣٦٠٠ ، ٣٦ الف ، ٢٢٦ الف رجل من رجال مدينتهم لگش على التوالي .

ذلك يوضح بجلاء مبدأ الاختيار . كما اعتبر الكثير من الملوك انفسهم ابناء الالهة فذكر جودية بانه ابن الالهة نينا ونيون الخ . واكد اورنمو مؤسس سلالة اور الثالثة بانه ابن الالهة نينسون التي ولدته بناء على اوامر الاله القمر . وقال لبت عشتار ملك ايسن بانه ابن الاله انليل . واخبرنا سنحاريب بان (الربة ملكة الالهة قد اختارتني للملك عندما كنت في رحم امي) ، وربط نفسه في نصوصه مع ابطال بابل الاسطوريين . وادعى اشور بانيسال في مناسبات عدة بان امه هي الالهة نليل (زوجة الاله اشور)

وسيدة نينوى وعشتار اربيل • كما ذكر ان الاله نابو قد اتاه في حلم بوقت كان يستعد فيه لحملة وذكره بانه قد عهد به وهو رضيع الى عشتار التي رضع من ثديها واخفى وجهه بينهما • ويمكن ان تختار الالهة للملك شخصا حتى قبل ميلاده بقرون عدة ، فعندما حمل العيلاميون تمثال الالهة عشتار قدرت تلك الالهة انذاك أن يعيده لمعبدها اشور بانپال •

وقد يقع اختيار الالهة على شخص مغمور تتلمس فيه الكفاءة والقدرة برأيهم فتأخذ بيده الى مقاليد الملك كما تقرأ في اسطورة سرجون الاكدي التي ادعى فيها كونه من اصل وضيع نشأ بستانياً ورعته عشتار ووعدته بالملك الذي اعطته له بالنهاية • وان ابتداعه القصة واضح من النصوص التي تذكر صلات قرباء وحياته الاولى • ولكي يسبغ الشرعية على تسلّمه السلطة اطلق على نفسه الاسم شروكين (معناه الملك الشرعي) وليست هناك اية اشارة الان الى اسمه الحقيقي •

في الوقت الذي لم يعبد خلاله اي ملك في العصر السومري القديم ، على حسب معلوماتنا الحالية ، يظهر ان نرام سن آخر ملك قوي للسلالة الاكديّة قد اعتبر الها وعبد في حياته ، وتصفه المصادر بل وتضع امام اسمه اشارة الاله، وترسمه المنحوتات وعلى رأسه الخوذة بالقرنين (رمز الالهية) • ومن الصعب معرفة الظروف التي احاطت هذا الطقس الجديد (عبادة الملك) الذي نلاحظه الان ونعرفه لأول مرة في العراق القديم • فهل لنرام سن نفسه يد في تنمية هذا الطقس من اجل تعظيم نفسه ؟ وهذا قريب الاحتمال او قد يكون هو نتاج عملية الزواج المقدس الذي كان راسخاً في العصر الاكدي لا يزاوله الملوك فقط بل بعض الحكام ايضا •

ورغم كون الكتابات من عهد اورنمو لا تضع اشارة الالهية امام اسمه ولكنه يظهر انه عبد في مدينته اور • فهناك ترتيلة الى الاله اورنمو تشير

الى قصره بانه بيت اور واعتبر ابنه شولكي واولاده أنفسهم الهة في حياتهم وربما بدأ هذا الاتجاه منذ نهاية حكم اورنمو حيث وردت أسماء ملوك السلالة وامامهم اشارة الاله ويليسون في الصور الخوذ ذات القرنين ويقدم لهم نوع من النذور بنفس الطريقة التي يقدم الى الالهة مع تراتيل لهم . ووصلت الينا معابد مكرسة للملك هذه السلالة المؤلهين وقدمت الاضاحي والنذور الى تماثيلهم التي وضعت في المعابد . وغدت تماثيل الملك منذ زمن الملك شوسن تعامل على قدم المساواة مع تماثيل الالهة في تقديم النذور اليها، فقدمت النذور الى تماثيل شولكي عند ظهور الهلال واكتمال البدر وتسمى الكثير من الناس باسم شولكي الهي وشولكي خالقي الخ . وربما كانت نتيجة طول عهد هذا الملك الحافل بالرخاء ظهور الحركة الدينية في عبادة الملوك . وقد وجد ختم قرب أربيل مدون عليه (الى سيدته نليل الاله شولكي) ووصلت الينا نذور مقدمة الى شولكي مثل مزهرية تاجر الى الهة لحياة شولكي . وقدم حاكم مدينة نقر ختماً الى الاله نوسكو لحياة الاله شولكي ، واطلق امارسن على نفسه (الاله الحقيقي شمس البلاد) وكرس حاكم اشنونه معبداً الى شوسن المؤله . ويظهر انه من عهد شولكي كان هناك عيد خاص يسمى باسم الملك الحاكم مثل عيد شولكي وعيد امارسن الخ .

وكان دور الملك مهما في الزواج المقدس خلال عيد رأس السنة حيث يمثل الملك دور الاله تموز . وتخطبه الالهة (التي تمثلها كاهنة) في ترتيلة لشولكي (سوف اقدم لك الطقوس التي تشكل ملكيتي ساختار لك النموذج الالهي اي اضاحي ليوم القمر الجديد يوم رأس السنة سوف اقدمها اليك) . ويذهب الملك في قارب الى المعبد ويدخل امام الالهة اناثا في مزارها باوروك . وعندما ترى الالهة شولكي في حلة الاحتفال القشبية وقبعته الفخمة بنفسى عليها وتغني الكاهنة العليا التي تمثل الالهة اغنية حب للملك الذي يمثل

الاله تموز ويصف نص اخر الحمام الطقوسي وارتدائها ملابسها وتهيؤها
للملك المؤله .

ولم نعرف شيئا عن عبادة اي ملك اشوري ولكن تماثيل الملوك الاشوريين
كانت توضع مع تماثيل الاله اشور بمعبد في مدينة اشور وهناك طقوس
معينة لتماثيل الملوك . وقد وضعت تماثيل الملك تجلات يلير مع تماثيل
الالهة ، وسبقت اشارة الالهية تماثيل الملك .

؛ ونظرا لاهمية الملك وكون رفاه الامة مرتبطا برفاهه وان أي شر يلحقه يضر
البلاد فقد تمت حمايته بمختلف الطقوس منذ اقدم الازمنة . فاذا ظهرت
اشارات وعلامات سماوية او ارضية يفسرها الكهنة بشر يحرق بشخص
الملك يتحتم على الملك احيانا وافراد اسرته الاختفاء لفترة من الزمن حتى
تزول تلك النذر وتختفي العلامات .

فيعين ملك بديل يحل محل الملك ويقوم باعماله بدلا عنه لمدة يوم واحد
او مائة يوم . ولا نعرف وقت بداية هذا الطقس ولكنه مورس في العصر
البابلي القديم ، حيث اختير ملك بديل للحكم مكان ايرا ايمتي ملك ايسن
ووقع الاختيار على بستاني ليكون الملك البديل . ولكن حدث ان مات الملك
الاصلي اثناء تناوله حساء فأل الحكم الى الملك البديل . ولا نعرف ان
كان هذا السبب صحيحا وربما كان هناك تأمر على حياته فمات مسموما
وقد يكون الملك البديل مسؤولا عن ذلك . وزادت المعلومات عن هذا الطقس
من العصور المتأخرة . فكان على الملك ان يختفي وافراد اسرته عن اعين الناس
ويقوموا باداء بعض الطقوس الدينية . وتختار الالهة الملك البديل بواسطة
الكاهنة بطريقة لا نعرفها الآن . وهناك نصوص من نهاية حكم اسرحدون
تتركز جميعها حول تعيين اشور بانينال وليا للعهد حيث اختير ملك بديل
حكم لمدة مائة يوم في وقت بقي فيه الملك داخل القصر . وبعد انتهاء المدة

وعند غروب الشمس يذبح الملك البديل ويدفن بمهابة وبذلك يكون الخطر قد زال عن شخص الملك الحقيقي •

وعندما تلقى لعنة على العدو قبل بداية معركة يذبح احد طواشية الملك الذي يأخذ اسم سيده حتى لا يقع الملك ضحية العملية السحرية ويقع الخطر على البديل • وكان الملك يخبر بطواهر الخسوف والكسوف التي اعتقدوا ان لها اثرا كبيرا على شخصه وقد يكون ائذار شؤم له • فتذكر رسالة (ليعلم الملك بان الخسوف لم يكن شؤما على الملك او بلده) • ويرسل آخر الى الملك رسالة حول خسوف القمر ووقته (وفي اليوم الثالث عشر يكون القمر عالياً ليقف الملك امام مدينة آشور ويعين اليوم لقد اظهر القمر وجهه لحسن طالع انه بداية شهر ولكن من غير المستحسن تخطيط أي شيء لهذا اليوم) •

واعتبر الآشوريون الايام ٧ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٨ ، اياما نحسة على الملك فلم يسمح له خلالها بتناول طعام مطبوخ او لبس حلة نظيفة او ركوب عربة • ولا يعطي الكهنة اي وحي ذلك اليوم حتى في محل سري ولا يسمح لطبيب حتى بمسك يد مريض • واعتبروا اول يوم من السنة الجديدة يوم شؤم وعلى الملك خلال ذلك اليوم ان يبدو كفلاح ويصوم لخير شعبه حتى يظهر القمر الجديد • ولما كان أي خطر يهدد شخصه هو تهديد لسلامة البلد فيستعاض عن حضور الملك في بعض المناسبات كعمليات السحر الخاصة بالجيش او بعض الاحتفالات الاخرى بارسال ردائه او احد اتباعه لكي لا يعرض هو شخصيا لأي خطر •

وهناك طقوس خاصة بالملك امثال طقس الاكل وهو عبارة عن مأدعة تقدم الى جميع الآلهة لحمايتهم ورعايتهم ، ثم طقس الوضوء (بيت ريمقي) وهو عبارة عن حمام يأخذه الملك ويقوم خلاله بالدعاء الى مختلف الآلهة

• لحمايته من الشر الذي يهدده في بعض المناسبات • والملك مسؤول بصورة فردية عن ذنوب افراد شعبه فعليه ان يصوم احيانا ويخلق شعر جسمه ويضعه في طاسة تدفن بارض العدو •

وقد وردت الينا اشارات في النصوص المسمارية من العصر الكوشي والآشوري البابلي الحديث الى اقامة مواكب تشييع فخمة بمناسبة وفاة الملوك أو بعض ذويهم •

ويستشير الملك الآلهة عادة في شؤون الدولة ويكتب غالبا مقترحا الى الالهة شمش على لوح طيني يضعه امام تمثال الآلهة (ياشمش هلا عين الرجل حاكما على المقاطعة الفلانية) ثم تذبح الاضحية وتفحص احشاؤها حيث يطبخ الآلهة شمش حسب اعتقادهم رغبتة في كبد ذلك الحيوان المضحي يقرأها كاهن العرافة •

وقد يرسل الملك تقريرا الى آله مثل رسالة سرجون الآشوري المفصلة الى الآلهة آشور عن حملته الى ارات •

ان طقس عمل اول طابوقة لبناء معبد او قصر هي مسؤولية الملك ويستلزم عملها في يوم بفأل طيب ، وكان شهر حزيران هو الاكثر ملاءمة لذلك فهو (شهر عمل الملك لقالب الطابوق) • فاذا خرجت اللبنة الاولى جيدة فانها اشارة الى رضا الاله عن عمل الملك • والمعروف ان الملوك كانوا يقومون بصنع اللبنة الاولى بانفسهم • وحتى القالب نفسه يلزم ان يكون من نوع خاص من الخشب يظل بعد ذلك محفوظا في المعبد ويملا الملك ذلك القالب بالطين مصحوبا بالأدعية وتقديم الاضاحي وعزف الموسيقى •

القاب الملوك

كان كل ملك يتخذ الالقاب التي تتحكم بها حالته من قوة او ضعف وانجازاته واطوار معاصريه من الملوك فعندما وحد لوغال زاكيزي غالبية جنوبي العراق اتخذ الالقاب المناسبة وهي ملك البلاد ، ملك الوركاء وملك اور ووكيل الاقطار . واتخذ سرجون الاكدي الذي وحد البلاد الالقاب : ملك سومر ، ملك العالم وملك الجهات الأربع . وكان اللقب الاخير خاصا ببعض الآلهة العظام مما يدل على اعلان سرجون نفسه ممثلاً للآلهة على الارض واتخاذ هذه الالقاب يشير الى عدم خشيته من منافس . والغريب انه اطلق على نفسه تسمية الاخ المتقدم للآله نابو . واتخذ اورنمو لقباً جديداً هو ملك سومر واكد الى جانب اللقب السابق ملك الجهات الأربع . وفي الوقت الذي حمل ملوك سلالة ايسن لقب ملك سومر واكد كان منافسوه في سلالة لارسة يحملون ذات اللقب مما يفسر تنافسهم . وحمل قسم من ملوك ايسن ايضاً لقب (ملك اور) الذي حمله ايضاً بعض ملوك لارسة . كما يظهر ان اتخاذ لقب ملك كيش كان دليلاً على السيطرة والسيادة على كل سومر . واستعمل الملوك الكشيون بصورة عامة نفس الالقاب التي استعملها ملوك العراق الاسبقون فاتخذوا الالقاب : ملك بابل والملك القوي وملك سومر واكد و اضافوا لها ملك الكشيين وملك كاردونياش . وقد تعني الاخيرة القطر البحري او مضافاً اليه بلاد بابل .

لقب ملوك آشور الاوائل انفسهم بأنسي بعل وكاهن آشور ، و اضاف اليها شلمنصر الاول ملك الكل الذي يوازي اللقب البابلي ملك العالم . وبدأت القاب الملوك الآشوريين بالتكامل زمن توكلتي ننورتا الاول فتلقب بملك العالم وملك بلاد آشور والملك القوي وملك الجهات الأربع . وقد يهمل ملك عند مراسلته لملك دولة أخرى الالقاب التي اتخذها الاخير . فلما اعلن نبو دايانو نفسه ملكاً متحدياً الملك الآشوري آشور نراري

الثالث خاطب الملك البابلي الاثنيين بملكي بلاد آشور فقط دون أية القاب .
وعلى الملك ان يكون مستعداً للدفاع عن الابعاد التي ينطوي عليها اللقب
الذي يتخذه ولتحدي الملوك المعاصرين له . فالقاب ملك العالم وملك الجهات
الاربعة تتضمن تحدياً للملوك الآخرين دون شك .

ولاية العهد

كانت الملكية في العراق القديم وراثية حيث يخلف الملك احد اولاده
وخاصة البكر وقد يخلف الملك الحاكم اخاه فأى أقاتم لم يكن ولداً للملك
الذي سبقه بل اخا له . ولاسباب قد لا يعين الملك ولده البكر او ان يغير
رأيه خلال حياته . فسنحاريب كان قد عين ابنه البكر خليفة له ثم عدل
عن رأيه السابق ونصب ابنه الاصغر . وفي اختيار ولي العهد يستشير
الملك عادة الآلهة ويستحصل موافقتها عن طريق الكهنة . وقد تبين الآلهة
رغبتها في شخص ولي العهد بالاحلام او الفؤول او بعلامات سماوية او ارضية
يفسرها الكهنة . ووصف لنا اسرحدون كيفية اختياره ولاية العهد (كنت
الاصغر بين اخوتي البالغين ولكن والدي عظمي في مجلس اخواني نزولا
عند ارادة الآلهة قائلاً هذا هو خليفتي واستشار شمس وادد بواسطة الوحي
وكان جوابهم له متفقاً انه هو الذي يلزم ان يخلفك ولتكريم هذا الاعلان
الهام استدعى كل اهل آشور صغاراً وكباراً وكذلك اخوتي الذين ولدوا
في البيت الابوي . وامام الآلهة جعلهم يقسمون على احترام اولويتي وبشهر نيسان
وفي يوم صالح منه بناء على ارادة الآلهة القوية دخلت بيت ولاية العهد بسرور)
وقد تم التنقيب مؤخراً في بيت ولاية العهد عند موقع شريف خان قرب
نينوى (تريسو قديماً) حيث عاش وتدرّب ولي العهد آشور بانيال على
ادارة الدولة . فكان الملك يقيم احتفالاً فخماً يدعو اليه كافة رجال الدولة
والقادة العسكريين والامراء والنبلاء لمبايعة ولي العهد .

وبعد ان يقسم الحاضرون يمين الولاء له ينتقل ولي العهد من بيت والده للإقامة في بيت ولاية العهد حيث تبدأ فترة تدريبه على الحكم • وعهدت تربية آشور بانينال الى مربين وحصل على تدريب عسكري وثقافة عامة وقد ناب عن والده وهو بعد وليّ للعهد في الكثير من الامور وقام بمهام رسمية واشرف على اعياد دينية • ولم يكن تقسيم اسرحدون لولاية العهد بين اولاده عادلا • فقد أوصى لآشور بانينال بالحكم على كل الدولة الآشورية ولاولاده من بعده في وقت عين ابنه الاكبر شمش شموكين ملكا من غالبية المدن البابلية فقط ويخلفه عند موته ابن آخر لاسرحدون لا اولاده الشرعيون • وخصصت مواد كثيرة في المعاهدة بين اسرحدون وحاكمه في ميديا لموضوع ضمان صعود اولاد اسرحدون العرش الآشوري بعد وفاته • وقاد نبوخذنصر الثاني وهو بعد ولي عهد الحملات الهامة نيابة عن ابيه والتي كانت انتصاراته فيها سببا في شهرته • وقاب بيلشصر عن والده الملك فابونائيد عند غياب الاخير في تيماء ومارس جميع سلطات والده •

التتويج

يظهر انه حال الانتهاء من دفن الملك المتوفى واكتمال الطقوس الدينية الخاصة بذلك يباشر بمراسيم تتويج ولي عهده • ولدنا من قصر مدينة ماري صورة تتويج ملك (ربما زمري ليم) نراه فيها يلبس الشعارات التي تقدمها له الالهة عشتار في احتفال يحضره عدد من الآلهة وتحمل الالهة بيدها اليسرى سيفاً وباليمينى عصا وحلقة • وقد وصلنا تفصيل بتتويج الملك الآشوري الذي يتم بأشور على الاغلب حيث يدفن الملك السابق ويحمل عرش الملك الجديد على اكتاف الرجال بموكب حافل وهو جالس عليه وامامه كاهن يضرب بالطبل وينادي (آشور هو الملك) مرتين ثم يذهب الملك الجديد الى معبد آشور فيدخل مزاره مقبلا الارض ويحرق البخور ثم يرتقي منصة مرتفعة وضعت

في نهاية المعبد قرب تمثال الآله آشور • ويبدأ الكاهن بتهيئة دكة قرابين
الآله آشور ويقوم كهنة آخرون بأعداد مناضد الآلهة الآخرين • ويقدم
الملك طاسة ذهبية مملوءة بالزيت ومقداراً من الفضة وثوباً مطرزاً غالي
الثلث • ويركع أمام الآله آشور ويمسحه الكاهن الأعلى ثم يتوجه
بشارات الملك وهي تاج آشور وصولجان نليل ويردد خلال
ذلك دعاء يبارك فيه الملك ويدعو له بطول العمر ورعاية الآلهة ورضاهما •
وبعد أن يتم الكاهن دعاءه يصلي الحاضرون من الأمراء والقواد والوجهاء
وبهذا ينتهي الوجه الديني من مراسيم التتويج • ثم يذهب الملك الجديد
إلى قصره الملكي بموكب حافل حيث يكون بانتظاره هناك كافة رجال
الدولة والوجهاء وقد اصطفوا خالعين علاماتهم واضعين أيادها أمام الملك
دلالة على انتهاء مدة خدمتهم بالدولة وجلب كل منهم هدية لائحة للملك
بهذه المناسبة فأنشاء أبقائهم في مناصبهم وأن رغب عنهم عزلهم • ويظهر أن
الملك الجديد يتخلى عن اسمه السابق ويعطى اسماً جديداً • ومن الصعب
أن نعرف الآن أي من أسماء الملوك الأولى عدا اثنين فقط • وبالوقت
الذي يتوج فيه الملك الآشوري مرة واحدة في بداية حكمه فإن تتويجه
في بابل يجدد في كل عيد رأس سنة • ويعتبر اليوم الخامس من احتفالات
عيد رأس السنة يوم تولية الملك فيقصد الملك معبد مردوخ ببابل ذلك اليوم
ويدخل مزاره بصحبة الكهنة ثم يقف وحيداً فيخرج له الكاهن الأعلى من
قدس الأقداس ويتنزع منه الصولجان والتاج وشارات الملك ويضعها على
منضدة أمام الآله مردوخ ثم يرجع ويلطم الملك على وجهه ويأمره
بالسجود أمام الآله وتلاوة الاعتراف بقيامه بالتزاماته تجاه مردوخ ومزاره
وبابل • ثم يجيبه الكاهن باستجابة الآله لدعائه والتزامه جانبه ضد أعدائه
وخصومه • وبعد ذلك يرجع الكاهن الأعلى للملك الصولجان والتاج وشارات
الملك ويلطمه ثانية • وخلال فترة وجود الملك في الهيكل يكون الناس

خارج المعبد في خوف وهلع لانهم يعتقدون ان الملك اسير في العالم السفلي وكون البلاد بلا ملك يجعلها برأيهم عرضة لقوى الشرور وقتك الطبيعة .

الدولة والنظام الاداري

كان جنوبي العراق خلال العصر السومري القديم مقسما الى عدة دويلات مدن ،وصلتنا منها اسماء ثلاث عشرة مدينة فرضتها طبيعة البلاد ذات المستقرات المحاطة بالانهار والجداول والمفصولة عن بعضها بالاهوار والمكتفية بنفسها ذاتيا . وكانت كل مدينة دولة قائمة بذاتها تتألف من مدينة وبضع قرى باراضيها الزراعية وبساتينها . وقدرت مساحة دويلة لكش بحوالي ١٨٠٠ ميل مربع وبعدد سكان لا يزيد عن ٣٥ الف نسمة . وكانت هناك مدن في اجزاء اخرى من العراق كمنطقة ديبالي وآشور . وربما كانت الوحدة السومرية خلال عصر جمدة نصر على شكل اتحاد قبلي تتركز طاعته لسلطة نفر الكهنوتية . وربما كانت الدولة التي ظهرت فيما بعد على شكل جماعات قوية متحدة مثل دولة مدينة اوروك التي كانت تتألف من منطقتين ، ولكش التي كانت تتألف من اربع مناطق .

كان الحكم في الدولة السومرية استشاريا وطبقت بعض المدن النظام الديمقراطي حيث تركزت السلطة الحقيقية في مجلس المواطنين العام (دائرة الشعب) الذي يتألف من مجلسين يضم الاول المسنين والمتنفذين من كبار رجال الاسر والعشائر ويضم الثاني الشباب القادرين على حمل السلاح . وينظر المجلسان بالقضايا الهامة كاعلان الحرب وتنفيذ عقوبة الاعدام والنظر في الدعاوى المهمة ولما شرع كلكامش في سفرته نقل صلاحياته الى مجلس المسنين وكان صعود اورواينغمينا (اوراكاينا) الى عرش لكش نتيجة خلع دائرة الشعب للملك السابق وانتخابهم له . وللمواطن حق النقاش ويظهر من قصة انذار

أگّا ملك كيش لگگامش بان سلطات الملك كانت محددة • فلما تسلم
گگامش انذار أگّا عرضه على مجلس مدينته ولم يرفضه الا بعد موافقة
مجلس الشباب القادرين على حمل السلاح رغم معارضة مجلس المسنين
للحرب •

صور بعض الباحثين المدن السومرية في صراع متواصل بينها على
الاراضي والماء ، ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فيما عدا الحروب بين
مدينتي اومّا ولگش اللتين نقرأ في نص عن علاقات صداقة بينهما • وفي
نهاية العصر السومري القديم ظهرت فكرة الدولة الموحدة للجنوب عندما
ضم لوگال زاگيزي غالبية جنوب العراق لدولته ولكنه سرعان ما خسر
الجولة أمام سرجون الأكدي الذي وحد البلاد • ولى في العصر الأكدي
المركزية التامة بالدولة حيث ظهر ان حاشية القصر وموظفيه قد ازدادوا كثيرا
نظرا لتوسع الدولة وزيادة مسؤولياتها • فذكر سرجون بأنه يطعم ٥٤٠٠
شخص على مائدته كل يوم مما يدل على كثرة موظفي قصره • كما عمل
على تقليص نفوذ الحكام مخافة تعاضلهم وبالتالي تهديدهم الحكومة
المركزية •

شكلت سلالة اور الثالثة منذ بدايتها إمبراطورية بكل معنى الكلمة
ادبرت بإحكام ، وأولى الملوك بعض المقاطعات اهتماما خاصا لأهميتها •
ومن أجل تنفيذ مشاريع الدولة الكثيرة في التوسع والاعمار طبق شولگي
منذ سنة حكمه الواحدة والعشرين سياسة جديدة لزيادة دخل الدولة
لتمكينها من المضي قدما في خططها فسيطرت الدولة فيها على موارد الاتاج
وصارت به المالكة للاراضي والمحكرة لها وللصناعات الى جانب المعابد •

ويقف على رأس الدولة الملك ، واتسع جهاز الدولة منذ حكم شولگي
واستلزم الكثير من الموظفين في شتى المرافق كالكتابة ومديري المعامل
الخاصة بالمعابد والقصور ومديري املاك التاج وحكام الاقاليم الخ وفي

مقاطعات هامة كميلام وآشور واشنونة تمتع الحكام باستقلال تام تقريباً بينما كان حكام المقاطعات الأخرى مرتبطين بالملك ويوزورهم المفتشون الملكيون . وتصل الى الملك التقارير عنهم من مراسليه وكما نعرف الآن بدأت سلالة اور الثالثة سياسة التزاوج الدبلوماسي مع حكام المناطق المجاورة فأورنمو كان متزوجاً من ابنة ملك ماري وزوج خلفاؤه بناتهم لحكام المنطقة الجبلية . ورغم ان هذه السياسة لها تأثيرها في تقليل ثورات الحكام الا انها لم تمنع بعضهم من شح السلاخ ضد الدولة . وسار بعض ملوك سلالة — لارسا واشنونا على هذا النهج .

ومن عهد سلالة بابل الأولى نسمع لأول مرة عن اشراك ملك هو ساييوم لابنه معه في الحكم للتدرب على الإدارة . واتبع حمورابي نظاماً مركزياً ، وربط جميع حكامه به وحدد صلاحياتهم بقضايا بسيطة . وصارت كلمة انسي تطلق على الموظف الذي يستمد اوامره ليس من الملك بل من موظف يأتي بعد الملك بالمركز . وترينا الرسائل التي وصلت من عهد حمورابي حرصه على حصر السلطة في شخصه وان يستمد حكامه اوامره منه رأساً . ونقرأ في النصوص عن موظفين متنوعي التخصص فهناك الرايانونوم (مدير مجلس المسنين) وحكام المقاطعات وجابي الضرائب ومسؤولو المدن والمشفون على الاملاك الملكية ومساعدوهم والمسؤولون عن عبيد الدولة ثم مسؤول الشرطة ورسول الملك في الامور الخاصة ومدير الرسوم ومسؤول التجار . وهناك موظفون آخرون اقل مرتبة . ولتسهيل ادارة الدولة اهتم حمورابي بنظام ارسال الرسائل السريع لما في ذلك من فائدة جلية في ربط اجزاء البلاد وايصال اوامره بالسرعة . ونقل الرسائل المراسلون الذين كانوا يتوقعون في محطات

معينة • ويحملها المراسلون مختومة ويفضها كاتم سر الملك الذي يتلو على سيده محتواها ويدون جواب الملك الذي يرسل على الفور •

لقد تعاضمت سلطة الملك في العصر البابلي القديم وانفصلت عن سلطة المعبد وكشفت الحفريات قصورا فخمة كقصر زمري ليم في ماري والذي مساحته ٦٥×٤٥ مترا (حوالي سبعة ايكرات) وهو بناء ضخيم ببنائية مركزية وشقق وغرف استقبال ودوائر وورشات عمل ومخازن ، محاط بسور سمك جداره الخارجي ٤ • قدما ذي ابراج دفاعية • ثم قصر حكام اشنونة في تل اسمر وقصر سين كاشيد في الوركاء • وصارت القصور الان اكثر ضخامة وابهة وسعة من المعابد التي اكتشفت من هذه الفترة • وترينا الرسائل التي اكتشفت في قصر ملوك ماري قوة الملك وهيمنته وكثرة موظفيه ومن بينهم المغنيات وكان شمسي أدد الاول الملك الآشوري على رأس دولة قوية مركزية الادارة •

يظهر ان معارضة السلطة كانت خلال هذه الفترة جريمة كبرى فنصت المادة ١٠٩ من شريعة حمورابي على اعدام صاحبة حانة الخمر التي لم تخبر باجتماع المتآمرين على الدولة في حائتها ولم تلق القبض عليهم • ونقرأ في نصوص فال من هذا العصر ما يلي (وريث للملك سوف يقتل والده ويجلس على العرش) و (الوزير سوف يجلس على عرش سيده) و (ووجه سوف يقتل الملك) و (الملك سوف يطرد ولكنه سوف يصبح قويا مرة ثانية في البلاد) الخ والتي تدل على قلق الملوك وكثرة ما حدث من حركات خلع وتآمر عليهم • واستمرت المجالس السابقة فكان بكل مدينة مجلس لمواطنيها متكون من رجال البلدة ، ولم تكن النساء ممثلة فيه حسب ما يظهر ويقضي بالمسائل القضائية وله حق الحكم بالموت •

ولم يردنا الكثير من اسماء ملكات هذه الفترة ويظهر ان زوجة سنن كاشيد ابنة الملك البابلي كانت مؤثرة في سياسة بلديتها اوروك ثم شيبتو

زوجة زمري ليم التي تصورها لنا رسائلها ذات تأثير كبير على ماري وقوتها
متأنية ربما من كونها ابنة ملك حلب * ونعرف ان اخت حمورابي كانت
تعمل بالتجارة ولها ممتلكات *

تؤكد بعض الوثائق الادارية من الفترة الكشية خاصة كتابات احجار
الحدود كون البلاد موحدة بيد الملك منذ استرجاع القطر البحري * واستمر
الجهاز الاداري دون تبديل بين الفترة الكشية وسلالة ايسن الثانية فكانت
البلاد مقسمة الى عشرين مقاطعة في الاقل كل منها بحكومة محلية
مسؤولة امام الملك في بابل * وسميت كل مقاطعة باسم المدينة الرئيسية فيها
مثل بابل ، ايسن ، نفر او على اسم القبائل التي تقطن تلك الاراضي مثل
بيت سن ماغير وكان حاكم المقاطعة يعين من قبل الملك ويلحق
به موظفون اقل مرتبة مسؤولون عن القانون والنظام وجمع الضرائب
وإدارة الاعمال العامة وخاصة الارواء * وكان رؤساء القبائل في المناطق
الاكثر بعدا خاصة عند الحدود الجنوبية يخضعون اسما للملك ويتمتعون
بشبه استقلال * واستمر الملك بصفته السلطة العليا النهائية والمرجع
القضائي الاعلى الذي لا اعتراض على احكامه * ويمنح الملك الاراضي
الملكية كمكافأة للخدمة المتميزة في الحروب او للموظفين الكفوئين *

ويظهر ان النظام الاداري لم يبق نفسه خلال الادوار التاريخية المختلفة
فخلال فترة السيطرة الآشورية على بلاد بابل (٧٤٥ - ٦٢٣ ق م) كانت
الاخيرة مقسمة الى خمس عشرة مقاطعة منها بابل ، بورسبيا وسبار الخ *
وصار للدلون (البحرين) واريدو ادارة واحدة * ويظهر ان هذه المقاطعات
كانت وحدات مستقلة لها حكوماتها المرتبطة بالملك مباشرة * وكان الشاكين

هو مسؤول المقاطعة ويعينه الملك ويصدر اليه اوامره مباشرة ويتمكن الملك من عزله ونقله • وعمله تطبيق اوامر الملك والحفاظ على الامن والتوقيع على معاملات انتقال الاراضي ، ثم مسؤول المدينة • اما البيتو فهي المنطقة التي تسكنها عشيرة معينة يديرها رئيس المنطقة (الراب آلي) ، وهناك رأس مجموعة من البيوت ربما مسؤول عن بضع رؤساء بيوت لمنطقة معينة • وهناك قرى بادارة موظفين وهم مسؤولون امام رئيس المدن (الراب آلاني) • وتعرض وثيقة من سبار معلومات عن موظفي البلاط البابلي آنذاك منهم الوزير (السوكتال) وهو موظف مدني كبير يشرف على جهاز الحكومة وهناك كاتب القصر ورئيس الكتاب وربما يسجل الاخير ملكيات الاراضي ، وحمى تجلاتبليزر الثالث امتيازات بابل ، وتكلم سرجون الآشوري عن حقوق مماثلة في آشور ويشير بانها معترف بها منذ مدة طويلة قبله • وتظهر حرية بابل واضحة في كتابه لاسرحدون ، فمواطنو بابل ذوو واجبات محددة ورجال تحت حماية الآلهة انوومردوخ ولهم حقوق متميزة • وقد ارجع اسرحدون لهم حريتهم التي الفاها على ما يظهر والده سنحاريب وكتب لهم كتاب لوح الحرية في وقت كانت به ادارة مدينة اوروك مرتبطة رأسا بالعاصمة الآشورية وذلك نظرا لاهميتها بصفتها اكبر مدينة قريبة من الحدود العيلامية ولحركات القبائل وشؤونها الخاصة بالقنوات وتجهيزات الجبوب •

وصار القصر الملكي زمن نبوخذنصر مركز الدولة السياسي والاداري حيث تصدر الاحكام والقرارات وتقام الحفلات الرسمية ويستقبل الملك الوفود • ويضم القصر مرافق عدة منها دار للعدالة ودوائر لكبار

موظفي البلاط والاقبل درجات منهم • وكانت مساحة القصر الجنوبي ٥١
الف متر مربع وجوى مائتي مرفق وخمس ساحات كبيرة حول كل ساحة
عدد من الغرف المختلفة الحجم •

واشارت وثيقة من هذا العصر الى انواع الموظفين ، منهم رجال البلاط
الكبار مثل ساقى البلاط وكبير الموسيقيين وبواب القصر الذي ينظم دخول
وخروج الوافدين الى الملك ورئيس الخبازين وكاتب بيت الملكة ومسؤول
نساء القصر ورئيس مجموعة الدروع او قائد المائة ، وقائد مجموعة القوات
الخاصة ورئيس المهندسين والمشرف على الشرطة ومراسل ولي العهد
ومسؤول قطعان الماشية الملكية • ويظهر ان بلاد بابل قد قسمت ايام
السلالة الكلدية الى ثلاث وعشرين وحدة ادارية يدير كلا منها موظف
مسؤول للملك رأسا وفي مقدمة حكام المقاطعات كان الخاص بالقطر البحري
ثم لارسة الخ ثم الموظفون ذوو العلاقة بجمع الضرائب من المدن والمقاطعات
البابلية •

كان الملك في بلاد آشور هو رأس الحكومة المركزية يديرها من قصره
بالعاصمة وقد يتخذ نفس الملك اكثر من عاصمة واحدة مثل شمشي ادد
الاول الذي اتخذ من شوبات انليل وآشور وايكلا تم عواصم له • وللملك
حكامه في المقاطعات الذين يبعثون اليه بما يتجمع عندهم من الضرائب وتقع
على كواهلهم مسؤوليات حفظ الامن وتوزيع اسرى الحرب • وهم مسؤولون
امام الملك مباشرة وهناك مبعوثون يحملون رسائله •

ان ما نعرفه عن الادارة الآشورية لقليل فالالقاب التي يحملها
الموظفون الاعلون لا تطابق على الدوام ممارساتهم لان الواجبات لم تكن
ثابتة التحديد ويمكن معرفتها من الوظائف التي يمارسها ذلك الموظف •

فوظائف الدولة غير محددة وتظهر مرونة ومطاطية سواء بتحديد المسؤوليات او السلطة . وليست هناك وظائف وراثية رغم وجود بعض الاتجاهات نحو ذلك . وكانت واجبات مختلف طبقات الكهنة والسحرة والعرافين في البداية دينية صرفة ولكنهم مارسوا بعد ذلك وظائف اخرى ، وجميع الوظائف هي تعيينات ملكية وكان يطلب من حكام المقاطعات قيادة الجيوش لمحافظة مقاطعته او القيام بحملات تأديبية . وكان حاكم المقاطعة يخشى بطش الملك ان هو استمع للشكاوى التي ترفع ضده اليه ونعرف ان ييل ابني حاكم القطر البحري كان خائفا من غضب آشور بانيبال لما وصلته من تقارير ضده .

وعلى اي موظف ان يرفع تقريره رأساً الى الملك عما رأى وسمع مما يعتقد به مهما للادارة . وبعد الملك يأتي التورتان الذي يوازي رئيس الوزراء في الحكومات الحديثة وكان في العصور الاولى هو رئيس اركان الجيش الذي يقود الحملات بدلا عن الملك وهو حاكم حران . وعندما صار التورتان قويا وبمناية اول شخص للدولة بعد الملك اخذ مكانه السابق الراب شاقبي (معناه كبير السقاة) وفي اثباتات اسماء الموظفين الذين يرعون احتفالات رأس السنة وتسمى السنة بأسمهم (اللمو) كان الملك والتورتان يتبعهما وكيل المؤونة (الراب بايري) وحاجب القصر (الناغر ايكالي) ثم الاباراكو (من موظفي القصر) ثم رئيس الطباخين فالشرف على القصر . ووصلتنا قائمة بما يقبضه كبار موظفي العصر الآشوري المتأخر من فضة وحلل ابتداء من التورتان والراب شاقبي ورئيس القضاء (السارتيانو) والوزير (السوكال) ورئيس السقاة وحاجب القصر ، ومفتش القصر واكثرهم مرتبا كان التورتان ثم الراب شاقبي والفرق حتى بين مخصصات الاول والثاني كبيرة .

وكان مسؤولو المدينة الآشورية هم الخازانو (محافظ البلدة)

ومجلس المسنين ومدير البلدة (راب آلي) وكاتب المدينة والمراسل والحاجب . وكان محافظ البلدة مسؤولاً مهماً في المدينة وكان عددهم في بعض العواصم الاقليمية بين ٢-٣ . ويعين الملك مدراء المدينة للحد من سلطة الخازانو والمحافظة على المصالح الملكية . وكانت علاقة كاتب المدينة قوية بمدير المدينة ومحافظ البلدة ، ويحوز ثقتهم ويرتبط بكل منهما المراسل (الديلو) . وفي مدينة كالح كان هناك سيد المقاطعة (بيل بيخاتي) والحاكم (الشاكنو ، اوراسو) وظلت هاتان الوظيفتان منفصلتين وربما كانت في المقاطعات البعيدة بيد شخص واحد . ويظهر أن الحاكم كان هو الأكبر مركزاً والحاكم العسكري . وكان جميع الحكام الآشوريين يعينون من قبل الملك من الامراء وموظفي البلاط ويتم اختيار سيد المقاطعة عادة من طبقة الامراء في وقت كان يختار به الشاكنو من موظفي البلاط والموظف التالي في المقاطعة هو الرجل الثاني (اميلو شاني) ثم مدير المدن المسؤول عن بعض القرى والمدن . اما (الراب كارماني) فمسؤول عن جمع الحبوب والتجهيزات وارسالها الى بلاد آشور وهو موظف عند الحاكم . ثم جامع الضرائب (الماكيسو) ويقع على مدير المدينة جمع الضرائب التي تدفع عنا وارسالها الى مخزن الحكومة المركزية . ويظهر ان الملك كان يحاط علماً بكل صغيرة وكبيرة حول اعمالهم اليومية . فمرة ارسل الملك مبعوثاً الى بلاد بابل للتحري في نقص وقضايا اخرى تبعث للريبة واخبر المبعوث الملك بصعوبة نقل الحبوب الى مدينة سبار (ربما حيث مخزن الدولة) قبل ان تظهر القناة المحلية التي يتم العمل بسرعة على تطهيرها . وعلى مدير المدينة الحفاظ على الامن في منطقته واحياناً تعهد اليه قيادة جيوش لمواجهة الهجمات عبر الحدود . وتتم الاتصالات جميعاً مع الحكومة المركزية بواسطة مراسلين يسرون في طرق الدولة وعلى طول الطرق وعبر الامبراطورية . وهناك مراكز عند كل مسيرة يوم واحد (حوالي ٢٠-٣٠

ميلا) ترابط بها حامية ويتم بها تبديل الحيوانات التي يستعملها المراسلون حتى المرحلة التالية ويسير المراسلون رغم ظروف الجو واذا تعذر سير العربات فيذهب المراسل سيرا .

وكان في كل مقاطعة آشورية بين ٣-٢ من موظفي الموشاركيسو والاقبل منهم مركزا الراب كالابي ومهمة الاثنين التنقل بين القرى ودوائر الدولة ويظهر أنهم مسؤولون عن جمع الخيل من المقاطعات وارسالها الى الحكومة المركزية . وكانت المنطقة الادارية التي في عهدة الحاكم مقسمة الى قطعات تابعة له عرفت باصطلاحات خاصة . وكان الحاكم يشرف على اعمال التجنيد وكان المجندون من الرجال يقسمون الى نصفين يذهب الاول للعمل والاخر للخدمة في الجيش . وهناك نص يمنع كبار الموظفين في المدينة من الذهاب الى بيوت الناس لاختذهم الى الاعمال الرسمية أو ذات النفع العام ، بل باعلان المنادى مما يدل على كونها اختيارية بمحض ارادة الشخص .

ومن موظفي البلاط كان رئيس القصر (شاوخي ايكللي) وكاتب القصر (الطوبشار ايكللي) وحرس الامراء او المقربون (القوروبوتي) ويرسلهم الملك يضا للتحري فيما يصل اليه من شكاوي عن موظفي الدولة الكبار . ثم سواق عربات الامراء وطواشية البلاط وسواق عربات وحدات الجيش وعربات الملك الخاصة واصطبلات الملك ويتلو هؤلاء حملة الاعلام ورجال الصولجان والوحدات التي ترافق الطواشية والمرتبطة مع اصحاب البريد . ثم العاملون في مختلف مصنوعات القصر كالمنسوجات والمفروشات والخياطة والحلويات ثم الاطباء والعرافون والمنجمون والموسيقيون ولكل من هؤلاء رئيسهم مثل رئيس طبياخي اللحم (الناكيسو) ورئيس الخبازين . وهناك مسؤولون عن كلاب صيد الملك ومطعمي طيوره . والى جانب هؤلاء حوى القصر موظفين آخرين كالنساجين والفلكيين ومراقبي القنوات

وموظفي التجنيد • علما ان الملك كان له حرسه الخاص (الموتيرپوتسي)
من المؤتمنين جدا ويحافظون على مصالح الملك ، ولوامره ويلبون ما يأمر به
على الفور وقد يرسلهم بمهمات •

كانت المقاطعات الآشورية تختلف تبعا لدرجة حاكمها • فالمقاطعة التي
كانت في عهدة التورتان يقع مركزها عند تل بارسيب او حران عند الحدود
الشمالية الغربية • والى الشرق منها المقاطعة التي في عهدة الرب شاقبي
والتي ربما يقع مركزها عند مدينة شايبيريشا • والى الشرق منها المقاطعة
التي في عهده مهيه زيت المسح والى الشمال المقاطعة التي يشرف عليها
حاجب القصر • ومنذ عهد آشور ناصربال الثاني كان العمل الاداري في
المقاطعات الآشورية وفق مبادئ محددة • وكان عصر أدد نراري الثالث
عهد تنظيم اداري كبير للمقاطعات حيث اضيف ما لا يقل عن احدى عشرة
مقاطعة جديدة • وكان الاصلاح الجذري زمن تجلات بيليزر الثالث الذي
قسم المقاطعات الكبيرة الى عدد من المقاطعات الصغرى لتسهيل حكمها
وادارتها ، فقسمت مقاطعة آشور الى مقاطعتي آشور وايكالاته • وكانت
حكومة المقاطعة صورة مصغرة للحكومة المركزية • وان اهتمام الدولة
بالمقاطعات تؤكد الرسائل والوثائق وقوائم الاحصاءات من حران •

هناك مقاطعات كانت تدفع الجزية الى الملك الآشوري مقابل حماية
الآشوريين لهم ويعتبر امتناعها عن دفع الجزية عملا عدائيا بالنسبة للدولة
الآشورية • واحيانا كانت آشور تتدخل في شؤون هذه الدولة التابعة
لاحلال حاكم موال لهم محل آخر لا يرتضونه او ان تقوم ثورة وينصب
بدله اخر موال للآشوريين من افراد عائلته • وعليه ان يقسم يمين الولاء

لآشور بالآلهة العظام • ويترك الملك الآشوري في ولايته قوة عسكرية صغيرة لضمان دفع الجزية وبذلك فإن أي عصيان من قبلها يعتبر نكثاً للقسم الذي قطعه للآلهة وثورة على الآلهة آشور • ويضع الملك الآشوري في بلاط حاكم هذه المقاطعة موظفاً آشورياً (الزايل كودوري) يشرف على دفع الجزية والايفاء بالالتزامات •

علاقات الدولة الخارجية

تلقي النصوص السومرية - الاكدية منذ العصر السومري القديم اضاءاً على العلاقات الخارجية فقد توسط ميسليم ملك كيش لحل النزاع بين مدينتي اوامًا ولگش ورسم خط الحدود بين الدولتين المتنازعتين • وصورت الوساطة الهية امر بها الآلهة انليل ملك البلدان الذي اوعز الى اله كيش بالتوسط لعقد الصلح بين الهي لگش واوامًا وهذا هو اول اتفاق صلح نعرفه الآن عقد بين دولتين • وقد استنتج من الملحمة السومرية المعروفة بملحمة انمركار وسيند أرتا وجود علاقة بين انمركار ملك اوروك وحاكم ارتا بايران (ربما قرب ديزفول الحالية) ربما نظمتها معاهدة لم تصل إلينا وكان حاكماً فيها تابعاً لملك اوروك يدفع له بموجبها جزية سنوية • فاذا كان هذا الافتراض صحيحاً فتكون هذه اول معاهدة نعرفها بين دولتين •

واول معاهدة واضحة نعرفها حالياً هي الاتفاقية التي عقدت بين نرام سن حفيد سرجون الاكدي مع ملك اوان في عيلام بايران قد يكون اسمه خيان • وقد اعتبر ملك اوان نفسه في هذه المعاهدة عدواً لمن يعادي نرام سن وصديقاً لكل صديق له • ولم يذكر نرام سن مثل ذلك بالنسبة لملك

أوان الامر الذي يؤكد تبعية ملك اوان للملك العراقي وبذلك تقع حماية
الاول على الثاني •

تعطينا رسائل ماري صورة واضحة عن العلاقات الدولية خلال العصر
البابلي القديم نعرف منها عن معاهدات عقدت بين الدول آنذاك • وكانت
المعاهدات محترمة ويطلق على نصها المدون اسم وثيقة حياة الآلهة وهناك
اشارة في احدى الرسائل الى معاهدة بين حمورابي وزمري ليم ملك
ماري •

وتتضمن رسالة اخرى اقتراحا لريم سن ملك لارسة على حمورابي
لعقد معاهدة دفاعية هجومية بينهما • وتخبرنا بعض العبارات في الرسائل
عن الطقس الاساسي الذي يتم عمله عند عقد معاهدة بين طرفين مثل مسك
الحجارة وذبح حمار او مسك اداة ربما تكون صولجاناً او مسك حافة
الثوب وعرفت المعاهدة باللفظة سلام وعبر عن رفض دولة لعقد اتفاقية
مع دولة اخرى بالاصطلاح ضرب اليد •

وتدون اسماء آلهة الطرفين المتعاقدين على نصوص المعاهدة كشهود
على الاتفاق وتختتم بذبح اضحية • وهناك أحلاف بين طرفين او اكثر وتقرأ
عن وجود ممثلين دبلوماسيين في بلاط الملوك ، فزمري ليم كان له ممثلون
في بلاط حمورابي • وكان على الملك التابع ان يقدم الولاء الى مليكه
الرئيسي ويرسل له جيوشاً عند حاجة الاخير لها • ويظهر ان التابع كان
يطلق على الملك الرئيسي كلمة الاب وعبر عن مثل هذه العلاقات
بابوة في وقت كان فيه الملوك الرئيسيون يخاطب احدهم الاخر بالاخ
وعبروا عن ارتباطاتهم باخوة •

وقد يحذف احد اطراف المعاهدة بندا من بنودها لم يكن ليرتضيه ربما يدعي للطرف الاخر كونه غير مدون بالنسخة التي لديه من المعاهدة • ففي رسالة من شمشي ادد الاول ملك آشور يذكر بها ان ملك اشنونة قد مسح مادة من مواد اتفاقيتهما • وكان مندوبون من كل طرف من المتعاقدين بالمعاهدة يرسلون احيانا لمناقشة تفاصيل مقترحات الخطوة الاولى فارسل زمري ليم مندوبين الى حمورابي لمناقشة المعاهدة التي كان العاهلان ينويان عقدها وقد اعترض حمورابي على بند من بنود الاتفاقية •

وربما يعمد الملوك الى استشارة الآلهة حول عقدهم اي اتفاق مع دولة خارجية • فرسالة تشير الى احتمال استشارة حمورابي كهنة الاله القمر حول ابرام المعاهدة • واخبر زمري ليم مرة مندوبيه بعدم الامتثال لشروط حمورابي • ويظهر ان ممثلي الدولتين المتفتحتين كانوا يعينون يوما خاصا لتوقيع المعاهدة • فقد أشار المندوبون في رسالة لتاريخ يوم معين مما يدل على ان هناك اتفاقا مسبقا على وجوب توقيع المعاهدة في ذلك اليوم •

ويتم القسم باله معين او بجمله آلهة ولذلك تكون مخالفة بنود المعاهدة ذنبا موجها الى ذلك الاله او الآلهة • واحيانا كانت تؤخذ الرهائن قبل عقد اية اتفاقية بين دولتين • وغالبا ما ترفق المعاهدة بزواج بين افراد من اسرتي الدولتين المتفتحتين المالكيتين • وكانت الاتفاقيات تشمل تسليم المجرمين • ففي رسالة من شمشي ادد الاول الى ولده حاكم ماري (وقت سيطرة الآشوريين على ماري) تبين ان للاول اتفاقا مع ملك بابل يتضمن شروطا بتسليم المجرمين • كما تشمل الاتفاقيات حماية كل ملك لقوافل الملك الثاني والدول التي هي في حلف معه عند مرورها في اراضيه •

ويظهر من الرسائل التي عثر عليها في موقع تل العمارنة في مصر وتعود للفترة بين حوالي ١٣٨٠-١٣٤٠ ق م عن دخول الملوك العراقيين خلال هذه المدة من بابليين وآشوريين وميتانيين في علاقات مع ملوك مصر والحيثيين . فنقرأ في رسالة عن معاهدة بين الملك البابلي وبين امنحوطب الثالث عاهل مصر وزفاف اميرة كشية الى الملك المصري . وكان لدى الاخير بذلك الوقت زوجات من العائلة المالكة الميتانية . وهناك معاهدة بين نفس الملك المصري والملك الميتاني وتشير رسالة الى حلف بين الملك المصري امنحوطب الرابع وملك بابل بورنابورياش الثاني . وتبادل جميع هؤلاء الملوك الرسائل التي ذكروا في بعضها الصداقة التي كانت تربط آباءهم وتبادلهم الهدايا كما يتبادلونها هم ايضاً .

واطلق كل ملك على الآخر كلمة أخ مما يدل على نظرة كل منهم للآخر كمساوي له . كما عقدت معاهدة بين الملكين الميتاني والحيثي دعمت بزواج الاول من ابنة الثاني .

وقد يسيء احد الملوك فهم رسالة تصله من ملك دولة اخرى فيكون بجوابه خشنا او قد يأمر من هو دونه مرتبة بالاجابة عليها اهانة . فقد اعتبرت رسالة الملك الحيثي حاتوشيليش الثالث الى الملك البابلي كدشمان النليل الثاني تدخلا منه في شئون بلاد بابل فاجابها وزيره نيابة عن الملك البابلي وجاء فيها (لم تخاطبنا كاخوان بل كعبيد خاضعين لك) . فاعتذر الملك الحيثي برسالة وجهها الى الملك البابلي وليس الى الوزير الذي بعث له بجواب رسالته الاولى مما يدل على كون ذلك امورا متعارفا عليها في العرف الدبلوماسي انذاك .

ان ما وصل اليه من المعاهدات الآشورية لقليل ومنها المعاهدة بين ملك شمشي ادد الخامس ومعاصره الملك البابلي التي اكدت على تخطيط الحدود بين الدولتين . وكان لآشور فيها اليد العليا وانتهت بقسم الطرفين بالهتمة ثم اتفاقية الملك آشور نراري الخامس وماتيلو ملك دويلة بيت اكوسي بالجزيرة الفراتية وقد وقع الاول نيابة عن ابنائه وشعبه وبلادهم وختمت المعاهدة بالقسم بالآلهة . ومن العصر الآشوري المتأخر كانت معاهدة اسرحدون مع ملك صور التي سمح بموجبها للاخيرة بزيادة جزيتها السنوية مقابل ضمه مدينتين قريبتين وتقبله مقيما آشوريا في عاصمته يراقب تنفيذ بنود المعاهدة كما تضمنت المعاهدة مواد تجارية . ثم معاهدة نفس الملك مع حاكم ميديا في غرب ايران من اجل ضمان العرش الآشوري لاولاده بعد وفاته واحترام هذا الحاكم لتعهداته في حماية آشور بانبيال واخوته . وقد فرض اسرحدون بموجبها على تابعه هذا القسم بالآله آشور الذي فرضه عليه (يجب ان تعبد الاله آشور كآله الهك الخاص) وتضمنت قائمة طويلة العقوبات التي يمكن ان يطبقها الملك الآشوري بحقه ان هو خالف بنود المعاهدة .

المصادر

- (١) د. سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، الجزء الاول، العراق حتى العصر الاكدي (بغداد ١٩٧٨) .
- (٢) د. سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، الجزء الثاني من العصر الاكدي حتى نهاية سلالة بابل الاولى (بغداد، ١٩٨٣) .
- (٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة القسم الاول، تاريخ العراق القديم (بغداد ١٩٥٥) .
- 4- George Contenau, Everyday Life in Assyria and Babylonia, (New York, 1966).
- 5- Henry Frankfort, The Birth of Civilization in the ancient Near East, (New York, 1965).
- 6- Mc Guire Gibson, The City and Area of Kish, (Field Research Project, Miami Beach, Florida, 1972).
- 7- Adam Falkenstein, Le cite Temple Sumerienne, cahiers de l' Histoire Mondiale, 1, (1954), pp. 787-796.
- 8- J.V. Kinnier Wilson, The Nimrud Wine Lists, A Study of Mend and Administration at the Assyrian Capital in the Eighth Century B.C. (London, 1972).
- 9- Samuel Noah Kramer, From the Tablets of Sumer, (Indian Hills, 1956).
- 10- Samuel Noah Kramer, Sumerian Similes, Journal of American Oriental Society, Vol. 89, (1969), pp. 1-10.
- 11- F. Krau, Sesam im Alten Mesopotamia, Journal of American Oriental, Vol. 88, (1968), pp. 112-119.
- 12- J. Lewy, Nuzi Feudal System, Orientalia, Vol. XI, (1942).

- 13- A.T. Olmstead, History of Assyria, (Chicago, 1923).
- 14- James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament, (Princeton, 1957).
- 15- Svend A. Pallis, The Antiquity of Iraq, (Copenhagen, 1956).
- 16- Georges Roux, Ancient Iraq, (Cleveland, 1965).
- 17- A.I. Tyumenev, The Working Personnel on the Estate of the Temple of Bau in Lagash during the period of Lugalbanda and Urukagina, in I.M. Diakonoff, Ancient Mesopotamia, (Moscow, 1969), pp. 88-125.
- 18- H. Frankfort, Kingship and the Gods, (Chicago, 1955).
- 19- L. Waterman, Royal Correspondence of the Assyrian Empire (Ann Arbor, 1936), Vol. 4.

الفصل الثاني

الحياة والسلام

د. فوزي رشيد

المؤسسة العامة للآثار والتراث - بغداد











نظرة سريعة في نشأة السلاح

من القوانين الطبيعية التي لا يستطيع الانسان تجاوزها على الاطلاق هو قانون التطور الذي ينص على ان كل ابتكار انساني لا بد وان يسبقه اولا ظهور الحاجة الملحة اليه ولا بد ايضا ان يعتمد في التاجه على مظهر من المظاهر الطبيعية او على صفة او سلوك بشري او حيواني ان كان ذلك الابتكار من الانتاجات الاولى في حياة الانسان * وفيما يخص حاجة الانسان الى السلاح فان صراعه المستمر مع الحيوانات المفترسة وغير المفترسة ومنافسة الجماعات البشرية لبعضها البعض على اماكن الصيد والرعي قد اوجد تلك الحاجة الى السلاح * واما المظهر الطبيعي او الانساني الذي اعتمدت عليه صناعة اقدم انواع الاسلحة فيمكننا ان نحدده بسهولة وذلك عند التعرف على شكل اقدم سلاح صنع الانسان في حياته *

وأثار عصور ما قبل التاريخ قد بينت لنا بصورة لا تقبل الشك ان
أقدم سلاح عرفه الانسان هو الفأس اليدوية التي كانت عبارة عن كتلة
حجرية مهذبة مربوطة على قطعة خشبية مأخوذة من اغصان الاشجار لا يزيد
طولها على طول ساعد الانسان والحقيقة ان اثار عصور ما قبل التاريخ لم
تقدم لنا اية معلومات اكيدة عن طول تلك القطعة الخشبية الا ان القانون
الفيزيائي الذي ينص على ان القوة في ذراعها تساوي المقاومة في ذراعها
يؤكد على ان طول تلك الخشبة لا يزيد كثيرا على طول الساعد مادامت
يد الانسان تمثل المقاومة والفأس وخشبته تمثلان القوة وهذا يعني ان شكلها
الخارجي كان لا يختلف عن شكل قبضة يد الانسان مع ساعدها او ساقه
مع قدمها ولذلك يمكننا التأكيد على ان الانسان في عصوره المبكرة قد
اعتمد في حماية نفسه على اسلحته الذاتية وقد اعتمد بالدرجة الاولى على
اليدين ومن ثم الرجلين والرأس في بعض الاحيان وذلك على غرار ماتفعله
الحيوانات عموما حيث انها ولاشك تعتمد على اسلحتها الذاتية فقط في
حماية نفسها واصطياد فرائسها .

هذا وبالرغم من توصل الانسان القديم عبر مراحل عصور ما قبل التاريخ
المختلفة الى ابتكار اسلحة متنوعة مثل الفؤوس والاقواس والسيوف والمقالع
اليدوية الا ان هذه الاسلحة لم تقلل من اهمية اليدين والرجلين في حماية
الانسان لنفسه . والناحية التي اكدت لنا هذه الحقيقة هي الاصطلاحات
العسكرية التي وردت في النصوص المسماة بالالف الثالث قبل الميلاد حيث
ن من بين الافعال السومرية التي تعبر عن دحر الجيش لقوات العدو هو
لفعل الذي يلفظ (خوب) ويعني « هزم العدو » وهذا الفعل كان
يكتب بالصورة التي تمثل اليد مع قبضتها او الساق مع قدمها (انظر الشكل ١) .

الشكل - ١

المراحل المتطورة لبنية العلاقات السيارية التي اكتسبها الطفل في الفصل ٥، فوب ٥، الذي يعني هُزَمَ الصدر				
الشكل الصهيوني	٢٠٠٠ - ٢٠٠٠	٢٠٠٠ - ٢٠٠٠	٢٠٠٠ - ٢٠٠٠	٢٠٠٠ - ٢٠٠٠
				
				

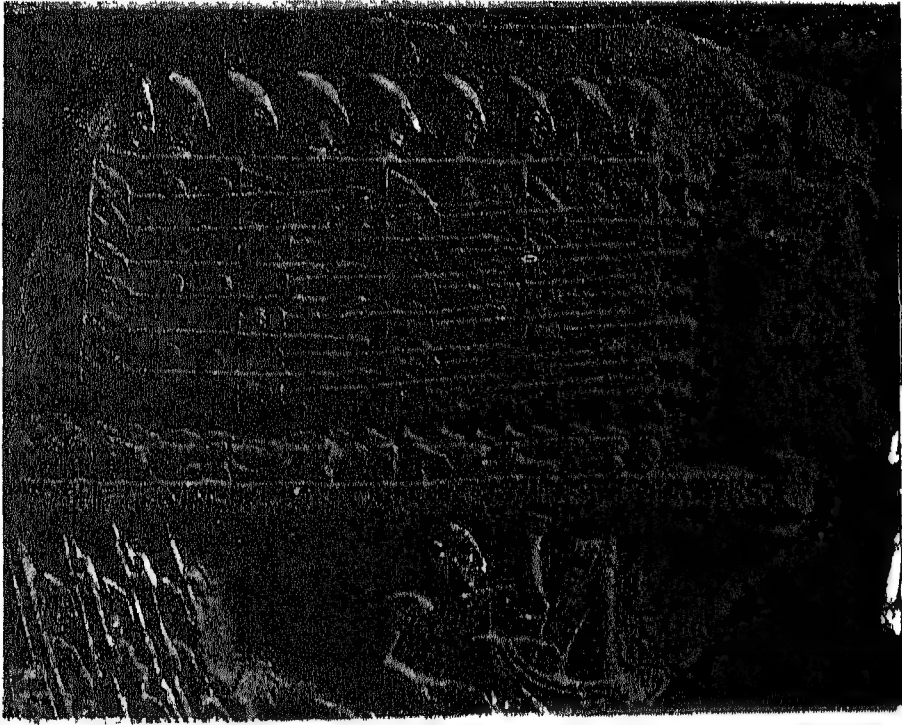
ما تقدم يمثل نظرة سريعة عن نشأة اقدم انواع الاسلحة التي ابتكرها
الانسان اضافة الى اسلحته الذاتية . وبالرغم من إشارتنا الى تعدد انواع
تلك الاسلحة وتحسن اشكالها عبر فترات عصور ما قبل التاريخ الا اننا
سوف لانتاقش موضوعها في هذا الفصل لانها تقع خارج حدود موضوعنا
المتمثل بالجيش والاسلح خلال العصور التاريخية علاوة على ان جميع تلك
الاسلحة قد استخدمت في العصور التاريخية ايضا ولكن بعد ان طرأ عليها
كثير من التحسينات .

الجيش والاسلح خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد

وقبل ان ندخل في صميم الموضوع نشير الى اننا نحن البشر نستطيع
ان نتصور بعض الاعمال لامن مشاهدتنا لها بل من النتائج التي خلفتها
ونستطيع ايضا ان نتعرف على الابطال المتميزين ايضا لامن معاشتنا لهم
بصورة مباشرة بل من نوعية الانجازات الجبارة التي تفذوها وكذلك الحال
مع الجيوش فأنا نستطيع ان نؤكد على عظمتها او على ضعفها من خلال
ماحققته او عاتته الدول التي كانت تحتمي بظل تلك الجيوش وعليه فان
حضارة عظيمة كالحضارة العراقية القديمة لا يمكن ان تزدهر وتبلغ القمة في
تطورها الا في ظل جيش عظيم وقادة شجعان .

وبالرغم من هذه البديهية فان المخلفات الاثرية والنصوص المسمارية
قد قدمت لنا الادلة الكافية على مكانة الجيش العراقي وعلى نظمته وأسلحته ،
ومن بين المخلفات الاثرية الكثيرة التي تعطينا تصورا واسعا عن الجيش
وأسلحته واساليبه التعبوية خلال الالف الثالث قبل الميلاد هي المسلة
المعروفة بأسم مسلة العقبان حيث انها قد صورت لنا ضمن مشاهدتها جيش
سلالة لكش الاولى زمن ملكها المدعو أي اناتم حوالي ٢٤٧٥ ق . م
بوضعيتين اساسيتين ، الاولى قد صورت لنا ترتيب الجنود عندما يكون

الجيش في حالة الدفاع وقد تم الاعتماد في هذه الحالة على استخدام نظام الصف او ما يدعى بنظام الكراديس مع تزويد الجنود بالاسلحة الثقيلة كالدرع والرمح وبالخوذ الواقية للرأس واهمية نظام الصف او الكراديس أثناء الدفاع تبرز من حيث ان ترتيب الجنود ودروعهم في وضعية لافراغ فيها بين جندي واجزء ، ولذلك فهي تمنع العدو من اختراق هذا النظام بسهولة (انظر الشكل ٢) والوضعية الثانية قد صورت لنا



الشكل - ٢

مسلة الملك « اي انام » وهي ترينا وضعية الجيش اثناء الدفاع ، كما هو مبصو في المشهد العلوي واثناء الهجوم كما هو مبصو في المشهد السفلي ، حوالي ٢٤٧٠ ق م

ترتيب الجنود عندما يكون الجيش في حالة الهجوم حيث ان
اسلحته خفيفة ونظامه يسمح بالحركة والافتتاح ، كما انها قد
بينت لنا ايضا بان العربات الحربية كانت تتقدم الجنود المهاجمين مثلما
تتقدم الدبابات هجوم المشاة في الحروب الحديثة ، هذا ومما هو واضح في
مشاهد جميع عربات الالف الثالث قبل الميلاد هو انها لم تستخدم الحصان
لسحبها بل استخدمت لهذا الغرض الثيران والحمير والبغال وذلك تبعاً
لدرجة المتانة التي تتمتع بها العربة • والسبب الذي جعل سكان العراق
القديم يستخدمون الحمير او البغال لجر عرباتهم الحربية يعود الى ان تصميم
تلك العربات كان لا يتحمل سرعة الحصان بأي حال من الاحوال وهذه
الحقيقة هي التي تسببت في عدم استخدام السومريين للحصان رغم معرفتهم
له لانه كما قلنا لا يصلح لسحب العربات حربية كانت ام غير حربية ولا يمكن
ايضا استخدامه لاغراض نظام الفروسية لان بقية صنوف الجيش لا تستطيع
مجاراة سرعة الحصان لو استخدمه السومريون والبابليون للنظام المذكور •
وهذه الحقيقة الخاصة بالحيوانات الساحبة لعربات الالف الثالث قبل الميلاد
تقدم لنا التصور الكافي للسرعة الممكنة التي كان الجيش العراقي القديم يستطيع
ان يستخدمها في مناورات اثناء الهجوم او الانسحاب •

ومما هو معلوم حالياً ان صنف المشاة لا يكتفي أثناء هجومه بتقديم
الدبابات امامه بل يحتاج ايضا الى قوة اضافية سائدة لهجومه من اجل ان
تشغل العدو أثناء تقدم المشاة وفكرة اسناد الجيش أثناء تقدمه تعتبر من
اهم المبادئ في التكتيك العسكري عموماً وفيما يخص ممارسة العراقيين
القدماء لهذا المبدأ العسكري المهم فان المشاهد الاثرية لفترة الالف الثالث قبل
الميلاد لم تقدم لنا أي أثر كان يبين لنا بشكل صريح استخدام الجيش لمبدأ
الاسناد أثناء تقدم المشاة الا ان الخوذ الواقية التي لبسها جنود الملك
في - اناتهم وجنود الالف الثالث قبل الميلاد على العموم ربما تشير الى ان الجنود

كانوا يتعرضون أثناء المعركة الى قذائف تأتيهم من الاعلى ولذلك صممت الخوذ الواقية بشكل مخروطي لان هذا الشكل يساعد على تخفيف الصدمة اذا ماسقطت على الخوذة قذيفة ما ، وهذه القذائف لا بد وان كانت تأتيهم من القوة الساندة للجيش المهاجم والناحية التي اكدت هذه الحقيقة هي الكتابات المسمارية التي قدمت لنا الدليل الاكيد على معرفة سكان بلاد وادي الرافدين منذ الالف الثالث قبل الميلاد لمبدأ الاسناد واکدت ايضا على أنه ابتكار عراقي ولم يسبق لاي شعب كان ان استخدمه قبل العراقيين حيث اشارت اليه بشكل واضح الملحمة الخاصة بالمعركة التي نشبت في حدود ٢٦٠٠ ق م بين مدينة الوركاء وبين مدينة أرتا الواقعة ما بين مدينتي الشوش وديزفول الحاليتين حيث ورد فيها مايلي :

« في ذلك الوقت تبع سكان سلالة الوركاء ، الملك انمير كار مثل رجل واحد ، فعبرت جيوشه الجبال المحيطة بمدينة ارتا (زحفا) كما ترحف الافعى بين اكوام الجبوب وعندما وصلت الجيوش الى منطقة لا تبعد كثيرا عن مدينة ارتا بدأت راجمات الاحجار ترمي احجارها التي ساوت كميتها كمية الامطار التي تسقط خلال سنة كاملة فسقطت لذلك الاحجار بكثافة على اسوار مدينة ارتا » . ان هذه الاسطر المختارة من الملحمة المذكورة تؤكد على ان صنف راجمات الاحجار كان خلال الالف الثالث قبل الميلاد يقوم بمهمة اسناد المشاة أي أنه يقوم مقام المدفعية في الوقت الحاضر وفيما يخص اصناف الضباط وعدد الجنود الذين كانوا تحت امرتهم خلال الالف المذكور فلدينا اشارة واحدة جاءت ايضا ضمن الملحمة الخاصة بحرب مدينة الوركاء مع مدينة ارتا والتي ذكرت بان الضابط من رتبة « او كلا » كان يقوم بقيادة (٣٠٠) جندي والضابط من رتبة « نوبندا » كان يقود (٦٠٠) جندي والضابط من رتبة « شاكينا » كان يقود (٢٥٢٠٠) جندي وعليه يبدو أن الشاكينا قديما كان يقوم مقام رئيس اركان الجيش في الوقت الحاضر وهو ثاني شخصية

في الجيش بعد شخصية الملك رأس السلطة السياسية والقائد العام للقوات المسلحة ومن نصوص مسمارية اخرى تبين لنا بأن كان للملك ولقصره حرس خاص يسمون باللغة السومرية « شوب - لوغال » أي بمعنى التابعين الى الملك وأما الجنود فكانوا على صنفين ، الاول يسمى « ايرن » ويعني الجندي الدائمي والصنف الثاني يسمى « كوروش » ويبدو من المصادر المسمارية المختلفة بأن هذا كان عاملا ومحاربا في آن واحد ولذلك يمكننا التأكيد على ان هذا النوع من الجنود كانوا يلتحقون في الخدمة العسكرية وقت الحروب فقط اما في اوقات السلم فكانوا يقومون بالمهام الزراعية ولذلك يمكننا ان نسمي هذا الصنف من المحاربين بالجيش الشعبي، والعلامة المسمارية التي كتب بواسطتها كلمة جندي من نوع « كوروش » لها قراءات أخرى من أبرزها هي (كال) وتعني « القوى » وهذه الحقيقة الخاصة بالعلامة المسمارية المذكورة تدل على ان الجنود من نوع كوروش والذين اسميناهم بالجيش الشعبي كانوا يساقون الى الخدمة العسكرية أثناء الحروب مادام الواحد منهم يمتلك القدرة على القتال وفي حالة فقدان احدهم لهذه القدرة بسبب العجز او الكبر فانه يعفى من الخدمة العسكرية . وفيما يخص مجمل الاسلحة التي أستخدمتها الجيوش العراقية القديمة خلال الالف الثالث قبل الميلاد يمكننا أن نقسمها الى مجموعتين رئيسيتين، الاولى هي مجموعة الاسلحة الهجومية التي كانت تتألف من القوس والصولجانات (= المكاوير) ، الخنجر ، السيوف ، الاقواس ، والسهام راجمات الاحجار ، الرماح ، والشباك . وفيما يخص السيوف علينا ان نشير الى انها لم تكن تستخدم لاغراض القتال بل كانت لاغراض الاستعراضات العسكرية لان السيوف خلال الفترة المذكورة كانت تصنع من البرنز ولذلك ماكانت تمتلك الصلابة الكافية لكي تستخدم لاغراض المبارزة . ولهذا السبب لم تصور السيوف على الآثار التي انتجت خلال الالف الثالث قبل الميلاد ولكننا نعرفنا عليها

من خلال الكتابات المسمارية وكان السيف يوصف بالخنجر الكبير ، واما المجموعة الثانية فتمثل الاسلحة الدفاعية وكانت تتألف من الدروع ، والخوذ الواقية ، والملابس المدرعة . تعرفنا فيما تقدم على نظام الجيش واسلحته ، واسلوب قتاله خلال النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد اما نظامه قبل هذا التاريخ فان العلامات الاولى للخط المسماري التي ظهرت منذ منتصف الالف الرابع قبل الميلاد قد مكنتنا من التعرف عليه ولو بصورة تقريبية حيث ان العلامة التي كتبت بها كلمة معركة كانت تتألف من العلامة الخاصة بالجندي مضافا اليها فأسين . وهذه الحقيقة تؤكد على ان الفأس كانت السلاح الذي يمنح لصنف المشاة خلال الفترة التي ظهرت فيها الكتابة المسمارية وخلال الفترة التي سبقتها ايضا وسبب ذلك يرجع الى ان سكان القسم الجنوبي من العراق قد تعرفوا على النحاس ومن ثم البرنز خلال الالف الرابع قبل الميلاد ولذلك صنعوا منه القؤوس التي تمثل افضل انواع السلاح لصنف المشاة . أما القوة الساندة لصنف المشاة خلال النصف الثاني من الالف الرابع قبل الميلاد فليس لدينا ما يحددها بشكل دقيق ولكن اثار الفترة المذكورة قد صورت لنا مشهدا لصيد الاسود ظهر فيه القوس والسهم والرمح ولذلك نعتقد ان صنف حملة الاقواس كانوا يمثلون القوة الساندة لصنف المشاة أما الرماح فيبدو أنها كانت تستخدم للاغراض الدفاعية .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو أن آثار الفترات التي سبقت النصف الثاني من الالف الرابع قبل الميلاد لم تقدم لنا اية مشاهد حربية . ماعدا آثار الالف الخامس قبل الميلاد وخاصة في موقع تل الصوان القريب من مدينة سامراء الحالية حيث قدمت لنا نماذج من الكرات الصلبة التي كانت تستخدم لاغراض المقاتل اليدوية ولكننا لاندرى فيما اذا كانت هذه المقاتل اليدوية تستخدم لاغراض الحرب أم الصيد أم لكليهما . ومع هذه الحقيقة الخاصة بخلو الفترات التي سبقت النصف الثاني من الالف الرابع

قبل الميلاد فإن ذلك لا يعني على الإطلاق بأن تلك الفترات كانت خالية من المعارك والحروب بل ان ذلك يشير الى ان المعارك والحروب كانت الشغل الشاغل لسكان تلك الفترات ، ولذلك كانت الحروب لا تمثل حدثا « غير اعتيادي » بحيث يستحق تخليده برسمه او تصويره نحتا على الحجر .

وقبل ان تنتقل الى مرحلة اخرى نود ان نشير الى ان العراقيين القدماء وخاصة سكان مدينة الوركاء بالذات هم اول من فكر باحاطة مدينتهم بسور دفاعي حيث ورد في احد النصوص المسمارية ان گلگامش ملك الوركاء قد بنى في حدود ٢٧٥٠ ق . م سورا لمدينة الوركاء وبالفعل فان تنقيبات البعثة الالمانية في المدينة المذكورة قد أظهرت بقايا السور المذكور وقد بلغ طول محيطه تسعة كيلو مترات ومن بعض كتابات مدينة الوركاء تبين لنا بأنه كان يتصيد الاعداء كما تصاد الطيور في الشبكة .

وفيما يخص اواخر الالف الثالث قبل الميلاد فالمعلومات التاريخية تؤكد أن الملك الاكدي سرجون قد تمكن في عام ٢٣٤٠ ق . م من الوصول الى قمة السلطة السياسية في العراق القديم وبعد فترة قصيرة من تسلمه الحكم استطاع ان يكون امبراطورية عظيمة امتدت حدودها من جبال طوروس شمالا وحتى الخليج العربي جنوباً ومن جبال زاكروس وعيلام شرقا وحتى البحر المتوسط غربا وتكوين امبراطورية بهذه السعة لم يتحقق الا بعد الانتصار على شعوب عديدة اغلبها لم تكن قد تعرفت على الاساليب العسكرية المتطورة في القتال ولذلك كان لزاما على سرجون ان يجد اساليب قتالية جديدة تتناسب وطبيعة هذه الشعوب وبالفعل فان المعلومات المتوفرة تؤكد على ان الاكديين قد فضلوا الاقواس والسهم كقوة سائدة لتقدم المشاة عوضا عن راجمات الاحجار لان الاقواس والسهم سهلة الحمل ولا تؤثر على حركة الجيش اثناء التقدم والانسحاب كما هو الحال مع راجمات الاحجار . ومنسلة النصر العائدة الى الملك الاكدي نرام

سبن ٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق م توضح نوعية التسليح الاكدي الذي لا يعيق حركة الجيش أثناء مناوراته العسكرية وعلاوة على ما تقدم فقد ادخل الاكديون طريقة المبارزة رجلا مع رجل لأن هذه الطريقة أكثر نفعا مع الشعوب التي كانت تجهل الاساليب المتطورة في القتال واعتمد الاكديون في تعبئتهم للجيش على العدد الكبير للجنود ، فقد اشار الملك سرجون الاكدي في احدى كتاباته على انه قد قاد جيشا كان قوامه ٥٤٠٠٠ الف جندي والسبب في زيادة عدد افراد الجيش لم يأت من حاجة اساليب القتال الى ذلك العدد بل كان على الجيش ان يترك في الاماكن التي يحتلها عددا من جنوده للحاميات العسكرية التي يقيمها في تلك الاماكن لتحمي هبة السلطة الاكديّة وتحمي طرق التجارة ايضا .

وتكوين الامبراطورية الاكديّة خلال النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد ما هو في حقيقته الا اول تجربة ضخمة في التاريخ وضعت الجيش واسلحته ونظام الحكم ايضا تحت الملحك الحقيقي فأدت هذه التجربة ولاشك الى تبلور الجوانب السلبية التي رافقت تعبئة الجيش وتدريباته ومعاملة الضباط والجنود آنذاك ولذلك فقد منحت هذه التجربة الرائعة الكثير من الدروس والعبر للأجيال اللاحقة .

الجيش واسلحته خلال الالف الثاني قبل الميلاد

من أهمية القوانين في حياة الانسان انها تركز في موادها على معالجة السلبات الواضحة والتي تشكل خطرا على أمن وسلامة المجتمع ولذلك فان اضافة اية مادة جديدة الى مواد القانون يعني ذلك ان ماعالجه تلك

المادة كان نتيجة لبروز ظاهرة سلبية لا بد من معالجتها والحد من تأثيرها على المجتمع ومما يؤكد هذه الحقيقة هو ان السلبيات التي تبلورت من جراء الممارسات العسكرية للآلاف الثالث قبل الميلاد قد رأيناها واضحة في شريعة حمورابي ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق . م وبالتحديد ضمن المواد المتعلقة بالجيش وتنظيماته العسكرية والتي لم نر مثيلا لها في الشرائع السابقة حيث ان ما عالجته تلك المواد لا بد وان كان جزءا من السلبيات السابقة فحاول حمورابي ازالتها واحلال البديل الافضل محلها .

والمواد التالية مختارة من مجموع المواد المتعلقة بشؤون الجيش ضمن شريعة حمورابي :

المادة (٢٧)

« اذا اسر جندي او سماك في أثناء الخدمة المسلحة للملك وبعد ذلك (أي أثناء غيابه) اعطوا حقله وبستانه لرجل اخر وأوفى (الرجل الاخر) ما عليه من الالتزامات الاقطاعية فاذا عاد (الجندي او السماك) ووصل بلده فعليهم ان يعيدوا له حقله وبستانه وعليه ان يمارس حقوقه الاقطاعية » .

المادة (٢٨)

« اذا أسر جندي او سماك في أثناء الخدمة المسلحة للملك وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية » .

المادة (٣٦)

« لا يجوز للجندي ولا للسماك ولا للمزارع (أي الشخص الذي يدفع ضريبة) ، ان يبيع بالمال الحقل والبستان والبيت »

المادة (٣٧)

« اذا اشترى رجل حقلا او بستانا او بيتا يعود لجندي او لسماك او لمزارع فيجب تحطيم رقيم عقده (ويجب ان) يخسر نفوده، وان الحقل والبستان والبيت ترجع الى مالكيها » .

ومن السلبات الاخرى التي أثرت الى حد ما على نفسية المقاتلين في العصور التي سبقت فترة حكم الملك حمورابي هو ان الدولة ما كانت تعتبر نفسها ملزمة في اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة الاسرى بعد انتهاء الحرب ولذلك كان معظم الاسرى ينخرطون في صنف العبيد في البلد الذي كانوا يؤسرون فيه والذي يؤكد هذه الحقيقة هو ان كلمة عبد باللغة السومرية كانت تكتب بعلامتين الاولى تمثل الرجل والثانية هي العلاقة الدالة على الاعداء وبذلك يكون معنى كلمة عبد « الرجل من بلاد الاعداء » . اما الملك حمورابي فقد عالج هذه الناحية بالشكل الذي كان ممكنا آنذاك والمادة التالية من شريعته خير شاهد على ذلك :

المادة (٣٢)

« اذا أسر جندي او سماك في أثناء حملة مسلحة للملك واعتقه تاجر واوصله الى بلده فاذا كان في بيته (من الاموال) مايكفي لعتق نفسه فعليه ان يعتق نفسه واذا كان لا يوجد في معبد اله بلده لعتقه فعلى القصران يعتقه ولا يجوز ان يعطي حقله وبستانه مقابل عتقه » .

ومن السلبات الاخرى هو ان بعض العاملين في الجيش كانوا يتخلون عن مسؤولياتهم العسكرية نتيجة الترف الذي اصاب حياتهم فيرسلون اشخاصا اخرين عوضا عنهم عند دعوتهم للالتحاق بالحملة العسكرية ومثل هذه السلوكيات تضعف الجيش وتؤثر على مستواه القتالي ولذلك فقد اعتبر حمورابي مثل هذه الحالات خيانة عظمى بحق الجيش والوطن

ولذلك نصت شريعته على اعدام الجندي الذي يقوم بارسال بديل عنه والمادة التالية الدليل على ذلك :

المادة (٢٦)

« اذا طلب التحاق جندي او سماك (يعمل في الجيش) في حملة للملك ولم يذهب بل أجر بديلا « عنه وارسله عوضا « عنه فان ذلك الجندي او السماك يعدم اما بديله فله ان يأخذ بيته « اي بيت الجندي او السماك » .
والحقيقة ان مضمون هذه المادة يدل ايضا « على ان التنظيمات العسكرية التي سبقت حمورابي لم تكن كافية لسد كل حاجات الجيش والمركة لان اعدام العسكري على ارسال بديل عنه اثناء المركة يعني ان نظام التعبئة والاحصاء كان ضعيفا « ولا يمتلك نظرة شمولية على جميع افراد الجيش لذلك كان ممكنا للعسكري النظامي ان يتخلى عن واجباته العسكرية اثناء دعوته للقتال ، ولذلك كان حمورابي شديدا مع هذا النوع من الجنود بحيث من يقدم على مثل هذه الاعمال لا يفقد حياته فقط بل يحرم عائلته ايضا من وسيلة العيش المحترمة ولذلك يبدو لنا ان نظام التعبئة والاحصاء قد احرز تقدما في زمن الملك حمورابي بحيث عمل على ايجاد اساليب جديدة تمكن الماكنة العسكرية من السيطرة على كل اجزائها .

ومن الامور الاخرى التي برزت الحاجة اليها قبل ان يأتي حمورابي الى الحكم هو جهاز الاستخبارات الذي لولاه تكون عملية ضمان سلامة وامن البلاد غير كاملة ، ومن الواجبات الاخرى الرئيسية لهذا الجهاز المهم هو الحد من نشاط الطابور الخامس وتوفير المعلومات الضرورية عن العدو والحقيقة اننا لا نملك معلومات اكيدة عن هذا الجهاز ولكننا نستطيع ان نخمن بان سلالة حمورابي كانت تمتلك جهازا خاصا بالاستخبارات وان

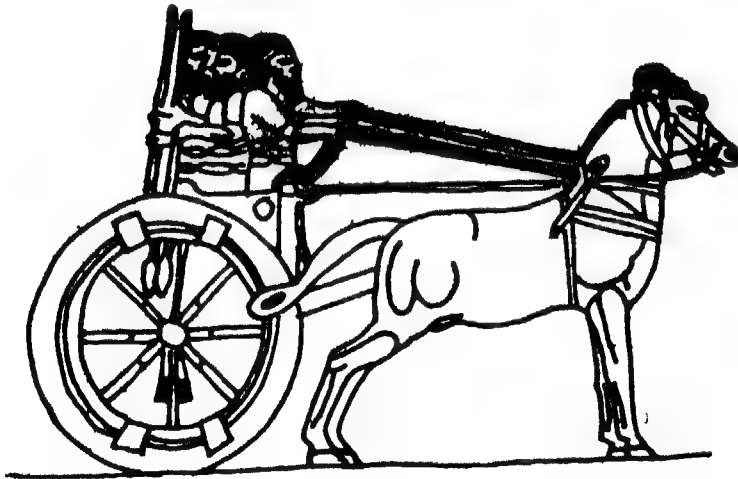
ارتباطه المباشر كان مع الملك والاشارة التي تدل على ذلك هي المادة (١٠٩) من شريعة حمورابي التي تنص على ما يلي :

« اذا تجمع محتالون (= مجرمون) في بيت بائعة الخمر ولم تلق القبض على هؤلاء المحتالين ولم تقدمهم الى القصر فان بائعة الخمر هذه تعدم » .

وهذه المادة تؤكد على ان جميع الاماكن التي يؤمها الناس الذين يميلون بطبيعة تربيتهم الى خلق المشاكل والاخلال بالامن كانت توضع تحت الرقابة وان اصحاب هذه الاماكن ملزمون باخبار السلطة بكل سلوكيات الاشخاص التي من الممكن ان ينجم عنها ما يربك الامن والاستقرار أو يهدد سلامة البلاد .

والجهاز الذي يتولى هذه المهمة يمكننا ان ندعوه بجهاز الاستخبارات والدليل الاخر الذي يؤكد على ان بداية جهاز الاستخبارات كانت في زمن سلالة حمورابي هو التكامل الذي وجدناه في جهاز الاستخبارات الاشوري فلو لم تكن بداية هذا الجهاز قبل الفترة الاشورية لما وجدناه كامل النمو في العهد الآشوري . ورجل الاستخبارات في العصر المذكور كان يدعى « دبالو » هذا ومن خلال الكتابات المسمارية التي جاءتنا من النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد تأكد لنا ان صناعة العربات الحربية عند الاشوريين وبقية سكان العراق القديم قد بلغت مرحلة من المتانة والتناسب مع سرعة الحصان بحيث ساعد ذلك على استخدام الخيول لجر العربات وخاصة الحربية منها . والعامل الرئيس الذي ساعد على هذا التناسب هو التطور الذي حصل على صناعة العجلات حيث كانت قبل التاريخ المذكور تصنع مخرمة اي ان هناك اضلاعاً او شعاعيات تسند فيما بين المحور واطار العجلة وهذه الناحية قد خففت من وزنها وساعدت على سرعة حركتها علاوة على أن توصل

الاشوريين الى تعدين الحديد قد ادى الى ان تصبح محاور العجلات التي كانت تصنع منه اكثر مقاومة للاحتكاك الذي ينتج عن سير العربات • وتناسب العربات الاشورية مع سرعة الحصان قد اظهر الحاجة الملحة الى تربية الخيول والاعتناء بها ولذلك بدأت النصوص المسمارية منذ ١٣٠٠ ق م تذكر لنا المعلومات الكافية عن تربية الخيول وتحسين انواعها ومما لاشك فيه ان استخدام الخيول مع العربات قد رفع من اهميتها في المعارك الحربية وهذه الزيادة في الاهمية قد رفعت بدورها من قيمة قوادها بحيث اصبحت العربات تقاد من قبل ضابط يسمى في النصوص المسمارية « ساكروماش » ورفعت من قيمة من يقوم بادارة الخيول وعرباتها بحيث اصبحت مرتبته تعادل مرتبة الوزير ويلفظ باللغة السومرية « كير - داب » وباللغة الاكدية « كارتبو » وهذه الكلمة كانت تعبر خلال الالف الثالث قبل الميلاد عن الشخص الذي يقوم بقيادة الحيوان بواسطة مسكه من لجامه اي بمعنى السائق •



عربة حربية آشورية مع الحصان ذو الرقبة المقوسة

الجيش والسلاح خلال الالف الاول قبل الميلاد

من ابرز الجيوش خلال اوائل الالف المذكور هو الجيش الاشوري حيث انه قد ورث كل التجارب العسكرية السابقة علاوة على اضافته العربات الحربية التي تجرها الخيول الى ماكنته العسكرية ومن يطلع على القواعد والاسس التي استند عليها الجيش المذكور سوف يجدها لا تختلف من حيث الجوهر عن الاسس والقواعد التي تقوم عليها الجيوش الحديثة ولكن الاختلاف يكمن في التطور الذي اصاب انواع الاسلحة وتحسن اساليب العمل اما الجوهر فواحد بين الاثنين •

ففيما يخص الجنود فقد زادت اصنافهم عما كانت عليه في الفترات السابقة فكلمة الجندي الاعتيادي كانت تلفظ « صابو » وهي ترجمة لكلمة « ايرن » السومرية التي مر ذكرها ، واسم المقاتل في الجيش الشعبي كان يلفظ « قرادو » ويعني القوي فهو بذلك ترجمة لكلمة « كوروش » السومرية وعلاوة على هذين الصنفين فقد اخبرتنا النصوص المسمارية الاشورية عن وجود اصناف اخرى ذات تدريبات وتخصصات عسكرية افضل من الصنفين المذكورين مثل « بيرو » ، « كوئو » ، « كلبو » و « موتير » ، والنوعان الاخيران من الجنود هما لاغراض المراسلات العسكرية وفيما يخص الضباط فأعلى رتبة في الجيش الاشوري هي رتبة « الترتانو » وهو بمثابة رئيس اركان الجيش اي على غرار رتبة « الشاكينا » خلال الالف الثالث قبل الميلاد ولكن ما امتازبه الاشوريون عن الفترات السابقة هو انهم كانوا يضعون دائماً « البديل » لكل رتبة من الرتب العسكرية العالية حيث ان طبيعة الحياة والحروب قد تؤدي بحياة اصحاب هذه الرتب العالية في فترات هي بأمس الحاجة اليهم فان لم يك هناك من يحل محلهم في الحال فتلك ناحية تؤثر على الجيش وعلى نفسية الجنود والضباط وخاصة اذا حدث ذلك اثناء المعركة ولذلك كان هناك دائماً « بديل » والبديل بالنسبة لرتبة الترتانو كان يسمى « ترتانو شانو » اي

بمعنى الترتانو الاخر ويرتدى الترتانو بدلة طويلة نهايتها السفلى مزخرفة وفي وسطها حزام عريض واخر ضيق ويرتدى فوقها شالا « يتألف من ظفائر طويلة ويترك عادة كتفه الايسر عاريا » اما لباس الرأس فكان عبارة عن عصابة مزخرفة عريضة من الامام يتدلى منها شريطان من الخلف ويتنعل الترتانو حذاء شبيهها بما ينتعله الملك وهذا الحذاء مثبت بالقدم بسيور تدور حول الاصبع الكبير وحول العقب ويمتد بينهما سير ثالث ويكون مع امتداد واقية العقب من الحذاء الى منتصفه . والرتبة التالية للترتانو هي رتبة « الراب شاقه » والتي تعني كبير السقاة وهذه الرتبة بالذات تؤكد على ان من اكبر المشاكل التي كانت تصادف الجنود اثناء المعارك القديمة هي عملية توفير الماء اللازم لهم ، وخاصة اذا كانت المعركة في أحرّ اشهر الصيف ولذلك فالشخص الذي يستطيع ادارة هذه المهمة بنجاح ينال احترام وتقدير السلطة الحاكمة وكل افراد الجيش جنودا كانوا ام ضباطا ولذلك اصبحت رتبة كبير السقاة ثاني رتبة عالية في الجيش الاشوري والرتبة التالية هي « ناقر ايكالي » اي بمعنى منادى القصر ومهمته بالتأكيد هي دعوة الجنود والمواليد الى الخدمة العسكرية والجهاز الذي ترأسه هذه الرتبة لا بد وانه يوازي مديرية التعبئة والاحصاء في الوقت الحاضر والرتبة الاخرى هي « الابركو » ومسؤولية حاملها هي الاشراف على الناحية المالية ، علما ان اصحاب هذه الرتب الاربعة مضافا اليهم الملك يكونون هيئة اركان الحرب . ومن الرتب العالية التي تلي هيئة اركان الحرب هي رتبة « السوكالو » ومن اسم هذه الرتبة جاءت الينا كلمة « سركال » ومهمة السوكال هي الاشراف على تنفيذ القوانين فهو بذلك يوازي مدير الدائرة القانونية ومن بعده تأتي رتب الضباط ودرجاتهم فكبير الضباط كان يدعي « راب موكي » وكانت تحت امرته الخيالة والعربات و « راب كيصر » الذي يوازي آمر سرية في الوقت الحاضر وكان صاحب هذه الرتبة يقود مئة جندي مع خمسين عربية

وعلاوة على ذلك فقد احتوى الجيش الاشوري على رتب اخرى منها ما يوازي حالياً رتبة آمر الفصيل وصاحب هذه الرتبة كان يقود خمسين جندياً مع خمسة وعشرين عربة وما يوازي آمر الحظيرة الذي كان تحت امرته عشرة جنود ومن الرتب العسكرية الاخرى هي رتبة « راب ابولاتي » ومعناها آمر الابواب وبالتأكيد ان صاحب هذه الرتبة كان مسؤولاً عن الجنود المخصصين لـ اغراض الحراسة .

فيما تقدم تحدثنا عن الرتب العسكرية التي كانت مهماتها الاساسية هي القتال وفيما يلي نتحدث عن الاصناف الاخرى ذات المهام غير القتالية . ومن اهم هذه الاصناف هو صنف الطبابة ورئيس هذا الصنف كان يسمى « راب - آسي » اي بمعنى كبير الاطباء كانت مهمته الرئيسة هي معالجة الجرحى اثناء القتال اي انه كان يتألف بصورة اساسية من الجراحين اما معالجة الامراض الجرثومية فتأتي بالدرجة الثانية ومما يؤكد على ازدياد اهمية الجراحين في حياة العراقيين القدماء هي المواد التي تضمنتها شريعة حمورابي حول الطب والطبيب حيث انها لم تناقش الا الامور المتعلقة بسوئوع العمليات الجراحية لان الامراض الجرثومية كانت تعالج وفق نصوص طبية مبين فيها علاج كل مرض من امراضهم الدارجة اما العمليات الجراحية فليس بالامكان اجراؤها من خلال النصوص بل يتوقف نجاحها على جراح ماهر ولذلك كان صنف الطبابة الملحق بالمؤسسات العسكرية يعتمد بالدرجة الاولى على الجراحين وعلاوة على الصنف المذكور كان صنفان آخران الاول هو صنف الموسيقى العسكرية ، ورئيس هذا الصنف كان يسمى « راب زماري » والثاني هو صنف الهندسة العسكرية خفيما يخص صنف الموسيقى فنحن نعلم ان للموسيقى قدرة على اثارة طاقات الانسان الكامنة فاستخدامها عند مسيرة الجنود الى المعركة تمنحهم العزيمة

الكافية للقتال علاوة على قدرتها في ضبط مسيرة الرتل العسكري اثناء سير الجنود واثناء الاستعراضات.*

هذا وقد استخدم الجيش الآشوري العراف الذي يسمى « بارو » لأن للعرافة في اعتقادنا اهمية كبرى وخاصة من الناحية النفسية حيث ان مهمة العرافة كانت تتعلق بكشف طالع المعارك التي كانوا ينوون القيام بها او التي تفرض عليهم من قبل الاعداء فان كانت النتيجة ايجابية اقدموا على المعركة التي كشفوا الطالع من اجلها وان كانت سلبية فعليهم التريث بالموضوع ولكن المعروف عن الاشوريين انه لم تمض سنة في حياتهم دون ان يكون لهم فيها ولو معركة واحدة ولذلك نعتقد بان النتيجة السلبية لكشف الطالع كانت لاتثني الاشوريين عن عزمهم ولهذا فانهم كانوا يعلنون دائما نتائج ايجابية ليمنحوا بذلك القادة والجنود الثقة بالنفس والامل الكبير بالنصر علاوة على ايمانهم بان من يتفاعل بالخير سوف يجده ولا شك ان سعة الامبراطورية التي كونها الاشوريون وكثرة الانتصارات التي حققوها دليل على اهمية العرافة وقدرة الاساليب النفسية في زرع الثقة بالنصر في نفوس المقاتلين * والاساليب التي استخدمها الاشوريون ومن عاش قبلهم لاغراض كشف طالع المعارك والملوك كانت عديدة ولكن من ابرزها اسلوبان الاول يتمثل بصب الزيت على الماء وكانوا يحصلون على النتيجة من خلال الاشكال التي تحدثها فقاعات الزيت فوق سطح الماء والاسلوب الثاني اعتمد على دراسة حركة الكواكب والنجوم وعلى بقية الظواهر الطبيعية *

وفيما يخص الهيكل التنظيمي للجيش الاشوري فقد كان يتألف من الفرقة التي كانت تلفظ « بقار » وتعدادها حوالي عشرة آلاف جندي ومن الوحدة العسكرية التي تسمى « كودودو » وتعدادها الف جندي فالسرية التي تلفظ « كيصرو » وتعدادها مئة جندي فالتفصيل الذي تعدادهم

خمسون جندياً واما الحضيرة فتعدادها عشرة جنود ، وبخصوص تشكيلات الجيش اثناء القتال فليس هناك خطة ثابتة بل يعتمد ذلك على نوعية ارض المعركة ونوعية السلاح المستخدم وهذا في الواقع امر طبيعي يحدث مع الجيوش الحديثة كذلك *

هذا وان كثرة المعارك التي قام بها الاشوريون خلال سني حكمهم وخاصة خلال النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد قد فرضت على من في يدهم زمام الامور ان يوجدوا الوسائل الممكنة لتأجيج الروح العسكرية عند الاشوريين باستمرار وذلك تقاديا للفتور الذي قد يصيب بعض افراد الجيش ومن الوسائل الفعالة التي استخدمها الاشوريون لهذا الغرض هي اللوحات التي زينت قصورهم الملكية حيث ان معظمها كان يصور بالبحث البارز المعارك الحربية والانتصارات التي حققها الجيش الاشوري وعلاوة على هذه الناحية فقد كان لهذه اللوحات تأثير اخر على نفوس حلفاء الاشوريين الذين يزورون تلك القصور لاغراض التداول بخصوص تحالفهم حيث انها كانت تزيد من هيبة الاشوريين في نفوسهم وفي نفوس الاعداء ايضا ، ولذلك فلا بد وان كانت سببا في منع حدوث الكثير من الثورات والاضطرابات ضد السلطة الاشورية *

هذا ومن الامور التي ميزت الجيش الاشوري عن بقية الجيوش في العراق القديم هي التحصينات العسكرية وبناء القلاع وسبب ذلك يرجع الى توفر الحجر في المنطقة التي سكنها الاشوريون وجيرانهم وهذه التحصينات العسكرية قد ادت بدورها الى تطوير الات الحصار التي تمخضت عنها صناعة الدبابة الاشورية ، والمشاهد الحربية قد بينت على انها كانت انواعاً منها الصغيرة ومنها الكبيرة التي تتسع لخمسة اشخاص وبالتأكيد ان استخدام الدبابة الكبيرة أو الصغيرة كان يتوقف على نوعية الاسوار وجدران القلاع المتلوى تهديمها وادت الاسوار والقلاع الى ادخال السلالم ضمن التجهيزات

العسكرية وذلك لغرض التسلق الى اعالي الاسوار عند مباغثة الجيش للمواقع المسورة او المحصنة ومما امتاز به الاشوريون ايضا هو انهم لوحدهم قد استخدموا السفن الحربية لاغراض المعارك اما الجيوش التي سبقت الاشوريين فلم تستخدم السفن الا لاغراض النقل اما الاشوريون فقد صمموا سفنهم لاغراض القتال الصرفة والمعلومات المتوفرة تؤكد على انهم قد استعانوا بالفينيقيين ولذلك كانت سفنهم الحربية تبدو وكأنها فينيقية * اما العربات فلم يكتف الاشوريون بالسرعة التي حققها لهم الحصان عند بداية استخدامه مع العربات بل حاولوا زيادة تلك السرعة من ناحية التحكم في متانة العجلة وخفة وزنها ومن تكبير اطار العجلة مما ساعد ذلك على زيادة سرعة العجلة وارتفاع جسم العربة عن الارض مما يبعد احتمال اصطدامه مع ما يحتويه الطريق من مطبات الا ان هذه التطورات التي اصابته العربة قد انتهت مفعولها منذ ان بدأ الاشوريون في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد في ادخال نظام الفروسية في تكتيكهم العسكري حيث ان هذا النظام قد افقد تلك العربات اهميتها بصورة تدريجية الا انه في الوقت نفسه قد ساعد على الاهتمام بالخيل كثيرا وتحسين انواعها ، هذا وان اناقة الحصان الاشوري قد بلغت منذ اوائل الالف الاول قبل الميلاد مرحلة متطورة جدا بحيث لا يمكن مقارنتها مع الانواع الاولى وان الفرق بين الحصان الاشوري والحصان الحالي ضئيل جداً ويكمن في شكل الرقبة فقط اذ أن رقبة الحصان الاشوري تظهر باستمرار مقوسة ومسحوبة الى الخلف قليلا بينما رقبة الحصان الحالي مستقيمة تقريبا *

ومن المحتمل جدا ان كانت رقبة الحصان الاشوري مستقيمة ايضا ولكن ظهورها على المنحوتات مقوسة كان بسبب وضعية (اللجام) لان وضعية اللجام على ما يبدو كانت تضغط على رقبة الحصان وتمنعه من التنفس بحرية ولذلك كان الحصان يعالج هذه الناحية بأرجاع رقبته الى الخلف كبي

يتخلص من ضغط اللجام المتسلط عليها واذا كانت رقبة الحصان الآشوري في الحقيقة مستقيمة فعلا فلماذا صوره الفنان الآشوري في جميع المنحوتات بالرقبة المقوسة ؟ في الواقع ان التعليل الذي يمكن ايجاده بهذا الخصوص قد يرجع الى ذوق النحات نفسه ، اذ من الممكن ان كان الفنان الآشوري معجبا بوضعية الحصان وهو يتخلص من ضغط اللجام على رقبة فسوره باستمرار بالرقبة المقوسة ولكن من الممكن ايضا ان كانت رقبة الحصان مقوسة فعلا ومع ذلك فان سبب التقوس يعود الى وضعية اللجام ووضعه المستمر على رقبة بحيث ان محاولة الحصان للتخلص من هذا الضغط قد تسبب في صياغة عضلات الرقبة بهذا الشكل المقوس .

وفيما يخص الجيش واسلحته أثناء الفترة الكلدية فأن ما قلناه بخصوص الجيش الآشوري واسلحته ينطبق على الجيش خلال عهد الدولة الكلدية .

المصادر

- ١ - الدكتور فوزي رشيد ، النفط والتنمية ، السنة السادسة - نيسان -
مايس ١٩٨١ ، وسائل النقل المائية والبرية في العراق القديم .
- ٢ - يوسف خلف عبد الله ، الجيش والسلاح في العهد الاشوري الحديث ،
رسالة ماجستير ، ١٩٧٧
- ٣ - الدكتور فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، دار الحرية للطباعة-
بغداد ١٩٧٩ .
- 4- Claus wilke, das Lugalbandaepos, wiessbaden, 1969.
- 5- Erki Salonen, Die waffen der Alten Mesopotamier, Helsinki
1966.
- 6- Armas Salonen, Notes on wagon and Chariots in ancient
Mesopotamia, Helsinki, 1950.
- 7- Armas Salonen, die Landfahrzeuge des Alten Mesopota-
mien, Helsinki, 1951.
- 8- J.A. Brinkman, a political history of Post--Kassite Baby-
lonia, Roma, 1968.

الفصل الثالث

القانون ودلالاته حول الشخصية

رضا جبار الهاشمي

استاذ مساعد في كلية الآداب - جامعة بغداد

لعل من نافع القول التأكيد على أهمية القوانين بين النتاجات الفكرية لحضارة بلاد وادي الرافدين ، وبسبب دلالاتها المتعددة فقد أصبح الحديث عنها يتقدم بقية الموضوعات الحضارية ، كما أكثر الباحثون من تناول الموضوعات القانونية سواء شمل اهتمامهم ترجمة النصوص القانونية القديمة او تحليل موادها او استقراء موضوعاتها فيما له علاقة باستكشاف الجوانب الحياتية المختلفة لسكان العراق القدماء .

ويبرز في المقام الاول من الحديث عن تاريخ القانون في العراق القديم الإشارة الى ازدهار الجانب القانوني منذ مراحل مبكرة من حضارة بلاد وادي الرافدين ، ففي الوقت الذي نفتقد فيه اي دليل وثائقي عن صيغ قانونية في مراكز حضارية اخرى كما هو الحال في بلاد وادي النيل ، او ان تكون بعض النتاجات القانونية في مراكز اخرى ناجمة عن التأثيرات الفكرية لقوانين بلاد وادي الرافدين مثلما كان الحال في بلاد الاناضول ، حقق

العراقيون مستويات متقدمة جدا في صيغ القوانين المدونة والتي تعد شريعة حمورابي نموذجا رائعا لها .

ومهما قيل في اسباب ازدهار القوانين في العراق القديم ، فمما لا نشك فيه ان بعضها يغوص في اعماق التاريخ الانساني غير المدون وتبقى تفاصيله مجهولة ، ولكن من الامور المؤكدة في هذا الخصوص ، أن تطور القانون لا ينفصل عن تطور الفكر بشكل عام وهو بدوره يمثل انعكاسا للمديات المتقدمة في جوانب الحياة المادية .

ومع هذا وذاك من الاسباب ، فإن لتوجهات العراقيين الدينية و خلاصة تجاربهم التنظيمية التي تبلورت في طبيعة نظام الحكم ، لهما الدور المباشر في ازدهار القانون وتطوره في العراق القديم .

فالقانون في الاساس ، منطلق لتنظيم العلاقات ، وتثبيت حقوق وواجبات طرفي العلاقة في اشكال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومن بين اوجه العلاقات ، تلك التي تقوم بين الناس ، فرادى وجماعات من جانب ، وبين الحاكم او من يمثله من سلطات وادارات وهيئات من جانب آخر ، ولان الملك في نظرة العراقيين القدماء شخص لا يختلف كثيرا عن بقية الناس ، اوكلت الالهة اليه مهمة حكم البشر وادارة شؤونهم ، فهي من واجباته ، مثلما له حقوق على الناس ، لذلك برزت الحاجة الماسة الى تعيين الحقوق والواجبات لطرفي العلاقة الرئيسيين الملك من جانب ، والمجتمع من جانب اخر .

وعلى الرغم من ان هذا التصور للعلاقة لم يردنا مدونا بشكل مباشر ولكننا نستشفه من اقوال الملوك وبعض من النصوص الدينية ، فالملك مكلف بنصرة المظلومين والاقتصاص من الظالمين وهو الراعي العادل ، ولكنه لم يمثل صورة الحكم الالهي المطلق « فأذا لم يحرص على تطبيق العدالة ، فسيغير الاله ايا قدره » أي ان مصيره وقدره كملك منوط بموقفه من العدالة وحرصه على تطبيقها ، لانها ارادة الاله .

وتتجلى ارادة الالهة في نشر القوانين فيما نقرأه في مقدمة قانون حمورابي حيث يقول « لما عهد انو العظيم سيد الالهة وألليل رب السماء والارض الذي بيده مصير البلاد ، الى مردوخ بكر أيا ، أن يحكم جميع البشر ، وعندما عظماء بين الهة السماء وجعل اسم بابل مجيدا شهيرا في جميع الدنيا واسسا فيها مملكة راسخة البنيان رسوخ السماء والارض ، اتدبني آنذاك انو وألليل ، انا حمورابي الامير الكريم عابد الالهة ، لانشر العدل في البلاد واقضي على الشر والغش وامنع القوي من اضطهاد الضعيف » .

ومع تطور انظمة الحكم في العراق القديم وازدهار الحياة السياسية وظهور الدولة المركزية الموحدة على انقاض دويلات المدن السومرية منذ عهد الدولة الاكدية ، اصبح اصدار القوانين امرا اكثر ضرورة ، من اجل تنظيم العلاقات بين سكان المناطق المختلفة والمدن المتعددة ، التي كانت فيما سبق قيام الحكم المركزي ، تخضع لاعراف وتقاليد وربما لانظمة وتعاليم ملكية خاصة بها ، بينما اخذت هذه الانظمة تتعارض مع بعضها في المدن والمقاطعات المختلفة . فوجد ملوك العراق ضرورة توحيد النظم وحدود العلاقات وشروط الاتفاقيات وبخاصة المالية منها بين سكان المملكة بصرف النظر عن سكنائهم ، فمن الشائع بين الباحثين ان حمورابي مثلا نسخ عددا من شريعته ووزعها على المدن الرئيسية لاجل توحيد الانظمة والقوانين ، وليؤكد من خلالها مركزية الحاكم وقوة احكامهم وتمتع جميع مواطني الدولة بالحقوق والحرية التي يوفرها القانون .

فإذا كانت صورة الملك ، وهو اعلى سلطة في البلاد ، بهذه الحدود والصرامة ومعطيات الحقوق والواجبات فالاخرى ببقية الناس ان يسيروا على منوالها بل يكون لزاما عليهم تحقيق الالتزام ، بخاصة وان المجرى العام للحياة في العراق تتفق تماما مع التنظيم والالتزام اللذين يجسدهما القانون .

والاكثر من ذلك ذلالة ، ان العراقيين نظروا الى الهتهم نظرة النظام

الدقيق ، والتقيّد الصارم بالحدود الملزمة للحقوق والواجبات ، فكل اله مسؤول عن جانب معين من شؤون الكون او الطبيعة او الحياة ، ويبلغ توزيع المسؤوليات في نظر العراقيين الى حد الاعتقاد بأن لكل مدينة اله مسؤول عنها يتولى رعاية شؤونها ويحمي مصالح افرادها ، وهو الوسيط بينهم وبين الالهة الكبار التي تحكم السماء والارض ، ومثلما على الالهة واجبات ، فلهم حقوق تتمثل في خدمة البشر لهم ببناء معابدهم وتقديم فروض الطاعة والعرفان بالجميل اليهم . لذلك يبدو واضحاً ان الملك في العراق القديم كان الصورة البشرية المطبقة على ارض الواقع للاله فحمورابي في خطواته يمثل ارادة مردوخ اله بابل الرئيسي وسيدها وحاميها وراعي مصالح ابنائها ، ولذلك كان الحديث عن نشر العدل واشاعة الطمأنينة وحماية الضعفاء من بين فقرات التفاخر في تسجيلات الملوك التذكارية .

وهكذا كانت نظرة العراقيين ، الى الالهة والى الملوك والى انفسهم ايضا ، وحتى الى الحياة نفسها ، فكل شيء فيها يخضع في حركته الى نظام دقيق يتألف مع نظم الحركة لجوانب الحياة المختلفة ، وان الواقع الذي تعكسه المخلفات المدونة الكثيرة التي وصلتنا عن العراقيين القدماء ، تكشف بوضوح عن التطبيق العملي لفكرة النظام في حياتهم العملية ، فالنظام والالتزام والحقوق والواجبات والعدالة والحرية والمساواة ، كلها مفردات رئيسية في لغة القانون العراقية ، وقد حرص العراقيون فرادى وجماعات ومؤسسات وملوكاً على المحافظة عليها والسهر على تنفيذها ومعاينة المخالفين او المسيئين اليها ، ومن هذا المنطلق ازدهر القانون في العراق القديم وتطورت العلاقات المنظمة في اوجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

حول منشأ القانون ونماذجه الاولى

اذا كان القانون يمثل صورة تنظيم العلاقات بين الناس وتعيين حدودها ومنع الخروج عنها ، فعلياً ان قتش عنه في اقدم مجالات العمل الاجتماعي

لبنى البشر ، ويمكننا التأكد من وجود صورة القانون بجانبها التنظيمي والالتزامي قبل ظهور التدوين في حياة البشر ، من حالات العرف والعادات والتقاليد التي تسري بين كثير من التجمعات السكانية مسرى القانون ولو انها غير مدونة .

ومع ان القانون المدون يمثل المرحلة المتطورة الناضجة في صيغ تنظيم العلاقات الانسانية ، ولكن غيابه لفترة ، مع وجود دلائل تطبيقه في صورة الوثائق القانونية ، انما يؤكد عمق التجربة واصالتها في العراق القديم ، والتي افرزت في حالة تقدمها ، القوانين المدونة التي تعد حالة متقدمة في تاريخ الفكر الانساني .

ان من بين اهم الحقائق التاريخية التي تميز بها العراقيون القدامى انهم اكدوا تمسكهم بالقواعد القانونية سواء ما كان منها في صيغة القانون المدون ، او في صيغة العرف القانوني والقواعد المقررة فاجروا مثلاً جميع معاملاتهم الاقتصادية من بيع وشراء وقروض وايجار وايمان وايداع وهي حالات في العلاقات المالية بين الناس ، وكذلك تنظيم علاقاتهم الاجتماعية في حالات الزواج والطلاق والارث والتبني ، وفق احكام متعارف عليها ملزمة للجميع بدلالة تسجيلها لذلك كان اجراء هذه المعاملات والاتفاقيات دون توثيقها باسلوب شرعي قانوني يعد باطلاً وغير ملزم لاحد طرفي الاتفاق ، ناهيك ان بعض العقوبات كانت توقع بالاجراءات المرفوضة اجتماعياً أي غير قانونية .

ولذلك فأن ما يقارب من ٩٠٪ من النصوص المسماة المكتشفة لحد الان ، تعالج موضوعات المعاملات القانونية او ما تعرف في لغتنا المعاصرة بالعقود .

وجاءت القوانين والشرائع المدونة في فترة لاحقة لتؤكد اهمية الاتفاق وتسجيله بالاسلوب القانوني حتى ان قانون حمورابي ينص في المادة (١٢٨)

وهي فاتحة مواد الاحوال الشخصية ، على ان الرجل الذي يأخذ امرأة للزواج ، ولا يحرر لها عقدا بذلك ، فهذه المرأة ليست زوجة .

وقبل ظهور القوانين المدونة في العراق القديم ، كان المحكمون يلعبون دور القضاة في فض المنازعات وتعيين التجاوزات على التقاليد والتي كانت من تأثيرها على الناس بمثابة الانظمة والقوانين المدونة وقد غدت احكام هؤلاء بمرور الوقت سوابق قضائية لها منزلة الاحكام القانونية ، كما اصبحت احد المناهل التي استندت اليها القوانين المدونة . وعليه ، فان القوانين المدونة نعد من الناحية الواقعية عملية جمع وتبويب وتنظيم وتدوين لكل التقاليد والاعراف والنظم والعلاقات واجتهادات العارفين واعلانها للناس بهيئة شرائع او قوانين ، وقد حدث ذلك مع تطور الحياة ونضج التجربة الانسانية ، وبلوغ انظمة الحكم في العراق القديم مستوى متقدما من المركزية والتنظيم .

وبسبب اقتران الشرائع المدونة في العراق القديم بانظمة الحكم المتطورة فانها اخرجت بمستوى رفيع من حيث لغتها القانونية واسلوبها العلمي وتبويب موضوعاتها ، وتوافق احكامها مع الواقع وابتعادها عن المثالية او الشؤون والعبادات ، كما روعي في وضعها تسلسل الموضوعات والعلاقة المنطقية بين مادة واخرى او مجموعة مواد ومجموعة اخرى ، وعلى الرغم من دعوى الملوك المشرعين بانهم يصدرون قوانينهم باوامر الهية ، ولكن تحليل فقراتها يكشف بوضوح علاقاتها بارض الواقع والتجربة الحياتية الغنية للعراقيين .

واخيرا فان القوانين اخرجت بشكل مهيب واحتلت اماكن رئيسية وهامة في المدينة ، كأن تكون في المعابد او عند بواباتها . وتمتد صورة مسلة حمورابي في شكلها العام ومادة صناعتها من حجر الدايوريت الاسود الصلب ، وجمال كتابتها ، نموذجا جيدا للقوانين ، كما أن تحلية واجهتها بصورة الاله الشمس والملك حمورابي ، كل ذلك يزيد من وقعها في النفوس ، فهي في شكلها ايضا تتناسب مع اهميتها في حياة العراقيين القدماء .

ومع التأكيد على القيمة الفكرية العالية للشرائع والقوانين العراقية القديمة فان ذلك لا يمنع من تسجيل بعض المآخذ عليها ، ومن ذلك مثلاً اهتمامها ببعض الامور الجزئية على حساب العامة ، كما انها تغفل امورا مهمة في حياة الناس ، والرأي الذي يجتمع عنده الباحثون بخصوص هذه المآخذ ، هو ان المشرع لم يجد ضرورة تكرار الاحكام المتفق عليها ، وانه تجاوزها لشيوع اتباعها أو عدم وجود خلاف حولها بين القضاة والمحكمين . لذلك فان القوانين تطرقت الى الامور التي هي موضع خلاف ، وبخاصة بين المدن او بين المناطق المختلفة من الدولة الواحدة ، فمثلاً كانت عقود القروض تبرم بنسب فوائد مختلفة ، بينما ينص قانون حمورابي على توحيدها في ارجاء المملكة مما يزيد من قوة التعامل المالي والتجاري ويقلل فرص الخلاف والمنازعات التي يحتمل ان تثيرها النسب المختلفة لفوائد القروض المالية .

ومما يؤخذ على القوانين القديمة اقرارها ببعض العقوبات الصارمة او اعتمادها على بعض المبادئ الساذجة والتي لا تتوافق مع اعراف البشر المتمدنين في العصر الراهن ، ومن امثلة ذلك تعميم المسؤولية او استنتاج البينة عن طريق الامتحان وما الى ذلك ولكن اذا ما تذكرنا اننا نستعرض اعمالاً قانونية يقرب عمرها من اربعة الاف عام ، سنقبل بالضرورة بعض الهنات او المآخذ التي تسجل على جوانب من القوانين ، غير متناسين ان القوانين العراقية القديمة تشكل التجربة الاولى في تاريخ البشر ، وانها بالمقارنة مع الكثير من الاعمال القانونية اللاحقة ، تمثل الاساس الصحيح والسليم لتجربة الانسان القانونية .

اشرنا من قبل الى ان الدلائل على التطبيق العملي للقوانين عرفت قبل اكتشاف النصوص القانونية ، ونخص بالذكر منها ، اكتشاف الاف المعاملات القانونية التي تسجل العقود والاتفاقيات المبرمة بين الناس في الامور المالية والاقتصادية او في العلاقات الاجتماعية وبخاصة منها ما يتعلق بتنظيم الاسرة

والتي تعرف عادة بالاحوال الشخصية ، وان هذه العقود تخضع الى صياغة متميزة وتبويب للمعلومات وتثبيت للحقوق والواجبات المترتبة على التعاقد كما تنص احيانا على نوعية العقوبات التي يتحملها ناكل التعاقد .

ومما يؤكد خضوع تدوين هذه العقود لاشراف جهة رسمية ، انها كانت تذييل عادة باسماء الشهود ، وتختتم اسماء الشهود غالبا باسم شاهد يصف نفسه « بالكاتب » وهي وظيفة رسمية رفيعة المستوى في العراق القديم ، تشكل دلالة التأييد الرسمي للعقد او الاتفاق .

لذلك فان الباحثين في تاريخ التشريع في العراق القديم ، يجدون في هذه العقود والمعلومات القانونية مادة علمية غزيرة ، يتعرفون من خلالها على كثير من الجوانب القانونية ، منها مثلا شروط الدين وحقوق الدائن ونسب الفوائد ، وعقوبة الاخلال بالالتزام ، وشروط الزواج او الطلاق وتبعات كل منهما الاجتماعية والاقتصادية ، وغير ذلك من شؤون الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وكانت هذه العقود توضع عادة بعد تسجيلها في غلاف من الطين ايضا ، تدون عليها كامل المعلومات التي يتضمنها العقد ، او مختصرها حتى يكون بالمستطاع الرجوع اليها في حالة وقوع خلاف بين طرفي التعاقد بخصوص فترات الاتفاق ولكن في حالة تعذر فض الخلاف الناشب بين الطرفين ، يتم اللجوء عادة الى المحكمة التي تعتمد بدورها ويحق لها فقط ، كسر غلاف العقد ، واخراج العقد الذي يكون بمثابة النسخة الاصلية ، ودراسة شروط الاتفاق وحسم الخلاف عن طريق اصدار الحكم لصالح احد الطرفين وهذا يعني ضمنا ان اي كسر يتعرض له غلاف الرقيم ، او ان يتم اخراج الرقيم من داخل غلافه ، يعرض فاعل ذلك الى الاتهام بالتزوير .

وتكون بعض العقود مهمة جدا ، مثل عقود شراء البيوت والعقارات او عقود الزواج او الارث او التبني او الدين او الايجار وذلك بسبب استمرار اثرها القانوني لفترة زمنية طويلة ، قد تتعدى عمر الجيل الذي ابرم الاتفاق

ووقع العقد ، لذلك يحرص اصحاب العقد على حفظها في اماكن امينة وانتقالها مع التركة من الابهاء الى الابناء ، وبذلك قد تجتمع عند بعض الاسر خلال بضعة اجيال اعداد من العقود التي تخص معاملاتهم المالية وإتفاقاتهم المختلفة وذلك ما يتم اكتشافه احيانا في بعض الدور على شكل سجلات كاملة لبعض هذه العوائل فترسم لنا صور النشاط الاقتصادي وجوانبه لبعض العوائل الثرية في العراق القديم * *

ومع الفائدة المتوخاة من دراسة العقود والمعاملات القانونية الكثيرة ، وبخاصة من الفترات التي سبقت ظهور القوانين المدونة ، فإن ظهور القوانين المدونة مع أواخر الالف الثالث ق * م يشكل المصدر الرئيسي لدراسة وتتبع الجوانب القانونية في العراق القديم ، مع استمرار الفائدة من العقود في توضيح بعض فقرات القوانين او فهم جوانبها التفصيلية ، كما انها تؤكد لنا مدى تطبيق القوانين والالتزام باحكامها في العراق القديم *

يجمع الباحثون على ان قانون الملك اورنمو ، مؤسس الدولة السومرية الحديثة او ما تعرف بسلالة اور الثالثة، الذي حكم ما بين ٢١١٣-٢٠٩٦ ق م، هو اقدم النصوص القانونية المكتشفة لحد الان * ونقول المكتشفة ، لان في تقدير الباحثين ان بقايا المدن والمستوطنات القديمة لا تزال تخفي بين انقاضها نصوصا قانونية اخرى لم يجالף الحظ المنقبين بعد لاكتشافها فهناك اكثر من دليل منطقي على وجودها ، ومن ذلك وجود العقود القانونية ، وكذلك اشارات الملوك الصريحة الى اصدارهم للقوانين ، ومنهم سرجون الاكدي حوالي (٢٣٥٠ ق م) الذي يذكر من بين اعماله الكثيرة اصداره للقوانين *

ومثلما يكتسب قانون اورنمو قصب السبق والاقدمية لاننا لم نعرف لحد الان قانونا مدونا يسبقه ، وهذا امر ربما يتغير في المستقبل مع احتمال العثور على قوانين تسبقه ، فإن قانون حمورابي يكتسب الاهمية والشهرة بين قوانين العراق القديم على الرغم من انه ليس بالقانون الاول ولا الاقدم، وان زمن

صدوره يتأخر عن زمن صدور قانون اورنمو بنحو ثلاثة قرون ولكن الذي يميز قانون حمورابي ويمنحه الشهرة والاهمية ، كونه القانون الوحيد الذي وصل الى ايدي الباحثين بنسخته الاصلية وبحالة كاملة وجيدة تقريبا ، لذلك امكن ترجمته ودراسته واستقراء موضوعاته وعقد مقارنات بين فقراته او بين مبادئه وافكاره وبين التراث القانوني اللاحق . وهذا ما جرى لقانون حمورابي فعلا ، فقد شهدت نصوصه اوسع الدراسات اللغوية والفقهية والتاريخية والمقارنة ، مثلما ترجم الى العديد من اللغات الحية المعاصرة .

ومادام الحديث عن منشأ القوانين ونماذجها الاولى ، فتجدر الاشارة الى عمل اصلاحي عظيم الشأن يكاد يرقى الى مستوى القانون ، لولا انه يخلو من المقدمة والخاتمة ، وتقتصر موضوعاته على معالجة الوضع الضرائبي وشؤونه تقريبا ومع ذلك فان هذه الاصلاحات المنسوبة الى امير لجش اورو كاجينا بحدود « القرن الرابع والعشرين ق . م » يصنفها معظم الباحثين في تاريخ القانون مع المناهل الاولى للقانون والتشريع في العراق القديم .

وابرز المبادئ التي تتمحور حولها اصلاحات اورو كاجينا هو التأكيد على فكرة « الحرية في حدود القانون » وان المناصب الوظيفية العالية في الحكومة او الادارة لا تعفي صاحبها من الحدود القانونية ، لذلك اعلنها اورو كاجينا حربا ضد الموظفين وجامعي الضرائب ممن خرخوا التقاليد وتجاوزوا على حقوق وممتلكات المواطنين .

نعود ثانية للتعريف بقانون اورنمو ، الذي يعد اقدم قانون مدون في تاريخ العراق وفي تاريخ البشرية جمعاء ، ولكن من المؤسف حقا ان هذه الصورة الاولى للفكر القانوني في العراق القديم وصلتنا ناقصة جدا ، وعلى الرغم من تمكن الباحثين من تشخيص مقدمته وخاتمته ، أي ان القانون مبوب بموجب الاسلوب الصحيح للقانون ، ولكن عدد المواد التي امكن ترجمتها لا تزيد على اثنتين وعشرين مادة ، والسبب ان النسخ المكتشفة من

القانون كانت مدونة على الواح من الطين يرجح انها مستنسخة عن الاصل الذي كان مدونا على الحجر ، تكسرت وتلف معظم اقسامها لذلك تعذر التعرف على الصيغة الكاملة للقانون .

دون قانون اورنمو باللغة السومرية ، ويتوضح من بقايا المقدمة ، كيف فوض الاله نثار (اله القمر) اله مدينة اور ، الملك اورنمو ، لحكم المدينة ، ووصفه بالملك الورع التقي العادل ، وان مجيئه كان ايدانا بالقضاء على الفساد والقوضى وسوء الادارة والتجاوز على حقوق الاخرين ، وبذلك تمتع الناس بحقوقهم وحريتهم ، اما المسواد القانونية ، فأن المتبقي منها والتي امكن ترجمتها ، فانها تعالج الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وتتنرق ايضا الى بعض المخالفات والامساءات وتحدد العقوبة لكل حالة منها .

وتتناول بعض المواد وضعية العبيد من بين الممتلكات ومعالجة حالة غرارهم ، ومن الملاحظات الهامة على قانون اورنمو انه ينص على مبدأ التعويض في العقوبات على خلاف المبدأ الذي يعتمده قانون حمورابي وهو القصاص . وتضع بعض المواد القانونية ضوابط للعمل القضائي وسير المحاكم . وبخاصة منها ما يتعلق بشهادة الزور وتبعاتها ، ويفهم من بعض الكلمات التي نجت من التلف الذي يصيب معظم الكتابة ، ان المواد القانونية الاخرى، عالجت موضوع الارض والزرع وما يقع بسببهما من مشاكل .

ومن حسن الصدف ان القانون الثاني من حيث القدم ، وهو القانون الذي اصدره الملك لبث عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ ق م) خامس ملوك سلالة ايسن وهي من السلالات التي حكمت مناطق من العراق في فترة العهد البابلي فقد وجد بحالة افضل من سابقه ، قانون ارنمو مما يتيح امام الباحثين فرصة التعرف بشكل افضل على كثير من الجوانب القانونية في بلاد وادي الرافدين فقد حفظت لنا الكسر السبع جزءا من المقدمة والخاتمة وعددا من المواد القانونية يصل لحوالي سبع وثلاثين مادة ، يعتقد انها تمثل ثلث النص الاصيلي

من القانون ، ومن المؤكد ان هذه الكسر هي نسخة من القانون الاصلي ، وذلك بدلالة كثرة الاخطاء النحوية وسوء ترتيب المواد ، فقد جرت العادة ان تستنسخ القوانين او بعض النصوص الدينية من قبل الطلبة لغرض تعليمهم وتدريبهم على الكتابة والقراءة ، والراجح جدا ان النسخ المكتشفة لقانون لبت عشتار هي من قبيل هذه النصوص اما الاصل فانه دون على مسلة او نصب مميز كما يستنتج ذلك من الفقرة التي وردت في مقدمة القانون وهي تقول « عندما عززت رفاهية بلاد سومر واكد ، اقامت هذه المسلة » *

يمكن القول ان المقدمة والخاتمة في القوانين العراقية القديمة كانت تتبع تقاليد كتابية ثابتة ، تمجد الملك وتبين خصاله وصفاته الحميدة وكيف اختارته الالهة للحكم وفوضته امر الناس ليحكم بينهم بالعدل وينشر القانون ، كما لا تهمل المقدمة الاشارة الى الاوضاع المتردية وسوء الادارة وفساد الموظفين ، التي عمل الملك باصدار قوانينه ، لايقافها وازالة الحيف الذي لحق بالمواطنين *

اما المواد القانونية التي سلمت من التلف الذي اصاب اللوحات ، والتي امكن ترجمتها ، فأنها تعالج شؤون الاراضي الزراعية ، الحققت بها مواد قانونية تعالج شؤون السرقة في البساتين او في دار مجاورة لارض زراعة مهجورة ، كما عالجت بعض المواد شؤون العبيد في حالات هربهم او ايواء الهاربين منهم او عتقهم ، كما تناولت مواد اخرى حالات الاعتداء على الآخرين ، وخصصت مواد لتنظيم شؤون الضرائب ، وبسبب اهمية سلامة العلاقات الخاصة فيما يعرف بقانون الاحوال الشخصية ، فان عددا مميزا من المواد يعالج جوانب الموضوع وتبعاته من حيث الاولاد والحقوق المالية والاجتماعية وشؤون الارث *

وهكذا نلاحظ ان الامور الزراعية ، وشؤون الممتلكات الخاصة ، وبخاصة العبيد ، الذين يمثلون جانبا متميزا من ممتلكات الافراد ، لكونهم

اليد العاملة التي تحتاجها الاعمال الزراعية ، وكذلك قوانين العقوبات واخبرا
قوانين الاحوال الشخصية ، تشكل الموضوعات الاساس التي عالجتها القوانين
العراقية القديمة ، وهي مازال ابرز الموضوعات في القوانين المعاصرة .

واذا كان قانون اورنمو وقانون لبت عشتار قد دونا باللغة السومرية ،
فان ثالث القوانين من حيث التسلسل الزمني ، وهو قانون مملكة اشنونا ،
يعد أول القوانين المدونة باللغة الاكدية ، وقد اكتشف هذا القانون خلال
حفريات مديرية الاثار العراقية في موقع اثري يقع في منطقة بغداد الجديدة
الكائنة في ضواحي العاصمة بغداد ، اسمه تل حرمل ، ومن نتيجة التنقيب
عرفنا انه يمثل مدينة صغيرة اسمها (شادوبوم) من مدن مملكة اشنونا ،
التي كانت تشرف هيمنتها السياسية على حوض دىالى بكامله تقريبا ، ومملكة
اشنونا واحدة من الممالك التي ازدهرت في مطلع العهد البابلي القديم ،
وبقيت دويلة قوية حتى نجح الملك حمورابي في ضمها مع غيرها من الدويلات
الى مملكة موحدة قوية اقامها في العراق تعرف باسم سلالة بابل الاولى او
مملكة بابل القديمة .

ان اللوحين اللذين اكتشفا في تل حرمل هما نسخ من قانون اصلي
لمملكة اشنونا لم يكتشف لحد الان ، وينسب هذا القانون الى المملكة دون
تعيين اسم الملك المشرع لتعذر معرفته بسبب تلف في النص في موضع اسم
الملك . وقد تسبب ذلك الى تعذر تعيين تاريخ تشريعه بشكل دقيق ، ولكن
مما لا شك فيه انه سبق قانون حمورابي ، وربما بمدة تزيد عن خمسين سنة .

لقد سبقت الاشارة الى بعض المآخذ على التبويب واللغة في قانون لبت
عشتار ، ومثل ذلك ، بل اكثر ، يقال بخصوص قانون اشنونا ، والسبب
الرئيسي في ذلك ان النسخ المكتشفة هي ليست القانون الاصلي ، وانما
نماذج استنسخت لاغراض تعليمية ، من قبل الطلبة ، لذلك فهي معرضة الى
الاطفاء اللغوية وعدم الدقة في تبويب موادها .

وقانون اشنونا كسابقيه غير كامل ، لذلك لا نعرف عدد المواد الكاملة في النسخة الاصلية ، وان عدد المواد المثبتة على النسخ المكتشفة تصل الى سبعين مادة قانونية .

وعلى غير عادة القوانين السابقة ، فان المواد الاحدى عشرة الاولى تتعلق بتحديد الاسعار والاجور مما يثير الشك في صحة تبويب المواد المستنسخة كما ان ميزة هذه الفقرات في انها لا تبدأ باداة الشرط « اذا » على غرار كل المواد القانونية .

اما المواد الاخرى فانها تعالج شؤون الممتلكات والاموال وقانون العقوبات وقوانين الاسرة ، اما غياب الفقرات الخاصة بالزراعة وشؤونها ، فالراجح ان سببه عدم العثور على النسخة الكاملة من القانون .

تبدأ المواد القانونية بعد مواد الاجور التي اشرنا اليها ، بمعالجة الجوانب الاجتماعية والتجاوزات وتنظيم المعاملات المالية فمنها مواد تعالج موضوع السرقات واخرى لتنظيم العقود القانونية وتعين شروط ابرامها وبطلان ما يشذ منها عن هذه الاحكام . وتتناول مواد اخرى موضوع الاحوال الشخصية ومخالفة القواعد والاحكام المقررة ، والغريب في تبويب مواد الاحوال الشخصية ، ان احدى الفقرات جاءت في نهاية المواد بمعزل عن المواد الخاصة بالاحوال الشخصية . ومما يتعلق بشؤون الملكية موضوع العبيد الذي تطرق القانون لمعالجة الامور المتعلقة بهم . وقد اشرنا الى اهمية العبيد من بين الممتلكات لانهم يمثلون جانباً رئيسياً في الممتلكات ولكونهم يمثلون اساس اليد العاملة التي لها اهميتها في المجتمعات الزراعية .

ومع كل النواقص والمآخذ التي تلاحظ او تسجل على القوانين التي عرضنا لها لكنها تترك ثقلاً واضحاً على مجرى دراسة تاريخ القانون في العراق القديم وان خلاصة المعلومات والمبادئ والافكار التي تلتقي عندها القوانين هذه تشكل الخلفية الصحيحة لقانون حمورابي . ولهذا السبب ، فقد اشرنا

من قبل الى سبب الاهمية التي يحتلها قانون حمورابي في مجرى الدراسات القانونية القديمة ، لانه على عكس القوانين الاخرى المكتشفة ، فهو النسخة الاصلية ، ويحتوي على (٢٨٢) مادة قانونية تطرقت الى جوانب حياتية اكثر تنوعا واوسع تفصيلا . واخيرا فهو بالاضافة الى القوانين التي سبقته ومجموعة المصادر المختلفة لدراسة القانون يعطينا الصورة الواضحة والكاملة للابعاد التاريخية للقانون والتشريع في العراق القديم .

ومما يزيد من اهمية قانون حمورابي انه كتب بلغة اديبة وقانونية رفيعة المستوى ، لذلك يعتمد الباحثون نصوص القانون لتعليم الطلبة قواعد اللغة الاكدية ، لان القانون يمثل اللغة القواعدية المثالية التي تجمع كل شروط وقواعد الجملة الاكدية من حيث تركيبها وقواعدها .

اما تبويب المواد القانونية في قانون حمورابي ، فانه يحاكي تبويب احداث القوانين والتشريعات من حيث الترابط الموضوعي بين مادة واخرى او الانتقال من موضوع لاخر .

بعد حمورابي من الحكام المعمرين ، فقد دام حكمه زهاء ثلاث واربعين سنة قضاها في انجاز مهمات سياسية وعسكرية وادارية وتنظيمية تعد مثالا جيدا للانجازات الرائعة ، نجح حمورابي على اثرها في اقامة دولة موحدة قوية شملت بنفوذها مناطق العراق وبعضا من المناطق خارج العراق ، لذلك وجد حمورابي ضرورة اصدار قانون موحد تسري احكامه على جميع انحاء المملكة الموحدة ، فان جانبا رئيسيا من قوة الدولة يتمثل في وحدة قوانينها .

كتب قانون حمورابي باللغة الاكدية على مسلة من حجر الديوريت الاسود يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٢٥ سم ، وقطرها حوالي ٦٠ سم ، ونقشت في اعلى المسلة صورة تمثل الاله شمش (الاله الشمس) وهو متربع على عرشه ، ويقف امامه حمورابي وقعة المتعبد يستلم من الاله العصا وحبل القياس ، وهما من رموز وشارات السلطة والحكم في العراق القديم ، والراجح بسبب صورة الاله

الشمس التي تعلقو المسلة ان هذه النسخة المكتشفة هي نسخة مدينة سبار ،
بينما تعد نسخة مدينة بابل والتي كانت تحمل صورة الاله مردوخ في عداد
المفقودات •

وتؤكد من وجود نسخ اخرى للقانون بدلالة كسر من حجارة مسلات
اخرى تحمل اجزاء من المواد القانونية اكتشفت بين انقاض المدن القديمة •

وبالاضافة الى النسخ الاصلية التي يقدر انها صنعت في زمن حمورابي
ووزعت على المدن الرئيسية في مملكة حمورابي فان بعض الدلائل تشير الى
استمرار مفعول هذه القوانين بعد زمن حمورابي لمدة طويلة ، فقد استنسخت
سها مواد كثيرة لاغراض التعليم او الاستفادة منها من قبل المشتغلين بشؤون
القوانين والمحاكم •

والمسلة بحالتها الاصلية مؤلفة من (٤٤) حقا من الكتابة المسمارية فيما
عدا بعض الاجزاء التالفة تعمدًا في اسافل الاعمدة الكتابية ، ويرجح ان احد
الملوك العيلاميين الذي كان وراء سرقة هذه المسلة ونقلها الى عاصمته سوسة،
كان وراء هذا المسح قصد تسجيل اسمه وتخليد ذكره ، ولكنه ربما ذعر
وخاف من اللعنات الشديدة الوارد ذكرها في الخاتمة ، التي ستنزل على من
تسول له نفسه ويطمس معالم هذا القانون ، فعدل عن عمله وبقي مكان المواد
الاخيرة فيما يلي المادة (٢٨٢) خاليا ، حيث يرجح ان المواد القانونية الكاملة
تبلغ نحو (٣٠٠) مادة •

وقانون حمورابي مؤلف من مقدمة يحدد فيها حمورابي القابه واعماله
والاسباب التي دعت له لاصدار القانون ، وهي انتداب الاله مردوخ له ليحكم
مدينة بابل وينشر العدل بين الناس ، تليها المواد القانونية ، واخيرا الخاتمة •
ويذكر فيها النتائج المتوقعة من تطبيق القانون بقوله صراحة ، هذه هي
« الاحكام العادلة التي اصدرها حمورابي الملك العظيم للبلاد فازدهر فيها
العدل والحكم الصالح » ويشير حمورابي في الخاتمة على الاجيال اللاحقة ان

تتدبر احكام قانونه والسير بموجبها لانها ستكفل لهم العدل والطمأنينة ،
كما يعدد اللعنات الشديدة التي ستنزلها الالهة بحق من يعمل على تحريف
نصوص القانون او ازالتها او محو اثرها .

وتجدر الاشارة بخصوص مقدمة قانون حمورابي ، انها تمثل مكانة
مهمة في الدراسات اللغوية والادبية ، وبسبب لغتها البليغة وجزالة الفاظها ،
يظن انها مكتوبة بأسلوب شعري ، وانها تقترب في اسلوبها ولغتها من
التراتيل الدينية .

اشرنا من قبل الى روعة تنظيم وتبويب المواد القانونية في شريعة
حمورابي حيث يمكن حصرها في خمسة ابواب رئيسية هي :

- ١ - التقاضي واصول المرافعات وتشمل المواد ١-٥
- ٢ - الاموال او المعاملات المالية وتقع في (١٢٠) مادة ٦-١٢٦
- ٣ - الاشخاص او قوانين الاحوال الشخصية : وتشمل المواد ١٢٧-٢١٤
- ٤ - الاجور : وتشمل المواد ٢١٥-٢٧٧
- ٥ - العبيد : وتشمل المواد ٢٧٨-٢٨٢

وعلى الرغم من الموضوعات الكثيرة التي يتطرق اليها قانون حمورابي ،
فأنه يغفل جواوب كثيرة اخرى ، كما انه يتطرق الى بعض الامور الخاصة في
الوقت الذي يهمل فيه بعض القضايا العامة ، لذلك توحى مواده وكأنها من
نوع الدستور الموجز الذي تضمن القضايا الهامة من وجهة نظر المشرع وقت وضع
القانون والراجح جدا ان القضايا المعروفة والشائعة بين القضاة لم تستوجب
تثبيتها في القانون ، بخاصة وان عددا كبيرا من قرارات المحاكم الصادرة في
دعائوي سابقة كانت تسجل ويحتفظ بها حتى يستعين الحكام بها عند النظر
في قضايا مماثلة او مقارنة في المستقبل .

فقد كشفت اعمال التنقيب في مدينة لجش عن مجموعة من نصوص

قرارات المحاكم يبلغ عددها (٢٥٠) وثيقة ، تؤرخ من فترة سلاله اور الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٦ ق م) وهي تسجل الاحكام الصادرة بخصوص موضوعات متنوعة .

اننا نعرف تمام المعرفة ان القانون لم يكن الفصل في كل الامور ، بل أن « شيوخ المدينة » او « مجلس الشيوخ » كان يساعد الحكام في اصدار القرار واحيانا ينفردون باصدار الاحكام ، وذلك ما يوضح ان الاعراف والتقاليد التي كان رجالا المدينة الكبار في السن يمثلونها ، تشكل احكاما يستند اليها عند النظر في بعض المخالفات ، وبذلك شكلت هذه المنابع الاخرى للقانون ولعمل القضاة ، مبررا لتجاوز قانون حمورابي للكثير من الامور والقضايا القانونية .

ولكن في حالة تجاوز هذه الملاحظات ، فإن قانون حمورابي يمثل واحدا من اقدم الانجازات الرائعة في تاريخ الحضارة الانسانية وانه يسبق قانون الامبراطور الروماني جستنيان بنحو الف عام .

ويمثل القانون وجوانب احكامه معينا غزيرا لعلماء القانون عند دراستهم لتاريخ القانون ومراحل تطور الفكر القانوني . كما ان المعلومات الواسعة عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تناولها القانون تساعد في رسم صورة حية لواقع المجتمع وطبيعة علاقاته واسس تنظيماته ومجموعة مثله وقيمه وجانبها من افكاره .

كما ان النقطة الجوهرية التي يعكسها قانون حمورابي والقوانين العراقية الاخرى ، هي ذروة التنظيم الذي بلغه المجتمع العراقي وهو احد ابرز مقومات المدينة الراقية لبلاد وادي الرافدين .

والى جانب ذلك فان قانون حمورابي يكشف في معالجاته انه القانون المدني العام الموحد ، الذي يخضع جميع المواطنين لاحكامه ، وانه يلزم الجميع ، من موظفين كبار او قضاة او رجال دين او كاهنات او رجال عاديين

او عبيد واماء ، للاصطفاف سواسية امام احكامه . وصحيح ان العقوبات في قانون حمورابي كانت تأخذ بنظر الاعتبار المرتبة الاجتماعية ، ولكن المساواة تتمثل في مسؤولية الجميع عند اجراء اعمالهم وتنفيذ التزاماتهم ، من التقيد ببنود القانون ومراعاة احكامه .

ويخضع حمورابي رجال الدين لاول مرة لاحكام القانون المدني ، بينما نعرف ان القضاء والمحاكم كانت فيما سبق من اختصاص المعبد ورجال الدين ، وبذلك فان حمورابي بعمله هذا يؤكد فصل القضاء عن الهيمنة الدينية وربطه بعجلة الادارة المدنية .

والى جانب ذلك فان علماء القانون يؤشرون بعض المبادئ القانونية المتقدمة في احكام شريعة حمورابي ، منها ما يعبر عنه الفقهاء بمبدأ القوة القاهرة ، وتفسيره ان الملتزم يعفى من تنفيذ التزامه اذا تعذر عليه ذلك بقوة قاهرة أي بسبب وقوع حدث يستحيل عليه تغييره مثلما يستحيل معه تنفيذ الالتزام .

ويشار ايضا الى مبدأ قانوني اخر هو منع التعسف في استعمال الحق الفردي ، ومعناه ان الحقوق الخاصة يجب الا تسبب اضرارا بحقوق الآخرين .

وقبل ختام حديثنا عن قانون حمورابي علينا ان نقف عند بعض السمات الشخصية لهذا العاقل القدير التي كان لها من دون شك اثر على ازدهار القانون في عهده ، فلم يشتهر حمورابي باصدار القانون فحسب ، ولو ان هذا الانجاز لوحده يرقى به لمصاف مشاهير الحكام وعظماء التاريخ ، بل انه يؤرخ سنة حكمه الثانية بنشر العدل في البلاد . وصحيح ان هذه العبارة استخدمها عدد ليس بالقليل من ملوك العراق القديم ، ولكن المخلفات الكتابية للملك حمورابي تكشف لنا عن التطبيق العملي للعدل الذي قصده ملوك العراق القديم .

لقد اشتهر حمورابي اضافة لقانونه ، بعدد من الرسائل التي كان يبحث بها الى كبار موظفيه وحكام المدن المختلفة الذين يعملون بامرته ، ويبلغ عدد الرسائل المكتشفة لحد الان (١٤٥) رسالة . واهمية هذه الرسائل في انها تكشف عن تتبع حمورابي الشخصي والمباشر لشؤون البلاد والمجتمع ، ومن الامور التي اولاهها حمورابي عنايته ، شؤون القضاء وحقوق المواطنين وضمان انتشار العدل . فهو يتابع تنفيذ القرارات التي اصدرتها المحاكم او التعليمات والاوامر التي سبق له اصدارها . كما كان الناس يرفعون احيانا شكواهم الى الملك مباشرة . وبخاصة عند شعورهم بانعدام العدالة ، او اذا كان الخلاف مع موظف كبير ، كأن يكون حاكم المدينة ، فيتدخل عندها حمورابي لينتصف للمظلومين وينشر العدل ، كما كان حمورابي ينقض بعض الاحكام اذا شعر بمنافاتها للقانون والعدالة ، وبذلك فانه جعل من شخصه مراقبا مباشرا لكل الامور المتعلقة بشؤون العدالة والقانون ، وكان يمثل دور محكمة استئناف عليا يرجع اليها المواطنون ، حيث كان يحق للملوك فقط تغيير قرارات المحاكم ، لكونهم مصدر الشرائع وينبوع العدالة . وعليه يكون طيعيا من ملك اولى شؤون العدل والقانون هذا الاهتمام الكبير ان يشهد عصره صدور اهم واشهر القوانين المدونة في تاريخ الحضارات القديمة .

ونعرج في نهاية استعراضنا للقوانين العراقية القديمة على القوانين لاشورية ، فالمعروف ان المكتشف منها لحد الان قليل جدا لا يتناسب مع شهرة وعظمة هذه الدولة وملوكها ، وكثرة انجازاتهم ، وبخاصة الاعمال الادبية منها . ولكن من بين التفسيرات لهذا النقص في اصدار قوانين عند الاشوريين انهم اعتمدوا القوانين السابقة ، وبخاصة قانون حمورابي ، ومما يؤيد ذلك انه تم اكتشاف استنساخ لفقرات من قانون حمورابي في مكتبة الملك اشور بانبيال الشهيرة ، كما يدعم ذلك ايضا ، ان المجموعة القليلة من الفقرات القانونية الاشورية المعروفة لحد الان ، تتفق في احكامها مع القوانين

البابلية التي سبقتها بنحو الف عام • لذلك يبدو واضحا ان استمرار المبادئ والاحكام القانونية لم يستوجب اصدار شرائع وقوانين جديدة ، اضيف الى ذلك اهمالك الملوك الاشوريين بالاعمال العسكرية والعمرائية التي شغلتهم بعض الشيء عن الانصراف لجوانب الادارة والتنظيم ، ومنها اصدار القوانين ، كما يرجح سبب اخر لعزوف الاشوريين عن اصدار القوانين ، مفاده انهم حكموا امبراطورية واسعة ضمت شعوبا وامما مختلفة ذات ثقافات وعادات وافكار متباينة ، مما يتعذر على المحاكم ايجاد المبادئ القانونية التي يمكن ان تجتمع عندها هذه الامم والشعوب •

ومع هذا فان هناك مجموعتين رئيسيتين من القوانين الاشورية ترجع الاولى الى العهد الاشوري القديم (حوالي ٢٠٠٠ - ١٧٥٠ ق م) عثر عليها في المستوطنة التجارية الاشورية ، كائش (كول تيه) في اسيا الصغرى • وهي مواد قانونية تعالج بالدرجة الاساس شؤون المحاكم واصول المرافعات التي تنظر في الشؤون الاقتصادية عامة ، والتجارية منها بوجه خاص • حيث يجب ان تذكر بان هذه المستوطنة كانت حلقة الوصل التجارية بين اسيا الصغرى وبين بلاد اشور • وعلى الرغم من ان هذه النصوص القانونية لم تكتشف في بلاد اشور ، ولكن بسبب طبيعة هذه المستوطنة ، وبسبب لغة النصوص ، فالمعتقد انها تمثل نفس القوانين التي كانت تسود بلاد اشور •

اما المجموعة الثانية من النصوص القانونية الاشورية ، فتعرف بالقوانين الاشورية المتوسطة ، ويرجع زمنها الى ما بين (١٤٥٠ - ١٢٥٠ ق م) وهي التي اكتشفت في اطلال مدينة اشور ، وهي مدونة على الواح من الطين حالتها تالفة جدا مما يزيد من صعوبة التعرف على تفاصيلها ، والغالب انها الواح كتبت أو استنسخت في فترات مختلفة وذات موضوعات متباينة ليس بينها ترابط • ومهما كانت الموضوعات وحالة هذه اللوح والغرض من تدوينها فانها تكشف في احكامها بوضوح عن استمرار التقاليد القانونية العراقية القديمة

كما عهدناها في قانوني اشنونا وحمورابي مع اختلافات بسيطة املتها شروط التطور التاريخي •

ومثلما نختتم الحديث في التاريخ السياسي للعراق القديم بعهد الدولة البابلية الحديثة (الكلدية) يتوجب علينا ان نشير الى النتائج القانونية لهذه المملكة ايضا ، وواقع الحال انه لم يصل اليانمن هذا العهد غير لوح واحد يتضمن عددا من المواد القانونية ، ولكن يفهم مما ورد في نهاية النص ان هناك ألواحاً أخرى من المؤمل ان تكتشف في المستقبل •

ومع الحالة الرديئة لهذا اللوح فقد امكن تمييز حوالي خمس عشرة مادة تنطرق الى حالات التجاوز على الاموال والممتلكات وكذلك موضوعات الاحوال الشخصية ومما يقال بشأن احكام ومبادئ هذه القوانين انها لا تختلف كثيرا عن المبادئ العامة التي سادت العراق منذ منتصف الالف الثالث ق • م سوى ما اقتضته ظروف التطور الاجتماعي والاقتصادي لهذا العهد أو ذاك •

لقد اشرنا في مطلع حديثنا عن القوانين ، كما تطرقنا الى ذلك عند تعرضنا لقانون حمورابي ، الى ان القانون يمثل الصورة المثالية للمجتمع التي اتفق الناس على ايجادها وسعت الحكومات الى تثبيتها وازدهارها ، لذلك فان التجاوزات والمخالفات والاساءات ، انما هي حالات استثنائية تولى القانون معالجتها وصولا الى تحقيق المستوى المطلوب من العلاقات والتنظيم وشروط الالتزام •

وفي ضوء هذه النظرة للقوانين ، فأئنا نستطيع متابعة الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتطور الحرف والصناعات ومستويات الاجور والاسعار ، وما الى ذلك من شؤون الحياة الانسانية ، فمثلا تعد اشارة قانون حمورابي في بعض مواده الى اخضاع اعمال الجراحين لأحكام القانون دلالة ساطعة على اعتماد الجراحة في الطب ، ويبدو واضحا ايضا ان بعض العمليات

الجراحية كانت مضمونة النجاح الى درجة ان القانون يأمر بمعاقة الطبيب الذي يمشل في اجرائها بنجاح ويتسبب في الحاق الضرر بالمريض •

ومثلما يقال عن الجراحة والتطبيب ، يذكر ايضا بخصوص جوانب اخرى عرضنا لها في الموضوعات الرئيسية التي تطرق اليها قانون حمورابي ، فمثلا في شؤون الزراعة والري والديون والايجار والشركات والممتلكات وما الى ذلك من أنشطة مختلفة ، وسوف نعرض بالتفصيل لموضوع الاحوال الشخصية في ضوء القوانين ، لنحاول من خلالها وفي ضوء ما يتوفر من معلومات في نصوص وعقود اخرى ان نتابع تفاصيل العلاقة في الخلية الاساس في بناء المجتمع وهي العائلة ، لأنه في تقديرنا ، يساعد كشف الجزء في معرفة الكل ، وان التعرف على العائلة في وضعها الاجتماعي والاقتصادي وعلى العلاقات التي تحكم افرادها ، وبخاصة العلاقة بين طرفي العلاقة الرئيسيين وهما الرجل والمرأة ، سيكشف من دون شك عن اسس العلاقات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع عامة ، وسيؤثر بدوره زخم الحركة المتطورة لحضارة العراق القديم •

الاحوال الشخصية وبناء العائلة

اشرنا عند استعراضنا للقوانين العراقية القديمة الى تطرقها لقوانين الاحوال الشخصية ، اي قوانين تنظيم العائلة ، كما قدمت النصوص المسماة عددا ليس بالقليل من العقود القانونية المتعلقة بشؤون العائلة ، لذلك وبالنظر لوفرة المعلومات عن نظام العائلة العراقية القديمة ، نجد ضرورة كشف تفاصيل هذا النظام ، لا لنعرض لاركانه واسسه وخصائصه فحسب ، وانما نقصد من وراء ذلك الكشف عن متانة البناء الاجتماعي المتمثل بالعائلة باعتبارها النواة الاساسية للمجتمع •

وبسبب اهمية البناء الاجتماعي للعائلة ، فقد اهتمت القوانين

والاصلاحات الاجتماعية والديانات بوضع الضوابط والقواعد لاشكال العلاقات التي تحكم افراد العائلة ، لان في سلامة العلاقات العائلية تضمن سلامة التطور الاجتماعي وتؤكد من التقدم والازدهار .

ولم تتخلف القوانين والشرائع العراقية عن غيرها في مجال تنظيم العلاقات العائلية ، بل انها اولت هذا الموضوع عناية كبيرة تزيد عن عناية القوانين ببقية الموضوعات ، والسبب الرئيسي في ذلك ان العلاقات العائلية او ضوابط وقواعد الاحوال الشخصية تتعدد في اشكالها ، فهي روابط اجتماعية واقتصادية ، ومنها روابط آنية واخرى تسحب اثرها على المستقبل ، كما ان مجموع الروابط الاقتصادية والاجتماعية التي تنشأ بسبب بناء الاسرة ، تنتقل بتأثيرها الى عدد من الاسر من ذوى اصحاب العلاقة المباشرة ، الزوج والوجة ، وحتى في الجوانب الاقتصادية للعلاقة ، فمنها ما يتحقق مباشرة بعد قيام العلاقة الزوجية ، ومنه ما يتأجل تنفيذه للمستقبل في حالة الطلاق مثلاً ، او حدوث خلافات زوجية ، او في حالة الوفاة لاحد طرفي العلاقة ، ولهذه التداخلات ووجه العلاقة الواسعة يخصص للاحوال الشخصية عدد كبير من المواد القانونية يحتل حجماً مميّزاً في قوانين المجتمعات الانسانية تتناسب مع اهمية الموضوع في حياة بني البشر .

وعلى غرار حديثنا عن منشأ القوانين وقدمها ، فأن القواعد العامة والالتزامات الاجتماعية والاقتصادية لقوانين الاحوال الشخصية ، تستمد مقوماتها من العادات والتقاليد والاعراف التي تسود المجتمع حيث يؤكد ذلك اكتشاف عدد من الاتفاقات القانونية فيما يعرف بالعقود التي تنظم الزواج او الطلاق او الارث او التبني وذلك قبل ظهور القوانين المدونة ، والملاحظ على عقود الزواج والطلاق والارث والتبني انها تتناغم في قواعدها مع الشروط التي تحددها القوانين المدونة مما يؤكد بدوره على المنهل الذي استقت منه هذه القوانين مبادئها .

وعليه فأن مجموع التراث المدون من عقود قانونية او فقرات ومواد قانونية يشكل المصادر الرئيسية لدراسة الحدود القانونية للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في بناء الاسرة العراقية القديمة .

ان الركنين الاساسيين في بناء العائلة يتمثلان في الرجل والمرأة اللذين يصبحان بعد تسجيل اتفاقهما على الزواج في عقد قانوني ، زوجا وزوجة ، ان هذه النقطة الجوهرية تضمن للمرأة مجموعة الحقوق الاجتماعية كزوجة وكأم ، وكعضو فاعل ومؤثر في المجتمع او كما يعبر عنها ، النصف الاخر للبشرية .

ان هذا الادراك السليم للعلاقات الزوجية وفصلها عن مظاهر العلاقات الجنسية المجردة انما تؤكد على الجوهر الحقيقي للعلاقة ، كما ادركه العراقيون ، والمتمثل في بناء الخلية الاجتماعية الصغيرة المتمثلة اساسا بالزوجين وما ينجم عنهما من ابناء لذلك كان انجاب الاولاد وتربيتهم وتنشأتهم وتزويجهم بعد بلوغ سن الزواج من المهام التي لم يهملها المشرع العراقي القديم ، والتي كانت ولا تزال من مسؤولية الابوين الرئيسية .

وعلى الرغم من الاطار القانوني للعلاقة بين الزوجين فان نوع الاتفاق هذا وما ينجم عنه من ابناء ، وما يهيئه من علاقات اجتماعية ، يضيف عليه بعدا اجتماعيا يزيد حجمه احيانا عن حجم الالتزامات المالية التي تؤطره ، كما يتوجب علينا ان ننتبه الى العواطف والاحاسيس التي يهيئها الزواج بحد ذاته وبسبب الابناء ايضا حيث يؤدي كل ذلك ببناء العائلة الى مستوى العلاقات الانسانية المتميزة . وليس من باب المغالاة ان نقول بان المنتبغ لقانون الاحوال الشخصية في العراق القديم ، يدرك بسرعة التوجهات الانسانية المتقدمة التي تتحرك بين ثنايا الالتزامات والقواعد القانونية التي تحكم العلاقة بين افراد العائلة .

تعد العائلة البابلية عائلة ابوية ، أي ان للرجل فيها حقوقا تفوق حقوق المرأة ولكن هذه الامتيازات لم تصل الى حد استعباد المرأة ، او اخفاء دورها

الاجتماعي والاقتصادي فقد ضمن القانون للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية قبل الزواج وبعده بصورة لم تعرف المرأة له مثيلا الا مع مطلع القرن الحالي .

فمنع الرجل من حق تطليق المرأة الكيفي ، وحصره في حالات استثنائية مقابل منح المرأة حق طلب الطلاق ، يعدان من الحقوق والامتيازات الاجتماعية المتقدمة التي لا تزال المرأة في كثير من بقاع العالم تناضل وتطالب بالحصول عليهما .

تتطرق قوانين الاحوال الشخصية في العراق القديم الى تعيين قواعد الالتزام للاركان الرئيسية في نظام العائلة وهي الزواج والطلاق والارث والتبني . وتكشف العقود القانونية المتعلقة بالاحوال الشخصية عن التطبيق العملي لجوانب الالتزام في اشكال العلاقات العائلية ، مثلما تقدم لنا احيانا تفصيلات تفوق المعلومات التي نستقيها من بنود القوانين .

والزواج اقتران اي ارتباط اجتماعي بين رجل وامراة يخضع في اتيائه الى مجموعة من القواعد الاجتماعية والمالية والقانونية ، حتى يكون صحيحا ، اي أن أي اقتران ينافي هذه القواعد يشكل خروجا عن القانون ويتحمل مرتكبوه التبعات القانونية .

ان الخطوة الاولى لقانونية الزواج تتمثل في كتابة عقد الزواج الذي ينقل الاقتران بين الجنسين من مجرد تحقيق الوظيفة الطبيعية للجنس ، الى الارتقاء بها الى مستوى حفظ النوع ، أي تثبيت الحقوق والواجبات للطرفين فيما له علاقة بمستقبل هذه العلاقة ، والتي يبرز في مقدمتها واهمها انجاب الابناء .

ويسبق ابرام عقد الزواج عادة تهيئة واسعة واعداد قد يستغرق بعض الوقت ليس المقصود منه التفاوض والاتفاق على شروط العقد فقط ، وانما منح العقد بعده الاجتماعي الذي يتناسب مع طبيعته . وعليه فقد تكون

مراحل المفاوضات والخطبة وتقديم الهدايا ، كلها من نوع الاعلان عن الزواج •

كان عقد الزواج العراقي القديم يبرم بين الرجل ، الزوج في المستقبل ، وبين رجل اخر ، يكون ابا الفتاة ، الزوجة مستقبلا ، او اخاها او ولي امرها ولهذا السبب قلنا في مطلع الحديث عن العائلة العراقية القديمة انها عائلة ابوية وذلك بسبب هذا الموقف الرسمي في عقد الزواج الذي كان يسلب المرأة حق الاختيار او القبول او الرفض ويمنح ذلك لولي امرها على الرغم من انها الطرف الذي يقع عليه تبعات العقد •

ومع ذلك فقد منحت القوانين بعض النسوة حرية الاختيار وتنفيذ الالتزام او رفضه ، وابرام عقد الزواج ، ومثل ذلك حال الكاهنات او المرأة التي تتزوج ثانية او تدخل في علاقة قانونية مع رجل اخر خلال غياب زوجها الاضطراري لذلك يرجح ان سبب تمثيل الاب لابنته في عقد الزواج هو صغر سن الفتاة •

ولم تقتصر حقوق بعض النسوة وبخاصة بعض الكاهنات في دورها في الزواج فحسب بل نعرف عن بعضهن ممارسة الاعمال التجارية والمالية ، وتبوأهن مراكز وظيفية عالية مثل وظيفة الكاتب او الحاكم ، اضافة الى ان الوظائف الكهنوتية بحد ذاتها كانت من نوع الوظائف ذات الطابع الاجتماعي المرموق كما نعرف عن نسوة دخلن كشاهدات في بعض العقود على غرار الرجل •

ومن ابرز فقرات عقد الزواج ، تلك الفقرة التي تنص على اجراء الزواج وتذكر صراحة ان الرجل اخذ المرأة ليكونا « زوجا وزوجة » ويحتمل ان تضاف فقرات اضافية الى بنود الاتفاق ، اما الحقوق والواجبات للزوجين فانها لم تذكر لانها من الامور المعروفة ، بينما تشير القوانين الى حالات مخالفتها من قبل احد الزوجين ، لذلك يكون صحيحا تفسير بعض الباحثين

للنقص في القوانين المدونة ، بانها تطرقت الى الحالات المختلف عليها ، او الحالات التي يحتمل انها تثير خلافا بين طرفي التعاقد ، ولم تجد القوانين ضرورة تكرار الحالات الشائعة في العلاقات او الالتزامات او القواعد والاحكام العامة والخاصة .

ومن الملاحظ على فقرات قانون الاحوال الشخصية انه عالج الخلافات المحتملة بخصوص الحقوق المالية ، او التبعات الاجتماعية لطرفي التعاقد .

وبعد مجموعة من المراسيم ، منها حفلات خاصة يشترك فيها العروسان ، كما تشهد المراسيم نوعا من الطقوس الدينية لاضفاء طابع الخير والبركة واليمن على المناسبة ، وتنتهي هذه الاحتفالات دائما بدخول الرجل بالمرأة وتنفيذ اهم بنود عقد الزواج .

وقد تتأخر الفتاة المخطوبة لبعض الوقت في بيت ابيها ، ربما لاستكمال متطلبات الزواج ، ولكن الفتاة في هذه الحالة تعد زوجة شرعية ، وتترتب على الطرفين « الزوج والزوجة » جميع الحقوق والواجبات المتعارف عليها او المنصوص عليها قانونا للزوجين ، فهي بحكم الزوجة قانونا ، وان اي مساس بشرفها يعرض مرتكبه الى عقوبة المذنبين بحق النساء المتزوجات ، وفي هذا تأكيد صريح على اهمية عقد الزواج ، كما ان العقوبات المنصوص عليها قانونا بحق المذنبين بحق نساء متزوجات ، التي تصل احيانا الى عقوبة الموت ، انما تشير الى المكانة الاجتماعية المرموقة التي تحتلها الزوجة في الحياة العامة ، وهي المكانة اللازمة لتؤهلها موقع الزوجة والام الجيدة في المجتمع .

جرت العادة في العراق القديم ان يتزوج الرجل بأمرأة واحدة ، ولكن يحق له التسري بعدد غير محدود من الاءاء ، كما جرت العادة ان تدفع الزوجة العاقر بامة من عندها لتكون لزوجها ، وكأنها بعملها هذا تعوض زوجها النقص في الابناء الذي يحيط بعلاقتها الزوجية .

وعرف العراقيون القدماء الزواج بالكاهنات ايضا ، ويتضح من قواعد الزواج بهن ، كما عرضت في القوانين ، وبخاصة العادة التي تلزمهن تقديم اماء لازواجهن لفرض الانجاب ، يشير كل ذلك الى ان الزواج بهن لم يكن شائعا ، وهو من نوع الارتباط الاجتماعي الذي ينشد الرجل من ورائه تحقيق مكاسب اجتماعية وربما اقتصادية ، بخاصة وان الدرجات العليا من الوظائف الكهنوتية كانت حكرا على بنات الطبقة الحاكمة من ملوك وامراء وموظفين كبار ، مقابل شهرة عدد من الكاهنات بالثروات الطائلة ، فمثلا يقدر ان الكاهنة من صنف ناديتوم ، في مدينة سبار بحدود مطلع الالف الثاني ق م كانت اثرياء عصرها لما تمتلكه من اراض وعقارات وماشية واموال ، جاء ذكر معظمها تفصيلا في سجلات رسمية وعقود ومعاملات مالية كانت هي طرفا فيها .

ومما تجدر الاشارة اليه بخصوص النسوة الكاهنات ، انه لم يكن مسموحا لهن بالانجاب ، لذلك اضطرت واحدة منهن ، عندما وضعت ابنها سرا ، ان تضعه في سفط وترمي به في نهر الفرات ، فألتقطه احد المزارعين وهو يروي حقله ، واهتم بالطفل ورباه ، ثم احتضنت الالهة عشتار هذا الصبي برعايتها حتى سلمته بمقادير بلاد سومر واكد وجعلته ملكا على البلاد ، وهو الملك سرجون الاكدي مؤسس الدولة الاكدية (٢٣٧١ ق م) الذي حكى لنا قصة حياته مدونة على احد اللوح الطينية .

اشرنا من قبل الى ان الاساس في الزواج الاقتران بزوجة واحدة ، ولكن عددا من المواد تلمح صراحة الى الزوجة الاولى او الرئيسية ، مما يعني ضمنا وجود زوجات اخريات للرجل ، ولكن لا نعرف على وجه التأكيد هل ان هذا اللقب كان يمنح للزوجة من صنف الكاهنات ، لعلنا ان الرجل كان يتزوج احيانا بزوجة ثانية لفرض الانجاب ، وتؤكد القوانين ان الزوجة الثانية تبقى دون المنزلة الاجتماعية للزوجة الكاهنة . ولكن نظرا لان الكاهنات لم يلقين

الا بلقبهن الوظيفي كأن يقال ناديتوم او انيتوم او شوكيتم ، وهي مراكز وظيفيه كهنوتية نسوية ، لذلك نرجح ان يكون لقب الزوجه الرئيسية الذي اوردته بعض الفقرات يخص النسوة من غير صنف الكاهنات ، وهذا يعني احتمال زواج الرجل باكثر من زوجة ، مع سريان قاعدة الزواج بواحدة .

ومما يلفت الانتباه في القوانين العراقية القديمة فيما له علاقة بالزواج ، النظرة الانسانية المتقدمة التي خصها القانون للبيد والاماء من ناحية مثل هذه العلاقات الانسانية . فالاماء في كل الاعراف والقوانين ملك اليمين ، ويحق لصاحب الامة ان يفعل بها ما يشاء ومتى يشاء ، والتسري حالة في حقوق صاحب الامة ، ولكن التسري قد يثمر ابناء ، وعندها يتدخل القانون لمنع حالة الاحباط والضياع التي يتعرض لها عدد من الابناء يتزايد باستمرار في مجتمعات تعرف العبودية ، فهم احرار لانهم من صلب رجل حر ، كما ان حريتهم تسحب لصالح امهم ، حيث لا يحق لصاحب الامة ، « ام ولد » بيعها ، كما هي حقوقه على بقية امائه ، وانها تنال حريتها الكاملة بعد وفاة مالكيها . ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الفقه الاسلامي يقف الموقف ذاته من الامة « ام ولد » .

وتكشف لنا اربع مواد من قانون حمورابي ، ان بعض العبيد ، وبخاصة عبيد القصر ، كان يحق لهم التزوج من بنات الاحرار ، وعلى الرغم من تبعية الاولاد لايهم في المجتمع العراقي القديم ولكن في حالة زواج العبد من حرة ، فأن الابناء ينتسبون لامهم ، ولا يحق لصاحب العبد الادعاء بملكية ابناء زوجة عبده الحرة .

وهي بدون شك نظرة انسانية تعزز مواقع الخير في الحياة وبين الناس وتهدف لمنع وقوع عدد ممن لا ارادة لهم ، وهم الاطفال ، في العبودية .

جرت العادة في العراق القديم ، وقبل ان تنقطع علاقة الفتاة بعائلتها قانونيا عند الزواج ، ان يقتطع لها ابوها او اخوتها ، جزءا من ثروته او تركته

وتسجل في عقد مدون وتمنح لها عند زواجها ، وهي الاموال الوحيدة التي تنالها الفتاة من ابوها ، لذلك فهي بمثابة حصتها من ارث ابوها ، وكانت الفتاة تحصل على مثل هذه الحصة من الاموال ايضا عند دخولها في السلك الكهنوتي ، والواضح ان هذا القدر من الاموال الذي كان يعرف بالشيرقتوم ويترجم عادة الى مهر ، كان يسلم للزوج لادارته وتنميته ، ولكن المرأة في بعض الاحيان كانت تواصل الاشراف على اعمالها ونشاطاتها المالية التي كانت تقوم بها قبل الزواج ، وبذلك فانها تشرف على ممتلكاتها في مهرها بنفسها ، كما كانت اموال المهر تبقى ملكا خاصا بالمرأة واولادها فقط . وبما ان هذه الاموال تمثل اخر خيوط الصلة المالية بين المرأة وبين عائلتها ، فقد تعود الاموال الى عائلتها في حالة وفاة الكاهنة غير المتزوجة .

واذا كان الشيرقتوم يمثل الحق المالي الاول للفتاة عند زواجها ، فان الحق المالي الثاني يتمثل في هدية زوجها ، وتعرف بالترخاتم ، وهي مبالغ من الاموال النقدية او العينية يرد ذكرها في عقد الزواج ويعتبر تسليمها وتسلمها شرطا ضروريا لشرعية العقد ، ومن الواضح ان هذه الهدية يمنحها الزوج لزوجته ، ولكن بما ان عقود الزواج تبرم بين الزوج وبين ولي امر الزوجة ، فان صياغتها في عقود الزواج توحى وكأن ولي امر الزوجة يتسلمها لنفسه .

اما البيبلوم ، فهي هدية مالية تقدم برفقة هدية الزواج الى والد الزوجة الذي يستلمها نيابة عن ابنته ، لانه كما اشرنا الى هذه النقطة مرارا ، هو الذي يمثلها في عقد الزواج ، ويبدو ان هذه الهدية التي تشبه هدايا الخطوبة لم تكن لها صفة دائمية حيث لم يرد ذكرها في حالة الطلاق الذي كان يرافقه احيانا استرجاع الزوج لهدية الزواج التي دفعها سابقا ، واعادة مهر زوجته اليها او الى ذويها .

وبما ان هذه الهدية لها صفة غير دائمية فالارجح انها من نوع الاموال

البسيطة تصرف لتغطية نفقات العرس او مواد عينية لتلبية متطلبات حفلات الخطوبة والزفاف .

وقد تنال بعض الزوجات حظوة كبيرة عند زوجها ، وكان انجاب الابناء اكبر اثر تتركه الزوجة في حياة زوجها ، كذلك غالبا ما كان الزوج يهبها اموالا نقدية او عينية ، ويكتب لها بذلك وثيقة قانونية يثبت فيها حقوق زوجته في هذه الاموال ويمنع أي ادعاء في المستقبل قد يثيره الورثة بخصوص هذه الاموال .

واجبات الزوجة

اذا كانت الفقرات السابقة كلها حقوقا للزوجة ، فهي مقابل واجبات تقع على عاتقها وتمثل حقوقا للرجل في الزواج .

ان في مقدمة الواجبات التي تحاسب عليها المرأة حسابا شديدا ، هو واجب الحفاظ على عفتها وشرفها وملازمتها لبيتها ، وعدم الاخلال بسمعتها التي هي سمعة زوجها ، وكانت عقوبة المرأة التي تخل بذلك قاسية جدا تصل الى الموت او فقدانها لحريتها وتحولها الى امة .

وكانت حقوق الرجل في عفاف زوجته صارما حتى لو هجرها لبعض الوقت شريطة ان يترك لها مستلزمات العيش ، ولكن القوانين البابلية منحت المرأة بعضا من حقوق الرجل على زوجته ، فكان عفاف الرجل جانبا من حقوق الزوجة على زوجها . فاذا ثبت انه فرط بعفافه ، تحكم لها المحكمة بالطلاق دون أن تخسر حقوقها المالية ، علما ان عقوبة المرأة في حالة اثبات نفس التهمة عليها هي الموت .

الطلاق

يعبر عن فسخ العلاقة القانونية والاجتماعية التي تربط المرأة بالرجل طلاقا ، وفيما عدا الحالة الوحيدة التي يشم منها راحة حق المرأة في طلب

الطلاق من زوجها ، وهي التي اشرنا اليها قبل قليل ، فإن طلب الطلاق يرد دائما على لسان الرجل • ومن المصطلحات المعبرة عن ذلك « ترك » « وأنت لست زوجتي » و « يقطع حواشي ثوبها » •

ولكن اذا تركت الزوجة زوجها او كرهته او قالت له « سوف لا تأخذني » او « انت لست زوجي » او امتنعت عنه ، فإن ذلك كان يعد تمردا على حقوق الزوج واخلالا بشروط العقد وبالتالي ، كانت مثل هذه الحالات ان بدرت عن الزوجة ، توقعها تحت طائلة القانون ، وان العقوبات الصارمة كانت تصل غالبا الى الموت •

ونظرا لكون الطلاق يمثل الحالة الاستثنائية ، والقاعدة هي في دوام الزواج ، لذلك تطرقت القوانين الى الحالات الشائعة التي توجب الطلاق ، ويأتي في مقدمتها تفريط الزوجة بعفافها وسمعتها وشرفها •

ان المجتمع العراقي القديم من المجتمعات الزراعية ، حيث تحتل اليد العاملة اهمية كبيرة ، وتعكس في حالة توفرها مردودا اقتصاديا عاليا في النشاطات الزراعية القديمة • ولهذا كان حرص الرجل على الابناء كبيرا جدا ، وقد اشرنا من قبل الى الهبة التي يقترن منحها في الغالب بانجاب الزوجة للابناء ، كما عرفنا ايضا كيف تدفع الكاهنة الزوجة بأمة من عندها الى زوجها لغرض الانجاب ، ونضيف الى ذلك قولنا ان من حق الرجل تطليق زوجته العاقر ، وصحيح ان القانون يامر بمعاملتها بالحسنى ويلزم الرجل بدفع مهرمتها او نقود لطلاقها ، ولكنها مع ذلك هي الحالة الوحيدة التي يذكرها القانون ، والتي تمنح للرجل حق تطليق زوجته دونما سبب جوهري الا فيما يتعلق بعقمها •

ومن الحالات التي يحتمل وقوعها في العلاقات الزوجية ، حالة مرض الزوجة العضال الذي يمنعها من تأدية واجباتها البيتية والزوجية ، فقد اكد القانون نظرتة الانسانية في معاملة مثل هذه الحالات ، عندما منع الرجل من

تطبيق زوجته المريضة والزامه باعاليتها طيلة مدة حياتها ، والراجح انها اصببت بالمرض العضال بعد وقت من زواجها ، وبعد ان انجبت عددا من الابناء ، لانه في حالة عدم انجابها ، يحق للرجل تطبيقها متذرعاً بعقمها •

المحارم

يدفع الحديث عن الزواج والطلاق صوب المحارم ، ويقصد بها الحدود الاجتماعية والقانونية بين الحلال والحرام في العلاقات الجنسية ، او بين المسموح وبين الممنوع •

وقد تكون الحدود الاجتماعية غير ثابتة في بعض الاحوال ، فمثلا يستطيع الرجل ان يخطب امرأة لنفسه ويتزوجها ، بينما كان الاتصال بها قبل اجراءات الزواج محرماً • ولكن هناك حالات قطعية من المحارم ، منها وفي مقدمتها المرأة المتزوجة ، فهي حرام على غير زوجها ، وينزل القانون عقوبة الموت بمن يغتصبها • كما يحرم القانون الاتصال بالابنة وزوجة الابن ، لان مقام الاخيرة بالنسبة لرب الاسرة مقام احدى بناته •

ومن المحارم الكبرى في المجتمع البابلي القديم اتصال الابن بامه بعد وفاة ابيه ، ونعرف كون هذا الفعل من الجرائم الكبرى بسبب نوع العقوبة التي تنص على حرقهما ، وهذه الحالة من نوع المحارم التي تجمع عليها معظم المجتمعات الانسانية في اعرافها وقوانينها ، لكون الفعل منافياً للطبيعة والمعتقدات والاخلاق •

وتنتهي قائمة المحارم عند الاخت ، حيث لا نعرف حدود المحرمات في العلاقات القرابية ، مثلاً ، بالنسبة الى ابنة العم او الخال ، وما الى ذلك •

الارث

ومن بين ابرز فقرات قانون الاحوال الشخصية ما يتعلق منها بالارث

وتوزيع التركة وتعيين الوراثين الشرعيين لان تعيين الورثة والتركة ، وتحديد الحصص تشكل النقاط الجوهرية في قوانين الارث •

عرفنا من استعراضنا لحالات الزواج والطلاق كيف انها تسبب تداخلا في الورثة •

فقد يتزوج رجل باكثر من امرأة وتنجب كل واحدة ابناء ، ويصنف ان يتزوج رجل امرأة لها اولاد من زواج سابق او ان يقترن رجل بامرأة لكل منهما ابناء من زيجات سابقة ، كما كانت تقع حالات تبني كثيرة ، يعتمد فيها الزوج او الزوجة الى تبني ابناء اضافة الى ابنائهم •

وعلى الرغم من تخصيص قانون حمورابي لعشرين مادة من فقراته تعالج شؤون الارث ، فإن جوانب اخرى لا تزال غامضة ، فمثلا مقدار حصص الابناء من ذكور او اناث ، او وضع حصص الابناء الطبيعيين عن الاولاد المتبنين ، او حصصهم قياسا بحصص ابناء الامة ، الى غير ذلك من موضوعات ولكن تؤكد قولنا ثلثة بشأن هذا النقص في المواد القانونية بخصوص الموضوعات المختلفة ، بأن قانون حمورابي يعالج عادة الموضوعات المختلف عليها ، او يعتقد انها تشكل نقاط خلاف ، بينما يترك للاعراف والتقاليد دورها في التحكم بالعلاقات ، وتعيين الضوابط والاحكام ويتوضح لنا ذلك من مئات العقود والمعاملات القانونية لحالات في الزواج او الطلاق او الارث ، لم ترد تفاصيلها في القوانين المدونة • وقد اشرنا من قبل الى ان تسجيل العقد كان منوطا بجهة رسمية ، لذلك يستحيل معها ان يبرم اتفاق غير قانوني او غير شرعي ، كذلك لاحظنا على المادة (١٣٨) من قانون حمورابي انها تنص على شرعية الزواج بعد تحرير العقد ، ويصح ذلك في جميع الحالات في الاحوال الشخصية وفي غيرها ، فالعقد شريعة المتعاقدين ، وبموجبه يحكم القضاة ، ويمثل عدم ابرامه او ضياعه ، خسارة كبيرة لكثير من الحقوق والامتيازات •

لذلك سنمّر على ابرز الخصائص والمميزات التي عرف بها قانون الارث البابلي :

فقد عرف العراقيون تمييزا بين انواع الاموال في التركة وهي :

- أ - اموال غير منقولة كالاراضي والبيوت والبساتين *
- ب - اموال منقولة : كالنقود والحلي والملابس والاثاث وما الى ذلك مما له قابلية الانتقال من مكان الى اخر *
- ج - الحقوق المالية : وهي من نوع الاسهم والسندات في عصرنا الراهن وبذلك فهي من نوع الاموال المنقولة ، كأن تكون رأس مال مشترك في عملية تجارية ، او اموال مقرضة الى اخرين *

والقاعدة العامة في تعيين الورثة هي ان الذكور جميعا من الابناء الذين هم من صلب الرجل يتقاسمون التركة بالتساوي مع منح الابن الاكبر اي البكر بعض الامتيازات ، كأن يحق له اختيار الحصة الاولى ، او تقتطع له حصة اضافية وتفسير ذلك ان الابن الكبير يتحمل تبعات اجتماعية تتطلب نفقات مالية ، فمثلا في حالات استقبال الضيوف ، او مسؤولية رعاية الاخوة الصغار وما الى ذلك هذا مع العلم ان عادة تفضيل او تقديم الابن الاكبر تشترك بها معظم الشعوب القديمة ، ولا تزال اثارها قوية في مجتمعاتنا لحد الوقت الحاضر *

وقد يترك المتوفي وثيقة رسمية تشبه ما نعرفها اليوم بالوصية يخصص بموجبها جانبا من ممتلكاته لاحدى زوجاته او لابنه المفضل وربما لابنه المتبنى فيقتطع الجزء المذكور في الوثيقة من التركة اولا ، ثم يقسم الباقي بالتساوي بين الورثة *

وقد يموت الاب عن بعض الصبية الصغار الذين هم دون سن الزواج ، فعلى اخوتهم الكبار ان يقطعوا من تركة ابيهم مبلغا من المال يساوي هدية

الزواج ويخصصوها لآخيهام الصغير ، حيث يضاف هذا المبلغ الى حصة الصغير من الارث وفي هذه الحالة فقط يتساوى نصيب الصغير من اموال ابيه مع بقية اخوته ، لانه حصل على المبلغ الذي سبق لآخوته المتزوجين الحصول عليه من قبل عند زواجهم وهو مبلغ هدية الزواج .

لقد اشرنا عند الحديث عن الزواج الى حالات التسري بالاماء وانجاب الابناء منهن ، حيث عرفنا بان هؤلاء الابناء يولدون احرارا ، لانهم من صلب رجل حر كما انهم ينقلون الحرية الى امهم . ومع هذه الحقوق المتميزة ، فان ابناء الامة ما كان يحق لهم مشاركة اخوتهم بالتركة ، الا في حالة ضمان هذا الحق لهم من قبل ابيهم خلال حياته ، ودون ذلك في عقد لصالحهم .

وللام تركة ايضا ، وان مبدأ تعيين الورثة وحصل الوارثين لها لا تختلف عن المبادئ المتبعة بالنسبة الى تركة الاب ، ولكن في حالة الاخوة من اب واحد ومن بطنين مختلفين ، فيرث كل منهم تركة امه على انفراد ، ويتقاسمون تركة ابيهم بالتساوي . ومن اهم الثروات عند الام هو مهرها الذي ينتقل الى ابنائها بعد وفاتها ، بينما يجب ارجاع مبالغ مهرها الى بيت ابيها في حالة وفاة الزوجة دون ابناء يرثونها .

وفي حالة وفاة الاب عن ارملة واولادها صغار قاصرون ، فتكون الام بمثابة الوصية على اولادها وعلى حقوقهم في تركة ابيهم ، وينتقلون مع امهم الى بيت الزوج الجديد ، في حالة تزوجها ثانية ، وعندها يوقع القانون مسؤولية صيانة حقوق وممتلكات الصبية الصغار من تركة ابيهم على زوج امهم ، حيث يتم تثبيت ذلك في المحكمة لمراقبة تنفيذ الالتزامات عند بلوغ الابناء سن الرشد .

اشرنا من قبل لاقتصار الارث على الذكور الا فيما يذكر بخصوص الاموال التي تخصص لمهر الفتاة ، حيث نستشف من بعض الفقرات القانونية ان الفتاة غير المتزوجة كانت تكلف اخوتها اقتطاع جانب من تركة الاب

لمهرها قبل اقتسام التركة فيما بينهم لذلك فالأرجح ان حصة الفتاة من الارث هو مبلغ مهرها الذي كان حقا ماليا مكتسبا لها ينتقل معها الى بيت الزوجية وتورثه بعد موتها الى ابنائها ان كان لها ابناء ، وبعبارة اخرى يرجع لبيت ابيها ، أي يرثه اخوتها •

وتعين لنا بعض المواد القانونية نسبة من التركة قدرها ثلث الحصة الواحدة على انها تخصص للفتاة من صنف الكاهنات التي لم تحصل على مهرها في حياة ابيها ، فتقتطع من التركة ، ونذكر بهذا الخصوص بان مهر الفتاة كان يقدم اليها عند زواجها او عند دخولها السلك الكهنوتي •

فهل ان ثلث الحصة الواحدة يمثل نسبة ثابتة لكل البنات في تركة اباؤهم او ان الاشارة تخص الفتيات اللواتي نذرن للعمل في المعبد ، وحتى لو اقتنعنا بوجهة النظر التي ترى بان الثلث هو حصة البنات من التركة ، لكننا لا نعرف هل كان الثلث هذا يشمل جميع الاموال في التركة أو يقتصر على الاموال المنقولة فقط ، ولكن قياسا على اهمية الارض في حياة الوحدات العائلية القديمة ، ومقارنة نظم الوراثة البابلية بنظم الارث عند كثير من الشعوب القديمة ، وبخاصة ما يرد ذكره في التوراة ، وما هو ثابت في تاريخ العرب القديم ، وفي قوانين واعراف العشائر لحد الان ، أن المرأة لا تورث في الاموال غير المنقولة ، لذلك كان قرار الاسلام في توريث الاناث بنصف حصة الذكور في كل التركة ، يمثل نقلة نوعية كبيرة على طريق حقوق المرأة وبخاصة في المجالات الاقتصادية •

اما الزوجة التي خصص لها الاسلام حصة في ميراث زوجها ، فلم تترك لها القوانين العراقية القديمة اية حصة فيما عدا منحة أو هدية زوجها خلال حياته لها ، شريطة ان تكون اموال الهدية أو المنحة مقترنة بوثيقة رسمية أو عقد قانوني تستند اليه في ادعائها بجزء من تركة زوجها كما وتستطيع مقاضاة اولادها او ابناء زوجها بموجب ذلك ايضا ، فتستقطع الاموال

او المبالغ المذكورة في الوثيقة لصالح الزوجة ، ويقسم الورثة بقية التركة ، وربما يكون عذر المشرع العراقي القديم في عدم ترك حصة للزوجة يستند الى انها تمتلك اموالا خاصة بها تتمثل في مهرها الذي يعد الضمانة المالية لبقية حياتها ، وتنتقل هذه الاموال بعد موتها الى ابنائها او بيت ايها ان لم يكن لها ابناء . ويضمن لها القانون حق الاستمرار في السكنى في بيت زوجها ويمنع مضايقتها او اخراجها من البيت الا اذا كان خروجها من البيت بمحض ارادتها فمثلا ان تزوج ثانية فتنتقل الى بيت زوجها الجديد .

اما الاخوة فلا توجد اشارة صريحة الى حصولهم على حصص من الارث . الا في حالة وفاة اختهم دون انجاب ابناء ، فيعود مهرها الى بيت ايها الذي ان كان ميتا فيتقاسمه اخوتها .

لقد وردت الاشارة الى مال مهر المرأة التي تموت دون ابناء ولكن لا نعرف عن مصير ثروة الرجل الذي يموت دون ابناء والمعتقد ان مثل هذه الحالة نادرة وربما مستحيلة في العراق القديم ، لان القانون البابلي كان يسمح لمثل هؤلاء الرجال بتبني ما يشاءون من اولاد ويكون الاولاد المتبنون بحكم الاولاد الشرعيين في كل شيء بما في ذلك الارث حيث يتقاسمون التركة مع (اخوانهم) من الابناء الطبيعيين ان وجدوا بحصص متساوية .

اما حجب الارث فكان يمثل واحدة من اشد العقوبات التي يوقعها الاب باحد ابنائه لذلك لم يكن اتخاذ قرار حجب الارث قرارا اعتباطيا يستطيع الرجل اتخاذه متى يشاء ، فلربما في ساعة غضب او تحت تأثير احدى زوجاته ضد ابناء زوجة اخرى وما الى ذلك من اسباب ، وانما يجب تثبيت الاسباب الموجبة امام محكمة واستصدار امر منها بالموافقة على قرار الاب بحجب الارث . عن واحد او اكثر من الورثة ، فالارث حق مكتسب بالولادة او ما هو بحكمها

حتى يحق لوالده حرمانه من الارث .
قانونا كالتبني ، ولا نعرف بشكل دقيق نوع المخالفات التي يرتكبها الولد
وكانت المحكمة تطلب من الوالد ان يصفح عن ابنه اذا كان ارتكابه
للذنب الذي يوجب حرمانه من الارث ، لأول مرة ، ولكن في حالة تكرار
الابن لفعلته ، فتحكم المحكمة بحجب الارث .

وربما نستطيع تقدير نوع المخالفة من مادة في قانون حمورابي تعاقب
الابن بالطرد من ممتلكات ابيه ، اذا ثبت عليه مضاجعة زوجة ابيه وهي صاحبة
الاولاد . فان الطرد يعني ضمنا حرمانه من تركة ابيه ، كما يحرم ابنا الرجل من
امة من الارث الا اذا حرر لهم ابوهم عقدا يعترف فيه ببنتهم ، فيحق لهم
بعدها تقاسم التركة مع بقية اخوتهم ، وعليه فان الابناء المتبنين والابناء من
امة ، كانوا بحاجة الى قرار رسمي بابوة الرجل لهم حتى يرثوه بعد موته .

ويمثل موضوع التبني اخر الموضوعات التي تخص قوانين العائلة
العراقية القديمة والتبني يتمثل باتفاق بين طرفين على خلق علاقة جديدة بين
رجل يمثل دور الاب أو امرأة تمثل دور الام وبين ولي امر ولد أو بنت يمثلان
دور الابن أو الابنة ، وتتضمن علاقة البنوة هذه حقوقا واجبات للطرفين .

ان مجموعة عقود التبني المكتشفة تفصح عن الغاية الحقيقية وراء
التبني ، فلم يكن التبني رغبة من رجل أو امرأة حرما من نعمة الاولاد وانما
تتمثل في اغلب حالاتها في ارتباط قانوني بين رجل عجوز أو امرأة مسنة ،
يهدفان الحصول على مساعدين لهم يقومون على خدمتهم وينجزون لهم
اعمالهم ، وبخاصة ان كان بعضهم حرفيا حيث يقوم الابن المتبنى بتسيير اعمال
متبنيه . والاهم من ذلك السهر على راحتهم وتوفير اسباب المعيشة لهم عند
العجز والشيخوخة . كما تكشف بعض العقود ان الغايات الدينية كانت
مشجعة على التبني ، فبعض العقود تشترط على الابن المتبنى ان ينفذ الطقوس
والمراسيم الدينية اللازمة على روح متبنيه بعد وفاته .

تركز مواد قانون حمورابي المتعلقة بالتبني على الخلافات التي يقدر انها: تنشب بين طرفي العلاقة المباشرة في التبني وهما المتبني والمتبني ، حيث نفهم منها ان عددا كبيرا من الحرفيين كانوا يعمدون الى التبني ، لان طبيعة اعمالهم كانت تمنعهم في الغالب من الاستقرار وتكوين عائلة ، ولان حياتهم تعتمد على الاجور التي يحصلون عليها مقابل عملهم .

ففي حالة شيخوخة الحرفي وعجزه عن القيام باعمال حرفته سيتعرض الى الموت جوعا ، لذلك كان بحاجة الى صبي يدربه على اسرار مهنته ليستعين به على ايام شيخوخته وعجزه .

ويعمل بعض هؤلاء الحرفيين في خدمة القصر او المعبد حيث ان طبيعة اعمالهم كانت تمنعهم من تكوين اسرة او انهم يمنعون من الانجاب ، لذلك سهل القانون امامهم مهمة التبني وعرض للمشكلات التي يتوقع حدوثها فيه حالة تبنيهم .

وقد يتأخر زوجان عن الانجاب ولهما رغبة شديدة على استمرار علاقتهما الزوجية ، لذلك يعمدان الى تبني ابنا لهم قبل ان يرزقا بابناء من صلبهم ، فاذا اراد الاب في المستقبل فسخ علاقة البنوة مع الابن المتبني ، يجب عليه ضمان كامل حقوقه عند فسخ عقد التبني .

وعموما فان بعض حالات التبني كانت تمر بفترة تجربة ربما يتراجع بعدها المتبني عن رغبته لذلك كان ابرام العقد بين الطرفين يمثل الصيغة القانونية التي لا يحق بعد ابرامها لاحد منهما ، بالرجوع عنها ، والا سيتحمل البادئ تبعات نقض الاتفاق ، كما يحق للابن المقرر تبنيه التخلي عن متبنيه اذا تأخر المتبني في ابرام العقد ، او تردد في اعلان ابوته التي تتيح للابن المتبني حق الارث في ممتلكات متبنيه مستقبلا .

وكذلك الحرفي ، عليه ان يعلم ابنه المتبنى اسرار حرقة ، وبعبكسه يحق
للأبن الانفصال عن متبنيه .

وتواصل القوانين تأكيدها على الجوانب الانسانية في اقامة هذه العلاقات
ففي حالة تبني رجل لطفل رضيع يبقى الطفل هذا تحت التجربة ، فأن تكيف
للبيئة او المحيط الجديد فسيكون لمتبنيه ، اما اذا واصل الطفل يطلب امه ،
فعلى الرجل ان يعيده الى امه وابيه ، ولا يترتب على الطفل في هذه الحالة اية
تبعات قانونية ، حيث نحا القانون منحى انسانيا في تأكيد شوق الطفل الطبيعي
الى والديه ، وبخاصة وهو في دور الحضانة ، وعلى العموم فان العقوبات
التي كانت توقعها القوانين بالاولاد المتبنين ، في حالة اخلاهم بشروط التبني
قاسية جدا ، فاذا رفض ابوة متبنيه يعلم جبينه ويبيع في سوق النخاسة .

اشرنا قبل قليل الى حالة تبني طفل رضيع ، وهو الذي يخبرنا بمعرفة
المجتمع البابلي للرضعات ، حيث يكون وجودهن ضروريا مع وجود حالات
التبني فتأخذ المربية طفلا ، اضافة الى اطفالها وترضعه حتى يتعدى مرحلة
الرضاعة .

وتقع حالات تموت فيها الام بعد الوضع مباشرة ، فتبرز الحاجة الى
مربية ايضا ، لذلك تلزم القوانين المربية بالتأكد من مقدرتها على ارضاع
طفل اخر وسلامة لبنها ، وصحتها الجيدة ، لانه اذا مات طفل على ثديها أي
في فترة رضاعتها له ، وتعاقبت على رضاعة طفل اخر دون ان تخبر ابويه بوفاة
الطفل السابق ، يعد عملها هذا جرما وتعاقب عليه بصورة تمنعها من القيام
بالرضاعة مستقبلا .

مررنا على الصفحات السابقة بجوانب تفصيلية من قوانين وضوابط
وقواعد واحكام العلاقة للاحوال الشخصية في العراق القديم ، وكنا نقصد

من وراء التفصيلات لهذا الجانب ، الكشف عن الأبعاد التنظيمية المتطورة التي بلغها المجتمع العراقي القديم ، التي تركت أثرها من دون شك على جوانب النشاطات الانسانية الأخرى ، بخاصة واننا عالجنا أكثر العلاقات أهمية وحساسية في حياة الناس ، كما ان تنظيم العلاقات الخاصة تؤثر غالبا الاطر الفكرية الناضجة لاشكال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وكيفية منح هذه العلاقات ابعادها الانسانية التي تتناسب مع العواطف والاحاسيس والمشاعر ، بعيدا عن العلاقات المادية المباشرة .

ونرى اتساما للفائدة ان ننقل جانبا من فقرات قانون حمورابي التي تتناول الاحوال الشخصية :

المادة ١٢٨ : -

« اذا اخذ رجل زوجة ، ولم يسجل لها عقدا (بالزواج) * ، فهذه المرأة ليست زوجته » .

المادة ١٣٥ : -

« اذا انصرف رجل (عن بيته) ولم يكن في بيته الغذاء (الضروري) ، ودخلت زوجته قبل عودته بيت رجل ثان ، وانجبت منه اولادا ، ثم رجع زوجها بعد ذلك الى مدينته ، فعليها ان تعود لزوجها الاول ، اما الاولاد ، فيتبع كل منهم أباه » .

المادة ١٣٨ : -

« اذا رغب رجل في ان يطلق زوجته المختارة (الاولى) التي لم تنجب له اولادا ، فعليه ان يعطيها نقودا بقدر هدية زواجها ويسلمها مهرها الذي جلبته من بيت أبيها ثم يطلقها » .

(*) الكلمات الموضوعية بين قوسين تضاف الى النص لتوضيح دلالاته ومعناه .

المادة ١٤٢ : -

« اذا كرهت امرأة زوجها وقالت له سوف لن تأخذني (لن تضاجعني) فيحدد واقع حالها (سلوكها) في منطقتها ، فاذا كانت تحافظ على نفسها ولم ترتكب خطيئة ، بينما يذهب زوجها خارجا ، ويحط من شأنها كثيرا فلا جرم على تلك المرأة ، ويمكنها ان تأخذ مهرها وتذهب الى بيت ابوها » .

المادة ١٤٨ : -

« اذا اخذ رجل زوجة وداهما المرض ، فاذا عزم ان يتزوج امرأة ثانية فيمكنه ان يتزوج ولا يحق له ان يطلق الزوجة المريضة ، فتسكن في البيت الذي بناه ، ويستمر في تحمل مسؤولياتها طالما هي على قيد الحياة » .

المادة ١٥٣ : -

« اذا تسببت زوجة رجل في موت زوجها لاجل رجل ثان ، فعليهم ان يوتدوا هذه المرأة » .

المادة ١٦٠ : -

« اذا جلب رجل هدية الخطوبة الى بيت عمه « والد زوجته » واعطى هدية زواج ، ثم قال له عمه ، انا لن اعطيك ابنتي ، فعليه ان يرد ضعف كل شيء كان قد جلب اليه » .

المادة ١٦٢ : -

« اذا اخذ رجل زوجة وانجبت منه ابناء ، ثم توفيت هذه المرأة ، لا يحق الموالدها الادعاء بالمهر ، فمهرها يعود الى اولادها » .

المادة ١٦٧ : -

« اذا اخذ رجل زوجة وانجبت منه ابناء ثم توفيت تلك المرأة ، وتزوج بعد وفاتها امرأة ثانية وانجبت منه ابناء ، فبعد وفاة الوالد لا يقتسم الابناء

على اساس الامهات عليهم ان يأخذوا (كل منهم) مهر امهم ثم يقتسمون تركة
الوالد بالتساوي »

المادة ٢٥ : - من قانون اثنونا وهي تشبه المادة ١٦٠ : - من قانون حمورابي : -
« اذا قدم رجل نفسه ليعمل في بيت عمه (والد زوجته) وقبل عمه ذلك
في اتفاق ، لكن عمه اعطى ابنته لرجل اخر ، فعلى والد الفتاة اعادة نقود
الزواج التي استلمها مضاعفة » •

المادة ٢٧ : - من قانون اثنونا وهي تشبه حكم المادة ١٢٨ : - من قانون
حمورابي : -

« اذا اخذ رجل ابنة رجل بدون موافقة امها وابيها ، ولم يعمل عقدا
بالزواج مع امها او ابيها ، فهي ليست زوجة حتى لو عاشت في بيته سنة
واحدة » •

المصادر

- ١ - الاستاذ طه باقر : شرائع العراق القديم مجلة سومر - بغداد - ١٩٤٧
- ٢ - الاستاذ طه باقر : قانون جديد من تل حرمل مجلة سومر - بغداد - ١٩٤٨
- ٣ - الاستاذ طه باقر : قانون لبت عشتار مجلة سومر - بغداد - ١٩٤٨
- ٤ - الاستاذ طه باقر : قانون مملكة اشنونا مجلة سومر - بغداد - ١٩٤٨
- ٥ - الاستاذ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ١ - بغداد - ١٩٥٥
- ٦ - الدكتور محمود الامين : قوانين حمورابي مجلة كلية الاداب - بغداد ٣ - ١٩٦١
- ٧ - الدكتور عامر سليمان : القانون في العراق القديم ج ١ - الموصل - ١٩٧٧
- ٨ - صموئيل نوح كريم : من الواح سومر ، ترجمة طه باقر - منشورات مكتبة المثنى - بغداد .
- ٩ - رضا جواد الهاشمي : نظام العائلة في العهد البابلي القديم - دار الاندلس - بغداد - ١٩٧١
- ١٠ - الدكتور فوزي رشيد : الشرائع العراقية القديمة - بغداد - ١٩٧٣
- ١١ - جورج كونتينو : الحياة اليومية في بلاد بابل واسور ، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي - منشورات وزارة الثقافة والاعلام - بغداد - ١٩٧٩

الفصل الرابع

العلاقات السياسية الخارجية

د. عامر سليمان

كلية الآداب - جامعة الموصل

ارض الرافدين موطن احدى اولى الحضارات الاصيلية في العالم ،
تغطي الجزء الجنوبي من وادي الرافدين والذي كان يعرف ببلاد سومر .
نشأت ، كما سبق ورأينا ، ونمت وازدهرت حضارة كانت بحق من
الحضارات التي اغنت الحضارة البشرية بمختلف اوجهها الاصيلية . ولم
تكن هذه الحضارة حضارة محلية مقصورة على بلاد سومر او بلاد وادي
الرافدين حسب بل انها امتدت ، كما سيأتي ذكر ذلك ، الى البلدان
والاقاليم القريبة والبعيدة من خلال العلاقات التجارية والعسكرية
والسياسية التي قامت بينها وبين تلك البلدان والاقاليم . والعلاقات السياسية
بشكل خاص من الانشطة التي تنم عن درجة متقدمة من النضج الحضاري
والسياسي حيث لا يمكن أن تنشأ إن لم تكن هناك كيانات سياسية على
هيئة دول او ممالك مستقلة ذات انظمة خاصة بها . وحيث ان معلوماتنا عن

العلاقات السياسية الخارجية في العراق القديم مستمدة بالدرجة الرئيسية من المدونات المسمارية ، لذا كانت تلك المعلومات محددة بتاريخ اقدم تلك المدونات والتي لا يمكن أن تتجاوز الألف الثالث قبل الميلاد على اية حال ، وهي الفترة التي استخدمت فيها الكتابة بشكل واسع نسبيا . وإلى جانب المدونات المسمارية ، هناك بعض المنحوتات التي تعطينا هي الاخرى صورة عامة عن بعض جوانب العلاقات السياسية . بما تحمله من مشاهد خاصة باستقبال السفراء والوفود الاجنبية او اسلوب معاملتها ومعاملة الملوك والحكام المندحرين وتقديمهم الهدايا والضرائب الى الملوك المنتصرين كما نجد هذا واضحا في مشاهد المنحوتات الجدارية التي كانت تزين قاعات وساحات قصور الملوك في مدينة النمرود وخرصباد وغيرها من المدن والعواصم الاشورية والبابلية .

العلاقات السياسية في الالف الثالث قبل الميلاد

من اجل ان تكون صورة العلاقات السياسية التي قامت بين الدول والممالك في الالف الثالث قبل الميلاد اكثر وضوحا لابد من ان نستذكر الوضع السياسي العام الذي كان يسود بلاد وادي الرافدين في هذه الفترة المبكرة من التاريخ القديم . فالمعلومات الموثقة بالنصوص المسمارية وتنتائج التنقيبات الاثرية تشير الى انه كان يحكم في وادي الرافدين في الفترة المعروفة بعصور فجر السلالات عدد من دويلات المدن المستقلة التي عاصر البعض منها بعضها الآخر كلا او جزء وتتابع على حكم المنطقة وقامت بينها صراعات سياسية عنيفة انتهى البعض منها بعقد المعاهدات والاتفاقات. الشائبة ، في حين انتهى البعض الآخر بنشوب الحروب المدمرة التي كانت تنتهي غالبا بسيطرة احدى الدويلات على الاخرى . ولم تقتصر تلك الصراعات والحروب على الدويلات التي كانت قائمة في العراق القديم ، حيث لم تكن هناك حدود سياسية او طبيعية تحجز هذا الجزء من العالم

القديم عن بقية اجزاء العالم المجاورة ، بل امتدت لتشمل دويلات المدن في البلدان المجاورة كبلاد عيلام مثلا . ومنذ مطلع القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد كانت هناك محاولات جادة لتوحيد تلك الدويلات في دولة واحدة ، فكانت محاولة لوجال زاجيزي حاكم مدينة اوما التي اعقبتهما بفترة وجيزة محاولة اخرى كانت اكثر نجاحا وشمولا ، تلك هي محاولة الملك سرجون الاكدي الذي اسس اول امبراطورية في التاريخ حكمت في الفترة من ٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق م وهكذا أنهت الامبراطورية الاكديّة عصر التجزئة والانقسامات في العراق القديم واصبحت البلاد تحكم من قبل حكومة مركزية واحدة . وبعد انهيار الامبراطورية الاكديّة اثر هجوم الاقوام الكوتية البربرية ، ومن ثم طرد تلك الاقوام الى خارج الحدود قامت امبراطورية اور الثالثة التي اتبعت الاسلوب نفسه الذي سارت عليه الامبراطورية الاكديّة في طريقة الحكم المركزي . ومع نهاية سلالة اور الثالثة تأتي على نهاية الالف الثالث قبل الميلاد .

اقدم المفاوضات السياسية :

ان ماورد في القصيدة السومرية المعروفة باسم «اينمركار وسيّد اراتا» عن المفاوضات التي تمت بين البطل السومري اينمركار ثاني حكام سلالة الوركاء الاولى حسبما جاء ذلك في جداول الملوك السومريين ، وحاكم مدينة اراتا ، إحدى المدن الواقعة في المنطقة الجبلية في الاجزاء الغربية من ايران ، يمثل الاشارة الى اقدم علاقات سياسية معروفة حتى الآن حيث يفترض ان حكم اينمركار يرقى الى عصر فجر السلالات الثاني في النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد .

وعلى الرغم من ان الالواح الطينية التي تضم هذه القصيدة ترقى بتاريخها الى فترة لاحقة من تاريخ اينمركار نفسه ، الا ان القصيدة تعكس لنا طبيعة العلاقات التي كانت تربط دويلات المدن في هذه الفترة والاسلوب الذي كانت تتم فيه المفاوضات السياسية .

لقد عزم اينمركار حاكم الوركاء ، عندما احس في نفسه القوة والمقدرة. وبعد ان ناشد الهة مدينته انا ، ان يجعل اراتا دولة تابعة له ويفرض عليها الجزية من الذهب والفضة واللازورد ، فاختار رسولا لائقا ليقوم بمهمة ايصال عزمه هذا الى حاكم اراتا . وهذه اول اشارة الى استخدام الرسل والسفراء بين حكام الدول المختلفة . ويبدو ان الرسول كان يحمل رسالة مدونة على لوح من الطين حيث يلمح كاتب القصيدة الى ان اينمركار كان اول من كتب على الاواح الطينية وانه فعل ذلك لان رسوله كان « ثقيل الكلام » وعاجزا عن ترديد الرسالة تنفويا ربما بسبب طول الرسالة . وهكذا حمل الرسول رسالة التهديد والوعيد التي بعث بها اينمركار الى حاكم اراتا وعبر الجبال السبعة حتى وصل الى المدينة وتلى على حاكمها رسالة سيده غير ان حاكم اراتا رفض الاذعان لاينمركار مدعيا بانه محمي من قبل الالهة انا ، وانها هي التي عينته حاكما على اراتا وسلمه جوابا الى اينمركار محذرا اياه من اللجوء الى السلاح مقترحا ان تقام مبارزة بين بطلين يختاران من المدينتين . ويبدو ان مهمة الرسول لم تكن مهمة سهلة وهينة حيث كان عليه ان يقوم بعدة جولات من المفاوضات بين حاكمي المدينتين وينقل في كل جولة جواب وشروط هذا الحاكم الى الحاكم الثاني وهكذا . وكانت الجولة الاخيرة عندما ذهب الرسول الى حاكم اراتا بشروط اينمركار الثلاثة وهي :

- ١ - قبول اينمركار التحدي واستعداده لارسال مثله للمبارزة .
- ٢ - الطلب من حاكم اراتا تكديس الذهب والفضة واللازورد للالهة انا في الوركاء (اي دفع الجزية) .
- ٣ - التهديد بالتدمير الشامل ما لم يجلب سيد اراتا واهلها احجار الجبل لبناء المعبد .

وللاسف ان بقية اجزاء القصيدة تالفة بعض الشيء ويبدو انه وصلت
حاكم اراتا معونة خارجية شجعتة للوقوف امام اينمركار وقوت من
معنوياته ومع ذلك يمكن ان نقرأ في نهاية النص ان أهل اراتا جلبوا الفضة
والذهب واللازورد الى الوركاء ووضعوها اكداسا في باحة معبد اانا في
الوركاء وربما كانت نهاية تلك المفاوضات عقد معاهدة ثنائية بين الدولتين
حيث ليست هناك اية اشارة الى نشوب الحرب بينهما *

والى جانب هذه القصيدة الملحمية هناك قصيدتان سومريتان اخريان
تشيران ايضا الى العلاقات السياسية والمفاوضات التي كانت تتم بين
اينمركار حاكم الوركاء وحاكم اراتا ، وكان السفير المختار في احداها هو
لوجال بندا ، احد ابطال الوركاء المنتمين الى حاشية اينمركار . ان هذه
القصائد الملحمية الثلاثة وعلى الرغم مما يكتنفها من خيال اسطوري تمدنا
دون شك بصورة تقريبية عن العلاقات السياسية التي كانت تربط دويلات
المدن السومرية . ويؤكد هذه الصورة ويؤكدها ما ورد في قصة جلجامش ،
خامس ملوك مدينة الوركاء نفسها وبطل الملحمة الشهيرة المعروفة باسمه ،
مع آجا حاكم مدينة كيش الواقعة الى الشمال من بلاد سومر والتي كانت،
كما تذكر جداول الملوك ، المكان الذي هبطت فيه الملكية من السماء بعد
الطوفان مباشرة . لقد شعر آجا ، حاكم كيش بخطر جلجامش حاكم
الوركاء الذي يهدده في السيطرة على بلاد سومر فبعث اليه بانذار نهائي
يطلب فيه الخضوع الى دولة كيش او تحمل عواقب الرفض . ومرة ثانية
هنا ، يستخدم الحاكم الرسل لايصال رغبته الى الحاكم الثاني مطمئنا على
سلامة الرسل على الرغم من العداء الموجود بين الدولتين وعلى الرغم من
طبيعة الرسالة التي يحملونها الى حاكم المدينة المعادية . وكان جواب
جلجامش الاخير ، بعد ان استشار مجلس المستنير ومجلس الرجال المحاربين
في الوركاء :

» لتوضع الآن اذن عدة (السلام) جانبا ، وليحل محلها عنوان المعركة » .

وهكذا اعقبت هذه المفاوضات معركة عنيفة دارت بين آجا وجلجامش لا تعرف تفاصيل نهايتها .

اقدم معاهدة دولية في التاريخ :

وتبقى المعاهدة التي ابرمت بين دويلة لجش ودويلة اوما المتجاورتين بتحكيم حاكم كيش من اهم مالدينا من معلومات موثقة عن اقدم معاهدة دولية معروفة حتى الآن . فقد تم ابرام هذه المعاهدة وتقدت بنودها في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، لذا فهي تصدر جميع البحوث والدراسات التي تتناول تاريخ القانون الدولي في العالم مهما كانت لغة تلك البحوث والدراسات .

لقد دوت اخبار هذه المعاهدة وتفاصيل الصراع الطويل الذي اتسمت به العلاقات العدائية التي كانت تربط الدولتين على مخاريط فخارية من عهد أتمينا خامس حكام لجش (حدود ٢٤٠٠ ق م) ، بالخط المسماري واللغة السومرية عشر على نسختين منهما حتى الان وكان الغرض الاساس من تدوين اخبار الصراع الطويل بين الدولتين والذي انتهى في مرحلته الاولى بعقد تلك المعاهدة ، هو تخليد ذكرى اعادة حفر خندق الحدود الذي يفصل اراضي لجش عن اراضي اوما والذي كان يؤلف جزءا من بنود المعاهدة القديمة . ولقد حاول مدون الوثيقة ان يضع حدث اعادة حفر الخندق في اطار تاريخي جذاب يبدأ بذكر بداية الصراع بين الدولتين الذي انتهى بعقد المعاهدة بتحكيم طرف ثالث هو ميسيلم حاكم كيش اما بصفته الملك الذي كان يتبعه حاكما دولتي لجش واوما او لانه الملك الذي ارتضى بتحكيمه كلا الحاكمين . وفي كلتا الحالتين ، فان الصيغة التي اتبعت في حسم النزاع بين الدولتين وتثبيت الحدود بينهما هي صيغة متقدمة

ومتطورة وماتزال تستخدم لحسم الخلافات الحدودية بين الدول المختلفة •
وهكذا تذكر الوثيقة ان :

« انليل » ملك الاقطار جميعها ، والد الالهة كلها ، حدد حدود « نجرسو »
و « شارا » بكلمته الثابتة ، وقام « ميسيلم » ملك « كيش » بتحديد
ابعادها وفقا لكلمة « ساتران » واقام مسلة هناك •

ومما يلاحظ من نصوص هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق الخاصة
بالمعاهدات ان النزاع بين الدولتين المتنافستين قد صور على انه صراع بين
الهي المدينتين اي بين الاله نجرسو اله مدينة لجش والاله شارا اله مدينة
اوما وان التحكيم الذي قام به ميسيلم ملك كيش صور على انه تم بامر من
الاله انليل ، « ملك الاقطار جميعها ووالد الالهة كلها » ، وهنا تكمن
السلطة التي كان يتمتع بها ميسيلم كما يبدو والتي مكنته من فرض التحكيم
على الدولتين ، وكان المنفذ هو الاله ساتران اله ميسيلم •

ويبدو ان قرار التحكيم الذي فرضه ميسيلم وثبته على مسلة اقيمت
على الحدود بين الدولتين كان الى جانب دولة لجش حيث لم
يسض زمن طويل على ابرام المعاهدة حتى عمد اوش حاكم اوما الجديد الى
نقض الاتفاق وتحطيم المسلة التي اقامها ميسيلم واجتياز الحدود واحتلال
جزء من اراضي لجش :

« (ولكن « اوش » ، حاكم « اوما » انتهك حرمة (كل
من) قرار (الالهة) والعهد (الذي تعهد به كرجل لرجل) واقتلع
مسلتها (اي مسلة الحدود) ودخل سهل « لجش » » •

وتستمر الوثيقة في حديثها عن تاريخ النزاع حيث تذكر ان أيا ناتم ،
حاكم لجش الذي دعم أتمينا نفسه دخل المعركة ثانية ضد اوما واثصر عليها
بمعاونة الالهة العظام وابرم معاهدة جديدة معها وجعل الخندق حدودا بينهما
وثبت ذلك على عدة مسلات وضعها على طول الخندق واعاد مسلة ميسيلم
الى مكانها السابق وشيد ابنية ومعابد على الحدود • ومن اجل ان يضمن

أياناثم ، وهو الحاكم المنتصر ، نفاذ المعاهدة وعدم نشوب النزاع ثانية ، خصص شقة من الأرض من جانب مدينة أوماً وجعلها منطقة حياد بين الدولتين . كما تضمنت المعاهدة دفع جزية سنوية معينة إلى لجش مقابل استغلال سهل لجش المعروف باسم جو اديثنا . وقد خلد أياناثم انتصاراته هذه على مسلة نحتها لهذا الغرض ، عثر على القسم الأكبر منها ، سماها الباحثون المحدثون بمسلة النور أو العقبان لأنه صور نسورا أو عقباناً تنهش جث القتلى من جيش أوما كما مثّل أياناثم نفسه على الوجه الآخر من المسلة وهو في عربته الحربية قائداً جيشه المنتصر . وثبت على المسلة أخبار انتصاراته هذه والقسم الذي أقسمه حاكم أوما على التزامه بالمعاهدة الجديدة والحدود التي ثبتها أياناثم بين الدولتين :

« سوف لا انتهك إلى أبد الابدين حرمة حدود « نجرسو »
قط ، كما لا أتجاوز على سدوده وقنواته (التي تكون الحدود)
كما لن اقتلع مسلاته ، (غير انه) لو اعتديت (على الحدود)
عندئذ عسى أن تلقني عليّ » « أوما » من السماء الشبكة
« شوشكال » العائدة « لسنخرساج » .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الباهر الذي حققه أياناثم على خصمه وإبرامه المعاهدة معه وإدائه القسم بالالفة جميعاً فلم يمض جيل واحد حتى عادت أوما ورفضت تنفيذ المعاهدة كما رفضت دفع الجزية السنوية ، ونقض أور - أوماً حاكمها المعاهدة المشينة ودمر الابنية التي كانت قد أقيمت على طول الخندق وجفف مياه الخندق وحطم مسلة ميسيلم ومسلات أياناثم والقها في النار وهياً نفسه لعبور الحدود والدخول في أرض لجش ، ولكي يضمن النصر ، سعى وراء طلب المساعدة من حاكم اجنبي ، وكان ذلك في عهد أتمينا صاحب الوثيقة التاريخية المهمة التي تحكي لنا قصة النزاع والمعاهدة :

« وحصل على (عون من) الاقطار الاجنبية ، (واخيرا) عبر قنـاة
حدود « نجرسو » ... »

وهكذا دخل اتمينا الحرب مع اوما وهزم جيشها . وبعد تفاصيل
اخرى عن العلاقة مع اوما يذكر اتمينا اخيرا الهدف الرئيس من كتابة
الوثيقة وهو تخليد ذكرى اعادة حضر القناة التي تحدد الحدود بين الدولتين
ثم ينزل لعنات الالهة على كل من يحاول ان يعبر الحدود ويستولى على
الحقول والمزارع بالقوة سواء اكان من مدينة اوما او غيرها .

وبذلك تشير هذه الوثيقة التاريخية الى اقدم المعاهدات الدولية
المعروفة حتى الان والى اسلوب التحكيم الذي اتبع ولاول مرة لحسم
النزاع بين الدول المتخاصمة كما تضمنت الوثيقة الاشارة الى بعض
الطقوس والراسيم الدينية التي اصبحت فيما بعد جزءا مهما من بنود اية
معاهدة تعقد كداء القسم بالالهة العظام ويستتزال اللعنات على كل من
يحاول نقض بنود المعاهدة والقيام ببعض الاعمال الرمزية حيث يقول
اياتانم في مسلته :

« ان اياتانم تصرف بفطنة . فقد وضع على عين حمامتين بهارا
وثر على راسيهما ارزا (؟) ثم جعلهما يؤكلان من اجل
« انليل » في مدينة « نقر » (مع ترديد العهد التالي) « ... »
ثم يذكر قسم حاكم اوما ..

واخيرا لابد من الاشارة الى حقيقة تدوين المعاهدة وتثبيتها على مسلة
توضع عادة على الحدود وربما دونت عدة مسلات لهذا الغرض كما يشير
الى ذلك اياتانم ، والى طريقة تخصيص قطعة من الارض حاجزة تفصل بين
حدود الدولتين وان كانت تحت اشراف الدولة المنتصرة لكنه سمح لسكان
المدينة الثانية باستغلالها مقابل ضريبة سنوية وهذا ما اطلق عليه في
الترجمة بارض « الحياذ » .

وفي اواخر عصور فجر السلالات قام لوجال زاجيزي بمحاولة لتوحيد دويلات المدن السومرية المتعددة وقبل ان يتم محاولته هذه برز سرجون الاكدي على مسرح التاريخ فاكمل ما بدأ به لوجال زاجيزي ووحد جميع الدويلات تحت ادارة سلطة مركزية واحدة مقرها في العاصمة الجديدة اكد وبذلك اسس اول دولة موحدة شملت جميع انحاء العراق القديم وامتدت الى البلدان والاقاليم المجاورة بحيث يمكن ان نسميها « امبراطورية » استمر حكمها الاكثر من قرن من الزمان (٢٣٧١ - ٢٢٣٠ ق م) . ولم تعد الاتفاقات والمعاهدات تبرم بين دويلات المدن الصغيرة بل بين الدولة الاكديّة القوية وبين غيرها من الدول الصغيرة ، لذا كانت تلك المعاهدات ، ولدينا مثل عليها سناتي على ذكره ، معاهدات تبعية تتعهد فيه الدولة الضعيفة بالالتزام بالشروط التي تملئها الدولة الاكديّة القوية . وهكذا نجد المعاهدة التي ابرمها نرام - سين (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق م) حفيد سرجون ورابع حكام الدولة الاكديّة مع ملك اوان الى الشمال الشرقي من سوسا في بلاد عيلام قرب ديزفول الحالية والذي يظن انه كان الحاكم خيتا . لقد دوت هذه المعاهدة على وجهي لوح طيني ، عثر عليه في مدينة سوسا عاصمة بلاد عيلام ، بالخط المسماري واللغة الاكديّة ، وربما كانت هناك نسخة اخرى دوت باللغة العيلامية ، واستخدم في تدوينها لغة بسيطة وعبارات واضحة ربما لكي تكون مفهومة من قبل العيلاميين انفسهم . ويفهم من بنود المعاهدة انها كانت قد ابرمت في اعقاب انتصار عسكري حققه الملك الاكدي نرام - سين على اوان فأصبح حاكمها بعدئذ تابعا للملك الاكدي ، حيث يذكر احد بنود المعاهدة ان ملك اوان يعد نفسه عدوا لمن يعادي نرام - سين وصديقا لكل صديق له في حين لا يوجد ما يقابل ذلك بالنسبة للملك نرام - سين نفسه طالما كان هو الملك القوي . كما نصت المعاهدة على قبول حاكم اوان وضع تمثال نرام - سين في معبد الاله انشوشيناك في سوسا واشارت الى اداء ملك اوان القسم بالالهة امام

الملك الاكدي على الالتزام بينود المعاهدة والمحافظة على تطبيقها • وقد تصدر المعاهدة نداء الى الالهة ذكر فيه اسماء العديد من الالهة لاضفاء القدسية على الاتفاق • ويفهم مما جاء في المعاهدة ان الملك نرام - سين ربما تزوج من ابنة ملك اوان حيث تشير احدى الفقرات الى ان ملك اوان يتمنى ان يرى ولدا لنرام - سين من زوجته ليكون وريثا لعرش اكد •

وهناك بعض الاشارات الواردة في نصوص اكدية اخرى قد تدل على تنفيذ بنود هذه المعاهدة حيث يذكر احد النصوص ارسال نرام - سين وفدا الى سوسا مع هدايا ثمينة ربما لطلب المساعدة العسكرية من حاكم اوان ضد القبائل الكوتية كما ان هناك اشارة اخرى الى حضور احد موظفي نرام - سين الكبار ، وهو الكاهن شادريش تاكال ، الى سوسة لتكريس تمثال سيده نرام - سين فيها ، وكان حاكم سوسة هو اخو حاكم اوان وتابعا لنرام - سين ايضا •

وفي عهد سلالة اور الثالثة التي سيطرت على بلاد عيلام باستثناء بعض المرتفعات الشرقية التي ظلت تحتفظ بشيء من الاستقلال ، قد وردت اشارات الى قيام مصاهرات سياسية بين الاسرة المالكة في اور وحاكم انشان مثلا كما ورد ذكر وصول مندوب عن حاكم سيماش الى اور وفي السنة التالية وصل مندوب حاكم انشان الى اور في عهد ملكها شوسين كما تزوج حاكم انشان من احدى بنات ملك اور وزوج الاخرى الى حاكم زابشالي • وهكذا كانت العلاقات السياسية بين اور الثالثة وحكام المدن العيلامية توثق بالمعاهدات الثنائية وتقوى بالمصاهرات السياسية ومع ذلك ، فلقد استغل العيلاميون فرصة ضعف الملك السومري ابي - سين ونقضوا كل الاتفاقات والمعاهدات التي كانت تربطهم باور وتفاوضوا عن جميع العلاقات العائلية التي ارتبطوا بها بالاسرة الحاكمة في اور وهجموا اخيرا على اور وانهوا سلالتها الحاكمة •

ولعل من بين العلاقات السياسية او بالاحرى المساومات السياسية الجديرة بالاشارة والتنويه هنا تلك المفاوضات التي تمت بين ابي - سين (٢٠٢٩ - ٢٠٠٦ ق م) آخر ملوك سلالة اور الثالثة واشبي - ار١ حاكم مدينة ايسن الذي استقل عن سيده ملك اور واسس مملكة في ايسن اصبحت فيما بعد الوريثة الشرعية لسلالة اور الثالثة في بلاد سومر واكد وحكمت فترة جاوزت القرنين من الزمان . ففي السنوات الاخيرة من حكم ابي - سين اضطرت الاحوال السياسية والاقتصادية وتقلص نفوذ اور حتى غدا لا يتجاوز حدود مدينة اور نفسها . وكانت بلاد سومر تواجه في هذه الفترة غزو الاقوام العيلامية من الشرق وتدفق القبائل الامورية من الغرب . وهكذا استغل اشبي - ارا هذمه الاوضاع المتردية ، وكان احد حكام ابي - سين التابعين ، وبدأ مساوماته السياسية مع ابي - سين الذي قرر أن يشتري منه كمية من القمح لسد حاجة سكان اور وما جاورها من قرى . وهناك رسالة من اشبي - ارا الى ملك اور يذكر فيها انه قد نجح في شراء القمح المطلوب (٢٤٤٠٠ كور اي حوالي عشرة اطنان) بسعر جيد (وهو نصف شاقل من الفضة لكل كور) غير ان الاسعار تضاعفت . كما يذكر اشبي - ار١ انه سمع بان الاموريين القادمين من الغرب قد دخلوا بلاد سومر : « واحتلوا الحصون العظيمة الواحد بعد الآخر » لذا فانه لم يرسل القمح الى اور وانما ارسله الى مدينة ايسن . ويذكر اشبي - ار١ في رسالته انه لو رسل اليه الملك بستمائة سفينة حمولة كل منها مائة وعشرون كورا ، فانه سيسلم القمح الى مدن سومر المختلفة ، بيد انه ، وهنا تأتي المساومة ، ينبغي عليه ان يعهد اليه اولا بشؤون الاماكن التي سترسو فيها السفن . وتنتهي الرسالة برجاء الى ابي - سين ان لا يستسلم الى العيلاميين لان لديه من القمح ما يكفي لحل مشكلة المجاعة في « القصر ومدنه » مدة خمس عشرة سنة . ويبدو من رسالة اخرى جوابية ان ابي - سين كان يثق باشبي - ار١ ، او انه كان مضطرا للوثوق به ، حيث وافق على ان يعهد

اليه بمدينتي نفر وايسن مقابل ارسال القمخ • وتتردى الاوضاع بعد ذلك وتسقط اور على ايدي الجيوش العيلامية ويرتفع شأن اشبي - ارّا ليصبح الملك الوارث لمعظم اجزاء امبراطورية اور الثالثة •

العلاقات السياسية في العصر البابلي القديم

بعد سقوط سلالة اور الثالثة عام ٢٠٠٦ ق.م. نهاية حقبة زمنية تميزت بالحكم المركزي في العراق وبداية حقبة جديدة اتسم القسم الاول منها ، والذي دام زهاء القرنين ، بالتجزئة والانقسام وقيام العديد من دويلات المدن المستقلة في مختلف ارجاء وادي الرافدين حتى ان بعض الباحثين اطلق تسمية هذه الحقبة من تاريخ العراق القديم بعصر « دويلات المدن الثاني » • وكان الصراع السياسي والتنافس على السلطة على اشده بين هذه الدويلات للسيطرة على المنطقة وتوحيد الدويلات واعادة الحكم المركزي الى العراق • وكلما نمت قوة احتّتي الدويلات وتعاظمت وضمت اليها عددا من المدن والدويلات المجاورة سارعت الدويلات الاخرى باقامة الاحلاف العسكرية والسياسية للوقوف امامها والتصدي لها وتحجيم خطرهما • وكان لشخصية الملوك والحكام في هذه الفترة ، وكان جلهم من الاقوام الامورية القادمة من الغرب ، اثر كبير في اقامة الاحلاف او الانضمام الى هذا الحلف او ذاك حيث كان هناك اكثر من حلف واحد يتوزع المنطقة من البحر الاسفل « الخليج العربي » وحتى البحر الاعلى « البحر المتوسط » • هكذا نجد مرسل احد الرسائل المكتشفة في مدينة ماري ، تل الحريري حاليا على نهر الفرات ضمن الحدود السورية ، يقول ساخرا :

« لا يوجد هناك ملك هو الاقوى وحده ، فهناك عشرة او خمسة

عشر ملكا يتبعون حمورابي (ملك) بابل ، والعدد نفسه يتبع ريم - سين (ملك) لارسا ، والعدد نفسه يتبع ابا - بيل (ملك) اشنونة ، والعدد نفسه يتبع اموت - ابي - ايل (ملك) قطنا ، وعشرون ملكا يتبعون يارم - لم (ملك) يمخد » •

وغل وضع التجزئة والانقسام هذا قائما في وادي الرافدين حتى السنوات الاخيرة من حكم حمورابي ، سادس ملوك سلالة بابل الاولى ، وهي احدى الدويلات الامورية التي قامت في هذه الفترة وساهمت في الصراع السياسي بين الدويلات المختلفة . ففي اواخر حكمه ، تمكن حمورابي من توحيد جميع الدويلات الواحدة بعد الاخرى وتأسيس دولة مركزية قوية مقرها مدينة بابل ضمت جميع انحاء وادي الرافدين وامتدت بنفوذها الى الاقطار والاقاليم المجاورة وظلت وحدة القطر ومركزية الحكم قائمة حتى بعد وفاة حمورابي وان اقتابها بعض الضعف والوهن . وفي حدود عام ١٥٩٥ ق م تعرضت بابل لهجوم مفاجيء قادم من اسيا الصغرى قام به الجيش الحي انهى حكم سلالة بابل وفسح المجال امام الاقوام الكشية للسيطرة على بلاد بابل وبذلك تنتهي فترة العهد البابلي القديم التي استمرت اربعة قرون تقريبا .

ان معلوماتنا الرئيسة عن العلاقات السياسية والاساليب الدبلوماسية التي سادت العهد البابلي القديم مستمدة من الوثائق والرسائل الملكية المكتشفة في مدينة ماري ، مركز احدى الدويلات الامورية التي ازدهرت في فترة العهد البابلي القديم . فقد حوت هذه المجموعة من الرسائل على اشارات كثيرة الى الاحلاف العسكرية والسياسية التي كانت تقام بين الدويلات المختلفة كما ضمت اشارات عن ارسال السفراء والمبعوثين والمراسيم الخاصة بابرام المعاهدات والطقوس الدينية التي كانت ترافق ذلك فاعطتنا صورة تقريبية عن الوضع السياسي العام وعن العلاقات السياسية بين الدول ليس في بلاد وادي الرافدين فقط بل وفي سوريا وفلسطين ايضا ، نظرا لعلاقة مملكة ماري الوثيقة بهذه المنطقة ايضا ووقوعها على الطريق الموصلة بين وادي الرافدين والساحل السوري . اضافة الى هذه الرسائل والوثائق ، وهي كثيرة ، هنالك رسائل ملكية اخرى كشف

عنها في المدن البابلية والاشورية غير انه ، وللأسف الشديد لم يعثر حتى الآن على نصوص معاهدة أبرمت بين دولتين في هذه الفترة من تاريخ العراق القديم وربما كان ذلك نتيجة عدم تناول التنقيبات الاثرية مواقع وجود نصوص تلك المعاهدات او ان الملوك والحكام اكتفوا بارسال الرسائل التي تؤيد مواقفهم وتؤكد التزامهم بالحلف او المعاهدة المتفق عليها بين السفراء والمندوبين . غير ان الاحتمال الاول يبقى الاقوى .

وكانت الاحلاف والمعاهدات ، شأنها في جميع العصور القديمة والحديثة ، على نوعين ، احلاف ومعاهدات تعقد بين دول متكافئة من حيث القوة والمركز ، واحلاف ومعاهدات تعقد بين دولة قوية واخرى صغيرة او ضعيفة ويمكن تسمية النوع الثاني من المعاهدات بمعاهدات التبعية . وكان النوع الثاني من المعاهدات والاحلاف هو الغالب في مختلف العصور . وتتميز معاهدات النوع الاول بان يخاطب فيها ملك الدولة المتحالفة ملك الدولة الرئيسة والقوية في معاهدات التبعية ملوك الدول التابعة المتحالفة بكلمة « ابني » ويخاطبه ملوك تلك الدول بكلمة « ابي » . فالملك حمورابي كان يخاطب زمري - لم بكلمة اخي وكذلك فعل شمشي - ادد في مخاطبته لملك اشنونا كما فعل الشنيء نفسه حاكم قطنا في مخاطبته اشمي - داگان بعد ان اعتلى العرش الاشوري بعد والده ، حيث جاء في رسالة له يشكو فيها ان عشرين مانا من الرصاص مقابل ضئيل لحصانين كان قد بعث بهما اليه حسب طلبه ويختتم حاكم قطنا رسالته بالعتاب التالي :

«ماذا ينقص بيتك حتى اذك لا تستطيع تلبية رغبة اخيك» وكان حاكم قطنا يعد نفسه مساويا في المنزلة ومكافئا للملك الاشوري في حين كان الملك الاشوري ينظر اليه بانه تابع له واقل منزلة لذا كانت مخاطبته له مختلفة .

اما ملك كركميش الجديد ، فقد كتب الى سيده زمري - لم بعد ان اعتلى العرش خلفا لوالده ابلا خاندا ، يجدد العهد ويؤكد التبعية قائلا :

ان والدي ابلاخاندا لم يمت ، ان والدي هو زمري لم * .
وكان يسبق ابرام المعاهدة عادة ، ولاسيما المعاهدات التي كانت
تبرم بين الدول المتكافئة ، مفاوضات ومناقشات قد تتم عن طريق المراسلة
وذلك بان يبعث احد الاطراف برسالة مدونة الى الطرف الثاني يعرض فيها
رغبته في اقامة حلف او ابرام معاهدة او الدخول في حلف قائم ، وهذا ما
لاحظناه ايضا في مفاوضات الالف الثالث قبل الميلاد كما سبق وذكرنا * . وقد
تكون المفاوضات عن طريق مندوبين ، او سفراء ، يرسلون الى الطرف الثاني
لمناقشة تفاصيل المقترحات ووضع الخطوط العريضة للمعاهدة * . فعندما
اراد زمري - لم ملك ماري ، مثلا ، ابرام معاهدة صداقة مع حمورابي ،
ملك بابل ، بعث باثنين من مندوبيه الى حمورابي لمناقشة بنود المعاهدة * .
ان المعلومات المتوفرة لدينا عن هذه المفاوضات مستمدة من الرحالة
التي بعث بها المندوبان الى زمري - لم قبل رجوعهما من بلاد بابل اي قبل
ابرام المعاهدة فقد ذكرا في رسالتهما ان حمورابي اعترض على احد بنود
المعاهدة وانه طلب التريث في توقيعها ريثما يستشير الاله سين حول ذلك * .
وقد رأى المندوبان ان ذلك حجة تدرع بها حمورابي حيث يردفان طالين
من سيدهما زمري - لم عدم الانصياع لشروط حمورابي التي يحملها
مندوبه الخاص الى ماري والانتظار لحين وصولهما الى ماري للاطلاع
على تقريرهما حول الوضع في بلاط بابل * . وهكذا توضح لنا الرسالة
وبشكل جلي الاسلوب الذي كانت تتم بواسطته المفاوضات كما انها تشير
بشكل غير مباشر الى ان المعاهدات كانت تدون وتوثق بالتوقيع ، اي
بالختم * .

اضافة الى ذلك ، هناك اشارات عدة الى ارسال السفراء من بلاط
ملكي الى آخر ، وكانت تعلق اهمية كبيرة على وصول السفراء ورعايتهم
ففي احدى المرات استلم يسمخ - ادد ، نائب الملك الاشوري في ماري ،
رسالة تانيب من والده شمشي - ادد بسبب تعطيله اعضاء سفارة كانوا في

طريقهم اليه من قطنا في سوريا ، كما وقع يسمخ — ادد نفسه ثانية ، وهو الاداري غير الكفوء كما يصفه ابوه ، في مشكلة مع ابيه عندما اخبره بان سفيرا معيناً لم يتمكن من مواصلة رحلته الى ما بعد ماري بسبب حادث مؤسف وقع لعربته ، ربما كان ذلك كسر محور العجلة ، حيث يستفسر شمسي — ادد في رسالته مستهزئاً :

« الا يتمكن من ان يركب حماراً ؟ » .

وهناك اشارات اخرى تدل على ان الملوك كانوا يلجأون احيانا الى قراءة الطالع للحصول على التوجيهات الالهية حول كيفية استقبال الرسل والسفراء المرتقب وصولهم .

وكان بعض السفراء ، او الدبلوماسيين ، كما هي الحال في الوقت الحاضر ، يقومون باعمال تجعلهم من غير المرغوب فيهم . ففي رسالة بعث بها احد نواب الملك الى آخر يذكر فيها ان شخصا معيناً ، ويبدو انه كان وكيلاً لنائب الملك ، كان كاذباً وغير موثوق به وان الكاتب لا يريد ان يراه ثانية .

وقد تتضمن اجراءات ابرام المعاهدة احيانا اخذ الملك الرئيس رهائن من الملك الادنى ريثما يتم ابرام المعاهدة وقد يقتل الرهائن ان فشلت المفاوضات ولم تبرم المعاهدة . فهذه رسالة من شمسي — ادد ، ملك بلاد اشور الى ابنه يسمخ — ادد في ماري يقول فيها :

« بخصوص الناس من « ويلاتم » الذين تحت امرتك ، لقد امرتك بان تحجزهم لعله يقام حلف . والان ليس هناك حلف مع « ويلاتم » . . . (اما بخصوص) الناس من « ويلاتم » ، اصدر اوامرك بقتل كل واحد منهم هذه الليلة » .

وقد يكون الضحايا من السجناء الذين لم يقتلوا في حينه لارتكابهم جريمة معينة لاحتمال عقد حلف مع ملكهم حيث ليست هناك اية اشارة

اخرى من هذا النوع يمكن ان تؤيد اخذ وقتل الرهائن كما لا تدل الرسالة على ان هؤلاء كانوا من الرجال الدبلوماسيين .

وكان النوع الثاني من المعاهدات والاحلاف ، اي معاهدات التبعية ، غالبا نتيجة حتمية من نتائج انتصار دولة قوية على دولة اخرى او اكثر عندها ترضخ الدول والممالك المنحدرة الى توقيع معاهدة والدخول في حلف تبعية مع الدولة المنتصرة . وقد يكون طلب ابرام المعاهدة من هذا النوع او الدخول في حلف مع دولة قوية بناء على طلب حاكم الدولة الادنى ضمانا لمستقبله ومستقبل مملكته الصغيرة وطلبها للحماية . وفيما يلي مقتطفات من رسالة بعث بها حاكم دولة صغيرة الى حاكم دولة قوية يعرض فيه طلبه لعقد حلف يكون فيه تابعا :

« الى يخدولم قل : هكذا يقول ابي - سامار : اعقد حلفا ! ...
ان مدني التي لم يستول عليها بعد سيستولي عليها الان . ولم تفقد هذه المدن بسبب الاعمال الاعتدائية التي قام بها حاكم خاشوم (او) اورسم (او) حاكم كركميش (او) يمشد ، (ولكن) فقدت بسبب الاعمال الاعتدائية التي قام بها شمشي - ادد (ملك اشور) ... »

وفي رسالة لاحقة ، يخبر ابي - سامار ، يخدولم قائلا :

« اذا تركت ابي - سامار ، فقد تركت مدتك ، ولعلك تقول : ابي - سامار هو ليس ابني وان مقاطعتي لا (علاقة لها) بمقاطعته . (ولكن) في الواقع ان مقاطعتي هي لك وابي - سامار هو ابنك » .

وفي حالة وفاة الملك التابع المرتبط بمعاهدة تبعية مع ملك اقوى ، كان على خليفته ان يقدم فروض الطاعة ويجدد العهد والولاء للملك « الاب » ، وقد يتدخل الملك « الاب » اي ملك الدولة القوية ، في تنصيب

احد اولاد الملك المتوفى دون غيره ، وبعبارة اخرى ، كان اعترافه بالملك الجديد امرا ضروريا لسريان مفعول معاهدة التبعية التي كان قد عقدها الملك المتوفى .

واحيانا قد يكون هدف المعاهدة الرئيس التزام احد الاطراف المتعاقدة بالحياد تجاه عدو معين يخشاه الطرف الآخر وهذا ما تشير اليه احدى رسائل زمري - لم حاكم ماري عندما عقد مثل هذا النوع من الاتفاق مع احدى القبائل الامورية .

ومن الطبيعي ان اقامة اي حلف او ابرام اية معاهدة من النوع الثاني كان يمنح زعيم الحلف او رئيسه ، وهو ملك الدولة الاقوى ، السلطة والنفوذ على ملوك وحكام الدول التابعة التي رغبت او ارغمت على دخول الحلف او ابرام المعاهدة . فقد كان رئيس الحلف يتوقع من تابعيه ان يتركوا له سياستهم الخارجية ويقطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع اعدائه ويقدموا له المساعدات العسكرية عند الحاجة مقابل قيامه بحمايتهم من اي اعتداء خارجي قد تتعرض له دولهم الصغيرة او نشوب اية ثورة داخلية تهدف للإطاحة بحكمهم . وكمثال على هذا النوع من الاحلاف ، الحلف الذي تزعمه شمشي - ادد ملك بلاد اشور ، والذي ضم كلا من مملكتي كركميش وقطنا في شمال سوريا ، وكان الهدف الرئيس من وراء اقامة الحلف هو تطوير مملكة يمشد في حلب من جهة وضمان الوصول الى ساحل البحر المتوسط من جهة ثانية في حين كان هدف الممالك التابعة في الحلف المحافظة على مصالحها التجارية وحمايتها من مملكة يسخد ومملكة اشور نفسها . لذا بعث شمشي - ادد برسالة الى حاكم قطنا يخبره فيها ان بعض الامراء في منطقة الفرات الاوسط وملك كركميش : « سيقطعون بحضوري العلاقة مع سمو ايبوخ » . كما طلب زمري - لم من ملك مملكة اندارت في شمال وادي الرافدين ، بعد ان اخضعها وجعلها دولة تابعة ، ايقاف

ارسال الحبوب الى بلاد اشور بهدف فرض نوع من الحصار الاقتصادي على اشور .

اما بالنسبة للمساعدات العسكرية ، فلدينا امثلة عدة على ذلك منها رسالة حمورابي التي طلب فيها من تابعه زمريا ان يبعث له جيوشا واخرى من ريم - سين ملك لارسا يقول فيها الى حمورابي ملك بابل :

« اذا داهمك العدو فستأتي جيوشي لمساعدتك ، واذا داهمني عدو ، ارسل جيوشك لمساعدتي » .

ومثال آخر ماكتبه شمشي - ادد الى نائب الملك في ماري يسمخ -

دد :

« قل الى يسمخ - ادد : هكذا يقول شمشي - ادد ، والدك : لقد ارسلت لك رسالة مرة او مرتين لتأتي الى طوطول والان وصلت الى شوبات - انليل وبعثت بهذا الرقيم اليك . اجمع موظفيك وحجابتك وقواتك الذين ذهبوا مع ساميдахم وموظفي قصرك واحضر شوبات - انليل » .

وفي حالة ارسال المساعدات العسكرية بناء على طلب احد اطراف الحلف ، كان يفترض ان تبقى القطعات العسكرية المرسله تحت تصرف طالبا فترة الحاجة اليها ، اي فترة الحرب او الطوارئ . وفي بعض الاحيان قد تتأخر تلك القطعات ولا تعود الى مكانها حتى بعد زوال فترة الطوارئ ، وهكذا نجد احد السفراء يبعث الى ملكه زمري - لم في ماري حول رجال ماري الذين ارسلوا الى حمورابي للمساعدة قائلا :

« قل لسيدي ، هكذا يقول ابال - بي - ايل خادمك : وفقا لتوجيهات سيدي التي ارسل حولها سيدي الرسائل ... لقد تكلمت مع حمورابي بكلمات جيدة .. وهكذا قلت :

طالما ان الالهة قد قضت على الاعداء وان الايام الباردة
قد حلت ، لماذا تبقي خدم اخيك (اي حليفك) ؟ خولني حتى
اتمكن من الرجوع وحتى يتمكن قائد القوات من ان يصل قبل
حلول الجو البارد ، هكذا تفاوضت معه وبامور عديدة
(مشابهة) اخرى » •

وفي حالة نشوب اي خصام بين ملكين تابعين ، فان التحكيم بينهما
كان يتم من قبل رئيس الحلف ، اي الملك الاقوى في الحلف ، وهذا ما يذكرنا
بالتحكيم الذي قام به ميسيلم ملك كيش في فض النزاع بين حاكم لجش
وحاكم اوما كما سبق ونوهنا ، وتشير احدى رسائل زمري - لم ، الذي
كان يرأس حلفا يضم عددا من الدويلات ، حيث يقول فيها :

« ان اسقور - ادد ملك كارانا عندي الان • لقد غزت بلده
فاجمع كل شيء اخذته وارجعه اليه » •

اي ان اسقور - ادد اشتكى لدى زمري - لم حول غزو الملك الثاني
لبلده ونهبه وسلبه له فحكم زمري - لم باعادة جميع ما اخذ الى اسقور -
ادد دون مناقشة •

وكان ابرام اية معاهدة يتم وفق طقوس ومراسيم معينة اشارت الى
بعضها الرسائل المكتشفة وإن كنا لم نعثر بعد على نصوص معاهدة وتفاصيل
ابرامها من هذه الفترة • لقد تضمنت تلك الطقوس والمراسيم قبل كل شيء
اداء القسم بحياة الالهة ، وذكرت اسماء الالهة لتكون شاهدة على القسم
وعلى الاتفاق الذي تم بين الطرفين او الاطراف المتحالفة ، وهي طريقة ترقى
باصولها الى اقدم الاشارات عن المعاهدات الاولى كما سبق ولاحظنا •
وكان الحنث بالقسم ونقض الاتفاق المبرم يعد من الذنوب والآثام الجسيمة
التي ترتكب ضد الالهة وبالتالي كان على الطرف الذي يحنث يمينه ان
يتحمل مسؤولية حنثه وعقاب الالهة له بالعقاب الذي نصت عليه كثير من

المعاهدات السابقة والتالية من حيث الفترة الزمنية كمعاهدة اياناتم مثلا ،
التي تنص على انه :

« ما بقيت الايام وما دام ينطق بالكلمات ، لو نكث رجل
« اوما » ، لا فرق بامر من او بطلب من عهد ، للميكي «انليل» ،
ملك السماء والارض ، (عندئذ) عسى ان تلقني عليّ اوما من
السماء الشبكة « شوشكال » شبكة انليل الذي اقسام
(بحياته) في اليوم الذي ينقض فيه ذلك العهد » .

اما معاهدات العصر الاشوري الحديث ، فتشغل الفقرات الخاصة
باستنزال اللعنات على من ينقض المعاهدة ويحث بالقسم جزءا كبيرا من
نص المعاهدة .

كما تضمنت طقوس ابرام المعاهدة القيام ببعض الاعمال الرمزية التي
ربما كانت ترمز الى اشياء معينة ترتبط بعقد الاتفاق ونفاذه والموافقة عليه
من قبل الاطراف المتعاهدة . ومن بين هذه الاعمال ماوصف في النصوص
المسمارية بانه « لمس الحنجرة » الذي ربما كان يشير الى قدسية المعاهدة
والالتزام ببندوها كقدسية واهمية الحنجرة بالنسبة للانسان . ومن الاعمال
الرمزية الاخرى ان يقوم الطرف الادنى في المعاهدة بمسك حافة ثوب او
حزام الطرف الاعلى . ولعلنا نجد بقايا مثل هذه الاعمال الرمزية في الاتفاقات
والمصالحات التي تجري بين القبائل والعشائر العراقية حتى الوقت الحاضر .
كما كان من بين الاعمال الرمزية عند عقد المعاهدة ، ولا سيما معاهدات
السلام التي تعقب علاقة عدائية بين الاطراف المتعاقدة ، هو قتل « صغير
الحمار » في احتفال معين . وقد يقوم بالمهمة مندوب عن الملك الرئيس ان
كانت المعاهدة بين حاكمين تابعين كما توضح الرسالة التالية التي كان قد
ارسلها احد موظفي الملك الى سيده :

« وصلني رقيم ابال - ادد من (مدينة) اشلاكو وذهبت الى اشلاكو لقتل الحمار بين رجال خانا ورجال ادا - ماراز وقد جلبوا (اضافة الى ذلك) جروا وغصنا مورقا وكان (علي) ان ان قتل صغير الحمار (وبذا) اثبت الصداقة بين رجال خانا ورجال ادا - ماراز ... » .

وقد اشير في بعض النصوص المسمارية الى نقض المعاهدة او رفض الاتفاق بعبارة « ضرب الايدي » ، فقد يقوم ملك بالغاء معاهدة كانت تربطه بملك آخر وذلك « بضرب يده » . وهناك رسالة من ملك كارانا الى زمري - لم يقول فيها الاول للثاني :
« لقد امسكت بحاشية ثوب زمري - لم ، ليت سيدي لا يضرب يدي »

وقد يحذف احد اطراف المعاهدة بندا من بنودها دون علم الآخر فقد ذكر شمشي - ادد في رسالة له الى ابنه ان ملك اشنونا قد مسح مادة من لوح « حياة الارباب » اي لوح المعاهدة .

اضافة الى ما تتضمنه المعاهدات من بنود تتعلق بالناحية العسكرية والالتزام بسياسة خارجية معينة يملئها عادة الطرف الاقوى في المعاهدة ، فقد تتضمن بنودا اخرى كتسليم المجرمين او العبيد الابقين . لذا ، فان شمشي - ادد يبعث برسالة الى يسمخ - ادد في ماري يطلب منه فيها التحري عن مكان اختفاء شخص معين والقبض عليه وارساله اليه فورا تمهيدا لتسليمه الى ملك بابل الذي طلبه منه :

« قل ليسمخ - ادد : هكذا يقول شمشي - ادد والدك : ان اشتان - شري النوركاني الذي نقي الى بابل هو ... في (مدينة) ساكاراتم . والان تفحص في سوابق هذا الرجل والمكان الذي هو فيه . وزع الجند ! قم بتوقيفه وجلبه مخفورا

في (مدينة) شوبات - انليل • لقد طلبه مني الرجل البابلي
(اي الملك حمورابي) « •

كما تضمنت بنود المعاهدات عادة حماية كل طرف لقوافل ورعايا
الطرف الآخر المارة باراضيه • لذا فان يسمخ - ادد حاكم ماري بعث
برسالة الى حمورابي يخبره فيها ان قافلة له توجهت من ماري عبر حدود
حمورابي الى دلمون في الخليج وفي اثناء عودتها اوقفت داخل حدود حمورابي
بسبب بعض الاستفسارات عن استخدام الابار وقد ارسل يسمخ - ادد
ممثلا له يرافق القافلة الى بابل لعل حمورابي نفسه يحل المشكلة • وفي
رسالة اخرى من شمشي - ادد الى ابنه يذكر فيها الصعوبات التي واجهها
اشخاص من مملكة يمشد في شمال سوريا عند محاولتهم عبور نهر الفرات
على مقربة من ماري في حين شكوا يسمخ - ادد الى ابلاخاندا ملك كركميش
في سوريا ان رجلا من مملكته دخل اراضي ماري وخطف سيدة من رعاياه
وفي الجواب على هذه الشكوى طلب ملك كركميش من يسمخ - ادد ان
يرسل اسم الشخص المعتدي واسم السيدة المختطفة وفي رسالة لاحقة
يكتب ابلاخاندا الذي فشلت تحرياته كما يبدو ويقترح ان يذهب زوج
السيدة المختطفة الى كركميش لعله يتمكن من العثور على زوجته •

واخيرا ، واذا ما تم ابرام معاهدة ، فكانت العادة ان توثق بمصاهرة
سياسية يتزوج فيها ملك او امير احد الاطراف من اميرة من العائلة المالكة في
الطرف الثاني وهي طريقة كانت متبعة في جميع العصور • وفي مقتبس من
الرسالة التالية ما يوضح ذلك :

« اشمي - داكان عقد صلحا مع التوركيين وسيأخذ ابنه زازيا
(ملك التوركيين) لابنه موت - اسقر • وقد ارسل اشمي -
داكان ذهبا وفضة الى زازيا هدية زواج » •

العلاقات السياسية في الفترة بين نهاية العصر البابلي القديم وبداية العصر الاشوري الحديث

تشمل هذه الفترة من تاريخ العراق القديم فترة زمنية طويلة جداً تتجاوز القرون الستة وتمثل بصورة عامة فترة السيطرة الكشية على بلاد بابل وفترة العصر الاشوري الوسيط في بلاد اشور . ولقد شهدت هذه الفترة احداثا سياسية وعسكرية غاية في الاهمية ليس في بلاد بابل واشور فحسب بل وفي جميع انحاء الشرق الادنى القديم ، ولم تعد الممالك التي قامت في كل من بلاد بابل واشور دولاً محلية لا يعنيتها ما يحدث في بقية انحاء الشرق الادنى بل اصبحت جزءاً من تلك الاحداث والتقلبات السياسية التي كانت تسود منطقة الشرق الادنى القديم ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، وهكذا كانت العلاقات السياسية الخارجية مع الدول الاخرى من اهم العوامل الفاعلة التي تحدد سياسة الدول او الممالك المختلفة . ففي اسيا الصغرى وشمال سوريا قامت الدولة الحثية التي كانت تهدف الى السيطرة على سوريا وشمال وادي الرافدين ، وفي الاجزاء العليا من وادي الرافدين قامت دولة ميتاني التي سيطرت على بلاد اشور لفترة جاوزت القرن وفي مصر كانت المملكة الحديثة قد انتهجت سياسة جديدة تسعى للتدخل في شؤون سوريا والسيطرة عليها فاصطدمت سياستها هذه بمصالح الدولة الحثية وكان الصراع عنيفاً بينهما وكافت سوريا مسرح ذلك الصراع . اما في بلاد بابل ، فكانت الدولة الكشية تسعى للتعايش السلمي مع الدول الاخرى ولا سيما مع الدولة الاشورية في شمال العراق والالتزام بالحياد تجاه الصراع القائم بين المملكتين الحثية والمصرية . وقد افرزت هذه العلاقات المتشابكة والصراعات الكثيرة قيام الاحلاف السياسية والعسكرية وعقد المعاهدات بين اطراف الصراع المختلفة .

وتاتي معلوماتنا الرئيسة عن العلاقات السياسية التي قامت بين دول
وممالك الشرق الادنى القديم ، بما فيها بلاد بابل واشور ، في هذه الفترة
من مجموعة من الرسائل الملكية المعروفة لدى الباحثين باسم « رسائل
العمارنة » نسبة الى موقع العمارنة في مصر الوسطى والذي يمثل موقع
عاصمة الملك المصري امنوفس الرابع (اخناتون) . فقد عثر في هذا
الموقع على مجموعة من اللوح الطينية جاوز عددها ثلاثماية لوح تمثل
الرسائل الملكية التي كان قد استلمها كل من الملك المصري امنوفس الثالث
(١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق م) وابنه امنوفس الرابع (اخناتون) (١٣٦٧ -
١٣٥٠ ق م) من ملوك وحكام الشرق الادنى القديم .

ومن الجدير بالاشارة الى ان جميع هذه الرسائل ، باستثناء ثلاثة منها
فقط ، مدونة بالخط المسماري العراقي وباللغة الاكدية على الرغم من ان
لغة معظم كاتبها ولغة المرسل اليه لم تكن الاكدية كما لم يكن الخط
المستخدم لديهم عادة هو الخط المسماري مما يشير الى ان اللغة الاكدية
يخطها المسماري كانت قد استخدمت في هذه الفترة لغة دبلوماسية يتفاهم
بواسطتها حكام وملوك الشرق الادنى القديم على اختلاف لغاتهم واجناسهم
وهذا يشير بدوره الى مدى قوة وانتشار الحضارة العراقية القديمة في هذه
الفترة على الرغم من عدم وجود دولة قوية في بلاد بابل او اشور تستطيع
فرض استخدام لغتها في المخاطبات الرسمية بين حكام الدول الاخرى .

والى جانب هذه المجموعة من الرسائل هنالك عدد لا بأس به من الرسائل
الملكية والوثائق الاقتصادية والقانونية التي عثر عليها في بلاد بابل واشور
نفسها القت ضوء على العلاقات السياسية بين الدولتين كما ان هنالك
وثيقة تاريخية مهمة عرفت « بالتاريخ التعاصري » افادت كثيرا في معرفة
العلاقات السياسية التي كانت تربط بلاد بابل ببلاد اشور .

تشير هذه المصادر الى ان العلاقات السياسية بين الدولتين الكشية في بلاد بابل والاشورية في بلاد اشور كانت تتأرجح في هذه الفترة بين العلاقات السلمية والحربية العدائية وكانت الدولة الكشية تميل دائما الى ترجيح العلاقات السلمية شأنها في ذلك شأن علاقاتها مع الدول والممالك الاخرى . لذا ، ابرمت بين كل من الدولة الكشية والدولة الاشورية معاهدات سلام عدة لاقرار الوضع الراهن بينهما وتحديد الحدود بين المملكتين ، ولم تكن هناك حدود طبيعية وثابتة بل كانت تتوقف في اتجاهها شمالا او جنوبا على قوة كل من الطرفين . وتعد المعاهدة التي عقدت بين الملك الكشي بورنابورياس الاول وبوزور - اشور الثالث (١٥٢١ - ١٤٩٨ ق م) ملك بلاد اشور اقدم المعاهدات المذكورة بين الدولتين فقد ذكر « التاريخ التعاصري » ان بوزور - اشور (الثالث) ملك بلاد اشور وبورنابورياس (الاول) ملك كاردونياش (بابل) « اقسما يمينا وعينا بينهما حدودا ثابتة » .

وفي عهد الملك الاشوري اشور - ييل - نشيشو (١٤٤٩ - ١٤١١ ق م) ابرمت معاهدة اخرى مع الملك الكشي كرا انداش خاصة بتثبيت الحدود بين المملكتين ايضا . وشهد اواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد نشاطا ملحوظا في العلاقات السياسية بين دول الشرق الادنى القديم ، ففي بلاد اشور اعتلى العرش الملك اشور - اوبالط الاول (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق م) في اعقاب الاستقلال عن السيطرة الميتانية وقد حاول الملك الاشوري ان يثبت قوة الدولة الاشورية من خلال اقامة علاقات سياسية طيبة مع دول الشرق الادنى وفي مقدمتها مصر حيث سارع الى مكاتبة الملك المصري اختاتون ملقبا نفسه في الرسالة الاولى « ملك بلاد اشور » وبعث اليه بهديا ثمينة . اما في الرسالة الثانية فقد لقب نفسه « ملك بلاد اشور ، الملك العظيم ، اخوك » اي انه عد نفسه على قدم المساواة مع الملك المصري كما

تشير الى ذلك الصيغة المستخدمة في المخاطبة وهي « اخوك » وطلب الى اخناتون ، بعد ان استعرض العلاقات الطيبة التي تربطهما ، مزيدا من الذهب . وقد اغاضت هذه العلاقات السياسية الجديدة بين الملك الاشوري والملك المصري البلاط الكشي في بابل الذي كان يرى في الدولة الاشورية دولة تابعة له فبعث الملك الكشي برسالة الى اخناتون ملك مصر استعرض في بدايتها علاقات بلاده مع مصر ثم عاتبه على قلة الذهب المرسل اليه وشكر اليه زيارة الاشوريين البلاط المصري وفيما يلي ترجمة لهذه الرسالة لآخذ غكرة واضحة عن العلاقات السياسية التي كانت تربط الملكين :

« الى نفخورييا ، ملك مصر »

هكذا يقول بورنابورياش ، ملك بلاد بابل ، اخوك .
اتني بخير ، فعسى ان تكون انت وبيتك وازواجك واولادك
ونبلاؤك وخيلك وعرباتك باحسن حال .

حين عقد ابي وابوك الصداقة بينهما كانا يتهديان اثنى الهدايا ولم يمنع احدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عزّ وغلا والآن لقد اهدى اليّ اخي منين من الذهب . فكم تمنيت لو انك ارسلت الي ذهباً بقدر ما كان يرسله ابوك . واذا كان لابد من تقليل المقدار ، فارسل الي نصف ما كان يرسله اليّ ابوك . فلم اقتصرت على ارسال منين من الذهب فقط ؟ انني الآن باذل جهدا كبيرا في بناء المعبد، وسوف انجز العمل بدقة فارسل اليّ قدرا من الذهب، واذا رغبت في شيء يوجد في بلادتي مهما كان فابعث اليّ رسلك لياتوك به .

في عهد ابي كوريكالزو ارسل اليه الكنعانيون يقولون :
« لنذهب الى مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفا » .
اما ابي فقد اجاب على رسالتهم قائلا : « ليكن الحلف ما بينكم ،

ولكن لتحذروا جانبي ، اذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي
يصدني عن ان اغزوكم ؟

وهكذا من اجل ابيك لم يسمع ابي قولهم • اما ما يخص بعض
الاشوريين من اتباعي (كذا ١) افلم اخبرك برسالي في شأنهم ،
فلم دخلوا الى بلادك ؟ وبما انك تحبني فيقيني انك لن تدخل معهم
في شيء (من التحالف) وانك ستعمل على اجباط سعايتهم
وجهودهم • وفي الختام لقد ارسلت اليك هدية : ثلاث منات من
حجر اللازورد وعشرة افراس لخمس عربات » •

وعلى الرغم من الادعاء الذي ذكره الملك الكشي في رسالته بان الاشوريين
كانوا تابعين له ، فان الرسالة تشير دون شك الى تنافس كل من الملك الاشوري
والملك الكشي على كسب ود الملك المصري وعقد علاقات طيبة معه • ولما
وجد الملك الكشي ان لامناص من الاعتراف بقوة الدولة الاشورية وسيطرتها
على شمال وادي الرافدين ، فانه دخل معها في علاقة صداقة جديدة وتم ابرام
معاهدة بين الجانبين زينت بمصاهرة سياسية تزوج بموجبها الملك الكشي من
ابنة الملك الاشوري اشور اوبالط وكان من نتائج هذه المصاهرة ان بدأ تدخل
الدولة الاشورية في شؤون بلاد بابل الداخلية وبدأ الصراع ثانية بين الدولتين
ووصل الى درجة نشوب الحرب على الرغم من ان السياسة الكشية كانت
تميل دوما لتحقيق التعايش السلمي مع الدولة الاشورية •

وفي عهد الملك الاشوري ادد - نراري الاول (١٣٠٧ - ١٢٧٥ ق م)
يبدو انه شعر بنفسه القوة الى درجة انه ارسل برسالة الى خاتوشيليش
الثالث ، الملك الحثي ، عرض فيها عليه « الاخوة » اي المساواة في المنزلة
وعقد معاهدة متكافئة • ويبدو من جواب خاتوشيليش انه رفض بقوة ذلك
وقال ساخرا « ما هذه المناقشة عن الاخوة وزيارة جبل امانا ؟ لماذا اكتب
اليك فيما يتعلق بالاخوة ؟ هل ولدنا انا واث من ام واحدة ؟ » ومما لا ريب

فيه ان الملك الحثي كان يعرف ما هو المقصود السياسي من مصطلح «الاخوة»
لكن تجاهل ذلك عن قصد ولم ترق له فكرة مساواته مع ملك بلاد اشور .
ومن ناحية اخرى نجد ان الملك الحثي يبعث برسالة الى الملك البابلي
يستعرض فيها « العلاقات الاخوية » بينه وبين والد الملك الكشي ثم يستفسر
فيها عن سبب قطع المراسلات معه وكأنه اراد بذلك استمالة الملك الكشي ضد
الملك الاشوري وفيما يلي مقتطفات من هذه الرسالة :

« لماذا اوقفت ، يا اخي العزيز ، ارسال رسلك ؟ هل تكلم اتسي
مردوخ بلاطو ثانية امام اخي بكلمات معادية لي ؟ »
ثم يذكر له ضعف ملك اشور وعدم تمكنه من اعتراض رسله
فيقول :

« ان ملك بلاد اشور بكل مشاته وسلاح عرباته لا يوازي مشاة
بلادك ... (من الذي) يستطيع من ملوك بلاد اشور ان يمنع
رسلك ... ؟ »

وينهي خاتو شيليش رسالته بتحريض سافر للملك الكشي ضد الملك
الاشوري فيقول :

« ... تقدم الان وقيم بغزوة الى بلاد العدو ، واني منشوق
لسماع كم سيدبح اخي من الاعداء . لقد اعتادوا ان يدعوا والدك
« الملك الذي يستعد للحرب لكنه يمكث في وطنه بعد ذلك » الم
يقولوا ذلك عنه دائما ؟ اخي يجب ان لا تبقي في الوطن ، اذهب الى
بلاد الاعداء وادحر العدو ... » .

وقد انتهت العلاقات السياسية الاشورية - الكشية بسيطرة الدولة
الاشورية المباشرة على بلاد بابل سيطرة مؤقتة وحكمها حكما مباشرا وذلك
في عهد الملك الاشوري توكلتي نورتا الاول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق م) غير ان
العلاقات العدائية بينهما عادت ثانية . وفي اواخر الالف الثاني قبل الميلاد ،

وبعد زوال سلطان السلالة الكشية ، نقرأ عن معاهدة سلام أبرمت بين الملك الاشوري ومعاصره البابلي كان الغرض منها انتهاء النزاع الطويل بين البلدين ليتفرغ كل منهما للاخطار الخارجية المحدقة بهما ، كما زوج الملك الاشوري ابنته من الملك البابلي ومع ذلك لم تستمر العلاقات الطيبة بين البلدين لفترة طويلة .

العلاقات السياسية من بداية العصر الاشوري الحديث وحتى سقوط بابل ونهاية الحكم الوطني فيها

تعد فترة العصر الاشوري الحديث التي دامت زهاء ثلاثة قرون (٩١١ - ٦١٢ ق م) من ازهى العصور التي مرت على بلاد اشور في تاريخها الطويل . فقد تميز هذا العصر بتعاظم قوة الاشوريين السياسية والعسكرية وازدهار حضارتهم واتساع نفوذهم حتى شملت حدود امبراطوريتهم في القرن السابع قبل الميلاد معظم انحاء الشرق الادنى القديم بما في ذلك مصر . ومع ذلك ، تخللت العصر فترات من الارتباك السياسي والضعف العسكري والانكماش . كان اخرها ايذانا بنهاية كيان الاشوريين السياسي وسقوط نينوى عام ٦١٢ ق م .

كانت الدولة الاشورية في هذا العصر المزدهم بالاحداث والتقلبات والتغيرات السياسية التي كانت تجري في مختلف اقطار الشرق الادنى القديم معاطة بقوى معادية لم يرق لها نمو الدولة الاشورية وتهديدها لمصالحها الاقتصادية والسياسية لذا كانت تتحين الفرص للاقتضااض عليها والقضاء على نفوذها المتزايد . ولتحقيق ذلك ، عمدت الى عقد الاحلاف العسكرية فيما بينها وابرمت المعاهدات الثنائية لتشكيل جبهات قوية تواجه النفوذ الاشوري وتصدده وتعمل على القضاء عليه . وكانت تلك الاحلاف

والمعاهدات تتركز في جبهات ثلاث مختلفة تأتي في مقدمتها الجبهة الشمالية الغربية المتمثلة بالممالك والدويلات السورية • وكان حلف الدويلات والممالك الواقعة في الشمال يضم عادة كلا من كركميش وبيت - اديني وسمأل في حين كانت مملكة دمشق الارامية تزعم حلف وسط وجنوب سوريا الذي ضم في احيان كثيرة كلا من حماة وارواد وقيلقيا واسرائيل وعمون وصور وصيدا • اما الجبهة الثانية فكانت الجبهة الشمالية الشرقية حيث كانت مملكة اورارتو تعمل على تجميع القوى المعادية في حلف عسكري يواجه تقدم الدولة الاشورية بهذا الاتجاه وقد ضم حلف اورارتو كلا من كوركم وارواد وملاطية وكموخ وغيرها • وفي الجبهة الجنوبية ، كانت مملكة عيلام ، كدأبها دوما ، تعمل على تغذية القبائل المناوئة للحكم المركزي في بلاد بابل واشور وتمد لها العون المادي والعسكري كلما سنحت الفرصة وتوفر لها الملجأ في حالة فشل التمردات والثورات التي تقوم بها ضد الحكومة المركزية • وفي العصر الاشوري الحديث ، استمرت مملكة عيلام بعقد الاحلاف مع القبائل الكلدية والارامية القاطنة في القسم الجنوبي من العراق مما اضطر الدولة الاشورية الى القيام بحملات متكررة على بلاد عيلام كان آخرها في عهد اشور بانيبال الذي قضى نهائيا على مملكة عيلام •

وازاء هذه الاخطار المحدقة بالدولة الاشورية ، كان على الاشوريين ان يعملوا من اجل تثبيت اركان دولتهم وحماية حدودهم ويواجهوا تلاءم الاحلاف حتى طغت الناحية العسكرية على حياة الدولة الاشورية في عصرها الحديث بصورة عامة •

ومن دراسة وتحليل السياسة الخارجية للدولة الاشورية يبدو انها كانت على درجة كبيرة من النضج وبعد النظر حيث كان يسبق تجهيز اية حملة عسكرية دراسة مستفيضة لجميع الاوضاع الداخلية والخارجية

للمنطقة المزمع توجيه الحملة إليها كما كان يسبق ذلك اتصالات مكثفة مع أمراء وحكام الأقاليم والبلدان المجاورة لضمان ولائهم السياسي وتأمين طرق الاتصال والمؤن في حالة التقدم والانسحاب ، وقد تعقد المعاهدات مع الحكام والأمراء المحليين وتوثق بالمصاهرات السياسية .

وكانت العلاقة التي تربط الدولة الآشورية بالدول والممالك الموالية أو التابعة على أنواع عدة . فكان هناك الدول والممالك الصغيرة الموالية للدولة الآشورية ، طوعا أو خوفا ، والسائرة في فلكها ، غير أنها كانت دولا مستقلة ، وكان على مثل هذه الدول أن تعترف بالسلطان الآشوري وتقدم للملك الآشوري الجزية السنوية والهدايا المقررة كما كان عليها أن تلتزم بعلاقاتها السياسية الخارجية بما تمليه مصلحة الدولة الآشورية فتعادي من يعادي الدولة الآشورية وتصادق من يصادقها ، وتحصل مقابل هذه الالتزامات على امتياز الحماية العسكرية ضد أي اعتداء خارجي أو تمرد داخلي .

وقد وردت إشارات كثيرة إلى هذا النوع من العلاقة في الرسائل التي أرسلت من وإلى الملك الآشوري من حكام وملوك مثل هذه الدويلات ومن هذه الرسائل ، رسالة بعث بها أحد حكام الممالك في شمال سوريا إلى تيجلاتبليزر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق م) ملك بلاد آشور حيث يقول فيها :

« لقد مسك أبي حاشية (ثوب) سيدي ، ملك آشور العظيم ، عندها عاش وعاشت يعدي [أسم الملكة] ... لقد ركض أبي عند عجلة سيده تيجلاتبليزر ، ملك بلاد آشور ، في الحملات العسكرية من الشرق إلى الغرب ... لقد مات أبي عند قدمي سيده تيجلاتبليزر ملك بلاد آشور في الحملة وبكى عليه جميع معسكر سيده ملك آشور ... واقم له تمثال على جانب الطريق ، وجيء بابي من دمشق . لذا ، وبسبب ولاء أبي وولائي

انا ، فقد وضعني سيدي تجلاتيلزر - على العرش » •

اما اذا امتنعت مثل هذه الدويلات عن تقديم الولاء ودفع الجزية او رفضت الاعتراف بسلطان الدولة الاشورية، او دخلت حلقا او ابرمت معاهدة. مع دولة معادية للدولة الاشورية ، عندها تقتضي السياسة الاشورية ان تقوي من قبضتها عليها وتهاجمها عسكريا وتغير حاكمها المحلي احيانا باخر موال. للسياسة الاشورية ومستعد لدفع الجزية السنوية وكانت مثل هذه العلاقة الجديدة توثق بالمعاهدات وتختتم بالقسم امام الالهة العظام كما كانت تتضمن تعيين موظف اشوري في البلاط المحلي يشرف على تنفيذ الاتفاق. ويراقب سياسة الحاكم المحلي وقد يزود بقوة عسكرية صغيرة تحسبا وتحزرا. لاي طارئ •

ان تاريخ الحملات العسكرية الاشورية على الجبهات المختلفة مليء بالامثلة على هذا النوع من الدويلات والممالك التي كانت تتمرد على السلطة الاشورية وتنبد الاعتراف بها وتمتنع عن دفع الجزية وتدخل احلافا مضادة للدولة الاشورية ، غير ان جواب الدولة الاشورية على ذلك كان قاسيا وراذعا في معظم الاحايين • ومن الامثلة الكثيرة على ذلك ما فعله سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق م) مع مملكة يهوذا جنوبي فلسطين ، والتي كانت تابعة للدولة الاشورية تدفع الجزية السنوية ، عندما خرجت عن تبعيتها وانضمت الى حلف مؤلف من عسقلون وعقرون وغيرها لمواجهة نفوذ الدولة الاشورية وتلقت مساعدة من الملك المصري اضافة الى اتصالها ببعض القبائل الكلدية في بلاد بابل مما اضطر سنحاريب ان يزحف بجيش جرار على ساحل البحر المتوسط ويخضع عسقلون وينصب عليها ابن حاكمها السابق ثم اتجه نحو عقرون التي استسلمت مساعدة عسكرية من مصر ومع ذلك استسلمت بعد حصار سنحاريب لها واعيد تنصيب ملكها السابق عليها بعد ان قدم الولاء والطاعة واخيرا حوصرت عاصمة يهوذا الى ان استسلمت لسنحاريب ، حسبما جاء

في نصوص سنحاريب الملكية ، ودفع ملكها حزقيا الجزية وهو صاغر •
وفي حالة حنث الحاكم المحلي القسم وعدم اعترافه بالدولة الاشورية
او طرده الموظف الاشوري من بلاطه ورفضه دفع الجزية ودخوله حلفا
مضادا للمرة الثانية ، عندها تتخذ الاجراءات العسكرية الفورية اللازمة لضم
اراضي تلك المملكة الى الدولة الاشورية وعدها مقاطعة اشورية تدار من
قبل حاكم اشوري بصورة مباشرة •

اضافة الى الرسائل الملكية الكثيرة التي تبادلها الملوك الاشوريون مع
ملوك وحكام الممالك والدول في الجبهات المختلفة ، فقد تم العثور على عدد
من المعاهدات المبرمة بين الدولة الاشورية وعدد من حكام وامراء الدول
والممالك التابعة وفي فترات مختلفة وتعد هذه المعاهدات من اهم مالدنيا
من نصوص مسمارية خاصة بالعلاقات السياسية الدولية في هذه الفترة من
تاريخ العراق القديم ، بل انها اقدم المعاهدات المعروفة بشكلها وصيغتها
الاصلية التي دونت بها في حين كانت جميع المعاهدات الاخرى السابقة عبارة
عن اشارات واردة في الرسائل والوثائق الملكية وغيرها من النصوص • ان
دراسة نصوص هذه المعاهدات ودراسة النصوص المسمارية الاخرى ذات
العلاقة تثير بوضوح الى ان الطقوس والتقاليد التي كانت سائدة في الالف
الثالث والثاني قبل الميلاد عند ابرام المعاهدات ظلت متبعة في العصر الاشوري
الحديث ايضا • كما ان البنود التي تضمنتها تلك المعاهدات تتشابه مع بنود
المعاهدات الاشورية والتي ضمت الى جانب البنود الخاصة بالتعاون
العسكري والسياسي بنودا خاصة بتسليم المجرمين او اللاجئين ومسؤولية
كل طرف من اطراف المعاهدة حماية رعايا الطرف الآخر ورعاية قوافله
للتجارية عند المرور في حدود مملكته وغير ذلك من البنود •

وتعد المعاهدة التي عقدها اشور - نراري الخامس (٧٥٤ - ٧٤٥
ق.م) مع ماتع - ايلو حاكم ارواد على الساحل السوري ، اقدم معاهدة

وصلت اليينا بصيغتها الاصلية. وكانت المعاهدة قد ابرمت اثر قيام الملك الاشوري بحملة عسكرية على مدينة ارواد عاصمة مملكة بيت - اكوشي الارامية ، ولقد الزمت المعاهدة الحاكم التابع ماتع - ايلو بوجوب الاخلاص للملك الاشوري وللدولة الاشورية والاشترك الفعلي في اي حرب يشنها الملك الاشوري على اعدائه حيث جاء فيها :

« لم يؤت بهذا الحمل من حظيرته للتضحية ولا لوليمة ولا للبيع والشراء ولا (للعرافة المتعلقة) برجل مريض ولا للتضحية من اجل [...] : لقد جلب لتوثيق المعاهدة بين اشور - نراري وماتع - ايلو . فاذا اذنب ماتع - ايلو بحق (هذه) المعاهدة التي تمت باداء القسم بالالهة ، فانه مثل هذا الحمل ، الذي جلب من حظيرته (والذي) سوف لن يعود الى حظيرته وسوف لن يرى حظيرته مرة ثانية ، فيا للحسرة [سيترد] ماتع - ايلو وابناؤه وبناته وموظفوه وشعب بلاده من بلادهم ، ولن يعودوا الى بلادهم ولن يروا بلادهم مرة ثانية » .

ثم تستطرد المعاهدة بعد ذلك الى القول :

« اذا لم تخلص لاشور - نراري ، اذا لم يكرس قلبك لاشور - نراري ، ملك بلاد اشور ، فانك وابناءك وشعب بلادك [...] . اذا ذهب (الجيش الاشوري) للحرب باوامر اشور - نراري ، ملك بلاد اشور ، ولم يأت ماتع - ايلو مع موظفيه وجيشه وعربته (الى الحملة) باخلاص كامل ، فعسى ان يكسو سن ، السيد العظيم الذي يقيم في حران ، ماتع - ايلو وابناءه وموظفيه وشعب بلاده بالجذام كالرداء يغطي اجسامهم فيهموا على اوجهم في العراء وعسى ان لا يرحمهم » .

ثم تتولى الدعوات واللعنات باسم بقية الالهة والطلب من كل اله
انزال مرض معين على ماتع - ايلو وحاشيته في حالة نقضه المعاهدة او عدم
عده حياة اشور - نراري كحياته هو * وتنتهي المعاهدة بالقسم الذي اداه
ماتع - ايلو باسم الالهة العظام جميعها *

وقد حرص الملوك الاشوريون على اقامة علاقات طيبة مع الممالك
المجاورة المكافئة لهم من حيث المركز والقوة بغية تثبيت مواقف تلك الممالك
الى جانب الدولة الاشورية وضمان عدم قيامها بتقديم المساعدات لاية دولة
معادية لها * وهذا ما نقرأه في رسالة يرقى تاريخها الى حدود عام ٧١٠ ق م *
بعث بها الملك الاشوري سرجون الى شخصية اشورية ، ربما كان ابنه
وخليفته على العرش سنحاريب * فقد اشار سرجون في هذه الرسالة الى
اقتراح ميتا ، حاكم مملكة مشكوفي اسيا الصغرى والذي كان فيما مضى
عدواً للدولة الاشورية أو محايداً على الاقل ، حول رغبته بالتقارب مع
بلاد اشور * فرحب الملك سرجون بحرارة بهذا الوضع الجديد وبعث
بتعليماته للعمل على تطوير علاقات الصداقة هذه وامر اعتماد سفير اشوري
الى ميتا بينما تمت الموافقة على ارسال سفير من مشكو الى البلاط الاشوري *
اضافة الى ذلك ، فقد وجه سرجون ابنه سنحاريب (ان كان هو المرسل
اليه في الرسالة) بان يكتب الى ميتا ويخبره بان الملك الاشوري كان ممتناً
جداً حول تطور العلاقات بينهما وانه وافق على اقتراح عقد اتفاقية تسليم
المجرمين *

وشبيهة بالمعاهدة التي عقدها اشور - نراري الخامس مع حاكم
ارواد المعاهدة التي ابرمها اسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق م) حفيد سرجون مع
بعل ، حاكم صور الفينيقية ، ويظن ان المعاهدة ترقى بتاريخها الى عام
٦٧٧ - ٦٧٦ ق م * ، وهي السنة التي قام بها اسرحدون بحملة عسكرية على
مدينة صيدا التي ربما رفضت الاذعان للمطالب الاقتصادية والسياسية التي

وفرضها الملك الاشوري على مدينة صور لما جاء ذلك في المعاهدة • ولقد وصلت اليها نسخة من المعاهدة وهي بحالة رديئة لا يمكن معها قراءة جميع بنودها • ومن الطبيعي انها تبدأ بذكر اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، والقابله الرنانة الكثيرة وبيان قوته وتأيد الالهة له ، ثم تنطرق في العمود الثالث الى « المندوب الملكي » الذي عينه اسرحدون في مدينة صور وصلحياته :

« ... [المندوب الملكي الذي] عينته عليكم ... ولا تفتحوا رسالة ارسلها لكم دون (حضور) المندوب الملكي ، اذا كان المندوب الملكي غالبا ، انتظروه وبعد ذلك افتحوها ... » •

وهذه اشارة صريحة الى ما سبق وذكرناه عن تعيين ممثل اشوري في بلاط الدولة التي تقع تحت حكم الدولة الاشورية وشوذا وتعتقد معها معاهدة تبعية من هذا النوع •

وحيث ان مدينة صور كانت من الموانئ المهمة على ساحل البحر المتوسط وان حياتها الاقتصادية تعتمد بالدرجة الاولى على تجارتها البحرية وسفنها الكثيرة ، لذا نصت المعاهدة على تعهد الملك الاشوري بحماية سفن صور وعدها من السفن التابعة له ، فاذا تحطمت في مكان آخر تابع نفوذ الدولة الاشورية ، يعد كل اعتداء عليها اعتداء على اموال الملك الاشوري نفسه :

« اذا تحطمت سفينة لبعل او لشعب صور في بلاد الفلسطينيين او في أي مكان على حدود اقليم اشوري ، فكل شيء في السفينة ملك لاسرحدون ، ملك بلاد اشور لكن يجب ان لا يلحق أي ضرر بأي شخص على ظهر (السفينة) (بل) عليهم تسجيل اسمائهم [واخبار الملك بها] » •

وفي فقرة اخرى من المعاهدة ، حدد اسرحدون الموافىء والطرق التجارية والمدن التي يضمن فيها لبعل حاكم صور الحماية •

وفي ختام المعاهدة دعاء الى جميع الالهة الاشورية بانزال مختلف انواع اللعنات والويلات على بعل في حالة تقضه المعاهدة ، بطبيعة الحال وخروجه عن ولائه للملك الاشوري •

وتاتي المعاهدة التي عقدها اسرحدون عام ٦٧٢ ق.م مع رمثايا حاكم اركز بانو الميذية والتي عثر عليها في مدينة النمرود عام ١٩٥٥ اكمل مثال على معاهدات التبعية التي كانت تبرم بين الملوك الاشوريين وحكام وملوك الدول والممالك التابعة • ولد تم العثور على تسع نسخ من هذه المعاهدة كل منها خاص بحاكم من الحكام التابعين ، ومعظمهم من الميدين ، لاختلف عن بعضها الا باسماء المدن والحكام ، غير ان المعاهدة المبرمة مع رمثايا هي اكمل تلك النسخ ووجدت بحالة جيدة من الحفظ :

كان الهدف الاساس من ابرام هذه المعاهدات هو ضمان مبايعة ولي العهد الاشوري اشور بانيبال على عرش بلاد اشور ومبايعة اخيه شمش — شم — اوكن على عرش بلاد بابل واخذ التعهدات من الحكام التابعين بالولاء والطاعة لهما في حالة وفاة والدهما اسرحدون ومعاونتهما على اعتلاء العرش مهما كانت الظروف ، قد ضمت المعاهدة أكثر من اربعماية سطر من الكتابة المسمارية يتقدمها ختم الاله اشور ، لتوثيق المعاهدة واضفاء القدسية والشرعية عليها ، ثم تاتي المقدمة التي تذكر ان :

« (هذه هي) معاهدة اسرحدون ، ملك العالم، ملك بلاد اشور ، ابن سنحاريب ، ملك العالم كذلك ، ملك بلاد اشور ، مع رمثايا حاكم مدينة اراكزا بانو (و) مع ابنائه واحفاده وجميع شعب اراكزا بانو (و) مع كل الرجال الذين تحت امرته الصغير (منهم) والكبير • معكم جميعا ، ومع ابنائكم واحفادكم

الذين سيأتون في المستقبل بعد هذه المعاهدة من مشرق الشمس إلى مغربها ومع جميع من هو تحت امرة وسيادة اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، ابرمت المعاهدة معكم بخصوص اشور بانيبال ، ولي العهد ، بن اسرحدون ، ملك بلاد اشور » .

ثم يتبع ذلك ذكر اسماء الالهة التي وثقت امامها المعاهدة والقسم الذي اخذه اسرحدون من تابعيه للالتزام بينود المعاهدة ثم يذكر بعدها الغاية من ابرام المعاهدة ، وهي البيعة لاشور بانيبال وليا للعهد على عرش اشور وشمش - شم - اوكن ، وليا للعهد على عرش بلاد بابل واخذ العهد من الحكام التابعين لهما وتنصيبهما على العرش في حالة وفاة والدهما اسرحدون :

« (هذه هي) المعاهدة التي عقدها معكم اسرحدون ملك بلاد اشور ، امام الهة السماء والارض العظيمة ، (ونياية عنها) من اجل تعيين ولي العهد اشور بانيبال ابن سيدكم اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، الذي رشحه وعينه لخلافته ، فعندما يفارق اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، الحياة ، عليكم ان تنصبوا عليكم ملوكية وسيادة بلاد اشور ***** »

ثم تأتي الفقرات الخاصة باخذ العهد من الحكام التابعين لتنفيذ ذلك بدقة والعمل باخلاص من اجل اشور بانيبال واخيه :

« اذا مات اسرحدون وابناؤه صغار ، فعليكم مساعدة اشور بانيبال ، ولي العهد المرشح ، على اعتلاء عرش بلاد اشور ، وعليكم ان تنصبوا اخاه العزيز ، شمش - شم - اوكن ، ولي العهد المرشح لبلاد بابل على عرش بلاد بابل ، وتعهدوا اليه الحكم على (بلاد) سومر واكد وكاردونياش ، ولا تحتجزوا اية هدية اعطاء اياها والده اسرحدون ، ملك اشور ، بل تمكنوه من ان يأخذها معه » .

وتستمر ينود المعاهدة في تعداد الفرضيات في حالة نشوب اية محاولة لاغتصاب العرش او قتل ولي العهد او التآمر عليه او محاولة تغذية الخلافات بين الاخوين او ... الخ ومن ثم يأتي القسم واللعنات والويلات باسماء جميع الالهة على كل من يفعل ذلك . ثم ختمت المعاهدة بالتاريخ مع ذكر ماهيتها :

« اليوم السادس عشر من شهر ايارو ، في لَمَو (= سنة) نبو - بيل - اوصر ، حاكم خورصباد . معاهدة ثبتت (من قبل اسرحدون) بخصوص اشور بانيبال ، المرشح لولاية عهد بلاد اشور ، وشمش - شم - اوكن ولي العهد المرشح لبلاد بابل » . وعلى الرغم مما جاء في بنود هذه المعاهدة ومثيلاتها من المعاهدات التي عقدت مع حكام المدن الميدية لحماية العرش الاشوري ، وعلى الرغم من الالتزامات التي التزم بها اولئك الحكام امام اسرحدون والاحتياطات التي اتخذها لضمان ارتقاء ولديه العرش الاشوري والبابلي، الا ان الاحداث التي وقعت بعد ذلك دلت على عدم جدوى مثل هذه المعاهدات وان مفعولها بعد غياب الملك القوي الذي فرضها يكاد يكون معدوما حيث مالبت ان نشبت الخلافات بين الاخوين وكانت مملكة عيلام قد وجدت الفرصة سانحة امامها لاشعال نار الفتنة بين الاخوين والوقوف الى جانب ملك بابل ضد الملك الاشوري ، وقد انتهت تلك الفتن بحرب شعواء ذهب ضحيتها الملك البابلي وهو جمت عيلام وتم القضاء على مملكتها نهائيا .

ومنذ اواخر عهد اشور بانيبال ، بدأ الضعف والارتباك السياسي يعم بلاد اشور ، في حين كان قد اعتلى العرش البابلي الملك الكلداني نبوبلاصر (عام ٦٢٦ ق م) واستقل عن الدولة الاشورية وحاول مهاجمة مدنها وقد التقت مصالحه في السيطرة على بلاد اشور بمصالح القبائل الميدية التي كانت قد توحدت وكونت لها مملكة يتزعمها الملك الذي عرف في المصادر الاغريقية باسم كي - اخسار . وهكذا تقضت المدن الميدية العهد الذي كانت قد

قطعت لاسرحدون الا قليل منها وتحالفت مع نبو بلاصر تحت قيادة كي -
اخسار للهجوم على بلاد اشور ، وهذا ما تم فعلا حيث هوجمت اشور وتريص
وغيرها من المدن الاشورية واخيراً سقطت نينوى عام ٦١٢ ق م . بعد
حصار لم يدم طويلا ، وتذكر المصادر الاغريقية ان التحالف الذي تم بين
نبو بلاصر وكي - اخسار قد ختم بمصاهرة سياسة تزوج بموجها ولي
المهد البابلي نبوخذنصر من اميرة ميديا كما تذكر بعض القصص الاغريقية ان
نبوخذنصر كان قد شيد الجنائن المعلقة من اجل زوجته الميديا غير انه ليس
هناك ما يؤيد هذه القصص اثاريا .

على الرغم من سقوط نينوى ، الا ان الاحلاف والمعاهدات التي كانت
بلاد اشور قد عقدتها مع بعض المدن والممالك في الغرب قد اظهرت فاعليتها .
فما ان سمع المصريون بالحنة التي تمر بها اشور الا وسارعوا بارسال جيش الى
سوريا لمساعدة الجيش الاشوري ثم اعقبه جيش آخر بقيادة الفرعون
المصري نفسه غير ان الوقت كان متاخراً وهرب الفرعون المصري امام زحف
نبوخذنصر قائد الجيش البابلي . كما التزمت بعض الدويلات السورية
بموقفها الى جانب الدولة الاشورية في حين اظهرت دويلات اخرى عدائها
السافر لها كدويلة يهوذا .

وفي العهد البابلي الحديث ، يبدو ان السياسة الخارجية التي اتبعها
نبوبلاصر ومن ثم نبوخذنصر لم تكن تختلف كثيراً عن السياسة الاشورية
ولا سيما فيما يخص علاقة الدولة البابلية بالدويلات والممالك التابعة ولعل خير
مثل على ذلك علاقة الدولة البابلية بدويلة يهوذا التي كانت تابعة اول الامر
وموالية للبابليين وبعد تمردها اصبحت خاضعة بشكل اقوى ومن ثم ونتيجة
تمردها مرة اخرى قضي عليها نهائيا وسبي سكانها .

ومن الاشارات المهمة عن العلاقات السياسية والدبلوماسية في العهد
البابلي الحديث ان احد قادة نبوخذنصر ، وهو نبونائيد الذي اختير فيما بعد
ليكون ملكا على عرش بابل ، قام بالتوسط في المفاوضات التي جرت بين

مملكة ليديا والميديين حيث امكن من خلال تلك المفاوضات والوساطات وضع حد للصدامات العسكرية بين الطرفين وعقدت معاهدة سلام عام ٥٨٥ ق م بينهم •

وعندما اعتلى نبونائيد العرش البابلي ، كانت علاقاته وثيقة بالملك الفارسي كورش وكانت تربطهما معاهدة صداقة وثيقة غير انه ما ان قويت شوكة الملك الفارسي وقضى على الميديين في ايران ، الا وبدأ بالعمل على نقض المعاهدة التي تربطه مع الملك البابلي والاعداد للهجوم على بلاد بابل واشور مستغلا فرصة الارتباك الاقتصادي الذي ساد بلاد بابل ومستعينا بالاسر اليهودية التي كان قد جاء بها نبوخذنصر عندما قضى على يهوذا وهكذا ، نقض كورش الاتفاق وهجم على بابل واسقطها عام ٥٣٩ ق م • وانهى بذلك الحكم الوطني في العراق •

وهكذا يتضح لنا من استعراض العلاقات السياسية التي كانت تربط الدول والممالك المختلفة في العراق القديم بعضها البعض الاخر او بالدول والممالك المجاورة بأنها كانت على درجة كبيرة من التطور والنضج وانها اتبعت ، ومنذ اقدم العصور المعروفة لدينا من خلال النصوص السامرية ، اساليب وطرقا سياسية ودبلوماسية كانت الاساس الذي قامت عليه فيما بعد القوانين الدولية سواء كان ذلك في استخدام السفراء والمندوبين وارسال الرسائل الملكية وعقد المفاوضات وتوقيع المعاهدات والاتفاقات الثنائية وتوثيقها بالقسم او باستخدام اساليب التحكيم الدولية واقامة الاحلاف العسكرية والسياسية التي تضم اكثر من دولتين او بالطقوس والمراسيم التي كانت ترافق كل ذلك والتي تطورت وتبلورت فيما بعد لتصبح جزءا من مراسيم عقد المعاهدات الدولية • ان ذلك يعكس لنا دون شك صفحة مشرقة من تاريخ العراق القديم ظلت اثارها قائمة على مر العصور ولم تؤثر فيها فترات السيطرة والاحتلال الاجنبي التي اعقت الحكم الوطني في العراق •

اهم المراجع

- اوينهايم ، بلاد ما بين النهرين ، شيكاغو ، ١٩٦٤ ، ترجمة سعدي فيضي .
- د . سامي سعيد الاحمد ، الاتفاقيات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم ، بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الاول لجمعية المؤرخين والاثاريين في العراق ، ١٩٨١ .
- د . سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشي ، تاريخ الشرق الادنى القديم ، بغداد .
- ساكر ، عظمة بابل ، لندن ١٩٦٢ ، ترجمة د. عامر سليمان .
- د. عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، الموصل ١٩٧٧ .
- كونتنو ، الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ، ١٩٦٥ ترجمة سليم طه التكريتي .
- كريم ، السومريون ، شيكاغو ، ١٩٦٢ ، ترجمة د . فيصل الوائلي .
- كريم ، من الواح سومر ، ١٩٥٦ ، ترجمة طه باقر .
- طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .
- وليد محمد صالح ، العلاقات السياسية للدولة الاشورية ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد ، غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٦ .
- H.W.F. Saggs, Everyday Life in Babylonia and Assyria, London, 1965.
- , The Might that was Assyria, London, 1984.
- D.J. Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958.
- , Chronicles of Chaldean Kings, London, 1961.

الفصل الخامس

الزراعة والري

د . سامي سعيد أحمد

كلية الآداب - جامعة بغداد

الزراعة

اشتهر العراق خلال عصوره كافة بالزراعة ، وصارت خصوبة تربته مضرب الأمثال عند الكتاب الكلاسيكيين . فقد هيردوتس من القرن الخامس ق.م غلتها بمائتي ضعف وسترابون من القرن الاول بثلاثمائة وهي ارقام توضح برغم عدم معقوليتها سمعة العراق قديما بالزراعة والتي نجد صداها بمصطلح (ارض السواد) الذي عرف به العراق في العصور المتأخرة لسعة وامتداد اراضيه المزروعة الخضراء . واقرن اسم العراق عند عرب الجزيرة قبل البعثة النبوية بالثروة والرخاء المعتمدين على الزراعة فقال زهير بن ابي سلمى :

تغل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ينقسم سطح العراق الى منطقتين رئيسيتين : السهل الرسوبي الجنوبي (سومر واكد ، عند الاقدمين) ثم منطقة المراعي ابتداء من شمال تكريت

المرتبطة بسفوح التلال والجبال حيث تنمو الأشجار والنباتات الطبيعية وفيها مناطق خصبة يمكن زراعتها بالاعتماد على الديم بالشتاء والربيع وهي بلاد اشور عند الاقدمين • وتنمو في الاخرة الاعشاب والازهار بصورة وفيرة في الربيع الى جانب توفر اشجار البلوط والصنوبر والهور في المناطق الجبلية •

وفي مرتفعات شمالي العراق تم الاهتداء الى الزراعة في حدود الالف الثامن ق • م حيث المطر الوفير والمناخ الملائم لنمو الحنطة والشعير فقد زرع سكان جرمو (وهي أقدم مستوطن زراعي قريب من چمچمال) الحنطة ذات السنابل بصفين من البذور ، والتي ماتزال اقرب الى الشكل البري • ولعل اصل زراعة حنطة الخبز متأصل بجرمو حيث عثر في بيوت طبقاتها الاخرة على تنابير • كما زرعوا الشعير والعس والحمص •

والى جانب الحنطة والشعير عثر على بذور الكتان في موقع حسونة وهو نبات يتطلب ارواء • كانت الزراعة مهمة عند العراقيين القدامى حيث يعتمد عليها رخاء البلد لذا كثر عندهم الهة المياه والخصب وقسم جاكوبسون الدين العراقي القديم الى اربعة اطوار جعل الاول مرتبطا بالطبيعة وقواها المؤثرة على حياة الانسان وفعالياته وبرزت به لذلك الهة الزراعة والارواء ، والخضرة فكانت لهم الهة خاصة بالأهوار والبساتين الجنوبية واخرى بالمناطق الرعوية والحقول • فكان اله الماء ايا وزوجته ربة الارض من الالهة المهمة • وللحبوب الهها الخاص الذي يقيها مخاطر الافات ونليل ربة الحنطة وندابا ربة الشعير وهكذا • وقدمت الى الالهة بواكير الفواكه والمنتجات الزراعية • وصورت اختتام العصر شبه الكتابي نباتات وسنابل وقطعان ماشية ، وحوت مزهريّة من نفس الفترة صور عيد رأس السنة بالاضافة الى ذلك • وبالمظهر الاعلى

رمزان للالهة الام وكاهن يقدم سلة فاكهة الى امرأة لابد وان مثلت هذه الالهة •
كلها تعكس الدور الذي لعبته الزراعة والرعي في حياة السكان خلال ذلك
العصر • ونقرأ في الكتابات الادبية تشبيهات منتزعة من الحياة الزراعية ما
يدل على تأثيرها الكبير عليهم ، فشبهاوا تحمل الظروف القاسية بصبر القصب
وصار الفلاح عند السومريين رمز السعادة • وذكر انكيدو للكلگامش عند
وصفه عالم الاموات ان الرجل ذا الستة اولاد هناك سعيد مثل الفلاح •
وجاءت تشبيهات كاتب من العصر البابلي القديم منتزعة من عالم الزراعة بما
ينير الى التعلق بها (ان امي مطر السماء ، انها الماء الذي يروي احسن
البذور ، انها الحصاد الوفير الذى يقدم محصولا ثانيا ، انها بستان من البهجة
مملوءة بالمرح، انها شجرة الشربين المملوءة بالمخاريط، انها الفاكهة الاولى المبكرة،
انها قنابة تجلب المياه الوفيرة الى قنوات الارواء انها تمر دلمون الحلو في
موسمه) •

قام العراقيون منذ اقدم الازمنة بتتبع الخصائص الطبيعية وتأثيراتها على
الزراعة فعرفوا موسم الفيضان والاحوال الجوية وموسم كل محصول من
المزروعات الصيفية والشتوية واتقنوا مسح الاراضي لتحديد ملكية كل ارض
وكانت لهم أوزان ومكاييل ومقاييس ثابتة • ومنذ العصر السومري القديم
عرفوا التقويم واحتساب الزمن وجاءت اسماء بعض الاشهر السومرية مشيرة
الى فعالية زراعية تنجز في ذلك الشهر برغم اختلاف اسماء هذه الاشهر من
مدينة لاخرى • فسمي الشهر الثاني عشر بشهر حصاد الشعير واذا لم يكن
الشعير ناضجا في بدء ذلك الشهر وضعوا شهرا كيمسا حتى يقع حصاد
الشعير دائما ضمن ذلك الشهر • واطلق على شهر اب في مدينة لكش اسم
عيد اكل الدخن • وسمي اول شهر بالسنة باسم شهر انتاج الحقل وكان على

ما يظهر مطابقا لنيسان * وكان اسم احد الاشهر زمن سلالة اور الثالثة شهر
تذرية الجبوب ومن اسماء الاشهر الاشورية الاولى كان شهر القرع وشهر
البطم الذي يدل (اذا صحت القراءة) على علم الاشوريين بالزراعة المتخصصة
منذ اوقات مبكرة *

وقسم الدكتور احمد سوسة تطور الزراعة عند السومريين منذ عصورهم
الاولى في جنوب العراق الى ثلاثة اطوار :

الاول : يبدأ منذ استيطان السومريين الاوائل وبدء حياتهم الزراعية الاولى في
الجزيرات المتناثرة بمنطقة الاهوار * وكانوا خلاله قليلي العدد ولذلك
لم يمارسوا الزراعة على نطاق واسع فاستغلوا موارد الهور الاخرى
كالسماك والطيور * فكانت الزراعة محدودة وبدائية دونما ارواء حيث
كانوا يستفيدون من رطوبة التربة (طريقة الري الحوضي) مع توفر
النخيل على ضفاف الانهار *

الثاني : عندما كثر السكان وازدادت الماشية فلم تعد جزيرات الهور
كافية لاعاشتهم فبدأوا باحياء اراضي جديدة من مناطق الاهوار
بتسويرها بسدود ترابية وتجفيفها وسقي المزارع سيحا باحداث فتحات
في اسوارها للارواء قدر الحاجة * ونظر لقلة عمق المياه لم يكن
الضغط على هذه السدود شديدا مما يتطلب اعمالا ضخمة ولم يجابه
الفلاحون بهذه المنطقة مشكلة الملوحة في التربة لتوفر الماء وضمان
الطبيعة لاستمرار خصوبة التربة واستمر العمل بتجفيف الاهوار واستغلال
ارضها فاستصلح اورنمو اهوارا واحاطها باسوار لحمايتها من الفيضان *

: وكان اكثر فضجا واتساجا من سابقيه وحدث خلاله تغير
جوهري بأسلوب الزراعة * فصارت الجداول الطويلة تشق من الترات
لتصل الى اراضي زراعية بعيدة وانشأوا السدود والمبازل والخزانات
الامر الذي كسر عزلة السومريين في الاهوار الى اراضي زراعية شملت

معظم المنطقة الجنوبية . ولما كان مطر هذه المنطقة بالشتاء لا يكفي لانضاج المحصولات الشتوية ، وصيفها طويلا جافا فقد استعملوا اساليب الري الاصطناعية من حفر جداول وقنوات لايصال الماء سيحا الى الاراضي الزراعية .

وتوضح المقالة السومرية في الفلاحة (من حوالي ١٧٠٠ ق م) مدى تقدم العراقيين انذاك بالزراعة والمهام باصولها ومواعيدها . وهي سلسلة من الارشادات ، موجهة من فلاح سومري لولده ادعى انها من وحي الاله نينورتا لتكون عنده كدليل للفعاليات الزراعية الواجب اتباعها طوال العام لضمان محصولٍ وفير . فينصحه ان يهتم بالسقي وان لا يجعل الماء يغطي فوق الحقل وان يراقب الارض الرطبة بعد انحسار الماء خشية دخول الابقار والسابلة اليها . واكد على وجوب تطهير الحقل من الحشائش الضارة والاشواك وان يجند اهله وعماله للعمل واحضار كل الادوات الضرورية والسلال واوصاه بالتأكد من وجود ثور احتياطي عنده تحسبا لما قد يحدث لثوره فيتأخر العمل . واوصاه بضرورة تقليب الارض مرتين بالمعول مرة وبالمجرفة مرة أخرى وان يستخدم المطرقة لتكسير كتل الطين . وطلب منه ان يراقب عماله مخافة تهربهم من العمل، ثم ينصح بوجوب القيام بالحرث والبذر معا وان يحرق ثمانية اخاديد بكل قطعة ارض مساحتها عشرون قدما ويتأكد من وضع البذور في الارض بعمق متساو . ثم ينصح بوضع بذور الشعير على عمق اصبعين واذا لم يكن بإمكان البذور اختراق التربة فيلزم تغيير سكة المحراث . ويعطيه تعليمات عن كيفية الحرث كحرث انواع مختلفة من الاخاديد مستقيمة ومائلة وتطهير الاخاديد بعد البذر من كتل الطين اليابسة حتى تخرج النبتة بسهولة . واوصاه ان يتلو عند خروج النبتة دعاء الى الهة جرذان الحقل والحشرات مخافة ان يضروا بالنبتة النامية ، وليبعد الطيور لئلا تنتزعها . واخبره ان يسقي الشعير مرتين في البداية ، الاولى عندما ينمو الى حد يغطي قعر الاخاديد ، والثانية عندما

ينمو اكثر ليفطي الحقل وهكذا • ثم يوصيه بمراقبة النبتة الخارجة آنذاك مخافة ان تصاب بمرض ، واذا نما الزرع عليه ان يسقيه ثلاثة ورابعة ويقطع النبتة ابان قوتها اى بالوقت الملائم •

ويطلب منه ان يبدأ بدرس المحصول فورا بعد الحصاد بمزيج او زحافة تجر فوق حزم الغلة المكدسة ويؤدى صلاة حالما تنسخ الجبوب وتذرى بعد ذلك بالمذارى لخمسة ايام توضع بعدها على عيدان مصفوفة لتنقيتها من الاوساخ • وكان الفلاح يزرع حقله بطريقتين الاولى بحرث الارض ثم بذرها وتغطية البذور وفي الطريقة الثانية يربط قمع البذور بالمحراث لضمان التوزيع المتساوى للبذر •

ترينا الاختام الاسطوانية والمنحوتات الكثير من الصور المتعلقة بالزراعة ففي واحدة نرى امرأة تحمل مذراة بيدها مما يدل على مشاركة المرأة الرجل في اعمال الحقل • وتلقى الكثير من الوثائق والمستندات اضواء على الزراعة واحوال الاراضي •

وترينا شرائع العراق القديم مدى الاهتمام بالزراعة وتنظيم معاملاتها • فتشريع لبت عشتار يحتم على البستاني تسليم الارض البور التي تعهد بغرسها كاملة الى صاحبها والا فان الجزء البور المتبقي يصبح من حصته • واشترط حمورابي على البستاني تعميرها لاربعة سنوات وفي الخامسة يقتسم صاحب الارض والبستاني البستان بالتساوى • وللاول ان يختار نصيبه ، واذا ترك البستاني قطعة غير مغروسة فتحتسب من حصته • واذا أهمل البستاني الارض بدل غرسها فعليه ان يعرض لصاحبها عن محصول سنة بقدر محاصيل الحقول المجاورة • وعالجت مواد قانونية ازال الضرر بحقول الاخرين فمواد في قانون اورنمو تقضي بمن يزرع حقل شخص اخر دون موافقته واعتراض الاخير رسميا عليه أن يخسر ما صرفه على الحقل ، ومن يسبب اغراق حقل مزروع يدفع لصاحبه غرامة عينية ، ومن يؤجر حقلا ولم يزرعه يدفع غرامة عينية ايضا •

الى صاحب الحقل • والزم حمورابي من يترك حقلا استأجره ان يدفع لصاحب الحقل او البستان غلة بقدر الحقل المجاور • واذا نبت الحقل المتروك من نفسه فعلى المستأجر تقديم محصوله لصاحب الحقل واذا تركه المستأجر بورا لثلاث سنوات ونبت من نفسه في الرابعة فعلى المستأجر انذاك ان يقدم المحصول الى صاحب الحقل اضافة الى غرامة حددها القانون • واوصت مادة في تشريع حمورابي بعدم الاذعان لتدمير الفلاح والعمل على تطبيق العقد معه في وقت سمحت مادة اخرى فيه على تأجيل المدين لما في ذمته من ديون الى السنة القادمة انْ احرق الصواعق محصوله او غمره الفيضان واعفته من دفع الفائدة عن تلك السنة • وحتمت مادة على الراعي ان يستحصل موافقة صاحب الحقل الذي ترعى فيه مواشيه والا فعليه ان يدفع غرامة اضافة الى تنظيفه الحقل وحمل قانونا لبت عشتار وحمورابي الشجرة وفرضا غرامة على من تسول له نفسه بقطع واحدة من حقل شخص اخر • وفرضت قوانين حمورابي غرامات على مخربي الات الزرع تختلف باختلاف الآلة (خمسة شاقلات عن المحرات ، وثلاثة عن المسحاة او الجرافة) تعطى لاصحابها • وأنزل قانون اشنونا عقوبة الموت على من يقبض عليه في حقل اخر ليلا وبغرامة في اثناء النهار •

الآلات الزراعية

استعمل العراقيون القدامى شتى الادوات الزراعية فاستعمل سكان جرمو السكاكين والمناجل الصوانية • وعثر في موقع كريم شاهر على شفرات منجلية واحجار لدق الحبوب • ووجد في الطبقة الثالثة من موقع حسونة منجل بشفرة صوانية لا بد وان لصقت بالقار في ايدي خشبية لم تبق • واعتمدوا في الحرث على الة حجرية مثلثة حادة الحافة واستعملوا اطباقا من الفخار لفصل الحبوب عن السنابل • ووجدت في أريدو مناجل من نوع استعمل في عصر العبيد • وفي طبقات موقع العبيد عثر على المنجل الطيني الى جانب الصواني وهو الذي يميز عصر العبيد ولا بد وان كانت له اهمية في عملية الزراعة ربما كانت الحاجة الملحة

الى آلة غير غالية الثمن ويمكن تعويضها بسهولة لسد حاجة مواسم الزراعة الغنية التي كانت تحتاج ارواء اكثر سعة وكفاية ، وكان ذا حافة حادة وقد احرق بالنار طويلا فصار صلبا للغاية . وبسبب عدم صلاحية مادة الطين لان تكون آلة قاطعة عاجوها بالحرق الشديد . وتستعمل حافة الشفرة الخفيفة لقطع المحصول . ومثل هذا المنجل يكون هشاً سهل الكسر مما يفسر في الاغلب كثرة ما وجد منه ، وكان كل واحد من المناجل المكتشفة تقريبا مكسورا . ويمكن القول ان سكة عصر الوركاء قد جلبوا معهم المنجل النحاسي رغم ان اول المناجل المعدنية قد وصل من العصر السومري القديم . وتحسنت المناجل على مر الزمن خاصة بعد شيوع استعمال المعادن التي صارت تصنع منها . وفي منحوتة اشورية نرى الملك آشور ناصر بال الثاني يحمل منجلاً . واستعمل العراقيون ايضا الفؤوس التي منها المر وكذلك المحراث الذي استخدموه منذ العصر السومري القديم للحراث ثم للحراث والبذر معا . وكانت طريقة البذر البدائية تتم بوضع البذور بثقوب محفورة بالارض بواسطة عصا مديية . وحفر الاخاديد باليد قد استمر لمدة طويلة . واستعمل سكان موقع كريم شهر الشفراء المنجلية منذ حوالي الالف العاشر ق . م . وربما كان المحراث الاول خشبياً يقوده الرجل بنفسه دونما حيوان ثم استعمل الحيوان لجره ، وادى هذا التغيير الى انتقال الزراعة من حراث القطع الصغيرة الى زراعة الحقول . ولا نعرف متى تم ذلك لان المحراث الذي يقوده الثور كان معروفا في جنوب العراق منذ نهاية الالف الرابع ق . م وعرف العراقيون القدامى انواعاً عدة من المحارث التي تجرها الحيوانات ، فهناك النوع البسيط الذي يسوقه رجل واحد نراه مصورا على ختم وهو ممسك بيد دفعة المحراث ويحث بالآخرى الثور على السير . ونشاهد في ختم اخر رجلا يمسك دفتي محراث بيديه الاثنتين وشخصا آخر يضغط على سكة المحراث كيما يثبتها في اخاديد الحراث بالارض بينما يحث شخص اخر الحيوان الذي يجز المحراث على السير . وفي ختم اخر نشاهد محراثا تجره

اربعة ثيران يسير كل منها حلف الاخر ويشرف على عملية الحراثة اربعة رجال
يمسك احدهم بدفتي المحراث ويضغطه ثان على السكة بينما يبحث اثنان الثيران
بالسوط على المضي بالعمل . وهناك نوع اخر ربما توصلوا الى معرفته بمذالك
وهو اكثر تعقيدا ارفق به قمع باعلى انبوبة عمودية مسندة من الجانبين تنزل الحبوب
منه الى الانبوبة ومنها الى الاخاديد التي يشقها المحراث . وقد وصلت اليها
صورته في ختم من القرن الرابع عشر ق . م وربما كان معروفا من عصر اسبق
ويجر هذا المحراث ثوران، بسائق واحد ويمسك رجل اخر بدفتي المحراث
وهناك رجل ثالث مهمته القاء البذور في القمع . وللمحراث رأس دقيق كالسن
يحفر الاخاديد بالارض . وصار المحراث بالعصر الاشوري المتأخر اكبر واكثر
تعقيدا كما يظهر من صورة في دور شروكين وبمنحوتة لاسر حدون .

ويظهر ان المراقبين القدماء قد نظروا الى المحراث نظرة تتضمن شيئا من
القدسية . فصورت اختتام عدة تقديم المحراث الى اله ، ففي واحدة نرى ثلاثة
كهنة يقدمونه الى اله خصب جالس وفي ختم آخر نرى الها ممسكا بمحراث وفي
ختم ثالث نرى كاهنا يحمل محراثا يقدمه الى اله . وفي الغالب كانت هناك طقوس
خاصة بتقديم المحراث الى الاله فيصور ختم شمش حاملا بيده اليمنى محراثا
وامامه متعبد يسكب في اثناءه وقد مزوا اختراع المحراث السى آب. ح.
وتموز الهى الخصب . وصار زنورتا هو اله المحراث وقد يكون اسمه رب
المحراث . وصار المحراث رمزا للاله زنگرسو . وصور في ختم الالهان يتوددان
محراثا يجره اسد وتنين مما يدل على قدسيته . وكان المحراث أحد شعارات
السومريين المقدسة وعثر على صورته في مقبرة اور الملكية من العصر السومري
القديم ، كما صور على حجر حدود من الفترة الكشية كرمز لاله معين . وكان
هناك طقس ديني يجري في بداية كل موسم حراثة يشترك فيه الكهنة والحكام
لابد وان كان المحراث عنصره الاساسي .

وعرفوا منذ العصور الاولى المسحاة التي كانت في البداية مصنوعة من

الحجر الصلب ومهندمة من الحافات ثم عملت بعد ذلك من المعدن • واستعمل سكان عصر العبيد بواى الفرات الجنوبي المجارف الصوانية الثقيلة التي لا تكون ذات فعالية كبيرة في بيئة طموية مما ادت دون شك الى بطء العمل ومحدودية مساحات الاراضي المزروعة اضافة الى كون مادتها مجلوبة من الخارج مما يزيد التكاليف • ومن الالات الاخرى الجرجر وقد عثر في قبر بو - آبي بمقبرة اور الملكية على واسطة تجرها الحمير الوحشية خالية من العجلات ظهر عندها اعداد المنقبون تركيبها كونها زلاقة تتألف من كرسي خشبي طويل يقف على قطع خشبية منزلقة قصيرة مع حافة امامية مرتفعة تماثل الجرجر • وتستخدم هذه الآلة في دراسة المحصول وهي مصنوعة من الخشب وتجرها الحيوانات التي تسير عليها مرات عدة فتكسر السنابل وتقطع السيقات الى قطع قصيرة لاستعمالها كعلف • كما مارسوا طريقة دراسة المحصول بربط عدد من الحيوانات وتسييرها مرات عدة فوقه • وعرفوا ايضا المذراة لفصل البذور عن التبن •

المحصولات الزراعية

كانت اكثر المحصولات شيوعا خاصة في الجنوب الشعير والحنطة وبالاخص الاول • واول نوع حنطة زرع كان احادي البذرة الذي تأصل في الشرق الادنى ولكن طغى عليه حتى في عصور ما قبل التاريخ الشعير بنوعيه والحنطة ثنائية البذرة التي تأصلت في جبال زجروس ووصلت منها الى جنوبي العراق والتي شكلت في عصور ما قبل التاريخ على ما يظهر خمس المحصول والباقي شعيرا • وهناك انواع عدة من الحنطة في العراق منها ما يعرف بالحنطة بطيئة وسريعة النضوج وتلك التي تلائم مختلف البيئات • وان الحنطة التي عثر عليها في

جرمو من نوع غيرقياسي فبعض سنابلها رديئة ورخوة والآخرى مكتنزة وقريبة من نوع ثنائية البذرة. وسرعان ما حلت الحنطة العارية محل ثنائية البذرة وشاعت في عصر العبيد . وعثر في موقع جمدت نصر على صنف جديد هجين صار النوع السائد في العراق . وصورت سنابل الحنطة والشعير في كثير من الاختتام الاسطوائية مما يدل على اهميتها . فترى على ختم أسطواني صورة ربة الزراعة جالسة وهي تحمل بيدها اليمنى سنبلتين من الحنطة والشعير وباليمنى سنبله أخرى وثلاثة اشخاص يقفون بخشوع امامها يقدمهم الكاهن الذي يحمل بيده اليمنى سنبله . وبختم آخر صورة أربة باو جالسة تحمل سنبلتين من القمح وامامها ثلاثة كهنة تحيط بهم سنابل القمح .

شاعت زراعة الشعير في الجنوب الذي نعرف عن بدء زراعته في جرمو بشمال العراق . وتروى اسطورة سومرية ان الهين اخوين قد ادخلا الشعير الى سومر جلباه من الجبل حيث خزنه الاله الليل . فاصل الشعير الجبلي واضح بهذه الاسطورة . والشعير الذي زرع في جرمو من نوع شعير الدورتين وهو نوع وسط بين الشكل الوحشي والمزروع ويبرهن على العلاقة المباشرة بينهما . ويتكلم مثل سومري عن نوعي الشعير ، المتقدم والمتأخر (بالنضج) . وعثر على اثار لشعير في موقع مطاره جنوب كركوك وفي حلف . وكانت اسعار الشعير دائما ارخص من الحنطة وتختلف اسعاره من فصل لآخر وتكون ارخص وقت مواسمه . والمعروف ان الشعير ينضج قبل نضوج الحنطة بحوالي اسبوعين لذا يكون حصاده مبكرا بالنسبة للحنطة . وزرعوا ايضا البذرة واتسنا ما يمكن ان تكون سيقان ذرة ثابتة من كتفي الالهة باو الجالسة في صورة ختم . وباخرى ربة الزراعة جالسة حاملة بيدها غصنا يماثل البذرة ونبت غصنان من نفس النبات من كتفيها . وعثر على حبوب ذرة في مدفن

في اشور • وكانت زراعة الماش والعدى والدخن والمحصولات الاخرى معروفة منذ عصور ما قبل التاريخ •

اما الرز فقد دخلت زراعته العراق متأخرة حيث بدأت حوالي القرن الخامس ق.م وقبل ذلك ادخل سنحاريب القطن الذى وصف شجرته بالشجرة التي تحمل صوفاً والغريب ان القطن كان معروفاً في منطقة الخليج العربي في عصر سبق دخوله العراق وان اتصال هذه المنطقة بالهند حيث موطن القطن الاصلي كان قائماً منذ بداية الالف الثاني ق.م • وزرع العراقيون القدامى السمس ايضاً ، ومعناه بالسومرية حب شجرة الزيت منذ عصور قديمة رغم ان النصوص التي ذكرته كثرت بعد سلالة اور الثالثة • وكان غالياً وقادر الزراعة في شمال العراق وحتى في العصر السرجوني حيث تحسنت زراعته في بلاد اشور • ونعرف ان قيمته زمن اشور بانيال كانت اربعة اضعاف قيمة الجوب ، وفي الغالب كان يستورد الى الشمال من الجنوب واستخرجوا منه الزيت الذى استعملوه لشتى الاغراض •

كان القصب ينمو بصورة تلقائية في منطقة الاهوار منذ اقدم الازمنة وشكل عنصراً هاماً في الاقتصاد فكانت الماشية تقتات عليه ويستعملونه عند تكامل نموه لبناء البيوت وصنع الحصران • ووردت في النصوص منذ العصر السومري القديم منتجات المنطقة الجبلية التي جلبوها دون شك من هناك • استعملوا الفستق الذى عرفوا منه نوعين ثم اللوز الذى اسموه اللوز الحلو وكذلك البلوط القرمزي ويلقي ابو محمد عبدالله بن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الادوية والاعذية الضوء على وجود شجرة بلوط بشرق العراق تختلف عن البلوط الاعتيادي يلتصق بشجيرتها دود يجمعه الناس في

زمانه ويجففونه بالشمس ثم يسحقونه لاستعماله كمادة صبغة • فالسومريون لا بد وانهم عرفوا ذلك وسموا بسببه شجرة البلوط هذه ببلوط الدودة •

كما زرعت البساتين منذ العصر السومري القديم • وفي ظلال النخيل زرعوا انواع الاشجار الظلية فمن ذلك العنب الذي عرفوه منذ ذلك الوقت • وتذكر اسطورة نورتا والتين كور السومرية ان هذا الاله بنى جبلا على جثة كور وزرعه اشجارا منها شجرة العنب ونقرأ في ملحمة گلگامش عن مشاهدته العنب الاسود خلال رحلته في الغرب مما يدل على عدم وجوده في العراق آنذاك ولم يدخل العنب شمالي العراق الا في الالف الاول ق م حيث شاعت زراعته • ونعرف من احصاء حران من العصر الآشوري المتأخر ان جميع البساتين كانت مزروعة بالعنب الذي بلغ عدد اشجاره من ٢٠٠٠ - ٢٩ الف • وهناك منطقة بلغت اشجار العنب فيها ٢٨٢ الف واخرى ٤١ الف • وزرع العراقيون القدامى في البساتين منذ عصور اولى البنجر الذي عرفوا منه نوعين الاحمر والابيض ثم الثوم الذي عرفوه من عصور قديمة وكان شائع الاستعمال • ثم البصل ونقرأ عن مزرعة للبصل تزيد مساحتها عن ٣٥٠٠ متر مربع • وعرفوا الكراث والرشاد كما انهم زرعوا التين الذي ذكر ان نبوخذنصر الثاني قدم قطعاً مجففة منه الى الالهة • وقد عرف العراقيون التين منذ العصر السومري ، وورد في لوح من تل حرميل اربعة انواع منها تين الجبل وتين اكيد وجاء في لوح من اوغاريت بشمال سورية نوع من التين اسمه سوبارتو مما يدل على جلبهم اياه من شمالي العراق • ثم التفاح الذي جاء ذكر انواع عدة منه في نصوص من العصر الاكدي واور الثالثة وذكر لوح تل حرميل أيضاً سبعة انواع كما ذكر استعمال خشب التفاح بالبناء منذ سلالة بابل الاولى • وذكر التفاح في ترتيلة ترقى الى العهد البابلي القديم كما زرعوا الشمس الذي كتبوه برمين يعنيان تفاح الجبل مما يدل على جلبهم اياه

من منطقة جبلية • وعرفوا السفرجل والاترج الذي ذكر الفيلسوف اليوناني ثيو فراستوس من القرن الثالث ق.م وجوده في العراق وقال بلني الكبير ان البعض يسمي شجرته بالتفاح الاشوري مما يؤكد أصلها العراقي • وجاء في نصوص القصر الاكدي ذكر ثمر قد يكون الزعرور واخر اسموه كمشرو ربما الكمثرى وزرعوا الرمان الذي عرفوا منه ، بدليل النصوص ، عدة انواع حيث جاء ذكر رمان عسلي ورمان حامض وذكر الرمان في نصوص من اور الثالثة مع استعمال قشور الرمان في الدباغة • وهناك نوع سمي برمان الملك ربما كان اكبرها حجما واحلاها مذاقا • اما التوت والنبق فقد عرفوهما من اقدم الازمنة •

جاءتنا قائمة باسماء مزروعات بستان مردوخ اپلا ايدينا من القرن الثامن ق.م في جنوبي العراق نجد فيها محاصيل معروفة الان مثل اللفت والفجل والسلق والثوم والبصل والرشاد واخرى يمكن زراعتها ولكن تزرع بقله كالكزبرة والخشخاش والكمون ، وكثرت البساتين في القطاع الخصب جنوب تلال سنجار ، فهناك وثيقتان تذكران بستانين في منطقة سنجار حوت أحدهما على ٢٤٠٠ شجرة فاكهة • وزرع سنحاريب البساتين في نينوى التي احضر لها اشجارا من الخارج وحتى اطلق بها طيورا وحيوانات وقد تأقلمت الاشجار للبيئة الجديدة على حسب قوله بدرجة مدهشة • وفي جانب القصر زرع بستانا شبه كثافة اشجارها بجبال الامانوس (شمال غرب سورية) غرس فيها انواع الزهور والنباتات العطرية واشجار الاثمار وما ينبت في الجبال والسهول وانشأ فيها مستنقعا اطلق قربه طيورا وخنازير واياكل • وقد زرع الزيتون في المثلث الاشوري والذي لم يكن من نوعية جيدة •

كانت اسعار البساتين اعلى بكثير من الاراضي وتختلف قيمتها عن بعضها باختلاف موقعها وكثافة انواع اشجارها • وكانت تلحق ببعض المعابد بساتين تتم فيها بعض مراسيم عيد رأس السنة • ونعرف ان بعض

الملوك جلبوا اشجارا من المناطق التي فتحوها وزرعوها في العراق • فسرجون
الاكدي جلب انواعاً من الاشجار التي يمكن زراعتها في البلاد كالتين والعنب
وبعض انواع الورد • وفي حجر حدود من الفترة الكشية نرى صفا من رجال
اجاب يحملون منتجات بلادهم التي من بينها صندوق به نبتة مغطاة بالاورد •
ونعرف عن استعمال العراقيين القدامى للاسمدة في البساتين • ومن التهم التي
وجهت الى حاكم في نوزي ابتزازه الاموال لدفع اجور عمال سمّدوا له
بساتينه •

كانت النخلة اهم شجرة في البساتين ويصعب معرفة المكان الاصلي
الذي ادخلت منه النخلة الاولى الى العراق وقد تكون جزيرة العرب • كما
لا نعرف وقت جلبها فقد يكون عصر العبيد ، وقد كثرت زراعتها في الجنوب
فهي برغم كونها من الاشجار بطيئة النمو التي لا تعطي ثمرها الا بعد مدة بين
٤-٦ سنوات ان كانت مزروعة بالفسائل وبين ٨-١٥ ان كانت مستنبطة من
النوى ، الا انها كانت محور الحياة الاقتصادية • فقد عرفت منذ القدم فوائد
اجزاء النخلة المختلفة فاستعملوا ثمرها واستخرجوا منه انواعا عدة من الخبور
ثم الدبس والخل • واستخدموا النواة كوقود ثم علف بعد سحقه وكذلك
السعف والجريد لعمل الاثاث ولوازم الحياة اليومية والالياف لصنع الحبال
والخوص لعمل الحصران والسلال ثم الجذوع للوقود وتسقيف البيوت الخ •
وجاء في نص بابلي متأخر ٣٦٥ فائدة للنخلة وعددت اغنية تدمرية فوائدها
بثمانائة وقال سترابون ان النخلة تزود البابليين بكل حاجاتهم عدا الحبوب
وعرف العراقيون منذ القدم تكاثر النخيل بالفسيل والتي هي الطريقة الغالبة ،
وطريقة ترك المسافات بين النخل ، والتلقيح ، مدركين تكوينها من جنسين
منفصلين ذكر واثني • وقد ذكرت النصوص درجات الجودة في بعض التمور
ولا تزال التعابير المستعملة في زراعة النخيل وجنيه تحتفظ باصلها البابلي مثل
تال وتبليه (آلة التسلق) والشيص (التمر الرديء غير الملقح) • وصورت

النخلة على كثير من الاختام وظهرت في مسلة من عصر اسرحدون مع المحراث والثور والجمال الخ . وفي رسالة من العصر البابلي القديم يشبه المرسل امه بالنخلة طيبة الرائحة مدللادون شك بكونها مصدر خير وبركة . ولم تكن شجرة الحياة المقدسة في المنحوتات الاشورية الا النخلة ويحمل الملك بيده ما يشبه الطلع . وكانت الربة انا ربة مخازن (عذوق) التمر وزوجها تموز كان رب النمو والحياة الجديدة في النخلة وكان بيت هذه الربة هو بيت عذوق التمر .

واذكر العراقيون القدامى اهمية ترك المسافات بين النخيل الذي تم على اسس معروفة ففي وثيقة من لارسة حوالي نهاية القرن الثامن عشر ق م كانت هناك ٢٥ نخلة في بستان مساحته نصف ايكرو واذا افترضنا ان المسافة بين نخلة واخرى ٣٠ قدما فيكون عدد النخيل في الايكرو خمسين نخلة . وقد عثر على نوى تمر في طبقة من كهف شانيدر قرب راوندوز من العصر الحجري القديم الاعلى وهي منطقة لا ينمو فيها النخل مما يدل على كون النواة المكتشفة هناك نجمت عن نقل التمر من مكان الى آخر . والنخلة من الاشجار المعمرة وتختلف غلة النخلة باختلاف نوعها . وتشير نصوص قديمة الى ان بعض النخل يحمل ما زنته ١٠٥ كيلو غرام وهذا لا بد وان يكون من نوع الزهدي وتشير بعض الوثائق البابلية الى ان من بين طرق العناية التي كانت تبذل للنخيل هو تقليب الارض . وقد وردت بعض الواجبات التي يلزم مستأجر بستان النخل بالقيام بها كجزء من الاهتمام بالنخل منها تقليب الارض المزروعة ومراقبة ظهور الطلع والقيام بالتلقيح ، ومن العناية ايضا اضافة بعض الاسمدة . وحوت شريعة حمورابي مواد لحماية النخلة ففرضت غرامة على من يقطعها دون موافقة صاحب البستان واجبرت مادة اخرى البستاني الذي يترك البستان دون تلقيح ان يدفع لصاحبها قدر انتاج بستان جاره . وحددت مادة اخرى ما يأخذه

البستاني بثلاث المحصول وثلاثين الى صاحب البستان . وكانت اسعار التمور
تختلف باختلاف النوع فالتمور النفيسة غالية بالنسبة للأنواع الأخرى التي
ارخصها الزهدي ، وكانت اسعاره في الموسم اقل عادة ، وتأخذ في الارتفاع
بعد ذلك .

والنوع الآخر من الأراضي كانت المراعي ، وان الأرقام التي وصلتنا عن
الماشية زمن سلالة اور الثالثة عالية وترينا مدى كثرتها والاهتمام بالمراعي
انذاك . فنص من زمن شولكي يذكر ٣٥٠ ألف رأس من الغنم والماعز وما
يعادل عشر هذا الرقم من الأبقار . ونص آخر من نفس الفترة يذكر بضع
مئات من الأغنام ذات الألية السمينه جيء بها من المنطقة الشمالية الغربية من
العراق . وتدل هذه الأرقام اضافة الى وجود قطعان خاصة بالدولة على المراعي
الكثيرة الأرواء على طول فروع الفرات الأوسط والمناطق المحيطة بها . وتلقي
ساعة المنسوجات الصوفية من سلالة اور الثالثة اضعاء أخرى على كثرة
الانعام . فهناك معمل استخدم تسعمائة عامل واستهلك ٦٤٣٥ طناً من الصوف
الغنى مع الفي طن من الصوف الجيد الوارد من القطعان الملكية . وافترض
بعض الباحثين بأنه كان هناك حوالي ٢٠٠ ألف رأس من الماشية كانت تقدم
الصوف زمن سلالة اور الثالثة في منطقة غرسو فقط ونصف مليون رأس
من الأغنام والماعز في منطقة لكش ويظهر من قوائم موقع
دريهم من سلالة اور الثالثة ان كميات الشعير والنخالة
المعطاة الى الحيوانات في حضيرة غنم كانت في شهر واحد لقطيع
يتألف من ٢٢ ألف رأس من الغنم وحوالي ألف بقرة . ومن علف
فترة ثلاثة اشهر قدر عدد القطيع بخمسين ألف رأس من الماشية و ١٥٠٠
بقرة وهذا مركز واحد من عدة مراكز . كل هذه تلقي ضوءاً على أهمية
المراعي التي كانت ترقى بها هذه الأعداد والاهتمام بها وقتذاك . وحيث
قوانين حمورابي عدة مواد خاصة بالرعاة مما يدل على شيوع هذه المهنة
وكثرة الرعاة والأغنام .

اشتهر المراق منذ القدم بخصب تربته الذي يعزى الى نظام ري البلاد المستمر طوال السنة وهو الانجاز الهائل الذي قدمه المراقيون القدماء الى العالم ادى التوسع في الزراعة الى الاهتمام بتحديد ملكية الاراضي ومساحاتها وذلك نتيجة عملية مسح للحقل وحسابات رياضية . وقد وصلتنا خرائط عدة لحقول زراعية منها واحدة عشر عليها في اوما لحقل امر بمسحه الملك أمارسين مساحته حوالي مائة دونم مقسمة الى قطع صغيرة باشكال مختلفة . ووصلت الينا خارطة تعود الى منتصف الالف الثاني ق . م توضح الشبكة الاروائية وملكيات الحقول التي منها حقل ملكي والقرى واسماؤها وحددت المناطق المشاع استعمالها كالطرق والمراعي والاهوار .

الري

في الوقت الذي ما كان يحتاج فيه الفلاحون الاوائل في مرتفعات شمالي العراق لأية وسائل اروائية لتوفر المطر الكافي للزراعة والمناخ الملائم فالامر على العكس في جنوبي العراق . فلما كان المناخ في السهل الفيضي لم يتغير جذريا طيلة هذه الحقب فلا يمكن لسكنة السهل الاوائل ممارسة الزراعة دون طرق اروائية . وبدأ شق القنوات والترع بعصر العبيد في الجنوب وتل الصوان وجوخته مامي من عصر سامراء ولوحظ اثار قنوات قديمة في المنطقة المجاورة لاريديو والتي لا بد وان كانت في عصور ما قبل التاريخ ذات صلة مباشرة بمجرى الفرات الرئيسي .

كان اساس ثراء المدن السومرية الاولى خصوبة التربة التي اعتمدت على الارواء ولا بد وان كانت السيطرة على فيضانات الربيع بنظام واسع من السدود والقنوات عملية بطيئة . وكان الرخاء مدهشاً الى الحد الذي اعتبر السومريون نظام الري المتكامل من عمل اله . وتذكر اسطورة ان الاله ننورتا قد حارب عفريتاً في الجبال واتصر عليه مما سبب ارتفاع المياه التي خربت كل ماشيده

البشر والالهة ولم تتوقف هذه حتى اقام هذا الاله حاجزا عظيما اوقف به الفيضان وسلط المياه الزائدة على دجلة . فالري لذلك بنظرهم عمل الهي لخدمة البشرية وانقاذها .

ان العوارض الطبيعية لجنوبي العراق ليس من الضروري ان تكون نفسها في العصور القديمة ففيه يجرى نهرا دجلة والفرات في سهول الغرين المترسب . وفي وقت ارتفاع المياه خلال فيضانات الربيع فان كميات المياه الغزيرة قد تجبر الانهار على كسر ضفافها العالية لاغراق مناطق واسعة من السهل المحيط بها وان تجد مرأ طبيعيا غير المجري السابق . وقد حدثت مثل هذه التحولات في مجرى دجلة والفرات خلال العصور القديمة . ويسبب المجري تحولا للمدن والسكان المعتمدين على قنوات تلك الانهار . ويكون مستوى الفرat عند الأنبار اعلى من مستوى دجلة بحوالي تسعة امتار ولما يصل موقع الناصرية يصبح اوطأ من دجلة بنفس هذا المقدار تقريبا . وهذا الامر ساعد على شق جداول من ضفة الفرat اليسرى جنوب الرمادي تنحدر عبر المنطقة الواقعة بين النهرين باتجاه دجلة ثم شق قنوات من ضفة دجلة اليمنى عند موقع الكوت تنحدر عبر الاراضي بين النهرين باتجاه الفرat . فالفرat (پوراتوم بالاكديّة) ودجلة (اديجلات بالاكديّة) ينبعان من جبال شرق الاناضول التي ذكر شلمنصر الثالث وصوله اليها . ولم يكن مجراهما في الجنوب على ما هما عليه الان وسنحاول اعطاء تخطيط وقتي مستند على المصادر المتوفرة والدراسات الحديثة لمجريهما القديمين . فقد اظهرت الدراسات للمنطقة القريبة من سيار وتل الديز وجود نهرين موازيين للفرat يظن انهما مجريان قديمان للفرat ويمثلان مراحل تحركه نحو الغرب الى مجراه الحالي غرب السهل الطموي . واقترح (پيپ)التقاء دجلة والفرat في ضواحي سيار وبعد ذلك اتبع دجلة مجرى شرقيا - جنوبيا مستقلا تقريبا وموازيا لمجراه الحالي . وتظهر الادلة بان هذا المجري القديم قد قل استعماله وترك حوالي

نهاية الالف الرابع ق.م وقد تتبعه پيپ لمسافة ٧٥ كم الى الجنوب الشرقي حتى يختفى عند الفراف ، وبذلك يصبح على مسافة ٣٥ كم من نهر ، فاذا كان هذا فعلا المجرى القديم لدجلة في الالف الرابع ق.م فان هذا بالنسبة للباحث ادمز يؤكد فرضية پيپ بان تأثير فيضانات الفرات هي التي اجبرت دجلة الى مجراه الشرقي . وبذلك فان الكمية العظمى من ماء الفرات في الفترة بين الالف الرابع ق.م والعصر الكشي قد تحولت الى الغرب .

كان مجرى الفرات الرئيسي يمر بكيتس ونروشروبالك، والوركاء، واريديو ويتفرع منه شمال غرب كوئا نهر الاراختو (گرانيس) الذي تقع عليه مدن بابل ودلبات ومرد ويصب بالنهر الرئيسي عند الوركاء . ونهر الايكلاتوم (الابلال وهو فرع الهندية الحالي) الذي يصب بالاراختو . واخبرنا اريانوس عن سير الاسكندر الكبير في فرع الفرات (ارختس) حتى وصل نهر (الايكلاتوم) مما يؤكد تلاقسي النهرين انذاك . وتسرع من الفرات الى الشمال قليلا من سيار قناة زوبي (جمدة نصر عند البعض) التي تمر شمال تل جمدة نصر وتصب بمجرى الفرات الرئيسي شمال تل ابو الصلايخ قرب الدغارة والتي لا نسع عنها في العصور المتأخرة . وعلى مقربة من سيار تتفرع قناة الارينا (ربما جدول اللطيفية) التي ربما كانت تمر بكوئا وتصب بمجرى الفرات الرئيس شمال كيش . وهناك قناة الاوتورو نكال التي تأخذ الماء من ضفة الفرات اليسرى جنوب نهر وتمر بادب واوما وتل المدينة (بادتييرا القديمة) وزبالوم (ازيخ الحالية) حيث تذهب منها قناة الى لكش واخرى تمر بلارسا ثم تصب بالفرات جنوب الوركاء . ويظهر من النصوص ان قناة الاوتورو نكال على غاية من التنظيم الاروائي الفني حيث تستند لآكثر من ١٣٥ كيلومترا وانشئت عليها الكثير من النواظم والسدود وربما هي الجدول الذي ذكره اورنمو وجعله يحاكي البحر واعد له ميازل خاصة لصرف

المياه الزائدة الى الفرات • وعند بابل كانت تتفرع قناتان الاولى تسير الى كيش
والثانية من الضفة اليمنى الى بورتيا ، وكانت هناك شبكة قنوات تربط
الاورورغال بشط الفراف • ويظهر ان الاراختو صار من حوالي سنة ١٠٠٠
ق.م الفرع الرئيسي للفرات • وفي بداية القرون الميلادية انتقل الى الغرب
حيث ترك خط مواقع الاستيطان شمال بابل وظهرت لنا لأول مرة ما نسميها
الان قناة المحاويل • وفي العصر البابلي الحديث كانت هناك قناة تتفرع من
ضفة اراختو اليسرى تسمى قناة نورس تسير في الغالب باتجاه نهر الدغارة
الحالي • وكذلك جدول يأخذ الماء من ضفة الابكلاتوم اليسرى قرب قصبة
الكفل الحالية سمي بنهر خابور • وهناك قناة صرتو (العالية بالاكديّة)
التي قد تكون هي نفسها ارخوس عند الكلاسيكيين ونهر عيسى عند البلدانين
العرب • ولنهر عيسى فرع الصراة ربما احتفظ بالاسم الاكدي القديم للنهر •
وتسير القناة باتجاه الكرمة الحالية بين دجلة والفرات مارة بمنخفض عرقوف
وتصب بمبزل الخر جنوب موقع بغداد • وكانت تقع على صدره بلدة فم البداة
(فومبيثا) ذات الاهمية التجارية • ثم نهر ملكا الذي يأخذ الماء من ضفة
الفرات اليسرى ويتجه شرقا نحو دجلة ويسير بموازية لضفته اليمنى حتى
يصب به جنوب سلوقية (تل عمر مقابل المدائن) • وذكر بارحوشا بان نبوخذ
نصر الثاني شق حال تسلمه السلطة نهر ملكا وشيد فوق مدينة سيار خزانا
محيطه اربعون فرسخا (الفرسخ ٣ - ٤ ميل) وعمقه عشرون قامة (القامة
سنة اقدام) واقام له بوابات يمكن فتحها لارواء السهل • ويظهر ان في مطلع
العصور الميلادية امتدت قناة كوئا التي تأخذ الماء من الفرات شرقا لتقرب من
دجلة • وتفرع من نهر الاراختو قبل وصوله بابل نهر سورا الاعلى
ويستمر سورا الاعلى الى الجنوب الشرقي حتى يقترب من دجلة
جنوب النعمانية الحالية فيسير موازيا لدجلة ثم يصب فيه • ويمر الفرات بعد
الوركاء بناظم الدققة (على مسافة ميل ونصف شمالي شرقي زقورة اور) الذي
شيد لتنظيم مياه الفرات نتيجة انخفاض مستوى الماء وضعف التيار ويتفرع

الفرات بعد الدققة الى نهرين (ادنون) الذي تقع عليه اور ثم اريدو . والثاني يستمر حتى الخليج العربي . ولا تزال اثار مجرى نهر الفرات القديم ما بين اور ومصبه في الخليج العربي عند خور الزبير يخترق قسما من اراضي هور الحمار الامر الذي يدل على ان النهر كان يمر بارض يابسة في هذا الجزء قديما . وكشف هاورد نيلسون في المنطقة ما بين نهاية هور الحمار الجنوبية على طول ضفة شط العرب الحالي اليمنى بين البصرة والسيبة شبكة كثيفة من جداول الرى القديمة . وقد يكون تلاقي دجلة والفرات وتكوينهما مجرى مشتركا حوالي القرن الاول ، حيث صور (پومپونيوس) ميلا تلاقي هذين النهرين وجريان النهر المشترك الذي يكونانه الى الخليج العربي .

وغير دجلة مجراه عدة مرات ومن المحتمل ان يكون مجراه الحالي هو نفسه خلال الالف الاول ق . م الذي ربما تحول في القرن الرابع الى مجرى الدجلة وظل يسير بهذا الاتجاه حتى القرن السادس عشر حيث رجع بالتدريج الى مجراه الحالي . ولدجلة عدة روافد هي الخابور والزاب الاعلى والاسفل (زباتوس و كابروس عند الكلاسيكيين) وديالى (تورنات عند البابليين) والعظيم (ردانو عند البابليين) . ومن مشاريع دجلة التي نعرفها من الفترة التي سبقت التحرير العربي هو مشروع النهروان الذي كانت له قواطيل (مداخل) عدة تغذيه بالماء ، تتفرع من شرق دجلة قرب الدور الحالية ويجري بعدها موازيا دجلة ويمر بعدة قرى وقصبات منها باعقوبا (بعقوبة) حيث يلتقي عندها بديالى وينحدر حتى يصب بدجلة جنوب مدينة ماذريا قرب موقع الكوت . وقد شيد سد على نهر العظيم في المكان الذي يعبر فيه هذا النهر جبل حميرين لمنع المياه الكثيرة التي تتجمع في العظيم اثناء الفيضان من تخريب النهروان . كان وادي الثرثار (تراتارا قديما) كما هو الان اوسع منخفض في العراق تصب فيه وديان عدة ترد من جبال سنجار وحواليها وطوله يقارب ثلاثمائة

كيلومتر • ويدل شكل الوادى الطولي-الضيق وارتفاع حافته الشرقية واختلاف استقامة الوديان المرتبطة به على انه لابد وان نشأ نتيجة انكسار قشرة الارض وهبوط فيها • وكان نهر دىالى في اقدم عصوره يسير باتجاه جدول الروز الحالي مارا بمنخفضات المريجة والشويجة ويصب بدجلة قرب الكوت الحالية • ثم غير اتجاهه بعد ذلك وصار يسير لفترة طويلة في جدول الخالص الحالي ونعرف بان مجرى نهر دىالى القديم يبدأ بعد عبوره جبل حمرين في نقطة تقع على مسافة قليلة شمال المجرى الحالي ويوازيه ويسير باتجاه نهر الخالص الحالي وبعد ان يخترق منطقة اهوار يخرج ليسير جنوب غرب بعقوبة باتجاه الجنوب ثم الجنوب الشرقي حتى يصب بدجلة جنوب مصب نهر دىالى الحالي • وكان يتفرع من جانب نهر دىالى الرئيس (في المنطقة بين جبل حمرين ودجلة) فرعان اساسيان شمالي ويسير باتجاه جدول مهرت الحالي ويتفرع الى شعب عدة وتقع عليه مدن اشنونة ونيريتوم القديمة وجنوبي باتجاه نهر دابان وعليه يقع موقع اشجالي • وهناك فرع يسير الى الشرق من الفرع الشمالي باتجاه جدول الروز الحالي وتقع عليه بعض المواقع ويظهر ان هذه المنطقة كانت قديما مملوءة بالاهوار •

تذكر النصوص المسمارية الكثير من اسماء القنوات والانهار ولكن من الصعوبة معرفة مكانها بالضبط • وقد وردتنا قوائم باسمائها من مكتبة اشوربانيبال • فهناك قنوات سميت باسماء الالهة واخرى باسماء اشخاص او اماكن او مدن او اسماء مميزة مثل القناة الوسطى وقناة بيت الحمار وباطوال مختلفة ابتداء من ١٢م الى ٤٢م وعمق من ٣ - ٦ وعرض بين ٦ - ٧٢ متراً • ونقرأ في نص اشارة الى مال مخصص لقناة مما يدل على تمويل الملوك لاصلاحها • ويذكر نص ان اهمال اية قناة لمدة شهرين يستدعي حضور السلطة • وكان هناك موظف واجبه النظر في اهمال اخراج الطين المتراكم في القنوات مع عمال دائمين مسؤولين عن اصلاحها والمحافظة عليها في كل منطقة • وانحصرت مسؤولية مديرية الري باصلاح الاراضي المهملة وتوزيعها

وتشيت حدود الملكية كل ذلك لان مشكلة الفرين في نهرى دجلة والفرات خطيرة . وقدر ليس وفالكون معدل الحد الادنى لكمية الفرين السنوية في النهرين 7692×10 قدم كافية لان تغطي مساحة قدرها مئة ميل مربع الى عمق ٣٥٢٨ انجات . ونسبة غرين الفرات اقل قليلا من غرين دجلة . والمعروف ان ١٠٪ من ترسبات دجلة تصل الى الخليج العربي وترسب الكمية الباقية في طريقها اليه . واتضح من دراسة مقارنة ان نهر دجلة يحمل من الغرين اثناء الفيضان عند وصوله العراق ما يعادل خمسة امثال ما يحمله نهر النيل في مصر مما يجعل مسألة الرواسب الغرينية من المشاكل الكبيرة بالعراق . وان الضفاف العالية عند الجداول القديمة المتناثرة في مختلف اجزاء السهل الفيضي الواسعة تدل على مدى الجهود الضخمة التي قام بها العراقيون القدامى كل سنة لتطهير جداولهم من الترسبات الغرينية .

يمود اتقان العراقيين القدامى لهندسة الري الى حاجتهم لتوسيع اراضيهم الزراعية بعد ازدياد عددهم فشقوا الجداول السيجية ونقلوا الماء الى الاراضي الزراعية البعيدة وعرفوا وسائل رفع المياه الى الاراضي المرتفعة . وكانت تجاربهم في ذلك ماثار الاعجاب وكلها ادت منذ عصر العبيد الى الازدياد الهائل بالمنتجات الزراعية وتجاوزها الاستهلاك المحلي وتصديرها الى الخارج كما ذكرنا . واهتموا في مختلف عصورهم بالرى فحفروا القنوات واقاموا النواظم والسداد ودروا خطر الفيضان وكانت هذه الاعمال موضع فخر كبير لهم . فلگش صارت بفضل جهود ملوكها بحقل الري مرتبطة بدجلة والفرات بقنوات اروائية كثيرة وصل اليها كثير من اسمائها . واعاد اورنمو كرى كثير من الجداول وحفر اخرى لابد وان اهملت في فترة التسلط الكوتي فقد حفر واحدة قرب اور واثنين في لگش واعاد ربط اور بالفرات عند موقع الدققة . وان القناة الكبيرة التي شقها حمورابي واسماها (عطاء الشعب) لابد انها كانت حملة واسعة طهر بها الفرع الرئيسي للفرات حيث يذكر تجهيزه مدنا

مهمة بالماء ابتداء من نهر حتى اريدو • ونلاحظ مدى اهتمام الملوك بالرى من اطلاق الكثير منهم اسماء القنوات التي شقوها على بعض سنوات حكمهم • ونلاحظ من رسائل حمورابي لحكامه مدى اهتمامه بتطهير القنوات • وفي رسالة له نقرأ (ادعوا اصحاب الحقول على شواطىء القناة ان يطهروها خلال شهر) • وفي رسالة اخرى يأمر احد الحكام باكمال تطهير القناة التي تنتهي عند اوروك والتي لم تكن قد طهرت حتى تلك المدينة • وقضت مادة في تشريع حمورابي على تعويض المزارع الذي اهمل تقوية سدود قناة اروائه عما سببه من اضرار بحق جاره • واذا طغى ماء جدول (نتيجة اهمال تطهيره) على حقل جاره فعليه ان يعرضه حبوا حددها القانون • وكان الاهتمام بالقنوات يستدعي اشراف حكام المقاطعات • ونعرف من رسائل ماري ان حاكما اعتذر عندما دعاه الملك لرؤيته على اساس وجود اعمال اروائية مهمة تستدعي بقاءه • واستخدم حاكم مرة الفي عامل لتطهير قناة ، واستدعى حاكم من ماري جميع سكان المنطقة لاصلاح القنوات • ومن سلالة بابل الاولى نقرأ في النصوص ان الملك سيفتش مشروعك و (اسأل الملك عن حقل فلان) مما يدل على ان الملك كان يعرف الحقول وله اهتمام شخصي بالرى • وفي عهد هذه السلالة كان هناك موظف يعينه الملك للاشراف على القنوات له سلطات واسعة حيث نعرف عن تجهيزه مرة ١٤٠٠ عامل لشق قناة • ونعرف ان هناك مفتشا للرى وحتى مقاولين للعمل بهذه الاشغال • وكان المفاوض يتعاقد مع صاحب الارض او مع دائرة الري ويحلف اليمين واذا اهمل المفاوض او الملاك اصلاح القنوات وتطهيرها فهناك عقوبات •

ومن مشاريع الارواء مشروع السد الذي انشأه اياناتوم ملك لگش على احد الجداول ، ثم السد الذي بناه خليفته ائتمينا • وتظهر عظمة هذين المشروعين من كمية القار التي استخدمت فيهما ، فقد استعمل في الاول ٢٥٩٢٠٠ لتر وفي الثاني ٢٦٤٩٦٠ لترا كما يذكر النص • وبلغ عدد الآجر الذي استخدم في بناء

الثاني حوالي ثمانية ملايين طابوقة وانشأ اياناتوم قناة ثافية الحق بها خزاناً يستوعب كميات من الماء يتصرف بواسطة جدول الى المزارع وسعه خليفته من بعده . وكان مشروع اتمينا ضخماً حيث حفر قناة جلب بها الماء من دجلة الى لكش (الغراف) لمسافة حوالي ١٤٠ كم وكانت هذه الاراضي تسقى من الفرات قبلاً مما يدل على الحاجة الماسة الى الماء في الجنوب . ونقرأ من عصر ايسن - لارساً عن بناء احد ملوك لارسا سورا فوق خزان عند فم قناة ، واحتاج السور الى حوالي مليون وثلثمائة الف طابوقة . وربما كانت هذه القناة هي نفسها التي سميت في العصور المتأخرة اسنينيتوم التي كانت تتفرع من الفرات شمال نمر وتجرى جنوباً ويريد الملك الان السيطرة عليها من نقطة خروجها من الفرات . وكان حجم هذا الخزان ١٣٠ الف متر مكعب . كما نسمع عن مجمعات للمياه ، ويذكر نص تنظيف مجمع للمياه لاستخراج الحصى منه ابعاده ٢٤٠ × ٧٢ متراً . ونعرف بان ريم سين كان مهتماً في بناء قناة تأخذ الماء من دجلة لحل مشكلة الماء في لارسا .

وهناك ما يدل على ان دراسات اولية كانت تجرى وتخطيطات تمهيدية من اجل شق قناة قبل الاتفاق على الخطة الاخيرة ويستعملون لذلك اجهزة القياس المتوفرة لديهم وانواع الحسابات واحتساب الجهود المترتبة على تنفيذ المشروع . فالنص الخاص بخزان اياناتوم وقناته الثانية يجعل ثقل العمل على العمال المختصين وليس على العاديين .

واتقن العراقيون القدامى منذ العصر السومري القديم عمل السداد لدفع خطر الفيضان كما سدوا الثغرات بالقصب والتراب وشيدوا المسميات بالطابوق والقار لحفظ ضفاف الانهار من التعرية وجرف تيار الماء . وان البطحات المستعملة الان لسد الثغرات التي يحدثها الفيضان في السداد لا بد انها معروفة منذ تلك العصور . والبطخة عبارة عن لفة ضخمة طويلة بعدة طيات محشاة بالقصب والشوك وكل طية تلف بحبال كثيرة مع قصب وسعف

وتربط بعدها قرب الثغرة حتى لا يجرفها تيار الماء القوى • وقد توصلت بطخات عدة بالثغرة الواحدة ، وقد تسد الثغرات بحصران القصب والمرادى والحصران •

استوطن العراقيون القدامى على ضفاف الفرات ودجلة • فجميع مدن سومر واكد كانت مشيدة على ضفاف الفرات الاسفل والانهر المتشعبة منه باستثناء بلاد اشور ومنطقة دىالى • وقدم الدكتور سوسة جملة اسباب لذلك فالاراضي الزراعية المنحصرة بين دجلة والفرات جنوبا تنحدر من الفرات باتجاه دجلة ولذا صار من الطبيعي برأيه ان تكون اتجاهات القنوات بنفس الاتجاهات وانحصرت مياه الارواء بالفرات الذي تستمد منه ماءها اضافة الى كون الفرات يجري بين ضفاف منخفضة بانحدار قليل عكس دجلة مما يسهل على الانسان التحكم به واستثمار مائه بسهولة • كما تتوفر في مناطق الفرات طوال السنة الماء حيث تتجمع المياه من كل جهة وتنتشر على طول الدلتا باعماق ضئيلة مما يسهل الري •

ويتميز الفرات بهدوئه وبطء سيره بالنسبة لدجلة مما يجعله اكثر ثباتا من الثاني • ففي اوقات الفيضان تكون المياه بمجرى الفرات اكثر من تلك التي في دجلة غالبا ، وفي اوقات الفيضان لا تزيد مياه الفرات عن نصف كمية الفيضان بدجلة • اضافة الى أن للفرات منخفضات طبيعية تجري لها المياه الفائضة كبجيرة الحبانية ومنخفض ابو دبس ومنخفضات جنوب الفرات مما يخفف حدة الفيضان وتخزن قسم من المياه الفائضة • ويعزى ويليام ويلكوكس السبب الى ان المياه التي تصل المنطقة الجنوبية من الفرات ، تكاد تكون قد فقدت الطمي الذي تحمله في موسم الفيضان بعد ان تنتشر في الاهوار والمنخفضات الواسعة الموجودة هناك مما سهل للسكان الاعتماد على تلك المياه للرى • وابتداء من الربع الاخير من القرن الرابع ق.م بدأ التحول نحو دجلة وزادت

المستقرات في دىالى السفلى ودجلة السفلى والتي تضاعفت في القرون اللاحقة. وشهدت الفترة منذ بدء السلالة الكلدية تقدما في مشاريع الري وخاصة في ربط دجلة والفرات في القسم الشمالي من السهل .

وقطعت هندسة الري عند الاشوريين مرحلة كبيرة من التقدم ، فاعمال الارواء التي قام بها سنحاريب كانت مذهشة . فقد اخبرنا عن مشروعه بارواء اربيل وكيف انه حفر ثلاثة انهر في الجبال التي فوق اربيل و اضاف لها مياه الينابيع الواقعة على يمين وشمال الانهار وحفر بعدها قناة تصل وسط اربيل . فقد اعاد سنحاريب بمشروعه توجيه مجاري فروع نهر باستورا ثم توجيه مياه الينابيع لها وتشبيد قناة لجلب الماء الى اربيل واقام سنحاريب مشروعا ثانيا لايصال الماء بالطريقة السليمانية الى نينوى . فانشأ سدا على مجرى نهر الخوصر الذى يخترق نينوى ويصب بدجلة مقابل الموصل وحول مياهه الى قناة تستمد الماء من امام السد وتسير موازية للنهر غربا حتى بساتين نينوى كما وسع العيون التي تغذى الحوض في شمال نينوى واجراها بقنوات ، تصب اخيرا بالقناة الجديدة التي شيدها . ولارواء مساحات اوسع من الاراضي قام سنحاريب بجر المياه من ينابيع نهر الكومل في جبل بافيان واجراها في قنوات اليه ، ثم شيد سدا في مضيق بافيان لحجز المياه وخزنها امام السد وشق نهرا من امام السد يتفرع من جانب نهر الكومل الغربي قرب قرية خنس وينتهي بالخوصر فنينوى لمسافة تزيد عن خمسين ميلا . وربطت الاودية العميقة التي تعترض مجرى هذا النهر في طريقه الى الخوصر بقناطر من الحجارة واجرى فوقها الجدول ، واضخم هذه القناطر كانت قرب جروانه وهي مشيدة من الحجر وطولها ثلثمائة متر وارتفاعها تسعة امتار وتتألف من ثلاث عشرة فتحة عرض كل منها خمسة عشر مترا وفتحة واحدة في الوسط عرضها ثلاثون مترا مقسمة الى اربع فتحات عميقة في وسط الوادي . ويظهر ان الفتحة الوسطية

اعدت لمرور المياه الصيفية للوادي • وفي المشروع حوالي مليوني حجارة بحجم نصف متر ووزن ربع طن للواحدة •

ولتصريف المياه الفائضة من القناة التي تروى نينوى انشأ سنحاريب كما ذكر بحيرة للاستفادة من هذه المياه • ويجعل الدكتور سوسة المنخفض هذا قرب تاريصو (شريف خان قرب نينوى) ويطابقه اخر مع منطقة منخفضة بين دجلة والخور وطريق الموصل دهوك ووضعه ثالث على نهر الخوصر قرب قرية الجيلة •

من المشاكل التي جابهها الفلاح العراقي في الجنوب قديما كانت الملوحة في التربة ولم يجابه الفلاح تلك المشكلة خلال الفترات الاولى لان الطبيعة كانت تضمن له استمرار خصوبة التربة الى جانب توفر المياه على الدوام • ولكن هذه الظاهرة الخطرة التي قللت انتاجية ارضه اخذت بالزيادة تدريجيا •

وللملوحة هذه اسباب عدة، مثل ارتفاع مستوى المياه الجوفية التي تكون نسبة الملح فيها عالية وقربها من ظاهر الارض ، وطريقة الارواء غير المنتظم التي تجعل مياه الارواء تتصل بالمياه الباطنية ، فينبعث الملح الى سطح التربة بالجاذبية الشعرية وعدم وجود مصارف منتظمة لمياه الارواء المستعملة خاصة وان الماء المستعمل للرى بالعراق يحوي ٥٠-١٠٠ جزء من الاملاح المذابة في كل مائة الف منه • وبسبب نسبة التبخر العالية بالعراق والتي تصل الى ٩٠ - ١٠٠ انج في السنة تترك كميات كبيرة من الملح بالارض • واسباب اخرى هو ورود الماء الى التربة من محلات اعلى مستوى ثم ان كثرة السقي يزيد في تماسك (ثقل التربة) فيتعرقل التصريف وتكثر الملوحة • وقد ظهرت طلائع هذه الظاهرة كما نعرف الان في ملاحظات موظفي المعبد بمنطقة لكش منذ العصر السومري القديم وهناك تنويهات عنه في القطع الادبية مثل ملحمة اثراخاسس (الفائق الحكمة) التي نقرأ فيها (ان الحقول السوداء غدت بيضاء والسهل الواسع قد اختنق بالملح) • وظهر من النصوص المتوفرة الخاصة بزراعة الحنطة

والشعير تقاوم مشكلة الملوحة تدريجياً في الأراضي • فحوالي ٣٥٠٠ ق م كانت الحنطة تزرع بنفس كمية الشعير وحوالي ٢٤٠٠ ق م صارت زراعة الحنطة الى الشعير بنسبة السدس لان الحنطة اقل مقاومة بكثير من الشعير الى ملوحة التربة وحوالي ٢٠٠٠ ق م صارت زراعة الحنطة قليلة جداً • وقد كانت غلة الحنطة حوالي ٢٤٠٠ ق م حوالي ٢٥٣٧ لتر للهكتار الواحد وفي ٢١٠٠ ق م هبطت الى حوالي ١٤٦٠ لتراً للهكتار وفي ١٧٠٠ ق م صارت حوالي ٨٩٧ لتراً للهكتار • وبينت ارقام اخرى ان معدل انتاج الحبوب في بداية العصر السومري القديم ٢٠٣٠ لتراً للهكتار الواحد وهبطت في سلالة اور الثالثة الى ١٣٤ و١٠ لتراً للهكتار • وارتفع بذلك معدل حبوب البذر بحوالي النصف عما كان عليه في بداية العصر السومري القديم • واستمر الهبوط بالانتاج • وصحب ذلك هبوط في مناطق السكنى ومساحات الحقول المزروعة • ففي نهاية الالف الثاني ق م والقرون الثلاثة الاولى من الالف الاول ق م هناك هبوط معدله حوالي ٤٠٪ في عدد المواقع و ٧٧٪ في الأراضي المستغلة عنها في بداية سلالة اور الثالثة حيث اختفت الكثير من المراكز الحضرية بسبب الاحوال الجديدة في الزراعة والماء •

وسائل الري

استعمل العراقيون القدامى وسائل شتى لارواء أراضيهم منذ العصور الاولى • فقد استعملوا الدالية وهي آلة سقي بسيطة لا تزال مستعملة في منطقة البصرة تتكون من عمود خشبي يقف على مسند فاذا ارتفع رأس من رؤوس العمود نزل الرأس الثاني وهكذا • وتشد في جانب العمود القصير ثقالة معاكسة ويربط حبل في الجانب الذي يواجه ماء النهر يرتبط فيه وعاء من الجلد • فعندما ينزل الفلاح الذي يديره الوعاء الى النهر ويضع ثقل جسمه حيث تكون الثقالة يرتفع الوعاء المملوء بالماء ويفرغ ماءه بالساقية التي تدفع الماء الى الحقل ولا ترفع هذه الآلة الماء لأكثر من ستة اقدام • وقد

صورت الدالية في ختم من العصر السومري القديم نشاهد فيه العمود والوعاء في نهاية والثقالة في نهاية اخرى ويدير الدالية شخص صور في الختم عاريا • وصورت نفس الآلة في نقش من عهد سنحاريب نراها اكثر تطورا وضبطا من الدالية السومرية • فقد صارت الان على شكل يد منحرفة • ونرى في نفس الصورة داليتين الاولى ترفع الماء من النهر الى ساقية مرتفعة والثانية ترفع الماء من تلك الساقية الى ساقية اخرى اعلى منها •

وهناك الناعور المائي ويعمل بقوة تيار ماء النهر وهو عبارة عن طوق خشبي كبير ربما يصل قطره الى عشرة امتار تربطه بمركزه قطع خشبية كبيرة ربطت بكل احكام حول شجرة ضخمة • ويستند الناعور الى دعمتين تشيدان عادة من الطابوق امام مجرى النهر وتوضع سلسلة من جرار فخارية صغيرة بكل نظام وتربط بحبال قوية على طول دائرة الطوق الخشبي الخارجية • ويعمل الدولا ببقوة تيار ماء النهر حيث يتحرك ويدور باتجاه محوره فتصعد الجرار السفلى وهي ممثلة بالماء الى اعلى فتصب ما فيها من ماء بساقية حفرت اعلى من مستوى ماء النهر وتدور الآلة وتمتليء الجرار وتفرغ ماءها وهكذا • والآلة الاخرى الكرد وهي اكثر تعقيدا وتطورا من السابقتين ويرفع بها الماء الى اعلى من منطقة اكثر عمقا وبكميات اكثر فقد كبر الوعاء الموضوع في النهاية • وربما تم ادخاله في العصور الاشورية المتأخرة فقد ذكرت وثيقة بيع ارض زراعية من تلك الفترة بان الآلة التي ترفع الماء من النهر يشرف عليها خبير عارف بتشغيلها مما قد يدل على ادخالها القريب وكون العمال الذين يقومون بتشغيلها كانوا قليلين بحيث ذكروا في الوثيقة • ويتألف الجهاز من بكرة كبيرة تستند من جهتيها بعمودين ضخمين غالبا من جذوع النخل او الخشب القوي او بناء ثم وعاء كبير جلدي نهايته على شكل انبوب يتفرغ بواسطته ماء الوعاء الى الساقية بواسطة حبلين يربط احدهما باعلى الوعاء والثاني بنهايته الشبيهة بالانبوب • فبتحرك الحبل الاول على البكرة يصعد

الوعاء وينزله ويرفع الثاني النهاية الشبيهة بالانبوب عند الصعود فيمنع خروج الماء من الوعاء ويوصله الى الساقية حيث يفرغ هناك الماء بتوجيه فتحة النهاية الانبوبية للساقية • وهناك شخص يسوق الحيوان عند صعوده الى الطريق المنحدر حتى ينزل الوعاء الى ماء النهر وعند نزوله لرفع الوعاء الى الساقية •

احوال الاراضى

اختلفت اراء الباحثين المحدثين حول ملكية الاراضى بالعصر السومرى القديم فبعض الباحثين الغربيين يعتقد ان الاراضى الزراعية في القسم الاخير منه كانت ملكا لمعبدها وكان اقتصاد دولة المدينة متركزا في المعبد الذى يملك كل شيء • ففي لكش كان معبد الآلهة بأو يمتلك ١١٠٣٣ ايكرا من الاراضى • وكانت الاراضى الصالحة للزراعة التابعة للمعبد على ثلاثة اصناف هي اراضى المعبد التابعة للاله والتي تذهب وارداؤها الى مصاريف طقوس الاله والمعبد وتشكل حوالي ربع الاراضى الموجودة وتسمى بالاراضى العامة • ثم الاراضى المعروفة بحصة الرزق التي تعطى الى موظفي المعبد • والاراضى التي تؤجر لقاء حصة من المحصول تستقطع عند الحصاد وتتراوح بين الثلث والسادس • والى جانب الاراضى امتلك المعبد البساتين ومناطق الاهوار • وكان لكل معبد كتابه ومسجل اراضيه وموظفون الخ وكان المعبد يقوم بمشاريع الارواء الجديدة وصيانة الموجودة منها ويملك الآلات الزراعية والحيوانات • وكان للكهنة حصص من الاراضى الممنوحة ايضا • وكانت موارد الاراضى العامة توزع على الافراد بشكل منح وارزاق ونعرف عن موظف امتلك ١٢٠ ايكرا من اراضى المعبد ومشرف عنده ١٨٠ ايكرا وحتى عن نساء كانت لديهن قطع من الاراضى • وهناك باحثون اخرون يعتقدون ان نظام التملك الفردى سار جنبا الى جنب مع اقتصاد المعبد • فوثائق شروباك توضح وجود التملك الفردى وحرية الفرد في مزاوله المهنة التي يرتضيها وتجارته وتملكه الاراضى •

وذكر اورواينمگينا(اوروكاجينا)العصور السيئة التي سبقت اعتلاءه العرش وحرصه على الرجوع بالاوضاع الى ما كانت عليه بالعصور القديمة عندما كان الافراد يمكنهم التملك هذا طبعا الى جانب ثراء المعابد مما يدل بان الاقتصاد في وقت ما قبل زمانه قد امتاز بحرية التملك الفردي وربما سار الاثنان (الاقتصاد الحر والمعبدى) جنبا الى جنب في بلاد سومر . ففي عهد انتميننا وخلفائه كانت املاك معبد ننگرسو تحت ادارة الكاهن دودو . ويمثل انتقال ملكية الاراضي الى الحكام تحولا مهما في ملكية الاراضي . وتقلصت مساحات الاراضي التي قسمت على المزارعين لاستغلالها كما كانت في السابق وقدر العاملون في المقاطعات الزراعية سواء للحاكم او المعبد $\frac{1}{3}$ من السكان .

وعمت حرية التملك الفردي في العصر الاكدي فقد اشترى الملك مايشتوسو جملة ضياع وعقارات دفع عنها تعويضات بالسعر الجارى وقتذاك وزعها على المقربين اليه . ومساحة احدى هذه الاراضي كانت تزيد عن ١٣٠٠ هكتار واخرى مساحتها ٣٦ هكتاراً . وفي سلالة اور الثالثة يظهر ان الدولة منذ سنة حكم الملك شولگي الحادية والعشرين قد سيطرت على الموارد العامة التي منها الاراضي الكثيرة في وقت استمرت به المعابد محتفظة باملاكها السابقة . وكان العصر البابلي القديم زمن حرية اقتصادية وللأفراد حرية التملك والتجارة وممارسة المهن الحرة . ولكن الدولة سيطرت على الاراضي التي ضمت نتيجة الحروب . وظلت املاك المعابد على ما هي عليه سابقا . وكانت اراضي الدولة على ثلاثة انماط اراضي الملك نفسه التي يستغلها القصر بموظفين مرتبطين بالملك ثم اراضي الدولة التي تقطع الى افراد الشعب مقابل خدمات معينة يقدمونها للدولة (الايلكو) والاراضي المؤجرة التي تؤجر الى الفلاحين مقابل حصة معينة من المحصول . وتركز اهتمام الملك بالاراضي المقطعة التي كان يمنحها الى مختلف افراد الشعب على اختلاف حرفهم مقابل خدمات يؤدونها للدولة والخدمة في الجيش وحتى الى مجموعة

من العمال يتشاركون في مقاطعة واسعة مشاعة • والى جانب هذا عمت الملكية الفردية وصار في وسع اى فرد تملك ارض او عقار وتوريثه الى ابنائه • وكانت اغلب رسائل حمورابي الى حكامه تخص تقديم الاراضي الى مختلف خدم الملك اما كمستأجرين يدفعون ايجارا او اقطاعيين مستنديين على خدمتهم العسكرية او المدنية وكانت رسائل كثيرة عبارة عن اوامر الى الوكيل باعطاء ارض الى واحد او اكثر بموجب الشروط • وان الطبقة الاكثر عددا هم الذين شغلوا حقولهم مقابل الخدمة التي يقدمونها للملك او الايجار الذي يدفعونه له • وكل من تعطى له ارض قد زود بشهادة تحدد ملكه (وثبتت الاوتاد التي تعين حدودهم) بالمقاطعة • واعتبر الحقل وراثيا في الاستثمار واذا ورثه الابن فتقع عليه واجبات والده للدولة والا فتؤخذ منه الارض •

ولم يكن صاحب الارض حرا في اعطاء قطعتة حيث تكون الخدمات المترتبة عليها في خطر من اهمال المالك الجديد • ولدينا امثلة عن استرجاع الملك للاراضي التي اهملها شاغلوها السابقون • وهناك بضع مواد في شريعة حمورابي تخص هذه الاراضي المقطعة منها ما يتعلق بالاراضي المقطعة الى الجنود بصنفيهم المشاة والقناصة ، فمادة تبين ان على الشخص الذي استغل ارضه واوفى بالالتزامات الاقطاعية قبل فترة اسره فعليهم ان يرجعوا له الحقل عند عودته • واذا كان ولده قادرا على القيام بتلك الالتزامات خلال فترة اسره فيعطى الحقل للابن • واذا كان هذا الولد صغيرا لا يتمكن من القيام بواجبات والده الاقطاعية فيعطى لاهله ثلث الحقل والبستان حتى تقوم بتربيته • واذا غاب الجندي واستغل اخر الارض وادى الالتزامات الاقطاعية عليها لثلاث سنوات فتعطى للاخير • ومنعه القانون من اعطاء حقله مقابل دين او بيعه او مبادلتة او يعطيه لآخر مقابل مسؤولية حتى لو كانت زوجته او ابنته •

وفي نوزى لا يمكن ان تنتزع ارض من مواطن منحها له الدولة ولا

يمكنه مبادلتها او تحويل ملكيتها لآخر . فالارض نظريا تعود الى الملك الذي يمنحها من يريد عن خدماتهم الاقطاعية . وتكون المنحة والخدمة الاقطاعية متوارثة من جيل لآخر وتبقى الارض بذلك في العائلة ولكن تم الالتفاف حول القانون بطريقة التبني . ففي الوقت الذي تعود به المقاطعة في بلاد بابل الى الدولة عندما لا يكون الشخص الذي اقطعت اليه قادرا على القيام بواجباته او عند وفاته وانعدام وجود من يقوم بالواجبات بعده (برغم وجود امثلة خرق بها القانون) التفت سكان نوزي حول القانون بطريقة يتبنى فيها صاحب الارض للشخص الذي يرغب في ان يسلمه ارضه او يتسلم الاول قرضا به شرط يحصل بموجبه المقرض على ارض المدين حتى يرجع له دينه .

وفي العصر الكشي تملك بعض المدن مقاطعات زراعية واسعة وكذلك القبائل التي استقرت في وسط وجنوبي العراق . وكان الملك احيانا يشتري مقاطعات زراعية من تلك المدن او القبائل ويمنحها لمن يريد . وكان الملوك يمنحون اراض الى موظفيهم وافراد الشعب او الى المعبد وتدون هذه الاقطاعيات على صخور مستطيلة الشكل يتراوح ارتفاعها بين ٣٠ سم والمتر الواحد بقيمة مخروطية وقاعدة مستطيلة او بيضوية او مربعة تسمى احجار الحدود (كودورو) تحوى عقد اقطاع الارض من قبل الملك الى المعبد او الموظف او الشخص . ومعظم القسم الباقي منحوتات برموز الالهة (التي وضعت المنحة تحت حمايتها وتقع لعنتها على من يخرق او يعارض المنحة) مقسمة في شرائط الواحدة فوق الاخرى . وفي بعضها نرى الملك مع الشخص الذي يتسلم الاقطاعية او الاثنين سوية امام الاله . وهناك دائما حية ملتفة حول القاعدة او القمة كحامية رمزية للوثيقة . واقدام وثيقة من هذا النوع تحمل اسم الملك كدشمان ائليل الاول (حوالي ١٤١٠ - ١٣٨٦ ق م) . والجديد هو ادخال العقوبات المدنية ضد مخالفتي العقد او المنحة . ثم تحديد الاراضي التابعة الى بيوتات معينة او المملوكة لقبائل . وتكشف هذه الوثائق عن قطع كبيرة

من الاراضي قد امتلكت بصورة إجتماعية من قبل جماعات فكان لكل قبيلة اقطاعية كبيرة شيّدوا فيها مدنا وقرى ولكل مدينة اراضي كما تملك بعض العوائل الاقطاعات ايضا . وقسمت تلك الاقطاعات الى قطع صغيرة يستغلها الافراد وتكون المقاطعة وراثية للشخص الذي اقطعها له الملك وهو خاضع الى كل ما يفرضه الملك الا اذا استحصل اعفاء تحريريا .

اما الاراضي البور فانها تكون تحت تصرف اول من يسكنها وتصبح ملكا لمن عمرها . وقد اعطى الملك ميلي شيبالك ابنته مقاطعة على حدود القطر البحرى على اساس انها قد استحدثت بها مشروعا اروائيا وسدا مما جعلها صالحة للزراعة وشيدت بها ثلاث قرى . واعفى هذا الملك ابنته (كما ورد في حجر حدود منحها) عن القطعان والرسوم والسخرة وتصليح القنوات الخ . واعطى الملك نفسه مقاطعة لولده اعفاها من الرسوم المفروضة (لا تفرض على ارضه العشور وتقديهم بواكير المحصولات ولا يستدعى سكان مقاطعته ولا يعملون على خزان القنوات الملكية او صيانة او تطهير مجرى للقناة ولا يمكن لحاكم اخذ اي فلاح من اراضيه ، ولا يمكن لأحد بأمر الملك ان يقطع خشبا او حشيشا أو يأخذتينا او شعيرا او محصولا او عربة او عدة او حمارا او رجلا ولا يحق لاحد في وقت ينخفض فيه الماء بالقناة ان يدعى مياه القناة الاروائية ولا يمكن لاحد ان يأخذ ماء من مجرى سدها ولا يقسم الارواء معه احد ولا يسقى ارضا اخرى منها او يقطع حشيشا ولا يحق لاحد ان يسوق حيوانات الملك او الحاكم على حدودها ولا يعمل علقا من حشيشها او طريقا سواء للملك او للحاكم ولا يمكن لاحد ان يفرض اى ضريبة في المستقبل بأمر الملك او للحاكم او ترجع رسوما قديمة سقطت عن التنفيذ) .

وينص القانون الاشوري الوسيط على ممارسة اعلان البيع الرسمي للارض بين المالكين وعندما لم يكن اى اعتراض من جهة ثالثة يسجل العقد وتوضع الوثيقة في الارشيفات الرسمية . وهذا ما هو موجود ايضا في بلاد

بابل ولكن القانون الاشوري اضاف استخدام مناد يعلن ثلاث مرات بصوت عال داخل مدينة اشور وحيث تقع الارض عن شراء الشخص للقطعة ويدعو كل من له حق في تلك الارض ان يبرز وثائقه او تخويله امام المسؤولين خلال شهر واحد • ويقبل لى ادعاء موثق ويلغى البيع • واذا لم يتقدم احد خلال الوقت المعين فيستمر البيع ويسجل رسميا • وظهرت في هذا العصر فئة تمتلك اراضي غير ملزمة باية واجبات • وجماعة اخرى يعملون في اراض اما ان تكون ملكهم او مملوكة من قبل افراد اثرياء وتقدم الواجبات والالتزامات المفروضة على الجماعة والخدمات عن انفسهم وعن اسيادهم اصحاب الارض وعليهم العمل وتقديم المحصول عينا لاسيادهم • وظهر الان في الشمال والجنوب مسح دقيق للارض يؤكد النص (هو « الملك » قاس الحقل وقدمه الى ...) و (ارسل الملك فقاوسوا الحقل) •

ويظهر ان المعبد قد برز ثانية خلال العصر البابلي الحديث كمؤسسة اقتصادية كبيرة وليست كمحتكرة للاقتصاد او الاراضي • فمعبد الربة عشتار في الوركاء كان يمتلك الكثير من الاراضي التي وصلت مشارف بابل • وكان للدولة اراضيها وللملك اطيانه الخاصة وهناك ملاكون كبار وصلت اليها اسماء بعضهم • وكان الملاكون يؤجرون اراضيهم غالبا او يعتمدون على العبيد في زراعتها • وفي الحالة الاخيرة يعطي الملاكون عبيدهم قطع اراض صغيرة يعملون فيها اوان يؤجروا هم الاراضي بموافقة اسيادهم • وكان على مستأجرى الاراضي احيانا تطهير القنوات وشق الترعة واستمرت القبائل في تملكها الاراضي الواسعة •

الثروة الحيوانية

اظهرت ادلة العصور الحجرية انواعا عدة من الحيوانات في العراق انقرضت بتبدل المناخ فيما بعد • فلقد وجدت في بردة بالكة ادلة عن وجود

الفيل الهندي وفرس الماء والماعز والماشية واسنان وعظام الحمار الوحشي وعظم غزال ولا وجود للفيل الهندي وفرس الماء في العراق الان .

وعثر في كهف هزار مرد بمنطقة السليمانية على عظام الغزال الاحمر الذى انقرض الان مع الغزال الاعتيادي والماعز البرى والجبلي ذى القرون الطويلة والذى لا يزال موجودا في بعض المناطق المنعزلة من شمال العراق . وعثر في كهف شايدير على عظام حيوانات كبيرة مثل الحصان والحمار والماعز البرى والجبلي والغزال الاحمر وغزال الجبل (الموجود الان في المناطق الجبلية الباردة) .

وميزت بين العظام الكبيرة من موقع ام دباغية قرب الحضر نسبة ٦٥٪ تعود الى الحمار الوحشي و ١٥٪ الى الغزال ونسبة قليلة الى الحيوانات المدجنة المعروفة انذاك كالكلب والخنزير والماعز والبقر والضأن . ومن مخلفات العصور السومرية والبابلية نعرف عن وجود البيسون وهو شبيه بالثور مع لحية . اما الانفر الذى نراه في اثار العصر السومري القديم فان هناك دليلا كافيا من بقايا هياكلها العظمية التي وجدت على كونها حميرا وحشية منقرضة الان تقريبا والتي كانت شائعة حتى القرن الماضي . وذكر زينفون ان هذا الحيوان واسع الانتشار في المناطق التي اخترقها من العراق سنة ٤٠١ ق م كما شاهد منه لا يارد في اواسط القرن الماضي فذكر سرعته ولونه القريب من الوردى الفاتح وكون العرب يسكون بصغاره في الربيع .

وفي المنطقة بين الفرات ورافده الخابور اصطاد الفرعون المصري طحوطمس الثالث فيلة وطارده مرة عند تلاقي الخابور بالفرات قطيعا من ١٢٠ فيلا . واخبرنا تجلات بيليزر الاول (١١١٢ - ١٠٧٤ ق م) بانه قتل عشرة

فيلة في منطقة حران حمل معه اربعة منها احياء • اما الاسود فنعرف عن وجودها في العراق حتى خلال القرن الماضي حيث اخبرنا من زار العراق عن مشاهدتهم لها ووصف احدهم الاسد العراقي (اصغر قليلا بالحجم والقوة والشجاعة من اخيه الاسد الافريقي ليست لديه فروة فهو يشبه اللبوءة ومن النادر سماعه يزأر) •

كان الجاموس موجودا منذ العصر السومري القديم وشكل عنصرا مهما في الحياة الاقتصادية لاعتماد سكان الاهوار عليه • وصورته الكثير من الاختام وقد دجن هذا الحيوان الضخم في منتصف الالف الرابع ق.م مع الثور الاحدب • وان الآثار التي اكتشفت في اوروك تدل على ان الاغنام والماعز والابقار والكلاب كانت مدجنة في الجنوب حوالي ٤٠٠٠ ق.م • ونعرف ان الماعز قد دجن منذ بداية الاستيطان بالمواقع الشمالية وممارسة الزراعة • وكانت الأبقار والاغنام والماعز والحمير تشكل عنصرا مهما في الاقتصاد السومري سواء للحمها أم حليبها ومشتقاته أم لاستعمالها في النقل واعمال الحقل • وفي نقش بواجهة معبد بموقع العبيد يصور حظيرة ابقار ومصنعا للزبدة من اللبن نرى فيه صورة زربية اخرجت منها بقرتان وعجلاهما وخلف كل واحدة رجل يحلبها وقد ربط صغيرها امامها لمنعها من الرضاعة ولكي تدر امه الحليب برؤيته • والى اليسار رجل جالس وييده قمع وامامه رجل يسكب الحليب بواسطة القمع باناء كبير وضع على الارض • وعلى مقربة رجل يحرك جرة كبيرة امامه يحرك الحليب الذي فيها لعمل الزبدة والى يساره رجل ثان امامه جرة لحفظ الحليب المتبقي بعد استخلاص الزبدة ، وفي افريزين اخرين صور لثيران • كما اكتشف في قصر مارى كثير من القوالب لصنع الجبن • وكانت الماشية والماعز اكثر شيوعا خلال العصور وكانت أسعار

المأشية والماعز تختلف باختلاف عمرها ووزنها وشكلها واختلفت اسعار الحمير بالنسبة الى انواعها واشكالها مما يدل على وجود عدة انواع منها •

وليس لدينا ادلة على استعمال الخيل في العصور الاولى برغم معرفتهم لها • وقد ورد ذكر الحصان في عقد من العصر البابلي القديم • ونعرف عن الخيل في ماري واستيرادهم لها من داخل سورية • الا ان عدم ورودها في التشريعات العراقية القديمة او المصادر الاخرى انذاك يدل على ندرتها في العراق • ولكن الكشيين استعملوا الحصان كحيوان نقل وربما ادخلوه في سلاح العربات الحربية واهتموا بالخيول ونسلها • وتعطي نصوص من شهر اثباتات بالخيول واسمائها واسماء اب وام الحصان وحتى اسلافها وورد ذكر البغل لأول مرة كما نعرف الان في زمن نرام سن • اما البعير فقد ذكر لأول مرة زمن تجلات بيليزر الاول وربما يدل معنى الرمزين اللذين استعملاه (حمار البحر) بانه ادخل من منطقة الخليج العربي التي عرفته قبل ذلك • اما الدجاج فقد ذكر لأول مرة في القرن الخامس ق.م وربما كان دخوله من الهند •

وحمت القوانين العراقية القديمة الحيوانات ففرض لبت عشتار في قانونه الغرامات على من يسبب الحاق الضرر بالثيران المؤجرة للعمل الزراعي وكانت تختلف باختلاف الجزء المتضرر منه (ثلث قيمته ان كان الضرر قد اصاب لحمه ظهره وربعها ان كان قد اتلف عينه او كسر قرنا له او اضر بذيله • وحددت قوانين اشنونة وحمورابي اجور الثيران والحمير النخ •

المراجع

- ١ - كوردن هستد : الاسس الطبيعية لجغرافية العراق (بغداد - ١٩٤٨)
- ١١ - د . سامي سعيد الاحمد ، العراق القديم ، ج ١ (بغداد ١٩٧٨) ، ج ٢ (بغداد ١٩٨٣) .
- ٢ - د . جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق (القاهرة - ١٩٦٥)
- ٣ - د . أحمد سوسة : تاريخ حضارة وادي الرافدين - الجزء الاول . (بغداد - ١٩٨٣)
- ٤ - د . أحمد سوسة : الري والحضارة في وادي الرافدين . (بغداد - ١٩٦٨)
- ٥ - فؤاد سفر : أعمال الارواء التي قام بها سنحاريب . سومر مجلد ٣ ، عدد ١ (١٩٤٧) ص ٧٧-٨٦ .
- ٦ - د . أحمد سوسة : مشروع سنحاريب لارواء منطقة نينوى . مجلة المجمع العلمي العراقي . مجلد ٩ (١٩٦٢) ص ١٦٥ - ٢١٠
- 7- Robert Mc Adams : Heartland of Cities. (Chicago, 1981).
- 8- Sami Said Ahmed : Southern Mesopotamia in the Time of Ashurbanipal. (The Hague-Paris, 1968).
- 9- Sami Said Ahmed : "Geography of Southern Mesopotamia in the Seventh Century B.C." The Oriental Geographer, Univ. of Decca, Vol. 10, no. 1 (1966) pp. 15-20.
- 10- R. Clay : The Tenure of Land in Babylonia and Assyria. Univ. of London. Institute of Archaeology, no. 1, (1931).
- 11- Th - Jacobsen : Salinity and Irrigation agriculture in Antiquity (Baghdad, 1958).
- 12- K - Maekawa : Agriculture Production in Ancient Sumer, Chiefly from Lagash Material, ZINBUN, Memoire and

Research Institute for Humanistic. Studies. Kyoto Univ.
Vol. 13 (1974).

- 13- Dr. Howard Nelson : An Abandoned Irrigation System in Southern Iraq. Sumer, Vol. 18 (1968) pp. 67-72.
- 14- A. Leo oppenheim : On Royal Gardens in Mesopotamia Journal of Near Eastern Studies. Vol. 24 (1965) pp. 328-333.
- 15- Stanley D. Walters : Waters for Larsa, An Old Babylonia archive dealing with Irrigation. (New Haven, 1970).
- 16- R. Paepe : Geographical Approach of the Tell ed - Der area in L. de Meyer, H. Gasch and R. Paepe. Tell-ed-Der (Louvain, 1976) pp. 9-27.

الفصل السادس

التجارة

رضا جواد الهاشمي

كلية الآداب - جامعة بغداد

تقديم

قادت عمليات التنقيب الأثري في بقايا المواقع والمدن العراقية القديمة لاكتشاف عدد من المواد الأثرية المصنوعة من مواد لا توجد أصلاً في الأرض العراقية ، ومنها مثلاً أنواع من الحجارة أو الاصداف البحرية أو المعادن فكان ذلك الدليل الأكيد الأول على قيام المبادلات التجارية بين المواقع والمستوطنات العراقية وبين المناطق التي تتوفر فيها هذه المواد الأولية .

ومما يمنح موضوع التجارة في العراق أهمية متزايدة أن بعض مواد التجارة المكتشفة وجدت بين بقايا مواقع العصور الحجرية الحديثة ، ويقدر تاريخها بحدود الألف الثامن قبل الميلاد ودلالة هذا الأمر أن اهتمام سكان العراق القديم بالتجارة يضرب في أعماق التاريخ القديم وأنه اكتسب خلال مسيرته التاريخية الطويلة مزيداً من الخبرات والتجارب في مضمار العمل التجاري فتعددت مناطق المتاجرة وتنوعت مواد التجارة وازداد عدد العاملين

في اوجه نشاطاتها المختلفة ، والاكثر خطورة من ذلك ، انعكاسات العمل التجاري الواسعة ومع مناطق مختلفة على تجربة العراقيين الحياتية .

وعندما نصل في متابعتنا للتجارة الى العصور التاريخية بحدود مطلع الالف الثالث قبل الميلاد تتكشف امامنا بوضوح اكثر الاهمية الكبيرة التي احتلتها التجارة في حياة العراقيين القدماء وفي مجمل نشاطاتهم الاقتصادية ، ويتحول الاهتمام من الطابع الفردي الى الطابع الجماعي المنظم الذي تشرف عليه الدولة ويلقى رعاية واهتمام الزعماء والملوك، فلم يخف الملوك العراقيون عنايتهم بالتجارة الى الحد الذي دفعهم لارسال حملات عسكرية لضمان سلامة طرق التجارة وتهيئة اسباب تدفق المواد الاولية من المناشيء المختلفة .

وليس صعبا معرفة اسباب ازدهار التجارة في تاريخ العراق القديم حيث يأتي في مقدمتها ، عدم توفر المعادن والحجارة والاشخاب التي تعد مواد ضرورية لمجتمعات الصيد والزراعة ، فهي تدخل في صناعة العديد من ادوات الانتاج ، مثلما تعد مواد بناء ضرورية وجيدة ، وهذا ما سعت التجارة الخارجية في العراق القديم الى توفيره للاسواق المحلية . فكانت تجارة النحاس والذهب والفضة والاحجار الصلبة الجيدة وانواع الاشخاب في مقدمة المواد التي استوردها العراقيون .

وكان لزاما على العراقيين توفير سلع ومنتجات ومواد لاطفاء قيمة الواردات المختلفة ، ولم تكن جميع المناطق التي تاجر العراقيون معها بحاجة الى المنتجات الزراعية التي توفرها الارض العراقية الخصيبة ، فيما عدا بعض المناطق مثل الخليج العربي ، الذي يقدر افتقاره قديما الى كثير من المنتجات الزراعية مثلما هو الحال في الوقت الحاضر ، لذلك سعى العراقيون الى تصنيع المنتجات الزراعية او الحيوانية ، ومن ابرزها صناعات النسيج والملابس

الجلود والزيوت النباتية والخمور وجعلها سلعا تجارية تتكافأ في قيمتها مع
اثمان المواد المستوردة •

ان بعض مواد التجارة العراقية المستوردة او المصدرة هي من المواد
رخيصة الاثمان مثل الاحجار او الاخشاب او الشعير او النحاس لذلك
كانت تتحقق في العملية التجارية الواحدة كميات كبيرة من هذه المواد وذلك
لتغطية نفقات الرحلة التجارية اولا ، ولتحقيق الفائدة المرجوة من التجارة
ثانيا • وان انسب وسائل النقل لمثل هذه السلع هي وسائل النقل المائية
التي تتميز باستيعابها الكبير ورخص تكاليف انتقالها وقد وجدت هذه
الوسائل في انهار العراق وفروعها وشبكة القنوات التي خدمت اغراض الري
والملاحة النهرية ، افضل الطرق التي انتقلت عليها مواد التجارة المختلفة
ووصلت الى جميع المدن والقرى والقصبات العراقية القديمة •

ومما ساعد على تطوير النقل النهري في العراق القديم اضافة الى
خصائص نهر الفرات المشجعة للملاحة النهرية ، انه وجد في شواطئ الخليج
العربي فرصة جيدة ليمتد بتنقلات وسائله الى مناطق بعيدة في الخليج
العربي ، وربما من خلاله الى شواطئ الهند الغربية والى مراكز حضارة وادي
السند •

وهكذا تضافرت مجموعة من العوامل على تشجيع العمل التجاري
وتنشيئه وتطويره حتى غدا في بعض مراحل تطوره وازدهاره وجها بارزا
من اوجه النشاط الاقتصادي في بلاد وادي الرافدين •

واذا كانت المخلفات الاثرية من مواقع ما قبل التاريخ تساعدنا في
معرفة مواد التجارة الخارجية وتقدير مواطنها واستنتاج نشاطاتها فان الاعداد
الكبيرة من النصوص المسماة التي كشفت عنها اعمال التنقيب الاثرية في
بقايا المدن والمستوطنات من العصور التاريخية قدمت مزيدا من الدلائل

وسلّطت الاضواء على مختلف جوانب النشاط التجاري في العراق القديم ،
وعليه يجد الباحث نفسه في وضع متمكن للحديث عن اوجه النشاط التجاري
وللادوار التاريخية المتعاقبة •

ولاجل التركيز ، سنعالج على الصفحات القادمة الموضوعات التالية :

- ١ - التجارة الخارجية
- ٢ - التجارة الداخلية
- ٣ - طرق المواصلات ووسائل النقل
- ٤ - طرق المعاملات والقوانين التجارية

التجارة الخارجية

شكلت مواطن المواد الاولية من معادن واخشاب واحجار وهي المواد
التي يفتقر اليها العراق مراكز رئيسية في الاتصالات التجارية الخارجية
للعراق القديم ، ومن المعروف ان بعض المواد المذكورة في سجلات التجارة
الخارجية تتوفر في اكثر من مصدر واحد ، فالنحاس مثلا من بين المعادن
التي استوردها العراقيون من الاناضول ومن منطقة الخليج العربي ، ولكن
مجموعة الشروط المشجعة للعمل التجاري ، ومنها توفر طرق المواصلات
الجيدة ووسائل النقل رخيصة التكاليف ، وانتشار الامن على امتداد طرق
التجارة كانت تشجع او تعرقل اتساع التجارة مع هذا المركز او ذاك ، كما
كانت الاوضاع العامة في مواطن التجارة الخارجية عاملا رئيسيا في ازدهار
المواصلات او عرقلتها أو انقطاعها ، فيرى الباحثون مثلا ، ان تدفق الهجرات
الهندية الاوربية على بلاد الاناضول مع اواخر الالف الثالث ق • م وما أحدثته
من اخلال بموازن القوى والامن في هذه البلاد تسبب في عرقلة الحركة
التجارية الاشورية مع بلاد الاناضول ، بعد ان عاشت لبعض الوقت عصرها
الذهبي بحدود القرن العشرين ق • م •

ولكون العراق من الاقاليم الجغرافية المفتوحة ، ولا تعرقل السلاسل الجبلية الشمالية او الشمالية الشرقية حركة الانتقال والعبور لكثرة منافذها الطبيعية ، لذلك ازدهرت التجارة العراقية الخارجية مع معظم الاقاليم المجاورة * يحتل الخليج العربي ومراكزه التجارية مكان الصدارة والقدم في الاتصالات التجارية العراقية القديمة ، فقد هيأت سواحله الغربية طريقا جيدا امام وسائل النقل النهرية ، فأمن ضحلة المياه على مقربة من الساحل ، وكثرة تعرجاته وانتشار عدد من الجزر القريبة منه ، وتوفر مصادر المياه العذبة في نقاط معينة على الارض وكذلك في الجزر ساعدت جميعها على اتاحة الفرصة امام وسائل النقل النهرية القديمة للإبحار في مياه الخليج العربي صوب مراكزه المختلفة *

كما ان استقراء هذه الامكانيات في الاتصالات يتفق تماما مع دلائل المكتشفات الاثرية في كل من مراكز الخليج العربي القديمة وفي مدن جنوبي العراق وهي تؤكد وثوق الصلات بين الجانبين منذ فترات مبكرة ترجع بداياتها الى الالف الرابع ق * م *

والراجح ان افتقار منطقة الخليج العربي الى المنتجات الزراعية أو ما يصنع منها، كان عاملا مشجعا يهيئ اسباب المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة فيما بين العراق والخليج العربي *

ومن بين اقدم الاشارات الى تجارة العراق الخارجية مع الخليج العربي نصوص من مدينة لجش السومرية في جنوبي العراق ، يرجع زمنها لحدود القرن الخامس والعشرين ق * م * تتحدث عن مراكز تجارية نشطة في الخليج العربي منها دلمون ومكان ، وتبدأ النصوص من الفترات اللاحقة تضيف الى هذين المركزين اسم مركز تجاري ثالث هو ميلوفا ، فيتفاخر سرجون الاكدي (القرن الثالث والعشرون ق * م) بانه جعل مزيدا من السفن القادمة من دلمون ومكان وميلوفا ترسو في رصيف مدينة اكد *

لقد نجح الباحثون بموجب القرائن والدلائل الاثرية والمدونة من التحقق بتطابق موضع دلمون القديم مع بلاد البحرين ، كما تزداد القناعة بينهم باقتران مكان ببلاد عمان في الاقسام الجنوبية من الخليج العربي ، بخاصة وان مكان وصفت في النصوص المسمارية بانها موطن النحاس وقد تأكد مؤخراً ان عمان كانت من مراكز انتاج النحاس قديماً بدلالة اكتشاف العديد من مناطق استخراج النحاس وتعدينه في مناطق الجبال العمانية .

اما ميلوخا ، فإن الدلائل الاثرية المكتشفة حديثاً من مراكز الخليج العربي القديمة تزيد من رجحان الرأي الذي يقرنها بمراكز حضارة وادي السند القديمة .

وهكذا يبدو واضحاً بان حركة التجارة الخارجية كانت قائمة ومنذ فترات مبكرة بين المدن العراقية وبين مراكز الخليج العربي ومع مراكز تجارية اخرى كان الوصول اليها يتم عن طريق الخليج العربي .

وانهمك العراقيون برحلات تجارية واسعة مع مناطق الخليج العربي منذ الالف الثاني ق . م كما ساهم الخليجيون في ادامة هذه الرحلات وتوسيعها وازدهارها وتنوع موادها في فترة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق . م) واصبح مصطلح Alik Tilmun ki اي « المسافر الى دلمون » مرادفا الى لفظة تاجر عند العراقيين القدماء .

تعرضت تجارة العراق مع الخليج العربي الى بعض الضعف وفترة نشاطها السابق على اثر نسقوط سلالة بابل الاولى بحدود عام ١٦٠٠ ق . م وغياب الحكم المركزي وتعرض البلاد الى غزو الحثيين والعيلاميين والكشيين على التعاقب ، فكان ذلك كله سبباً رئيسياً لتعثر النشاطات التجارية لبعض الوقت وتحويلها الى نشاطات فردية محدودة .

وتتوفر ثانية بعض المعلومات عن مبادلات تجارية بين العراق وبين

دلمون على ايام الكشيين ، ومع ذلك فانها لم تصل بتجارة الخليج العربي الى ايام ازدهارها السابقة مما يرجح تعرض مناشيء المواد التجارية الخليجية الى احوال صعبة ، وربما تكون هجرات الاقوام الهندية التي غمرت حوض وادي السند ومدنه ومراكزه العامرة ، سببا آخر في ضعف النشاط التجاري بين العراق وبين الخليج العربي ، اما الاشوريون ، فقد بذلوا مساع جيدة لتأمين سلامة الخطوط التجارية مع الخليج العربي ، وان ادامة بعض الفعاليات العسكرية تؤكد استمرار النشاط التجاري بين الطرفين ، ولكن بسبب قرب بلاد الاشوريين من الاناضول وغربي ايران وسوريا ، ناهيك عن ان هذه المناطق غدت لفترات طويلة جزءا من الامبراطورية الاشورية ، لذلك توجهت اهتمامات التجارة الخارجية للاشوريين صوب هذه الاقاليم ، وبلغت في بعض مراحلها الى مصر .

وشهدت فترة حكم الكلدانيين (٦٢٦ - ٥٣٩ ق م) ويصطلح على تسميتها بالعهد البابلي الحديث ، متغيرات مهمة على صعيد القوى السياسية العالمية تركت اثرها على مسار خطوط التجارة ومما كان له اثره السلبي على تجارة العراق مع الخليج العربي ومن بين ابرز هذه المتغيرات ظهور الفرس الآريين في ايران وسعيهم لتنشيط طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب مع ما مارسوه من ضغوط سياسية وعسكرية على الدولة البابلية ، كذلك لعب ازدهار تجارة القوافل العربية دوره في اضعاف النشاط التجاري البحري في الخليج العربي ، ويرى بعض الباحثين ان مساعي الملك نبونائيد آخر ملوك بابل ، للسيطرة على تيماء وفدك ويشرب وخيبر ، وكلها مراكز واجات واستيطان رئيسية على طريق تجارة البخور الذي يأتي من جنوبي الجزيرة العربية في طريقه عبر هذه العقد الرئيسية الى مدن الشام وموانئها على البحر المتوسط ، لم يكن مسعاه ذلك الامحولة لتلافي الصدع الذي اصاب اقتصاد الدولة بتعرض تجارة بابل الخارجية الى الضعف والتدهور

وذلك عن طريق احكام السيطرة على طريق تجارة القوافل ، وهي التجارة التي بدأت تنهك منذ القرن السادس ق . م لاسلع ومنتجات جنوبي الجزيرة العربية فحسب بل بمنتجات الهند ايضا .

ومع كل التدهور الذي اصاب تجارة العراق الخارجية مع الخليج العربي فان بعض السلع والمنتجات والمواد الاولية بقيت تتحرك في نطاق تجارة خارجية محدودة بين مدن جنوبي العراق وبين الخليج العربي .

وتعد محاولات الاسكندر المقدوني في استكشاف طرق الملاحة ومراكز المرافئ والتأمين في الخليج العربي ، اخر المحاولات لبعث الحياة في هذه الطريق التجارية العالمية القديمة ولكنها ضعفت بموت الاسكندر في عام ٣٢٣ ق . م . ثم انقطعت تماما بعد نهاية حكم السلوقيين في عام ١٣٩ ق . م ومع ذلك فان شهرة الجرهاة (المدينة التجارية في الخليج العربي) التي يرجع ازدهارها لأواخر القرن الثالث وخلال القرن الثاني ق . م . يكشف عن استمرار اهمية الخليج العربي التجارية وبخاصة في اتصالاته مع بلاد وادي الرافدين وجنوبي الجزيرة العربية .

اما مواد التجارة الخارجية بين العراق وبين الخليج العربي فانها تركزت في تبادل السلع والمنتجات التي يفتقر اليها كل من المركزين .

فقد استورد العراق من الخليج العربي او عبر مراكزه التجارية ، النحاس والاشخاب والاحجار ، وهي المواد الثلاث الرئيسية التي تفتقر اليها الارض العراقية ، بينما تعد مواد اساسية في عمليات البناء والصناعة والزراعة ومعظم الفعاليات الانتاجية للانسان .

وتناولت تجارة العراق الخارجية استيراد السلع والمواد الكمالية مثل العاج والذهب واللازورد وأنواع اخرى من الاحجار الكريمة ، وبعض المنتجات الزراعية ، وبعض انواع الحيوانات والطيور ، ومادة سميت بعيون

السبك ، يرجح انها اللؤلؤ الذي اشتهر الخليج العربي باتنتاجه ، وقد وصل بعض هذه المواد مصنعا نذكر من بينها امشاط عاجية اضافة الى وصولها بهيئتها الخام ايضا ، كما ان التحقيق من مصادر بعض المواد التي نقلتها تجارة الخليج العربية ومنها العاج والعقيق الذي يجلب من الهند ، واللازورد من وادي - بدخشان في افغانستان ، يؤكد ان الخليج العربي لعب دورا بارزا في تجارة الترانزيت ، وكان طريقا سلكته البضاعة الهندية وبضائع المناطق الاخرى من جنوب غربي اسيا في طريقها الى العراق وسوريا وشواطئ البحر المتوسط .

اما الصادرات العراقية ، وهي المواد التي كانت تجارة العراق الخارجية تغطيء بواسطتها قيمة وارداتها ، فيأتي في مقدمتها المنسوجات والملابس والزيوت النباتية وبخاصة السمسم ، والسمن الحيواني والشعير والجلود والصناعات الجلدية ، فمن طريق هذه المواد الاولية والمصنعة ، وهي مواد يزدهر انتاجها في مناطق العراق المختلفة نجح العراقيون في تغطية قيمة الكميات الكبيرة من النحاس والاشخاب والمواد الاخرى ، فيذكر احد النصوص مثلا ، كمية من النحاس تقدر بحوالي ٧ - ٨ طن ، وصلت من تجارة الخليج العربي .

ان حجم المواد التجارية وتوفر طرق المواصلات النهرية شجع على ازدهار النقل بواسطة السفن بين الخليج العربي ، ولا نعرف واسطة اخرى للنقل التجاري بين الطرفين الا ما اشارت اليه المصادر الكلاسيكية من وجود نشاط تجاري عن طريق القوافل بين الجرهاء وبين سلوقية وبابل ، اضافة الى استمرار النقل بواسطة السفن ، وسوف نتعرض الى هذه الوسائط وطرق الملاحة في حديث مفصل على الصفحات القادمة .

تحتل بلاد الشام المقام الثاني من حيث الاهمية في تجارة العراق الخارجية ، فعلى جبالها تنمو اشجار الارز ، وهي الاشجار ذات الشهرة

التاريخية لصلابة اخشابها واستقامة عودها حتى ان العراقيين
اجبال اللبنانية اسم جبال الارز مثلما اطلقوا على جبال طور و
الفضة •

ويرجع اهتمام العراقيين بهذه المناطق من بلاد الشام لصد
نرجع الى القرن الرابع والعشرين ق • م وذلك عندما نقرأ في كتاب
الاكدي مؤسس الدولة الاكدية ، اشارات الى غابات الارز و
اضافة الى ماري وابلا وغيرها من المناطق التي منحها الالهة له
ذكر هذه المناطق في عهد الملك نرام سين حفيد سرجون بسبب
التجارية كما يتأكد اهتمام نرام سين من بقايا قصره في تل براك
الفرات •

اما كوديا حاكم لجش (القرن الثاني والعشرون ق • م) ف
التذكارية تؤكد مواصلة العراقيين استيراد اخشاب الارز
وانهم كانوا يقطعونها الواحا وينقلونها الى ضفاف الفرات فيعمد
اكلاكا يدعونها تطفو في نهر الفرات وتصل مع الماء الى المدن
الوسط والجنوب مثلما اوصلها كوديا الى مدينته لجش •

وحينما نستعرض الملوك والحكام الذين سعوا للوصول الى
الارز والحصول على الاخشاب منها ، لا ننسى الاشارة الى جلعج
بذل جهودا كبيرة لضمان سلامة الوصول الى غابات الارز بقتل
خشبها واذا ماتعاملنا مع معلومات هذه الملحمة بدلالاتها الرمزية
في التأكيد على اهمية هذه المناطق في تجارة العراقيين الخارجية •

وعلى الرغم من ان اخشاب الارز والسرو كانت من اهم الاخ
سعى العراقيون للحصول عليها من تجارتهم الخارجية مع بلاد
ولكنهم جلبوا ايضا انواعا من الاخشاب والسلع والمواد التي تتوفر
المختلفة منها ، او التي تصلها من بلدان اخرى وبخاصة من مصر •

وعليه فان بلاد الشام كانت من القنوات الرئيسية في العلاقات العراقية مع مصر على وجه الخصوص .

ومع ان تجارة الاخشاب مع بلاد الشام لم تنقطع في زمن سلالة اور الثالثة (القرن الواحد والعشرون ق م) وفترة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م) الا انها شهدت منافسة شديدة لها من تجارة الاخشاب الخليجية واستعادت بلاد الشام مكائنها البارزة في العهد الاشوري وربما اخذ ملوك الاشوريين يكررون اعمال اسلافهم من حكام الدولة الاشورية القديمة ، الذين سعوا لفرض حمايتهم على لبنان ومناطق الساحل ومن اشهرهم الملك شمشي ادد الاول (١٨١٣ - ١٧٨١ ق م)

ولم يخف الملوك الاشوريون اسباب حملاتهم العسكرية ورحلاتهم المتكررة على مناطق بلاد الشام وبخاصة مناطق الجبال اللبنانية منها ، حيث يبرز الحديث عن الخشب بالدرجة الرئيسية اذ كان يؤخذ لاغراض البناء وبخاصة القصور والمعابد التي اكثر الاشوريون من تشييدها مثلما اكثروا من تشييد المدن ، كما كانوا يطلبون بعض الصناعات المشهورة في بلاد الشام ومنها صناعة السفن والقوارب وكذلك صناعة الاثاث الخشبي ومنه ما جاء مطعما بالعاج حيث كان الصناع الفينيقيون من اشهر الفنانين في الحفر على العاج وتؤكد لنا كثرة القطع العاجية المكتشفة في نمرود (كالح) والتي نجد قسما منها في القاعات الاشورية من المتحف العراقي ببغداد على مدى استفادة الاشوريين من تجارتهم الخارجية مع سوريا سواء في جلب هذه الصناعات او جلب العمال والمادة الاولى منها ثم صناعتها في المدن الاشورية .

كما لعبت بعض المدن في بلاد الشام وبخاصة الساحلية منها مثل اوغاريت (رأس شمرا) دورا بارزا على طريق تجارة الترانزيت بين اسيا الصغرى حيث مصادر النحاس والذهب والفضة ، وبين مدن العراق القديم ،

وبالإضافة الى نقل بعض المواد على ظهور الحمير الى مدن اعلى الفرات ثم نواصل السفن نقلها الى مدن وسط وجنوبي العراق فأن قوافل الحمير كانت نشطة في نقل التجارة بين اوغاريت وبين بابل ، وبخاصة في القرنين الرابع والثالث عشر ق م .

وابتداء من حكم الملك الاشوري تجلات بلاسر الاول (١١١٤ - ١٠٧٦ ق م) والى زمن الملك آشور بانبيال ، اخر الملوك الاشوريين (٦٦٨ - ٦٣٣ ق م) وذكر المناطق في بلاد الشام عامة ومناطق الجبال منها بوجه خاص ، لم ينقطع في الكتابات التذكارية او التسجيلات التاريخية للملوك الاشوريين ، حيث يتأكد في ضوء هذه الكتابات مدى الاهمية التي احتلتها بلاد الشام في مجمل النشاط التجاري الخارجي للاشوريين .

ولقد ساعد في تطوير علاقات التجارة الخارجية بين العراق وبين بلاد الشام امتدادات نهر الفرات فبفضل انعطافة الفرات الكبيرة صوب الغرب في اقسامه الوسطى ، فإنه يقترب كثيرا من مناطق الجبال اللبنانية والساحل لسوري فعبر مسافة ارضية قصيرة يمكن الانتقال من مدن الفرات العلوية نحو وادي نهر العاصي الذي يقترب بدوره من مدن الساحل ، ومنها مثلا اوغاريت .

كما ان استمرار نهر الفرات في وسط وجنوبي العراق يوصل بمعظم المدن الرئيسية في هذين القسمين الهامين من العراق وهما بلاد اكد وبلاد سومر او بلاد بابل فيما بعد ، لذلك اصبح نهر الفرات عاملا مساعدا على تشجيع الصلات التجارية بين المركزين ومنذ فترات مبكرة ، وكما يخبرنا كوديا فان نقل الاخشاب من بلاد الشام الى العراق كان يقتضي ايصالها الى اطراف الفرات عند كركميش (جرابلس حاليا) او اية نقطة قريبة ، حيث يكون الفرات في اقرب تقاطعه بعدا عن الساحل السوري ومناطق الجبال ، ثم تترك هذه الاخشاب لتطفو فوق سطح مياه النهر ، او تشد الى بعضها في

صورة الاكلاك وتنزل مع مجرى النهر في طريقها الى حيث يراد لها الوصول
من المدن العراقية المختلفة *

ويتأكد لنا دور الفرات من المكانة التي احتلتها مدينة ماري على طريق
الاتصالات التجارية بين بلاد الشام وبين وادي الرافدين ، بفضل النصوص
الكثيرة التي كشف عنها المنقبون الفرنسيون في اطلال قصر الملك زمرى لم
في مدينة ماري ، تم التعرف على نشاط تجاري واسع كان يمتد من دلمون في
الخليج العربي وخلال نهر الفرات شمالا والى حلب ووادي نهر العاصي
وصولا الى اوغاريت (رأس شمرا) على ساحل البحر المتوسط وكانت مدينة
ماري (وتعرف اطلالها اليوم باسم تل الحريري ويقع على الفرات عند الحدود
العراقية السورية) بمثابة محطة رئيسية على امتداد هذا الطريق ، حيث ورث
اهلها تجارة القصدير التي كانت من قبل حكرا على الاشوريين ، والقصدير
مادة اساسية في صناعة البرونز بعد خلطه مع النحاس *

اما بلاد الاناضول فان تجارة العراق الخارجية معها كانت سببا رئيسيا
في ازدهار بلاد اشور في عصرها القديم بحدود مطلع الالف الثاني ق م
وعلى الرغم من توفر بعض الاشارات على قيام الصلات التجارية مع الاناضول
منذ ايام سرجون الاكدي وحفيده نرام سين ولكنها بلغت اوج ازدهارها
على ايام المستوطنات التجارية الاشورية في الاناضول *

ولقد ايدت نتائج اعمال التنقيب في مدينة كانيش القديمة (كول تبة)
في الاناضول ادعاءات الملوك العراقيين عن نشاطاتهم التجارية الواسعة مع
هذه البلاد *

وتخبرنا النصوص المسمارية المكتشفة في كانيش، والتي خلفها وراءهم
التجار الاشوريون ، عن اوجه النشاطات التجارية وحجمها ووسائل نقلها
وطرق التعامل والاسعار وما الى ذلك ، من شؤون تتعلق بهذا النشاط
الاقتصادي الهام ومن هذه الفترة المبكرة من تاريخ العراق القديم *

وتفيدنا النصوص المختلفة ، ومنها رسائل وعقود ومعاملات مالية ونسخ من قوانين تنظيم العلاقات المالية والتجارية في رسم صورة رائعة لهذه المستوطنة التجارية ، وما يمكننا ان نقوله باختصار عن هذه المستوطنة ونشاطاتها ، ان مجموعة من التجار الاشوريين يقدرّون ببضعة الاف سافروا قصد الاقامة المؤقتة في كانيش التي كانت بدورها مستوطنة تجار وسوقا رئيسية للتجارة الاناضولية ، حيث تنطلق منها السلع القادمة من العراق مثلما تتجمع عندها النشاطات الاناضولية المختلفة ، والاشوريون المقيمون في هذه المستوطنة هم من التجار او وكلائهم ومعهم عدد من القائمين على شؤون النقل التجاري بين اشور وبين كانيش .

وكانت قوافل الحمير نشطة تنقل القصدير والملابس بانواعها المختلفة والمنسوجات من اشور الى كانيش لتحصل على اثمانها من الفضة والذهب الذي كان يضاف الى الثروات المتراكمة في بلاد اشور ، حيث نعرف من هذه النصوص عائدات وارباح كبيرة حفظها التجار الاشوريون من اعمالهم في كانيش .

وعلى الرغم من ازدهار صناعة المنسوجات والملابس في اشور والمدن التابعة لها مثل كارانا (تل رماح) فأن اشور كانت تستورد كميات كبيرة من المنسوجات والملابس من مراكز صناعتها الاخرى وبخاصة من سبار ، مثلما عمدوا الى جلب القصدير من مناطق جبال قره داغ على مقربة من تبريز في ايران ، وينقلونه مع موادهم التجارية الاخرى الى الاناضول ، حيث كان الطلب عليه كبيرا بسبب وفرة النحاس فيها وحاجة النحاس الى القصدير في صناعة البرونز ، وهكذا حقق الاشوريون مع مطلع الالف الثاني ق . م مستويات متقدمة في النشاط التجاري الخارجي ، انعكس اثره واضحا على التقدم السياسي الذي حققته اشور في مطلع العهد البابلي القديم .

ومن الجدير بالانتباه ، ان صلات العراق التجارية مع الاناضول ترجع لفترات زمنية مبكرة جدا فمنذ بدايات العصر الحجري الحديث بحدود الالف الثامن ق . م كانت الحجارة الاوبسيدية ، وهي نوع من الحجارة البركانية السوداء اللون التي يمكن صناعة شظايا حادة جدا منها ، تصل الى القرى الزراعية الاولى في شمالي العراق من محاجره الوحيدة القريبة من بحيرة وان شرقي الاناضول .

والراجح ان الحجارة الاوبسيدية استفادت في طريق انتقالها الى العراق من فروع دجلة وصولا الى منطقة ديار بكر ثم الانتقال الى مدن اعالي ما بين النهرين بين دجلة والفرات . ومما يؤكد مثل هذا الخط للتنقلات التجارية ، انه يوصل الى مناجم النحاس ومصادر الذهب في بلاد الاناضول حيث تعد مناجم Ergani Maden قرب ديار بكر من مصادر النحاس التاريخية ، كذلك يتوفر الذهب عند اطراف الفروع المكونة لنهر دجلة الى الشمال من ديار بكر ، وبمناسبة الحديث عن النحاس نشير الى ان كانيش لم يكن لها دور في تجارته ، والراجح انه كان ينتقل مباشرة الى العراق دون المرور بكانيش . ولكن تجارة النحاس الاناضولية اوجدت منافسة شديدة من تجارة النحاس الاناضولية بخاصة وان الاخيرة كانت تنتقل بوسائط اقل تكلفة واكثر استيعابا من وسائط النقل البرية ، ومع ذلك فان حالة الاوضاع السياسية في مناشيء المواد التجارية من جانب وفي اقسام العراق من جانب اخر لعبت دورها في ازدهار احدي التجاريتين على حساب الاخرى .

وعلى العموم فان التجارة المباشرة بين العراق وبين الاناضول التي ازدهرت في مطلع الالف الثاني ، وبالتحديد في القرنين العشرين والتاسع عشر ق . م انقطعت اخبارها ايام الملك حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق . م) حيث كان لقيام الدولة الحثية على انقاض المستوطنات الحثية الاصلية اثر في تدهور العلاقات العامة والتجارية منها بوجه خاص مع العراق ، لذلك

تحولت التجارة الى سبل غير مباشرة فقد اصبحت مدن شمالي سوريا وثيقة الصلة بخاثوشاش العاصمة الحثية من جانب وبمدن العراق القديم من جانب اخر ، وكانت اوغاريت كما المحنا الى ذلك من قبل واحدة من مراكز تجارة الترانزيت في سوريا •

ولم تكن ايران بعيدة عن متناول النشاطات التجارية الخارجية للعراقيين القدماء • والراجع ان العلاقات عامة والتجارية منها بوجه خاص ، بين بلاد سومر (نقصد بها القسم الجنوبي من العراق) وبين عيلام (سهول نهري كارون وكرخا والجبال المحيطة بهما من الشمال والشرق) ترجع الى بدايات الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق بحُدود الالف الرابع ق • م •

وتخبرنا اقدم النصوص الادبية المكتشفة من حضارة وادي الرافدين عن نشاط تجاري بين سومر وبين عيلام والمناطق المجاورة لها • فقد وردت في واحدة من قصائد البطولة السومرية المعروفة باسم « انميركار وسيد اراتا » اشارات صريحة الى ان رغبة الملك انميركار ، وهو احد ملوك سلالة الوركاء الاولى ، التي هي واحدة من دويلات المدن في عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق • م) في ضم بلاد اراتا ، لاجل الحصول على المواد الثمينة منها فبلاد اراتا تقع الى الشرق من سومر ويفصلها عن بلاد سومر سبع سلاسل من الجبال وارضها مليئة بالفضة والذهب واللازورد والاحجار الكريمة الاخرى • ولكوننا متأكدين من مصادر اللازورد ، فالراجع ان منطقة عيلام كانت على طريق القوافل التجارية الى مصادره ومصادر العقيق وغيرها من الاحجار الكريمة والذهب والفضة •

كما يبرز القصدير من بين المواد التي اكثر العراقيون استيرادها من ايران وتناوبت اشور ومارى الاهتمام بتصديره الى الاناضول ، كما تتوفر دلائل وجود منجم للذهب شمال غرب اصفهان ، وترسبات الذهب قرب همدان ونهاوند •

وكانت المناطق الجبلية شرق وشمال العراق من مصادر العبيد الرئيسية حتى ان العراقيين استخدموا العلامة الدالة على جبل مع علامة اخرى للدلالة على عبد في كتاباتهم .

ومما شجع على ازدهار التجارة الخارجية بين العراق وبين ايران توفر طرق المواصلات البرية فلكون منطقة عيلام سهلية ومفتوحة ، فقد غدت منفذا رئيسيا صوب ايران عامة ونحو الاقسام الجنوبية والجنوبية الشرقية خاصة .

ان امكانية التنقلات عبر عيلام الى الاقسام الجنوبية الشرقية من ايران، وفر امكانية الاتصال بمناطق الهند وافغانستان وربما ابعد من ذلك مع مناطق اواسط اسيا وهو ما يفسر لنا كثرة الفضة والذهب والاحجار الكريمة منذ منتصف الالف الثالث في مدن العراق بكثرة ، لذلك ازدادت اهمية عيلام في سياق النشاط التجاري العراقي لانها على طريق التجارة العالمية ، وربما لعبت مدنها دور الوسيط في تجارة المواد الكمالية الهامة كالمعادن النفيسة والاحجار الكريمة .

ان كثرة المنافذ الطبيعية في امتدادات جبال زاكروس جعل من امر الانتقال عبرها والى اعماقها سهلا وميسورا امام الناس والتجار والجيوش ومن المعروف انه بالاضافة الى ممرات بنجوين وحلبجة ورايات فان اهم الممرات واشهرها هو ممر خافقين - كرمشاه - همدان ، الذي بسبب اهميته وشهرته ، اطلق عليه عالم الآثار هرتسفلد بوابة اسيا .

ان مناطق جبال زاكروس بالاضافة الى نباتها واشجارها الطبيعية وحجارتها الجيدة وبعض المعادن فيها ، فانها من مراكز الرعي الفريدة وكانت المناطق القريبة من بحيرة اورميا شمال همدان من اشهر مناطق تربية الخيول في الالف الاول ق . م ، كما تكشف لنا مسلة شيلمنصر الثالث عن المواد

التي كانت التجارة مع ايران توفرها ، ومنها الجمال ذات السنامين • ومع ذلك فان تاخر هذه المناطق عن ركب الحضارة والتمدن الذي كان يسود معظم اقطار الشرق الادنى القديم يفسر ضعف النشاطات التجارية مع الاقسام الشمالية الغربية من ايران واقتصارها على المركز السياسي والحضاري الوحيد في الاقسام الجنوبية الغربية وهو عيلام •

يجدر بنا ونحن ننهي الحديث عن ابرز مراكز الاتصالات في التجارة الخارجية للعراق القديم • ان تتعرض لعلاقة العراق بمناطق الجزيرة العربية ، وبصرف النظر عن العلاقات الطبيعية المحدودة بين مناطق البوادي وبين المدن العراقية ، فالراجع ان الاتصالات التجارية الواسعة مع مناطق الجزيرة العربية انتظرت الى مطلع الالف الاول ق • م وهو زمن تدجين الابل واستخدامها على نطاق واسع لاغراض النقل • ومن هذه الفترة ايضا تبدأ النصوص العراقية تتحدث عن نشاطات متزايدة في مناطق الجزيرة العربية ، وقد اشرنا في مكان سابق كيف دفعت اهمية التجارة وطرقها في الجزيرة العربية ، بالملك نبونائيد للاستقرار في تيماء لمدة عشر سنوات ، وببذل جهود عسكرية للسيطرة على عقد التجارة في الانحاء الشمالية الغربية من الجزيرة العربية ، وكأنه يريد من خطواته هذه بناء مراكز تجارية ثانية للكلدانيين على غرار مستوطنات المعينيين والسبأيين في مناطق الحجاز او كما فعل التجار الاشوريون مع مطلع الالف الثاني في كانيش بالاناضول •

اما السلع ومواد التجارة العربية التي قصد العراقيون الحصول عليها فيمكننا استنتاجها من الغنائم ومواد الجزية التي فرضها الاشوريون على ملوك وزعماء العرب ، ويأتي في مقدمتها الذهب والاحجار الكريمة والطيوب والنوق والجمال • وربما زاد طلب الاشوريين للجمال ، لانها كانت الوسيلة الوحيدة التي اتاحت للاشوريين فرصة التوغل في اعماق الارض العربية •

ولم يتوقف النشاط التجاري العراقي عند البلدان والمراكز المجاورة بل اندفع بعضه الى ابعد النقاط الممكنة ، كما تتأكد لنا المصالح التجارية من تسجيلات الملوك لاعمالهم العسكرية فهي لم تكن لغرض الحرب ، وانما لاستكشاف اسواق او مواطن المصادر الخام والاولية ، فيدعي سرجون الثاني الاشوري (٧٢١ - ٧٠٥ ق م) انه فتح بلاد مصر المغلقة ليمزج شعبها مع شعب اشور سوية لتقوم وتزدهر التجارة . وبسبب النشاط التجاري العراقي الواسع في اقسام بلاد الشام المختلفة الذي جلب معه اعدادا متزايدة من التجار ، فقد ترك ذلك صدها في التوراة « اكثرت تجارك اكثر من نجوم السماء » عند حديثها عن الاشوريين (ناحوم ٣ - ١٦) وهكذا كان العراقيون رواد التجارة الخارجية ووضعو اسسها وطرق التعامل بها والكشف عن موادها وتعيين مسارات انتقالها ، هذا اضافة الى ما لعبته التجارة الخارجية العراقية من دور بارز في تلقيح افكار وتجارب وخبرات الشعوب المجاورة بخلاصة التجربة والفكر العراقيين ، ولنا في انتقال الخط المسماري وكثير من المعطيات الفكرية في العقائد والطقوس والاداب الى شعوب الشرق الادنى القديم ، مثال واضح على ذلك .

التجارة الداخلية

ان حجم المعاملات المالية المكتشفة بين النصوص المسمارية العراقية القديمة ، يكشف بوضوح عن سعة النشاط الاقتصادي عامة ، وعمليات المتاجرة بشكل خاص .

ومما ساعد على حفظ صورة النشاط التجاري العراقي القديم ، ان عائدة جميع الاموال والممتلكات كانت تقترن بوثائق قانونية مدونة نعرفها في صيغة عقود البيع والشراء والقرض والايجار والايداع والمشاركة وغير ذلك من اوجه النشاطات المالية ومع الاقرار ان عددا ليس بالقليل من عقود

التملك او البيع او الاقتراض كانت لمصلحة شخصية مباشرة وليست للاغراض التجارية وبالمقابل فأن نشاطات بعض التجار الواسعة عكستها لنا سجلات هؤلاء التي توثق بصورة جلية مجالات النشاط التجاري ، فبالاضافة الى عمليات البيع والشراء والايجار وعقود الشركات ، فأن بعض السجلات توثق جانباً في التجارة الداخلية يتمثل في عقود القروض المالية وهي التي تدفع من قبل بعض الممولين كرأس مال في الاعمال التجارية .

ومما يساعد على توضيح مديات النشاط التجاري الداخلي مجموعات الرسائل المتبادلة بين التجار انفسهم ، او بينهم وبين وكلائهم وممثلهم ، فهي تتحدث عن نوع الصفقات وحجمها ومناطق انتاج بعض السلع التجارية وكيفية نقلها وما الى ذلك من شؤون ، ومن دلائل ازدهار التجارة الداخلية ، ارتباطها الوثيق بمعاملات التجارة الخارجية ، فان حجم التجارة الخارجية الواسع الذي عرضنا لجوانبه قبل قليل يكشف اولاً عن اسواق نشطة في الداخل لاستيعاب المواد المستوردة ، مثلما تعكس ثانياً عن حجم المعاملات التجارية الداخلية التي تهيء سلع التصدير اللازمة لاطفاء قيمة الواردات التجارية .

ولعل في تطور وسائط النقل النهرية واستخدامها الواسع في العراق القديم ما يؤكد ازدهار التجارة الداخلية فلكونها واسطة النقل الرئيسية والرخيصة بين المدن العراقية ، فأن المواد المنقولة على ظهرها من حيث نوعيتها وكمياتها واماكن صناعتها او انتاجها ، تكشف بوضوح عن جوانب المبادلات في السلع والمنتجات بين مدن العراق القديم ، وسنقف على بعض التفاصيل عند حديثنا عن وسائط النقل التجارية .

ومما شجع على تطور التجارة الداخلية تنوع الثروات الطبيعية بين مناطق العراق المختلفة ، والذي تبعها احياناً تنوع في الصناعات المحلية ، فقد

كانت لجش مثلاً من المراكز الرئيسية لتجارة الاسماك الطرية والجافة المملحة كما كانت مدينة اوما تشتهر بانتاج الدهون العسرية ، وتصدر اعداداً كبيرة من الاغنام والماعز واشتهرت سيار بانتاج النسيج النجيد وتصديره الى المدن الاخرى ، حيث كانت اشور تشتري منه كميات كبيرة لاجل تصديره الى الاناضول ، ان هذه الصورة في تخصص وشهرة بعض المدن او المناطق من العراق بانتاج او صناعة سلعة معينة ما تزال حية في حالة انتاج التمور وصناعة الدبس حيث تشتهر بهما المناطق والمدن الوسطى والجنوبية من العراق ، بينما نجد اسواقاً رائجة في الاقسام الشمالية كما بقي القسم الشمالي من العراق ومدنه الرئيسية يصدر خشب الحور (القوغ) الى المدن الوسطى والجنوبية .

ومع ذلك فان صورة الانتاج النباتي والحيواني ، او ما يصنع منهما لم تستمر في ملازمتها للمدن فقد ضعف انتاج بعضها وتعرض الى الانقطاع الكلي في فترات اخرى ، بينما برزت مدن جديدة لم تكن معروفة من قبل ويجمع سبب ذلك لعاملين الاول ، تبديل النهرين وبخاصة نهر الفرات منجراهما في القسم الوسطى والجنوبي من العراق ، فان المناطق التي كان يسقيها الفرات او فرع منه من مدينتي نمر والوركاء ، هي الان وكذلك منذ مدة طويلة مناطق قفراء لا أثر للزراع او الماء فيها ، اما السبب الثاني فيتمثل في ازدياد الملوحة في الارض وانتقال الزراعة تدريجياً من الحنطة الى الشعير ، ثم انقطاع زراعة الشعير بسبب انخفاض انتاجية الارض ، ومن الطبيعي ان تترك الزراعة في حالة تقدمها او تخلفها اثر كبيراً على امكانيات رعي الماشية ووفرة انتاجها .

وبذلك ففترات او انتظمت اخبار المدن الجنوبية التي كانت لها الشهرة السياسية والاقتصادية خلال الالف الثالث ق . م ، ومنها لجش واوما

والوركاء ونقر واور ، مقابل ازدهار مدن الوسط والشمال مثل بابل
واشنونا ومارى واشور مع مطلع الالف الثاني ق م .

ومما يرتبط بشؤون التجارة الداخلية ؛ موضوع الاسواق وطرق
عرض البضاعة ومحلات العرض ، ومع ميل الباحثين لنفي وجود الاسواق ،
بالصورة التي عرفتها مدن القرون الوسطى ، في مدن الشرق القديم عامة ،
لكنهم يرون في انعقاد السوق في اماكن معينة من المدينة يمثل صورة السوق
الاولى اوانها بداية فكرة السوق فقد كانت الفسحات عند بوابات المدينة او
بعض الساحات العامة او عند مداخل المعابد الرئيسية مراكز جيدة يجتمع
عندها الناس يبيعون ويشترون ويتبادلون شؤون معاملاتهم المالية
ويعقدون الصفقات كما يحدث ان تخصص احدى بوابات المدينة باعمال
البيع والشراء والمتاجرة بسلعة متميزة بخاصة اذا كانت هذه البوابة مدخل
القادمين من منطقة توفر هذه السلعة او مادتها الرئيسية التي تصنع منها ،
لذلك نلاحظ في هذا السياق العلاقة بين لفظتي « باب » و « حي » او
« محلة » في لغة العراقيين القدماء ، فهناك من الاشارات ما تؤكد وجود
اسواق متخصصة في صورة احياء منها سوق للخزافين وسوق للنسيج
والنساجين او سوق للماشية بخاصة وان كثيرا من الحرف والصناعات
كانت تنجز في البيوت وعليه فيكون الحي السكني سوقا لسلعة او بضاعة
معينة بموجب مهارات او اهتمامات سكان هذا الحي او ذاك .

وكانت هذه الاحياء تخضع لاشراف موظفين حكوميين لجمع الضرائب
ولمراقبة الالتزام بالاسعار .

اما مواد التجارة الداخلية فتتووعها يزيد كثيرا من تنوع سلع التجارة
الخارجية ، وتجتمع في قائمة طويلة تضم سلع التجارة الخارجية وفي مقدمتها
المعادن او الاخشاب تليها المواد والمنتجات والصناعات المحلية وهي الزيوت

والشحوم وبعض المواد العطرية وأنواع من الأخشاب المحلية والملابس والمنسوجات والأصباغ والقصب والبوارى والآجر والحليب ومشققاته والحبوب والمنتجات الزراعية والحمير والماشية والخنازير والأسماك والسفن والقوارب بأشكال وحجوم مختلفة والعبيد والاماء والبيوت والعقارات والأراضي الزراعية والبور • كما شاع بيع وشراء الخيول والجمال في الأسواق الداخلية منذ أواخر الألف الثاني ق • م وبذلك تكشف لنا هذه السلع والمنتجات التجارية عن الأعداد الكبيرة من فئات المجتمع العراقي القديم التي انهمكت بشؤونها سواء في صناعتها وتحضيرها أو نقلها أو شحنها في وسائل النقل ومنها السفن أو في تسيير السفن وقوافل التجارة أو بيعها وتصريفها لذلك يصدق بعض الباحثين الذين يرون في أهمية التجارة مستوى لا يقل خطورة عن أهمية الزراعة في البناء الاقتصادي للعراق القديم •

وسائل النقل وطرق المواصلات

ان عاملا مهما في تشجيع المبادلات التجارية وتوسيعها وتطويرها يعتمد على توفر وسائل النقل اللازمة والجيدة وطرق المواصلات الطبيعية ، ومما نستذكره بخصوص أهمية طرق المواصلات ما أحدثته اهتمام الرومان بطرق المواصلات من ازدهار كبير في شؤون التجارة ومعاملاتها •

فإن انتقال المواد والسلع والمنتجات في الأعمال التجارية يعتمد في الأساس على توفر شرطين رئيسيين أولهما وسائل النقل اللازمة ، ونعني بها تكافؤ نوعية الوساطة مع المواد المنقولة ، ولانعني بذلك انعدام النقل التجاري في حالة عوم توفر الوساطة الكفوءة ولكن في حالة توفرها فانها تدفع الى تشجيع وتطوير المبادلات التجارية وتزيد من حجمها كثيرا ، فمثلا كانت وسائل النقل المائية ، وما تزال الوساطة المثالية لنقل السلع والمواد

الكبيرة الحجم والوزن والرخصة الثمن ، مثل بعض الحجارة والمعادن والاشخاب والمنتجات الزراعية ، فهذه الوساطة ارحص وسائط النقل على الاطلاق واكثرها استيعابا ويمكننا تصور وضع مصر قبل شق السويس وبعدها ، واثر هذه الطريق على اقتصاد مصر وازدهار تجارتها ، وقد يتعذر نقل انواع من السلع مثل الكتل الحجرية التي استخدمت في صناعة التماثيل والمسلات دون الاعتماد على وسائط النقل المائية ، فقد اصبح ميسورا بفضل وسائط النقل النهرية نقل الكتل الحجرية العملاقة التي يصل وزن بعضها لاربعين طنا الى العواصم الاشورية في نمرود وخرسباد لعمل تماثيل الثيران المحنحة وعليه ففي حالة امكانية استخدامها فانها توفر فرصا افضل لتطوير التجارة وازدهارها .

ويرتبط بالحديث عن السفن والقوارب الحديث عن الممرات المائية الصالحة للملاحة من انهار او قنوات او سواحل بحرية قليلة العمق وكثيرة المرافئ والتعاريج . وفي هذا الخصوص فقد قدم النهران دجلة والفرات وفروعهما وشبكة قنوات الري الواسعة ، التي خدمت اغراض الملاحة والزراعة ، خدمة كبيرة لاغراض النقل التجاري وتوسيع افاقه وتطوير امكانياته .

ومما زاد من اهمية النهرين ، وبخاصة نهر الفرات انهما يمران بغالبية المدن الكبيرة والصغيرة ومعظم القرى والقصبات في العراق الوسطي والجنوبي حيث يندر ان تقوم مدينة بعيدة عن مجرى النهر او احد فروعها او قناة رئيسية تسقي منه ، فيجعلها ذلك بالضرورة على اتصال وثيق عن طريق شبكة الانهار وفروعها ببقية المدن ومراكز الاستيطان .

وبذلك هيأت الطبيعة للعراقيين طرقا جيدة ودون اية تكاليف في انشائها او صيانتها كما هو الحال في الطرق البرية ، كانت عاملا مشجعا على ازدهار التجارة وتطورها في العراق القديم .

ومما زاد من اعتماد العراقيين على النقل النهري ، اضافة لما ذكر في اعلاه ، ان القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، بسبب طبيعتهما السهلية وانتشار شبكة قنوات الري ، وسعة الاراضي الزراعية ، مع احتمال غمر اجزاء منها في موسم الفيضان ، يجعل كل ذلك من امر تشييد الطرق البرية وصيانتها امرا صعبا للغاية ان لم يكن مستحيلا ضمن امكانيات العراقيين القدماء .

ومقابل ذلك تستطيع ابسط وسائط النقل النهريّة من الانتقال بيسر وسهولة ودون اية خطورة محتملة من اعالي النهر وحتى مصبه في الخليج العربي ، بل اكثر من ذلك ، فبسبب شواطئ الخليج المشجعة للانتقال امام وسائط النقل النهريّة فقد امتدت رحلات السفن العراقية الى مناطق بعيدة في الخليج العربي .

ولهذا السبب فقد طور العراقيون وسائط نقلهم النهريّة منذ فترات مبكرة من تاريخهم الحضاري ، فان القارب الشراعي الذي يعد صورة متطورة لوسائط النقل النهريّة ، عرفه العراقيون منذ مطلع الالف الرابع ق . م وتكشف لنا المفردات المعجمية الواسعة التي حفظتها النصوص المسمارية عن انواع وسائط النقل النهريّة وحجومها وسبل تسييرها ومواد صناعتها واساليب بنائها وما الى ذلك من امور تتعلق بهذه الواسطة الهامة في حياة العراقيين القدماء .

ومن بين الامور التي تفيدنا بها المفردات اللغوية والتسميات المختلفة لوسائط النقل النهريّة ، ان الانواع المختلفة منها ، انما تكشف عن النشاطات المتعددة التي اعتمدت في انتقالها على النقل النهري ووسائطه المختلفة فقد ميز العراقيون بين سفن نقل الحمولة والبضائع وبين سفن نقل المسافرين وتكشف لنا انواع سفن النقل عن اوجه النشاط التجاري للعراقيين ، حيث نعرف من اسمائها انها كانت تخصص لنقل

الحبوب او الطحين او الخبز او الشعير او الماش او الخضروات او
البصل او التمر او الاعشاب او القير او الآجر او اللبن او الحجر او
الماشية او اللحوم او الاسماك او الحليب او السمسم او الزيت او
الصوف او المنسوجات او التبن او القصب او الاخشاب ، الخ من
اصناف المواد والسلع والمنتجات العراقية والراجح بين الباحثين ان بعض
هذه السفن كانت تشهد تصميما خاصا عند بنائها او تحويلها في حوضها
لتناسب مع نوع الحمولة التي ستعمل على نقلها فأُن سفينَة نقل جرار الخمر
والزيت تختلف في تصميم حوضها عن سفينَة نقل القصب او الاخشاب كما
ان السفينة المخصصة لنقل القير لاتصلح لنقل المنسوجات ، ومما يلاحظ على
قائمة المواد المنقولة على ظهر السفن النهرية انها جميعا من المنتجات المحلية ،
مما تفيدنا في التعرف على اوجه المبادلات التجارية الداخلية و سلعها الرئيسية ،
ونعود ثانية الى معلومات النصوص والى بعض المشاهد المنحوتة او الصور
لتتعرف على بعض الامور التفصيلية المتعلقة بوسائط النقل النهرية في العراق
القديم ، حيث تعرفنا هذه المصادر بثلاثة انواع رئيسية من هذه الوسائط
فبالاضافة الى السفن والقوارب التي المحنا الى اختلاف اشكالها وحجومها
تبعاً لوظيفتها فأُن العراقيين عرفوا الاكلاك ايضا ، واسمها القديم (كلث)
وصنعوا نوعين منها كان الاول منهما على غرار الاكلاك التي كانت مستخدمة
في النقل النهري في العراق الى وقت قريب وبخاصة بين الموصل وبين بغداد ،
حيث تشد قرب منفوخة الى بعضها لترصف فوقها الواح من الخشب ، غالبا
ما تكون من اخشاب الحور (القوغ) الذي يكثر في المناطق الجبلية
الشمالية ، ثم توضع فوق المصاطب الاصطناعية الطافية فوق ماء النهر
البضاعة او الاشخاص الذين يراد نقلهم .

اما النوع الثاني فهو من نوع العوامات وتصنع من قطع الاخشاب
المشدودة الى بعضها او من لقات من القصب والبردي تشد الى بعضها ايضا ،

وبذلك تشكل عوامة يمكن الانتقال عليها والراجع ان العوامات كانت تستخدم للنقل البسيط والمسافات المحدودة .

اما الشكل الاخير من اشكال وسائط النقل النهرية فهي القفة وهي واسطة نقل اشخاص وحمولات لمسافات محدودة كانت كثيرة الاستخدام في المناطق القريبة من بغداد الى وقت قريب واقدم اشارة مدونة الى القفة وردتنا في قصة ولادة سرجون الاكدي مؤسس الدولة الاكدية (٢٣٥٠ ق م) حيث يذكر النص بأن الكاهنة - ايتوم وهي ذات مرتبة عالية كانت قد حملت سرا بسرجون ، لان مثلها من الكاهنات كان محرما عليها الزواج والانجاب لبعض الوقت . ولما ولدته وضعت في سبط وهو سلة من القصب ذكر اسمها في النص بصيغة « قفة » ورمتها في النهر ، والقصة لها شبه كبير بقصة ميلاد النبي موسى .

اما القفة فتصنع على غرار سلة القصب ، او هي سلة كبيرة تظلي بالقيرو من الخارج والداخل لمنع تسرب الماء الى داخلها ، وكانت تستخدم في النقل النهري للمسافات القصيرة الى وقت قريب جدا .

ونستطيع اخيرا في ضوء حمولات السفن والاعداد الكبيرة المستخدمة في النقل النهري في العراق القديم ، ان نقدر حجم المبادلات التجارية واهميتها في البنية الاقتصادية العراقية القديمة .

فقد كانت حجوم السفن تتراوح ما بين ٥ - ٣٠٠ كور ، وتحفظ لنا المآثر المدونة المقاسات التالية :- ٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ١٢٠ ، ١٥٠ كور ، حيث يكشف لنا هذا التفاوت في حجوم السفن عن الاغراض المتعددة التي كانت تؤديها الملاحة النهرية ، واذا ما عرفنا بان الكور وحدة قياس للحجوم تعادل حوالي (٦٣ و ٢٥٢) لترا ، فتكون معدلات حمولة السفن القديمة بموجب مقاساتنا المعاصرة تتراوح ما بين نصف طن (٥٠٠)

كغم ، الى ما يزيد عن ٢٥ طناً (٢٥٠ و ٢٥٠٠ كغم) وهي معدلات حمولة تقرب كثيرا بين مستويات حمولة السفن التقليدية التي كانت تستخدم في دجلة والفرات الى زمن قريب ، كما لا يزال بعضها نشطا في مناطق الاهوار وشط العرب في جنوبي العراق .

كما تجدر الاشارة في ختام حديثنا عن وسائط النقل النهرية ان استخدام السفن لم يقتصر على نقل السلع والمواد والمسافرين وانما وظفت للاغراض العسكرية ، وبخاصة عند احتدام المعارك في جنوبي العراق ومنطقة الخليج العربي ، كما نعرف ايضا عن استخدام القوارب في الصيد ايضا وبخاصة في صيد الخزائير الوحشية التي تكثر في مناطق الاهوار في جنوبي العراق ، ومما يلاحظ على قوارب صيد الخزائير ان لها مقدمة عالية تحجب الصياد والملاح من خطر هجوم الخزير عليهما .

واخيرا فان كلمة ملاح التي اصبحت لفظة شائعة فيما له علاقة بالنقل النهرية او البحري . وتعني المشرف على تسيير القارب او السفينة ، فان اصلها عراقي سومري جاء من تركيب لفظتين هما « ما » وتعني قارب باللغة السومرية « ولاخ » وتعني يدفع ، وهي تسمية العمل الاصلي الذي كان يقوم به الملاح في مناطق الاهوار ، ولا يزال يقوم به لحد وقتنا الحاضر حيث يدفع القارب بواسطة ذراع خشبية طويلة تعرف بالمردي يفرسها في ارضية الهور ، وهو في مقدمة القارب ، ثم يدفع القارب بالنسبة الى موضع ارتكاز المردي مستفيدا من طوله ، ومن تحركه هو من مقدمة القارب الى نهايته ، ثم يسحب المردي من موضعه ويتقدم ثانيا الى مقدمة القارب ليعيد العملية ، وتكرارها تسيير الواسطة في مياه الاهوار الراكدة فالملاح اذا هو دافع القارب او مسيره ومنه جاءت لفظة الملاح الشهيرة في وقتنا الحاضر .

قدمت وسائط النقل النهرية خدمات جليلة للنقل التجاري في داخل

العراق ، وبسبب انعطافة الفرات صوب الغرب في قسمه العلوي من جانب وخصائص الساحل الغربي للخليج العربي الذي يتيح امكانية الملاحة امام وسائل النقل النهرية ، من جانب اخر ، فقد جعل ذلك وسائل النقل النهرية تساهم الى حد ما في تعزيز العلاقات التجارية الخارجية ، وبخاصة مع سوريا والخليج العربي ، ولكن مجالات التجارة الخارجية الاخرى انما اعتمدت في تنقلاتها واتصالاتها على امكانيات النقل البري .

يبرز الحمار في مقدمة حيوانات النقل ، ومن المؤكد ان العراقيين استخدموه على نطاق واسع لاغراض الحمل والنقل قبل استخدام الحصان والجمل بفترة طويلة ، ومن المؤكد ايضا ان تجارة العراق الخارجية مع بلاد الاناضول في مطلع الالف الثاني ، استفادت من الحمار في نقل المعادن والمنسوجات بين اشور وبين كائش (كول تبة) وغيرها من المراكز في بلاد الاناضول .

وتتوفر معلومات عن قوافل تضم الواحدة ما يقارب مائتي حمار وكان المشرفون على القافلة وحراسها والعاملون على خدمتها يستلمون اجورا على اعمالهم من اصحاب البضاعة ، ونقلت احدى القوافل مازنته احدى عشر طنا من القصدير من اشور الى الاناضول .

وكان الحمار واسطة النقل الرئيسية عند الاموريين في بلاد الشام ايضا ، وبخاصة سكان مملكة ماري ، وخدم كثيرا في التنقلات بين مدن الفرات وبين المدن السورية الداخلية منها والساحلية كما كانت قوافل الحمير تنقل التجارة من بلاد بابل الى مدن بلاد الشام او من خلالها الى الاناضول وكانت بعض السلع والمواد الغذائية تنقل على ظهور الحمير من اوغاريت (رأس شمرا) على ساحل البحر المتوسط وعبر وادي العاصي الى نهر الفرات حيث تنقل البضاعة بعدئذ بطريق النهر الى المدن العراقية او ان تذهب بالطرق البرية مباشرة الى مدن وسط وجنوبي العراق .

اما الحصان فقد تأخر استخدامه في العراق الى حدود منتصف الالف الثاني ق . م وشاع استخدامه بعدئذ من قبل الاشوريين ولكن اقتصر استخدامه للاغراض العسكرية لصنف الفرسان وصنف المركبات ، وبخاصة الملكية منها بينما ظل استخدامه للنقل التجاري محدودا بل نادرا في تاريخ الحضارة العراقية القديمة ، ولا تفوتنا الاشارة الى استخدام الخيل على نطاق واسع لاغراض الصيد او رياضة الصيد التي كانت متعة الملوك والافراد .

اما الابل ، فقد عرفها العراقيون منذ فترات مبكرة تقدر بحدود الالف الرابع ق . م ولكن يشك كثيرا في ان الدمى التي تصورها تنقل الينا صورة ابل مدجنة ، فالراجح بين الباحثين ان تدجين الابل تأخر الى اواخر الالف الثاني ق . م .

وعلى العموم فان استخدام الابل في النقل التجاري لم يطغ على وسائل النقل التجارية التقليدية المعتمدة في العراق القديم ، ولكنه فتح امام التجارة الخارجية للعراقيين افقا جديدة لم تكن معروفة من قبل الا في حدود ضيقة ، فقد خدم الجمل النقل والمبادلات التجارية بين العراق وبين مناطق البوادي واعماق الارض في اقسام الجزيرة العربية لذلك ليس غريبا ان نبدأ بسماع اخبار العرب وبلادهم منذ مطلع العهد الاشوري بحدود القرن التاسع ق . م فلم يكن ذلك سببه عدم وجود هؤلاء او ارضهم ولكن وسائل الاتصال بينهم وبين الاشوريين كانت مقطوعة ولنفس الاسباب ايضا بدأ الاشوريون يكثرون من حملاتهم على مناطق الجزيرة العربية ، وبخاصة وانها اثمرت في الحصول على مواد واموال ثمينة جدا كالذهب والاحجار الكريمة وبسبب

شيوخ استخدام الابل في النقل التجاري عبر فلولات الصحراء العربية اصبح في ميسور التجارة العربية ان تصل الى مناطق الشام والعراق واطراف مصر ، وتبلغ من الشهرة والاهمية ما بلغته منذ القرن السادس ق . م بحيث دفعت زعيم اعظم دولة انذاك ، وهو نبونائيد زعيم بابل للاستقرار في تيماء لمدة عشر سنوات وهي عقدة رئيسية على طرق القوافل العربية .

ومنذ الالف الاول ق . م يبدأ ذكر الابل يتردد في الغنائم والجزية وفي اعمال البيع والشراء ، وحتى في شؤون النقل التجاري والعسكري .

اما العربات ذات العجلات ، فعلى الرغم من كونها من المبتكرات العراقية القديمة ، حيث يرجع تاريخ نموذج اول عربة بعجلات اكتشفت بين المخلفات الاثرية العراقية الى حدود مطلع الالف الرابع ق . م ، ومع ذلك فأن استخدام العربات للنقل ظل محدودا جدا ، وتشير بعض الشواهد الى ان نوعا من العربات التي تجرها الثيران كانت تستخدم لدراسة الحبوب عند الحصاد او للنقل المحدود جدا ، فمثلا هناك ما يفيد بان العربات كانت تنقل المواد من ارضة الموانئ النهرية الى مخازن المواد والغلة في احياء المدينة وهي لا تبعد عادة كثيرا عن النهر في مدن العراق القديم .

ان السبب الرئيسي وراء ندرة استخدام العربات ، هو حاجتها الى طرق مهيأة لسيورها ، واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار طبيعة المدن العراقية القديمة التي تمتد على شواطئ الانهار والقنوات وتحيطها وتتخللها شبكات قنوات الري والحقول والبساتين هذا اضافة الى الارض الغرينية ، عرفنا بالتالي مقدار الصعوبة التي ترافق تهيئة طرق معبدة ومعها عدد لا يستهان به من الجسور والقناطر لمسيرة العربات ، كما تستلزم هذه الطرق عادة امكانيات كبيرة لمواصلة صيانتها وحمايتها ، ومقابل كل هذه الصعوبات والتكاليف الباهضة التي يتطلبها امر فتح الطرق البرية ، تبرز الانهار والقنوات كطرق

طبيعية بديلة تصل لجميع المدن والقرى والقصباء ، لذلك ندر استخدام العربات للنقل ، وبقي استخدامهما مرتبطا ببعض الاحتفالات والطقوس الدينية ، او لاستخدامات القادة والملوك في المعارك كما فعل الاشوريون .

لا نعرف كثيرا عن الاجراءات التي كانت ترافق نقل البضائع والسلع التجارية ولكن من الامور المؤكدة انها كانت تنقل في صورة قافلة كلما ازداد عدد حيوانات نقلها ، ازداد رجالها وجمالها ، مما يمنحها فرصا افضل للوصول بسلام وامان الى اهدافها . وكانت القوافل تسير في طرق شبه معلمة تمر بعدد من المحطات على الطريق ، كما انها تقصد بعض المدن الرئيسية في طريقها الى مناطق ابعد ، وبالتالي تكون هذه الطرق خاضعة لحماية الدولة او ان الطريق يمر بمناطق يرتبط اصحابها بتحالفات مع اصحاب القوافل . وتشير التحالفات السياسية التي نعرف بعض تفاصيلها بين دول العهد البابلي القديم ، الى اهميتها في خدمة حركة التجارة والنقل التجاري بين هذه الممالك . ومع ذلك فان الاشارات الى تعرض القوافل لاعمال سرقة ومخاطر في الطريق تتردد في اكثر من موضع في رسائل التجار ووكلائهم . وحتى بين زعماء المدن والدول ، وكانت القوافل التجارية تدفع نوعا من الرسوم الى الزعماء المحليين للمناطق التي تضطر لعبورها او تنقل اليها تجارتها ، وعندها تنال الحرية والحماية وتستفيد من الخدمات المتوفرة على الطرق وبخاصة الآبار .

ويتردد على لسان بعض الملوك الاجراءات التي اتخذوها والاعمال التي انجزوها ليجعلوا طرق التجارة سالكة وامنة ومريحة ، فكان بعضهم يقوم بجولات تفتيشية ويث نقاط الحماية من قلاع وتحصينات ، ويوفر للقوافل واصحابها اماكن للراحة ربما على غرار خانات المسافرين في القرون الوسطى والاهم من ذلك كله انهم كانوا يؤكدون على قطع دابر الفساد واللصوصية في هذه الاماكن كما ان هذه الاماكن وهي دور استراحة

المسافرين والتجار كانت تخضع باستمرار لرقابة الحكومة ، والراجح انها كانت تدار من قبل النساء فتذكر احدى مواد قانون حمورابي بانه اذا ثبت ان صاحبة الحانة اوت هاربا من وجه العدالة او خارجا عن القانون فأنها تقتل لان عملها لا يعني التستر على مجرم فحسب بل ربما يجعل ارواح وممتلكات الآخرين الذين ينزلون عندها في خطر .

وتكشف لنا مقدمة قانون اورنمو (مؤسس سلالة اور الثالثة - حوالي ٢١٠٠ ق م) عن حرص الدولة على حماية السفن التجارية وجعل مرساها في موانئ المدن امنا ومحيا .

وعلى السوم فأن الحكومات العراقية القديمة التي اولت شأن التجارة عظيم اهتماماتها وبلغ بها الامر الى حد تثبيت الموازين والنوعية والاجور ، ولم تغفل عن رعاية طرق التجارة وفرض الامن على عقدها وتسهيل انتقالها لانه بعكس ذلك تتعرض التجارة الى الضعف والضمور . وهذا امر يصعب تصويره في بنية الاقتصاد العراقي القديم ، فقد كانت التجارة ، وكما عرضنا لبعض جوانبها ، جانبا حيويا وهاما في اقتصاد المجتمع وحياة العراقيين القدماء .

المعاملات التجارية وقوانينها

يبرز في المقام الاول عند الحديث عن المعاملات التجارية وقوانينها السؤال عن طبيعة الاعمال التجارية ، وعلى الرغم من أن الاعمال التجارية تمثل قطاعا اقتصاديا في البنية الاقتصادية العامة للمجتمع ، ولكن بسبب خصوصية ومتطلبات العمل التجاري الخارجي فقد استمرت هيمنة الدولة على النشاطات التجارية لفترة اطول . ففي الوقت الذي نجد فيه حالات نشاط اقتصادي خاص منذ القرن الرابع والعشرين ق م من خلال اشارات

اصلاحات اوركاجينا ، نجد ان هيمنة القصر والمعبد على شؤون التجارة الخارجية تستمر الى زمن سلالة اور الثالثة (٢١٢٠ - ٢٠٠٤ ق م)

ولكن ذلك لم يمنع وجود بعض النشاطات التجارية الخاصة وعلى نطاق محدود ، وفي حدود اعمال التجارة الداخلية ، لان عددا ليس بالقليل من العقود يسجل معاملات البيع والشراء والقرض والايجار وهي دلالة على ازدهار التعامل الاقتصادي بين الافراد اضافة الى استمرار المعبد او القصر او ممثل الدولة «دمقار» (في البابلية) في تنفيذ مثل هذه الاعمال الاقتصادية .

ولكن هذا الوضع الذي كانت له الهيمنة على تركيب الاقتصاد العراقي عامة ، والتجاري منه بشكل خاص اخذ بالتغير مع مطلع الالف الثاني ق م ، وغدت الانشطة الاقتصادية المختلفة تتحرك لصالح القطاع الخاص اكثر من تحركها لصالح القطاع الحكومي او العام .

لذلك كان لزاما على مشرع قانون اشنونا وعلى حمورابي ان يهتما في قانونيهما بشؤون المال والمعاملات المالية والتجارة والعقود بين الاشخاص وما الى ذلك من امور تنظم العلاقة المالية والقانونية والحقوق والواجبات لاطراف الاعمال الاقتصادية من بيع وشراء وقرض وايجار وشركة ومساهمة وغير ذلك من اعمال . لذلك تجتمع المواد التي تعنى بهذه الانشطة في قانون حمورابي في حوالي مائة وعشرين مادة قانونية من مجموع المواد الاصلية البالغة حوالي ثلاثمائة مادة قانونية . ان بلوغ عدد هذه المواد الى حد النصف يكشف عن اهمية هذه القطاعات في البناء الاقتصادي كما يكشف ايضا عن الاعداد المتزايدة من الناس الذين شاركوا بالمعاملات الاقتصادية المختلفة ومما يدعم هذه الفرضية نسبة العقود والمعاملات المالية المكتشفة بين نصوص هذه الفترات ، فهي تصل الى حوالي ٩٠ ٪ من عدد النصوص المكتشفة في اي موقع ، وهذه المعاملات المالية ، مع فرز العدد القليل منها الذي يخص

مصالح ذاتية مغلقة ، كسواء بيت لاغراض السكنى ، فأن معظمها لاغراض
تجارة داخلية او خارجية او استثمار رؤوس اموال او قروض لاجل الربح
وغير ذلك من النشاطات الاقتصادية •

كان محور النشاطات التجارية في العراق القديم شخص يعرف باسم
« دمقار » ، ومعناه العام تاجر ، ولكن معلومات النصوص الاقتصادية التي
تتعلق باعماله وكذلك مواد قانون حمورابي التي تتعرض له تكشف عن
شخصية متميزة في مجمل النشاط الاقتصادي العراقي القديم ، تزيد اهميتها
كثيرا عن صورة البائع المتجول التي في اذهاننا للتاجر القديم وهو يتجول
بين المدن والقرى ويعرض سلعا وموادا يجلبها من اماكن اخرى ، وبسبب
اهمية هذه الشخصية في شؤون التجارة والنشاطات الاقتصادية والمالية
الواسعة ، افرد له الباحث الهولندي ليمانز دراسة خاصة تناولت اعماله
ومكائنه الاجتماعية في فترة العهد البابلي القديم • ونعرف في ضوء هذه
الدراسة ان « دمقار » كان تاجرا ومرايا وصرافا ووسيطا ومشرفا ومشاركا
برأس المال ووكيلا عن تجارة الحكومة •

ونظرا لكون التجارة عملا اختصاصيا يحتاج الى مهارة ومعرفة بشؤونها
واعمالها ، وبخاصة التجارة الخارجية لذلك اوكلت الحكومات القديمة
شؤون نشاطاتها التجارية الى مجموعة من هؤلاء التجار ، يقومون بادارة
النشاطات التجارية المختلفة لصالح القصر ، وبالمقابل فقد تمتعوا بامتيازات
وحقوق اجتماعية واقتصادية تفوق الناس الاخرين وذلك ما منحهم الشهرة
الكبيرة في تاريخ النشاط التجاري في العراق القديم ، فان قانون حمورابي
يميزهم بصراحة عن غيرهم بالحقوق والواجبات ، وهي شروط تفضيلية
تسحب فائدها لصالح الدولة التي يعمل الدمقار لصالحها •

وقد تتوسع نشاطات « دمقار » التجارية فيقوم ببعض الاعمال لصالحه

الخاص اضافة الى اعمال الدولة ، وبذلك فانه كان يوكل امر تنفيذ جانب من اعماله الكثيرة بوكلاء له يساعدونه على تصريف شؤون اعماله الاقتصادية المختلفة .

ومع جميع اوجه النشاطات الاقتصادية والمالية لهذه الفئة من التجار فان ابرز مهماتهم تتمثل في نشاطهم التجاري الخارجي ، حتى ان بعض الكتابات توحي كأن التجارة الخارجية كانت حكرا عليهم ، أي لصالح الدولة التي يمثلها « دمقار » في النشاط التجاري ، والراجح جدا ان مستلزمات التجارة الخارجية من رؤوس اموال كبيرة ومواد و سلع ومنتجات وشروط حماية ورعاية لم تكن لتتهدأ الا في امكانات الدولة ، لذلك نشط ممثلوها من التجار في مثل هذه الاعمال او على الاقل ان اعمالهم تغطي على بعض الاعمال الخاصة الصغيرة المتفرقة ، ولكن « دمقار » قد ينفذ جانبا من التجارة الخارجية لصالحه الخاص ، وتتوضح رحلات هؤلاء التجار الى الخارج من مضامين المواد (٣٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٢) من قانون حمورابي ، فهي تشير الى ما يحتمل ان يصادفه التاجر في رحلته والموقف القانوني من ذلك وبخاصة فيما له علاقة بشراء العبيد من الخارج .

وصحيح جدا ان جانبا من اهتمام الدولة بالتجارة يرجع لرغبتها في الحصول على ما تدره التجارة من ارباح ولكن جانبا اخر مؤكدا يتمثل في رغبة الدولة بتوفير مستلزمات البناء الحضاري من مواد و سلع ومنتجات عن طريق التجارة الخارجية ، بخاصة وان الحكومات العراقية القديمة تنفي عن نفسها صفة المحتكر المتلاعب بالسوق وبالاسعار وذلك من خلال الاشراف الدقيق على الاسعار والتنوعية واخضاع المتلاعبين بهما الى طائلة القانون ، وبذلك فان ملوك وزعماء العراق القديم يعكسون من خلال مواقفهم هذه وعيا عاليا بمصالح الدولة والمجتمع .

ف نجد المادتين الاولى والثانية من قانون مملكة اشنونا تتوجهان لتحديد

الاسعار فتنص المادة الاولى من القانون المذكور على تثبيت اسعار المواد التالية : الشعير والزيت النقي وزيت السمسم وشحم او دهن الخنزير وزيت النهر والصوف والملح والنحاس المصفى وكانت الاسعار تثبت عادة على اساس ما يعادلها من الفضة وزنا وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل .

واضح من قائمة المواد المذكورة ان بعضها كان من بين المواد المستوردة وهو النحاس والآخرى من مواد الانتاج المحلي ، وعليه فلا فرق في التسعيرة سواء كانت المواد مستوردة او محلية .

كما نلتفت من اشارة القائمة الى سعر النحاس المصفى وسعر النحاس الاعتيادي غير المصفى ، الى حرص المسؤولين في التأكيد على النوعية حيث نعرف تأكيدا لهذا الامر الهام في قانون حمورابي ، فلم يكتف القانون بمراقبة النوعية وانما اكد على وحدة الاوزان ، فاذا ثبت التلاعب بالموازين ، كأن يقرض التاجر بوزن خفيف ولكنه يطالب عند الاستلام بوزن ثقيل فتنص المادة (١٠٨) من قانون حمورابي على تغريم التاجر المتلاعب كامل مبلغ الصنفقة المالية .

فبالاضافة الى تعيين العراقيين لوحدات قياس للاوزان وللأطوال وللحجوم ولكن مع ذلك فقد بقيت بعض الاختلافات قائمة في حدود المقياس الواحد وسبب ذلك قدم النشاطات الاقتصادية ومعاملات البيع والشراء ، وكذلك قيام وحدات سياسية مختلفة بحيث ارسى كل منها تقاليدھا الخاصة بالمقاييس والمكايل ، ولهذا نلاحظ تأكيد القوانين والتي تمثل رغبة الحكومة المركزية في اشاعة وحدة المقاييس تبعا للوحدة السياسية التي جمعت ابناء الوحدات السياسية المختلفة في اطار دولة واحدة . فقد عرف العراقيون المن الكبير والمن الصغير (المنا او المن : وحدة وزن بابلية تساوي « ٦٠ » شقل وتعاادل حوالي نصف كيلو غرام تقريبا) وكذلك الشقل الكبير والشقل

الصغير وقد صنع العراقيون حجارات للاوزان نحتوها على شكل بطة واحيانا على شكل اسد ويبدو انها كانت متوفرة عند العاملين في حقلي البيع والشراء ، لذلك كان يصار الى التأكيد على اوزان رسمية تفهمها من اسمائها « وزن الدولة » او « مقاييس باب المدينة » حيث تذكر كيف ان باب المدينة او المحلة كان تعبيراً عن السوق في مدن العراق القديم ، وكيف انها كانت خاضعة لاشراف حكومي ، وكذلك « مقاييس مردوخ » والاكثر شيوعاً « مقاييس شمش » . ويقودنا الحديث عن ضبط الاوزان الى الميزان في العراق القديم ، فان حجارات الوزن التي كشف عنها باعداد ملحوظة في بقايا المدن والمواقع القديمة والتي يمكن مشاهدة نماذج منها في المتحف العراقي ، حيث نصادف حجارات كبيرة يزيد وزنها عن عشرة كيلو غرامات مقابل حجارات صغيرة لا يزيد وزن الواحدة منها عن بضعة غرامات ، كما يحمل بعضها وزنها الرسمي فهي دلالة قوية على وجود الميزان الذي نعرف ايضاً الفعل الدال عليه ، وزن ، يزن (شقالو) في اللغة الاكدية ومنها جاءت لفظة شيقل وهي وحدة قياس للاوزان ومع هذا كله فان اعمال التنقيب لم تكشف لنا عن نموذج او جزء من اقسام الميزان ولا نعرف صورته على احد المشاهد المعروفة لدينا من النتاجات الفنية من العراق القديم لحد الان .

اما اسس التعامل عند العراقيين وقد توفرت بعض التلميحات الى ذلك من قبل ، فنقول ان الاساس الاول فيها هو المبادلات العينية بين المواد المختلفة ، ومع تطور المعاملات المالية والتجارية ، وسعة اعمال البيع والشراء وجد القوم ضرورة الاتفاق على سلعة وسيطة سهلة النقل والحمل لتكون اساساً لتقييم السلع المختلفة بموجبهـا . وقد لعبت الحبوب وبخاصة الشعير وكذلك التمر والطحين كسلعة وسيطة ، ولكنها جميعاً لاتمنح المرونة التي احتلتها الفضة كسلعة وسيطة فيما بعد ، فهي بسبب غلاء ثمنها ، يكفي حمل كمية محدودة منها لشراء سلع ومواد كثيرة كما انها قابلة للتجزئة

ببساطة ، ويمكن جمع الاجزاء ثانية دون ان تفقد المادة من وزنها ونوعيتها او خصائصها ، وبذلك استقر العراقيون على اعتماد الفضة وزنا ، اساسا لمعاملاتهم المالية وعمليات تجارتهم وبيعهم وأرباح قروضهم وغير ذلك وفي امور التجارة الخارجية كانت المبادلات على الرغم من تقييم اثمانها بموجب الفضة ، ولكن دون وجود الفضة فعلا ، فمثلا يبعث تاجر من العراق بسلع ومواد مجموع اثمانها ما يعادل (٥) منات و (٢٠) شيقلا من الفضة وهو يطلب ان يحصل مقابلها على النحاس من الخليج العربي ، ولان « من » الفضة يساوي (١٠) منات من النحاس فسيكون وارد التاجر ما وزنه (٥٣) منات من النحاس وهكذا يتم حساب السلع والمواد على اساس قيمتها مقابل الفضة ، دون الحاجة الى الفضة في العمليات المالية مباشرة ولكن الفضة في قطع موزونة كانت تدخل احيانا في عمليات البيع والشراء او ان تكون على شكل قضبان يقطع منها وزنا ما يحتاجونه في احدى العمليات ، ومن الطبيعي ان يثار التحفظ بخصوص نوعية الفضة ومقدار نقاوتها ، مثلما هي الحال في بقية المعادن ، لذلك ولاجل السيطرة على نوعية وثقاوة معدن الفضة باعتباره اساس العمليات الاقتصادية والتجارية ، اصدر الاشوريون اقراصا دائرية من الفضة رسموا عليها صورة شمس او عشتار وكانت باوزان ثابتة وهم بعملهم هذا وضعوا اللبنة الاولى في طريق النقود وضرب المسكوكات ، وقد اخذ الليديون سكان اسيا الصغرى بحدود القرن الثامن ق . م هذه الفكرة عن الاشوريين ، واخذوا يصدرون قطعاً معدنية باوزان ثابتة وعليها صورة الملك او ما يرمز اليه مع شعارات لها علاقة بالدولة .

وبذلك كانت بداية المسكوكات في تاريخ المعاملات المالية ، ويرجع تاريخ اقدم ضرب للمسكوكات في ليديا الى القرن السابع ق . م ومنهم اخذ اليونان والفرس صناعة المسكوكات ، وانتقلت بعدئذ عن هؤلاء الى مناطق المعمورة المختلفة .

اشرفنا من قبل الى ان عددا ليس بالقليل من مواد قانون حمورابي
خصص للمعاملات التجارية او للمعاملات المالية المختلفة التي تستهدف
التجارة فان (١٢٠) مادة قانونية ، من المادة السادسة وحتى المادة مائة
وسنة وعشرين تتعلق بشؤون الاموال عامة ، فمنها ما يتطرق الى الجرائم التي
تقع على الاموال ، وبخاصة منها الاموال المتمثلة بالعبيد واخرى تتناول
موضوع الاراضي والعقارات ، وبعضها يتطرق الى شروط الاتفاقيات
التجارية وتثبيت حقوق الاطراف المشاركة في العمليات التجارية كما تتطرق
مواد اخرى الى القروض والودائع المالية ، كما ان مواد اخرى تتعلق بشؤون
التجارة بصورة غير مباشرة ، فهناك مثلا مواد تتعلق بتعيين اجور الاشخاص
والحيوانات ومسؤولية الاضرار التي تلحق بهم نتيجة
العمل . ويمكننا ان نجد اهتماما بالالتزامات المالية للأشخاص
حتى في قوانين الاحوال الشخصية فمثلا تنص احدى المواد على عدم تحمل
الزوجة مسؤولية ديون زوجها ان كانت هذه الديون قد ترتبت عليه قبل
زواجهما وعلى العكس سيتحملان سوية التبعات المالية لكليهما بعد الزواج .
ان هذا الحجم الكبير لقوانين المال والتجارة ، يؤكد تقدم التنظيمات
في حياة العراقيين القدماء ، الذين ماكان بمقدورهم تحقيق التقدم
الحضاري الذي انجزوه دون هذه المستويات المتقدمة في تنظيم العلاقات
الاقتصادية والاجتماعية .

لقد اشرفنا من قبل الى ان جانبا من نشاطات التاجر تمثلت بمساهماته
برأس مال التجارة دون الاشتراك بها فعلا ، وبالتالي فقد يدفع المال بصيغة
القرض او بصيغة المشاركة ، وتعالج بعض المواد من قانون حمورابي ،
الخلافاً التي قد تنشأ بسبب القروض التجارية ، حيث يلاحظ ان اسلوب
حسم الخلافاً في حالة القروض التجارية يختلف عن الاسلوب المعتمد في
حسم خلافاً القروض الاعتيادية (المواد ١١٣ - ١١٩) ، وهذا يؤكد

خضوع المعاملات المالية الخاصة بالتجارة الى اساليب تنظيمية تختلف عن مثيلاتها في جوانب النشاط الاقتصادي الاخرى .

ونعرض في ضوء القوانين ان نسبة الفائدة في القروض التجارية التي تتناول الحبوب هي $\frac{33}{100}$ بينما تكون $\frac{20}{100}$ للفضة ولايجوز للتاجر منح قرض بفائدة تزيد عن النسبة الرسمية ، ويعني هذا ان تقييم المواد المقرضة كان على اساس الحبوب او الفضة وبالتالي تختلف نسبة الفائدة في الحالتين .

ويؤكد القانون على ضرورة احاطة الاعمال المالية باطار قانوني هو العقد المكتوب الذي يحظى عادة بتوقيع الشهود . ومما يلفت الانتباه في عقود المتاجرة هذه ان المدين يحق له دفع مبلغ القرض باية سلعة او مادة تتوفر لديه ، كما يحق له طلب تأجيل دفع الدين ، ومن الواضح تماما ان هذه المرونة في حالة التأخر عن دفع الديون او تنوع الاموال عند الدفع ، سببها الحرص على سلامة المدينين في عقود المتاجرة لانهم يمثلون التجار الفعليين الذي يسافرون لتحقيق الرحلات التجارية وهم دون شك فئة متخصصة ومتمرسة على العمل التجاري وربما يتقن بعضهم لغات اقوام اخرى يتاجرون معها ، وعليه فلا يعقل ان يعطل دور هذه الفئة الهامة بسبب تأخرها عن دفع ديونها ، فان الارباح الكبيرة التي تحققها التجارة ، وبفضل هؤلاء التجار ، تسبب في منحهم شروطا تفضيلية في العقود ، وان تأخرهم عن دفع الديون سببه تعرض احدي رحلاتهم التجارية لبعض الصعوبات ، والتي من الراجح جدا انها ستعوض خسارتها وتحقق ربحا كبيرا ، كمادة الرحلات التجارية ، في سفرتها الثانية او الثالثة .

ومن صيغ التعامل التجاري في العراق القديم نظام اقامة الشركات التجارية بين مجموعة من التجار يشارك بعضهم برأس المال فقط بينما يتولى الآخرون تنفيذ الرحلة التجارية ، ويقرر القانون ان الخسارة والربح

يتقاسمها الطرفان سوية ، ويبدو واضحا ان رحلات التجارة لمثل هذه الشركات كان صوب مناطق وبلدان تحتاج الى خبرة ودراية لا تتوفر الا في عدد محدود من التجار ، حيث تذكر بهذا الخصوص مجموعة التجار المتخصصين برحلات الخليج العربي حيث كانوا يعرفون بمصطلح Alik-Tilmun « المسافر الى دلمون » لذلك كان اصحاب رؤوس الاموال يشاركون التجار بمناصفة الارباح ، بينما كانوا يرسلون تجارتهم مع عمال يدفعون لهم بعد تحقق الرحلة التجارية وتحقق الربح اجورا مقطوعة ، فهي في هذه الحالة من الاتفاقيات التجارية ، رحلات تجارية مضمونة الربح في الغالب ، ومثلها في الرحلات الداخلية حيث يستطيع أي شخص ان ينقل كمية من المواد او السلع من مدينة لاخرى وربما يسلمها الى شخص معين ويعود بالبضاعة البديلة او سعر المواد التجارية ، لذلك فانه في حالة تعرض الرحلة او البضاعة الى أي خطر فانه سيتحمل الخسارة التي تعرضت لها الرحلة التجارية .

وعلى العموم فإن النشاطات التجارية المتعددة والواسعة خلقت صيغا تنظيمية في علاقات القائمين على شؤونها او في العلاقات المالية بينهم ، يصعب احيانا تحديدها بالمفاهيم المعاصرة ، وستبقى التجارة في انعكاساتها على المستوى الحضاري العام ، وجها مشرقا من اوجه التقدم الذي احرزه العراقيون القدماء .

المصادر

- ١ - طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج (١ - ٢) طبعة ثانية منقحة بغداد - ١٩٥٥ .
- ٢ - طه باقر : مقدمة في ادب العراق القديم ، بغداد - ١٩٧٦
- ٣ - د . سامي سعيد الاحمد : العراق القديم . الجزء الاول ، العراق حتى العصر الاكدي . بغداد ، ١٩٧٨ والجزء الثاني . العراق حتى نهاية العصر البابلي القديم . بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٤ - د . عامر سليمان : القانون في العراق القديم ، ج ١ ، الموصل ١٩٧٧ .
- ٥ - هاري ساكنز : عظمة بابل . ترجمة د . عامر سليمان . ١٩٧٩ .
- ٦ - صموئيل نوح كريم : من الواح سومر . ترجمة طه باقر ، طبعة مصر .
- ٧ - ليو اوبنهايم : بلاد ما بين النهرين . ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨١ .
- ٨ - جورج كونتينو : الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور . ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد - ١٩٧٩ .
- ٩ - رضا جواد الهاشمي : « الحجارة الاوبسيدية واصول التجارة » مجلة سومر ، بغداد - ٢٨ ، ١٩٧٢
- ١٠ - رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر السامرية » مجلة كلية الاداب ، بغداد ٢٣ ، ١٩٧٨ .
- ١١ - رضا جواد الهاشمي : « تاريخ الابل في ضوء الكتابات القديمة والمخلفات الاثرية » مجلة كلية الاداب ، بغداد ٢٣ ملحق ، ١٩٧٨ .
- ١٢ - رضا جواد الهاشمي : « النشاط التجاري القديم في الخليج العربي واثاره الحضارية » مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، ١٢ ، ١٩٨٠ .
- ١٣ - رضا جواد الهاشمي : المدخل لاثار الخليج العربي . منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ١٩٨٠ .

- ١٤- رضا جواد الهاشمي : « المقومات الاقتصادية لمجتمع الخليج العربي القديم » مجلة النفط والتنمية ، بغداد ٧ - ٨ / ١٩٨١ .
- ١٥ - رضا جواد الهاشمي : « الملاحه النهرية في العراق القديم » مجلة سومر ١٩٨١ / ٣٧ .
- 16- Larsen, M.T. : Old Assyrian Caravan Procedures Istanbul-1967.
- 17- Leemans, W.F. : The Old Babylonian Merchant. Leiden, Brill 1950.
- 18- Leemans, W.F. : Foreign Trade in Old Babylonian Period Leiden, Brill. 1960.
- 19- Oates, D. : Studies in the Ancient History of Northern Iraq. London. 1968.
- 20- Driver, G.R. and Miles, John. C : The Babylonian laws- vol. I-II. Oxford. 3rd Edition 1968.
- 21- Iraq (Journal of the British School of the Archaeology in Iraq-Baghdad) 1977. Part 1-2.
- (وهو عدد خاص ينقل الاعمال الكاملة لاحد المؤتمرات المتخصصة عن التجارة القديمة) .

الفصل السابع

صناعة التعدين

د. وليد الجادر

كلية الآداب - جامعة بغداد

بعد ان اصبحت التجمعات السكانية في العراق متمكنة من تدجين الحيوانات والنباتات وتمكنة كذلك من الاستقرار في الترى الزراعية التي كان لعمليات التصنيع دور مهم في بلوغ العديد منها مرحلة المدنية ، تمكنت هذه التجمعات من معرفة استخدام المعادن في الصناعة وكان شيوع هذا الاستخدام هو الذي يعرف بالتعدين .

والتعدين في العراق القديم يعني تمكن الافراد من صناعة ادواتهم من المعادن وهي آنذاك العدد الخاصة بالزراعة والعدد الخاصة بها كالمحاريث والقؤوس اضافة الى الادوات اليومية ومنها المنزلية ثم العدد الحربية . ولقد كان استخدام هذه الادوات في الحياة اليومية في المجتمع المدني الدافع لتسمية الفترة بعصر المعادن وهي تبدأ في العراق في اوائل الالف الرابع قبل الميلاد وتسمى ايضا بفترة حضارة العبيد المتأخرة .

ويرتب الباحثون في تاريخ الحضارات القديمة في العالم وفي العراق

بشكل خاص مراحل استخدام المعادن حسب تسلسل شيوع استخدامها
فسموها عصر النحاس يليه عصر البرنز ثم عصر الحديد •
هذا مع العلم ان معادن اخرى معاصرة لهذه المعادن تقريبا كالمصدير
والرصاص والذهب والفضة استخدمت ايضا •

لقد كانت فترة شيوع استخدام المعادن في العراق القديم وما صاحبها
من تخصصات لازمة لانجاز عمليات معقدة لا تعتمد فقط على توفر المواد
الاولية اللازمة لمثل هذه الصناعة بقدر اعتمادها كذلك على ايجاد وسائل محلية
مضافة تتركز على تطويع هذه المواد وتصنيفها • وجرت هذه العمليات ممهدة
لعمليات متطورة اخرى مثل التدوين والاستقرار المدني والري الزراعي
وتوسيع عمليات التبادل التجاري والاهتداء الى اختراع دولاب الفخار
وتطوير العجلات وما صاحب كل هذه التحولات من تطور آفاق الاقتصاد
والفكر بكافة مجالاته • اضافة الى تطوير التنظيمات الاجتماعية والادارية
والسياسية •

لقد كان العصر البرنزي الذي تبع فترة اكتشاف النحاس وسبيكة البرنز
عصر التقدم التقني الذي صاحب نشأة المدن ، حيث تتعرف على مرحلة جديدة
توضحت فيها اختلافات طبقات المجتمع وتطورت على اكتاف المتخصصين
منهم العلوم العقلية ومنها بوجه الخصوص الرياضيات والفلك والطب •

ان الاهتمام بدراسة مثل هذه المجالات وبلوغها نسباً من التعمق
والتخصص اجاز التعبير عنها بما هو متعارف عليه بالعلوم النيلية • ولقد كان
الفضل الاول في تطوير هذه العلوم وايصالها للعالم الى المتكئين من المبدعين
الاوائل من السومريين •

لقد كانت بداية شيوع استخدام النحاس في العراق ولاول مرة على
شكل ادوات حربية ومنها رؤوس الحراب ويبدو ان استخدامهم كان في اول

الامر بشكله الطبيعي وذلك بطرقه بدون تسخين • اما عملية صهر النحاس فقد عرفت منذ عصر جمدة نصر اي في حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد •

وان طرق النحاس وهو بارد لا يؤدي الى تنقيته بل الى تكسره مثل تكسر الاحجار اذا رغب الانسان في صناعة الادوات او الآلات منه •

وفيما بعد عرفت عملية الصهر التي يبدو انها كانت مرحلة تجريبية مهمة وخطوة هامة في طريق التطور الحضاري واعتبرت عملية الصهر مرحلة كبيرة مؤثرة في تسريع عمليات التطور الحضاري وفي العراق بالذات • ان معرفة العراقيين بهذه المرحلة من التطوير في هذا القطاع الصناعي الهام الذي امكنهم من التوصل الى اذابة النحاس واتخاذها باشكل وحجوم عديدة وبواسطة ما يعرف بالقوالب المفتوحة ثم التوصل الى ما يعرف بالقوالب المغلقة التي تصنع من اكثر من قطعة واحدة تعتبر هذه مرحلة هامة جدا واستخدمت الطريقة الاخيرة في عمليات صب التماثيل من المعادن ومنذ عصور فجر السلالات •

وتوضح لنا مضامين الكتابات المسمارية عمليات السباكة بالشمع المذاب حيث يصنع نموذج من الشمع يغلف بالطين لتشكيل القالب من الخارج ثم يسكب المعدن في داخل القالب ليذوب الشمع ويأخذ شكله من المعدن •

ان هذه العمليات كانت مألوفة عند السومريين والاكديين والبابليين والآشوريين ووفق اساليب وتنظيمات متطورة ودقيقة حيث كانت تذكر كميات المواد الاولية اللازمة لكل عملية مع ذكر اوزان المعادن المخصصة لكل نموذج •

والجدير بالملاحظة هنا شهرة المتخصصين في اشتغال معدن النحاس بالاصطلاح تاييرو ومنه اشتقت تسميات في اللغات الحثية والعبرية لتشير

الى نفس المعنى • كذلك عرف المتخصص في اشتغال البرنز ومشتقاته في العراق القديم بمسميات متنوعة فهو عند السومريين ارود URUD وعند الاكديين سيارو وايرو • وتشير كلمة سيارو الى معدن النحاس ايضا ومنها كلمة الصفر في العربية التي ما تزال مستخدمة حتى اليوم •

ويعني اسم مدينة سيار (ابو حبة الواقعة في ناحية اليوسفية) مدينة البرنز والجدير بالملاحظة ايضا ان الاصل السومري للنحاس والبرنز اشير اليه بكلمة زابار ZABAR كما تشير كلمة URUDU السومرية الى علاقة مع اسم مدينة اريدو المعروفة • ويترجم اسم مدينة بادتيبرا المعروفة اليوم بتل المدينة بانها جدار المتخصصين بالتعدين •

وتكون نفس الكلمة السومرية اورودو جزءاً من التعبير الاكدي الذي يعني اسم نهر الفرات حيث سمي بـ (پراتم) او (اوردتم) أو (اوروتم) Purattum, Urud - tum , Uruttum وقد يكون سبب التسمية الاخيرة ارتباط منابع نهر الفرات وقربها من مناطق مناجم النحاس في تركيا • كذلك يمكن ان يكون احتمال اصل كلمة اورودو السومرية اشارة الى المعدن الخام ، مع العلم ان العلامة الصورية الاولى للنحاس هي على شكل منجم • ويوجد النحاس ايضا بشكل طبيعي كمعدن نقي كما يتوفر على شكل مركبات متعددة حيث يكون ممزوجا بمعادن اخرى •

واكثر اشكال النحاس شيوعا الملاكيت او كربونات النحاس الذي يسحق ويستعمل كطلاء اخضر اضافة الى استخدامه كمصدر للنحاس المعدني • ومن كربونات النحاس الاخرى التي تستخدم في الطلاء الازوريت • هذا اضافة الى اوكسيد النحاس وكبريتاته • وهناك ترسبات كثيرة غنية بالنحاس في معظم قارة آسيا •

ولقد ذكرت الكتابات المسمارية النحاس مميزة لانواعه فهناك النحاس الثقيل والمطروق والمصبوب كذلك تذكر نفس الكتابات النحاس المتوسط الجودة والخالص والنحاس الخام والمؤكسد وتشخص نوعا من النحاس بكونه ذهبيا ويراد به اللعان الذي يظهر وكأنه من الذهب . وكان هذا النوع الاخير من النحاس نادرا وورد وزنه بالشقل الذي يعادل ٨٤٤ غراما من وزننا الحالي بدلا من وزنه بالمنا التي تعادل ٥٠٥ غرامات من وزننا الحالي . كذلك عرف هذا النوع بانه « ابو النحاس » و « النحاس التيزاب » .

والمعروف ان العراقيين القدماء ومنهم السومريون بشكل خاص عرفوا مصادر عديدة للنحاس والمعادن الاخرى فاضافة الى المتوفر القليل محليا كان النحاس يجلب من دلمون (البحرين) وكانت الاخيرة سوقا معروفة لهذا المعدن عند منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وذلك باستخراجه من منابعه المتنوعة ومنها تلك الواقعة في الاقسام الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب . وكان النحاس المستورد من هذه البقاع قد صنف بنحاس دلمون تمييزا عن النوع الاخر المعروف بنحاس قبرص . ولقد جلب السومريون من نفس المصدر (دلمون) الفضة والذهب حيث كان يتوفر في مناطق الساحل الشرقي للبحر الاحمر وبشكل خاص في مناطق السبأين . والجدير بالذكر هنا نعت السومريين لمكان او مكان وهي عمان الحالية بانها جبل النحاس علما بوجود موضع يسمى بجبل المعدن ولا يزال فيه بقايا آثار الحفائر القديمة لاستخراج النحاس منه .

ومن وسط وشرق شبه جزيرة العرب جلب تجار البحرين لحساب السومريين والاكديين الاحجار الكريمة وبعض انواع الاحجار المستخدمة في البناء وفي صناعة التماثيل وذلك مقابل ما كان ينقله الاخرون اليهم من الشعير والحنطة الجيدة والسمن المعطر .

وتبدو تفاصيل أحد النصوص جديرة بالذكر هنا لما تتضمنه من

نسب الكميات المتبادلة وحجومها ووحدة القياس من معدن الفضة في مثل هذا التبادل :

« لو — مسلمتا ونيكسيسا — بنا الشريكان اللذان تسلما من اورنماركا ما يعادل حاليا ١٥٠٠ كغم من الزيت و ٣٠ قطعة منسوجة قيمت كلها بما يعادل كيلوغراما واحدا من الفضة وذلك مقابل شراء نحاس من دلمون (البحرين) وحين وصولهما سالمين جلبا معهما ما يعادل ١٩٠ كغم من النحاس مقابل الكيلو غرام الواحد من الفضة . مع حساب قيمة النقل بـ ١٩٠/١ من قيمة الفضة . والملاحظ ان هذه الكمية كانت قد جلبت من شمال عمان عن طريق وبواسطة تجار البحرين .

والمعروف ان التجار من السومريين وغيرهم من العراقيين القدماء كانوا في خدمة الدولة والمعبد وبنفس الوقت كانت لهم حرية ممارسة تجارة خاصة بهم وكانوا قد تميزوا على اعتبار كونهم شريحة اجتماعية اقتصادية مهمة في المجتمع العراقي والبعض منهم كان يحمل القابا منها لقب تاجر معبد « أوتو » في اور .

ومن هؤلاء من كان متخصصا في مهنة التجارة ومفرداتها ويشار للبعض منهم بانهم كانوا من المعدنين ولقد كان لهؤلاء التجار دور مهم في نشر معالم الحضارة السومرية وخاصة من خلال رحلاتهم المستمرة الى مناطق الخليج العربي وشمال سورية وتركيا .

وعرف الاكديون نحاس مناطق كيماش Kimash التي تقع عند المرتفعات الواقعة جنوب كركوك (ولعلها مناطق جبال حميرين) اضافة الى استيرادهم للنوع المعروف من مناطق جبال طوروس . كذلك كانت مناطق بوغازكوى وكول تبه في تركيا من المصادر الاخرى التي استورد منها العراقيون النحاس ومنه النوع الذي يوصف بالنحاس الاسود وهو الاوكسيد المشوب

ببعض خليط النحاس والرصاص والنيكل وكان الاخير يصفى للتخلص من خاماته وهو ما يدعى بالخبث . كذلك يذكر النحاس المستورد من مناطق الخابور .

وكان استيراد النحاس من قبل التجار الاشوريين من مناطقه المعروفة آنفا في تركيا . وذكر ان كمياته المستوردة من قبل هؤلاء التجار كانت تصل في المرة الواحدة الى خمسة اطنان من اوزاننا الحالية . وتذكر تفاصيل القوافل التجارية التي كانت تقوم بنقل الحمولات على الحمير والبغال والعربات أنها كانت تعرف خطوط سيرها وتعرف ايضا مناطق وقوفها واجور القائمين بنقل هذه الحمولات . وكانت مثل هذه العمليات التجارية منتظمة عند الاشوريين بشكل خاص وكانت هنالك بيوتات ذات طابع اقتصادي ومالي وتعرف الواحدة منها بـ (بيت كاريم) bit - Karim بالاكدي . وكان اصحاب هذه الدائرة المالية يستوفون نسبة محددة من المواد المستوردة مقابل الخدمات العديدة التي تشمل كذلك ادخال هذه المواد الى البلاد وتسهيل مهمات ايصالها الى الوسطاء من التجار او الى الحرفيين المتخصصين من الحرفيين مباشرة او حفظها في مخازن متخصصة كانت معروفة في مناطق عديدة .

وكانت عمليات تنظيم الاستيراد من المواد المختلفة وبشكل خاص النحاس والفضة والذهب والمواد الاخرى تتم مقابل اوزان محددة من الفضة او انواع اخرى من المعادن والمصنوعات المحلية ومنها الانسجة والملابس وكانت عمليات تنظيم الحسابات الخاصة بالاستيراد والتصدير بين الاشوريين ووكالاتهم التجارية في تركيا تتم كل اربعة اشهر .

البرنز

البرنز هو خليط ناتج من مزج النحاس والقصدير ، وقد يمزج النحاس بنسبة عالية جدا مع معادن اخرى كالرصاص والالتيمون او الزرنيخ الا ان

خليط النحاس مع القصدير يكون اجود انواع البرنز بعكس خلطه مع الرصاص . ويرى البعض في نسبة القصدير ومعادن اخرى مع النحاس كالنيكل والحديد بانها شوائب بينما يرى بعض اخر ان خلط ما يقل عن نسبة اثنين بالمائة يعتبر طبعيا .

والمعروف ان عملية اختراع البرنز قد حدثت في العراق وعلى نطاق واسع ومنه وصلت عن طريق البحر المتوسط الى مناطق بحر ايجس واوربا .

ولقد اجتهد العراقيون القدماء في سبيل الحصول على معدن القصدير غير المتوفر بكثرة محليا وذلك من مناطق وجوده في عربستان وعيلام وتركيا . والقصدير يوجد عادة على شكل اوكسيد وهو عبارة عن رمل قاتم ثقيل ولا يبدو معدنيا ، وتوجد رواسبه في ارمينيا والعراق خاصة في المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية . ومن اشهر مناطق مرتفعات قنديل التي تعتبر جزءا من منطقة الدفع الداخلي لجبال زاكروس . كذلك توجد رواسبه في اقسام من جبال شمال وشمال غرب ايران .

وكانت تحركات العراقيين في سبيل الحصول على الكميات اللازمة من هذا المعدن لتطوير صناعة المعادن عندهم واحدة من الدوافع التي مكنت حضارتهم من الوصول الى بعض جزر البحر المتوسط ومنها قبرص حيث تكثر رواسبه في أراضيها .

واعتبر القصدير في العراق نادر الوجود وكان استيراده اللازم والضروري ليس بالسهل . واعتبر كذلك ذا تكلفة اقتصادية واقرب الى ان يكون من المواد الغالية الثمن . ومع ذلك فقد كان يذكر بكثرة في القوائم الخاصة بتجهيز المواد الاولى للورشات المتخصصة بالتعدين وبالذات بتصنيع البرونز ومنذ العصر السومري الاول . والجدير بالملاحظة ان نسبة خلط القصدير مع النحاس لجعله قويا ظلت متقاربة ولا تتجاوز في متوسط الحد الاعلى الى ١٠٪.

هذا على الرغم من ان تحليل قطع برنزية ترجع فترة صناعتها الى مرحلة النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد قد أشار الى ان نسبة القصدير فيها حوالي ٢٪.

وتذكر تفاصيل نص سومري من « تلو » كيفية الحصول على ثلاث قطع مصنوعة من البرنز بلغت زنتها مايعادل ٥٦٠ غراما وهي عبارة عن اناء ومرآة وابرة . وذكر انه تم خلط مايعادل ٥١٢ غراما من النحاس النقي مع ٨٤ غراما من القصدير . وذكر ان الفرق بين مجموع وزن القطع البرنزية والمواد الاولية المميزة وهي معدنا النحاس والقصدير والبالغة ٣٦ غراما ذكر انه « أَكِلَ » بالنار NE. KU

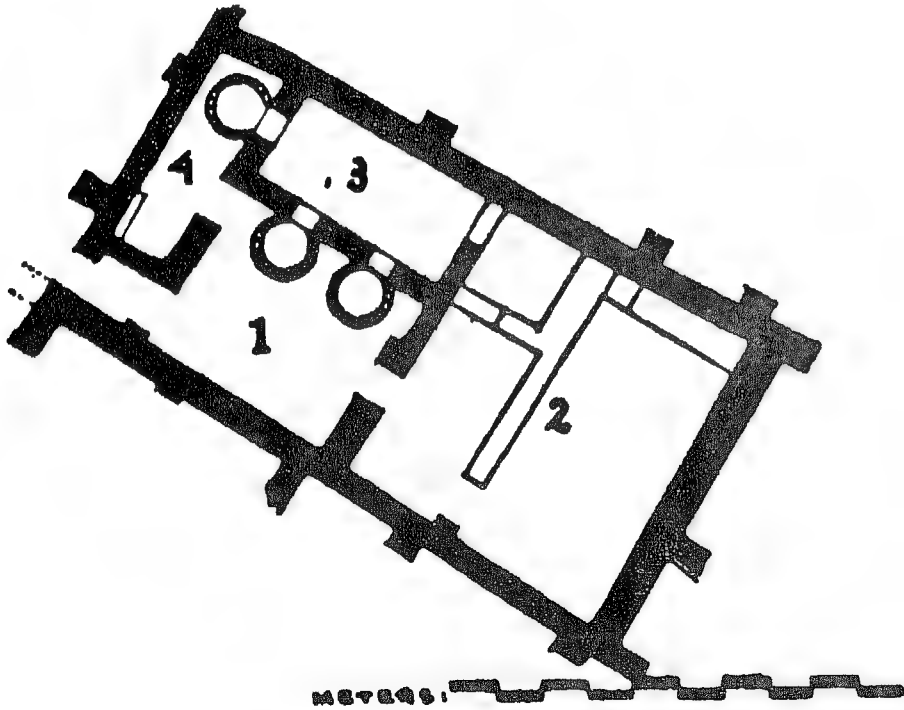
والمعروف ان عمليات الصهر المتتالية كانت كذلك لازمة للحصول على المعدن بشكله النقي . وبالنسبة لنسب الخلط السابقة الذكر نستوفي من مضمون النص اضافة اربعة غرامات من مادة الاتيمون او الزرنيخ وذلك من اجل تصعيد عملية الصهر وتسهيل عملية التخلص من الشوائب .

ومن المعروف ان كورة التسخين Kûru الخاصة باذابة المعدن كانت تتكون من طبقتين : في الاولى وهي السفلية كان موضع شعل النار وفي الثانية يوضع خام المعدن . ومثل هذه الكور تشابه كور شيّ الفخار المكتشفة بكثرة وهي تشبه ايضا الكور المستخدمة لنفس الاغراض حتى اليوم .

ولقد سبق اكتشاف اربع عشرة كورة خاصة بشي الفخار في مدينة اور وحدها وكلها من عصر الوركاء اي من حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد . ويذكر المنقب ليونارد وولي نموذجا منها ويصفها بانها موقد دائري الشكل قطره ٩٠سم وعمقه ٣٥سم وهو مسقف بالطابوق وفي السقف عملت

نقوب لمرور النار الى القسم العلوي او الثاني بقطر ١٠ سم ماعدا الثقب
الوسطي الرئيسي المعمول بقطر ٤٥ سم .

ووجدت قنوات صغيرة في اطراف الفزن توصل الى هذه الثقوب
والهدف منها ايصال تيار الهواء الخارجي . وتختلف مثل هذه الافران عن
مثيلاتها عند البابليين والاشوريين الا ان الافران والكور الخاصة بصهر المعادن
تكون اشبه بورش كبيرة ، ومن تفاصيل نموذج تم الكشف عنه في مدينة
لارسا (سنكرة) يتضح ان الكورة عبارة عن بناء متكامل مزود بساحة
مفتوحة على غرفة مستطيلة الشكل ومن الغرفة تتوزع ثلاثة افران دائرية
تطل من الجهة الثانية على غرفتين اخريين .



ورشة تعدين تحتوي على كور ومرافق من
بينها مخازن من مدينة لارسا (سنكرة)

والمعروف ان درجة الحرارة اللازمة لصهر معدن النحاس هي ١٠٨٥ درجة مئوية والحديد ١٥٣٠ درجة مئوية .

ولم تكن الكور السومرية والعراقية القديمة بشكل عام وخاصة تلك التي تستخدم الخشب او الحطب كافية لايصال الحرارة الى مثل هذه الدرجات ولهذا فقد كانت تذكر عمليات النفخ اللازمة لاتمام عملية اىصال الحرارة الى الدرجة اللازمة لعملية الصهر وكانت هذه العملية مألوفة حين استخدام الفعل (نَفَخَ) وذلك بأسلوبين: النفخ بواسطة المنفاخ الجلدي المزود بانابيب فخارية . والنفخ بواسطة القم وذلك من اجل تزويد النار بالمزيد من الاوكسجين اللازم للاشتعال ومن ثم رفع درجة الحرارة . وتذكر كميات من نواة التمر كانت مجهزة لتوضع فوق المعدن لغرض تصعيد درجة الحرارة . وكانت تعرف نماذج متنوعة للبودقات المخصصة لمثل هذه العمليات ومنها المصنوعة من الطين. كذلك تذكر نصوص اخرى كميات الفحم النباتي المجهزة لاتمام عمليات الصهر وتفيد هذه المادة للحيلولة دون التأكسد علما ان عملية الاختزال كانت معروفة منذ الالف الثالث قبل الميلاد .

وتذكر نصوص اخرى خاصة بتعدين الفضة وتنقيتها نسب الخسارة التي تنتج من عمليات الصهر لمزائج الفضة التي كانت تسبب خسارة كوزن ضائع . وكانت مثل هذه النسب تحتسب بالصورة النموذجية التالية:

٢٥ منا و ٢٢ شقلا تفقد ٢٥ شقلا .

و ٤٢ر٥ منا من الفضة المصفاة ومنان من الراسب تغدو معا

٥ر٤٤ منا من الفضة التي ضاع منها (منا) واحد في الصهر .

ويبدو هنا ان الفضة قد صفيت مرتين من اجل الحصول على نوعية من الفضة الخالصة . وحيث يذكر في نص اخر مكرس لتفاصيل تصفية الفضة،

كميات الخسارة على مرحلتين : الاولى من جراء الصهر ، حيث معظم الرصاص يتأكسد الى اول اوكسيد الرصاص الذي يتطاير في درجة حرارة متوسطة واما المرحلة الثانية فان المعادن المؤكسدة تلحم بالاذابة سوية مع اول اوكسيد الرصاص في درجة حرارة اعلى من تلك المستعملة في المرحلة الاولى حيث يجري امتصاصها وتعرف الثانية هذه بالبوتقة الحقيقية .

الملاحظ ان وحدة الوزن المحددة بالمنا تتألف من ستين شقلا وتتألف الشقل من مائة وثمانين حبة والحبة كان يقصد بها حبة الحنطة وتسمى باللغة الاكدية بنفسى التسمية العربية واحيانا كانوا يستخدمون كلمة قمحة .

الذهب والفضة

من الذهب والفضة استخدم العراقيون القدماء صناعات متعددة منها التماثيل والاسلحة والادوات ولاسيما الادوات المنزلية الخاصة اضافة الى حلي الزينة وخيوط الملابس والانسجة ، وقد عملت بعض نماذج من الرقم التذكارية من الذهب والفضة .

وكان هذان المعدنان من المواد الاولى اللازمة لصناعات مكملة اخرى ولقد اجتهد العراقيون وبشكل مستمر في سبيل الحصول عليهما سواء عن طريق المقايضة او عن طرق اخرى بما في ذلك الجزيات . ولقد تميز السومريون باستيراد الذهب من مناطق ملوखा ومناطق خاخوم بترابه او على شكل كتل صخرية وعرفوه بالتعبير كوشكين وعرفه الاكديون بلفضة خراصو . ويقال في العربية (خرس) التي من معانيها حلقة من الذهب او الفضة . كذلك سمي الكنعانيون الذهب خرس وسماء العبريون خروص واليونان خروسوس والانكليز كريسالس او خريسالس Chrysalis . كذلك عرف الاكديون

والاشوريون استيراد الذهب والفضة من تركيا وبشكل منتظم وذلك مقابل منتوجات اكدية وبابلية واشورية . هذا اضافة الى حصولهم على الذهب من مناجمه المعروفة في مصر القديمة وعلى شكل مقايضة أو على شكل هدايا ولقترات طويلة . وتذكر احيانا كميات تصل الى ما يعادل عشرة كيلوغرامات باوزاننا اليوم مرسله عن طريق القائم بالاعمال المصري في العراق .

اما بعض ما يذكر عن مصادر حصول الاشوريين على الذهب فهي كثيرة جدا فاضافة الى ما يصلهم من هدايا من ملوك مصر فقد حصل الاشوريون على الذهب بشكل جزيات مفروضة على الاقوام المجاورة وخاصة بعض اقوام الاناضول . وتذكر كميات كبيرة اخرى مثل حصول الملك الاشوري سرجون من منطقة موشكي على ١٨ تالينت من الذهب و ٢١٠٠ فضة . والمعروف ان التالينت الواحد يتألف من ستين منا اي انه يعادل (وزنة) ومما يذكر من حويلات تجلاتبليزر الثالث حصوله مرة على جزية ترد فيها الارقام التالية ١٠ تالينت من الذهب و ١٠٠٠ من الفضة .

ومن عهد اشور ناصر بال تذكر نفس الكمية اضافة الى ١٠٠ تالينت من الحديد . وتسلم الملك اسرحدون من حزقيال ١٠ منا من الذهب و ١٠٠٠ قطعة من الاحجار الكريمة . وفي عهد سنحاريب تم استلام ٣٠ تالينت من الذهب و ٨٠٠ تالينت من الفضة من ملك اليهود . اضافة الى ذكر كميات اخرى استلمت من مدن الكنعانيين وممالك سواحل البحر المتوسط الشرقية الاخرى .

وذكر ان تجلاتبليزر الاول واشور فاصر بال الثاني وبشلمنصر الثاني كانوا يتسلمون من بلاد نمخار كل عام اواني من البرونز والفضة والذهب اضافة الى ٢٠ منا من الفضة

واستخدم السومريون ثلاثة انواع من الذهب ، فبالاضافة الى النوع المشخص بالذهب بصفة مطلقة فقد استخدموا التعاير التي تشير الى الذهب الاحمر والذهب النقي . وكان الاختلاف بين هذه الانواع يعتمد على نسب خلطه بالمعادن الاخرى وخاصة مع النحاس والفضة أو مع الاثني سوية . ولقد عرفوا الالكتروم المزيج من الذهب والفضة وبشكل مألوف . وتشخص الكتابات المسمارية مسميات اخرى للذهب حسب مظهره وبعد خلطه مع هذه المعادن وهكذا يذكر الذهب الابيض والاخضر والذهب الصافي والذهب من النوعية الجيدة .

ولقد اعتبر المعدنان الذهب والفضة من المعادن النبيلة التي استخدمت كقياس لتقييم الاشياء وتحديد مايقابلها من البضائع وتحددت اوزان الذهب مثل الفضة وذلك بوحدة الوزن المعروفة بالشقل الذي يساوي ٨٥٤ غرامات كما اسلفنا ذكر ذلك ، والمعروف ان التسمية مشتقة من نفس الجذر الثلاثي الذي اشتقت منه كلمة مثقال في العربية ، وكذلك بالحنة التي تكون من اجزاء الغرام الواحد كما هو الحال في اوزانها اليوم .

وبالنسبة للفضة فكما هو الحال بالنسبة للذهب عرف العراقيون القداماء انواعا ودرجات متباينة من الفضة ضمنها الفضة النقية او الصافية او المصقولة واللماعة والقوية او الصلبة . وكانت الفضة تصاغ في اشكال عديدة مثلها مثل الذهب والباقي منها كان يتخذ على شكل قطع تحدد اوزانها وتقاس بالشقل ايضا .

واختلفت قيمة الفضة مقابل المعادن الاخرى حسب الفترات والعهود في العراق القديم فكانت عند السومريين بنسبة واحد من الفضة مقابل ١٣٠ من النحاس ، وعند البابليين كانت بنسبة واحد من الفضة مقابل ١٤٠ من النحاس ، وعند الاشوريين كانت نسبة الفضة الى الذهب ١ الى ١٠ .

ومن خلال تفاصيل نص مسماري من مدينة اشور نستوضح مستوى بعض الاسعار من الالف الاول قبل الميلاد ونجد ان ما يقابل شقلا واحدا من الفضة كان يكفي لشراء حوالي ستة كيلوغرامات من الصوف ومقابل نفس الكمية او الوزن من الفضة كان يمكن شراء ٢ كور من الحبوب اي حوالي ٣٠٠ كيلو غرام او لتر . علما ان الكور الواحد ومضاعفاته واجزاءه كانت وحدة قياس المكاييل ومنها الحبوب بشكل خاص وكذلك السوائل وغيرها ونسميه اليوم بالكر .

لقد كانت عملية استخدام الفضة كوحدة قياس متعارف عليها في المراق القديم ولفترة تزيد على الالف عام ظاهرة جديرة بالدراسة والتحليل .

فالمعروف ان استخدامها بهذه الخاصية منذ عهد سلالة فاره (شروباك) أي في حدود منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وظلت وحدة القياس بهذا المعدن بوزن محدد وهو الشقل الذي يسمى بالسومرية كن GIN .

هذا الى جانب اتخاذ النحاس وحدة قياس ثانية وبوزن او وحدة قياسية اخرى هي المنا التي تعادل وزن ٥٠٥ غرامات من اوزاننا الحالية تقريبا . وكانت اوزان الفضة قد اتخذت على شكل قطع تستخدم في التداول التجاري بمثابة العملة . وكانت هذه الاخيرة تختتم بعلامة مميزة وكان يحضر صهر مثل هذا النوع في حالته هذه والمخالف كان يعرض نفسه لطائلة العقوبات .

وكانت هذه القطع المخصصة لمثل هذا النوع من التداول تخطط مع نسب معينة من معادن اخرى بصورة تصبح النتيجة غير مفضلة في الصياغة والصناعات الاخرى من اختصاص المعدنين .

وتشير الكتابات السومرية في طورها الاول بالعلامة التي تعني شام SHAM متضمنا عملية الشراء والتمن . كذلك تذكر اشارات اخرى في نصوص اشورية الى استخدام القطع النقدية من عهد حكم الملك الاشوري سنحاريب حيث يذكر في معرض عمل تمثال من البرنز تفاصيل خاصة بتقطيع قطع من وزن نصف شقل سميت برؤوس عشتار .

اما معدن الحديد فقد كان من المعادن المهمة في الصناعة واولى استخداماته كانت في صناعة الاسلحة والادوات وهو في هذا الجانب افضل من البرنز واشد صلابة . ولم يتمكن العراقيون القدماء من توصيل صناعته الى قطاع البناء والهندسة وربما كان لندرة وجوده آنذاك وتأخر شيوع استخدامه حيث لا يتعدى ذلك بداية الالف الثاني قبل الميلاد . يضاف الى ذلك عدم امكانية العثور على هذا المعدن بشكل نقي الا في حالاته في بعض المخور البازلتية حيث يكون على شكل ذرات صغيرة . ويبدو ان ارتباط علاقته بالسما كان في حالات الحصول عليه بشكله الصافي او النقي . فان النيازك التي تسقط من السماء تتكون في معظمها من الحديد .

ولقد ذكر السومريون الاصطلاح آن - بار ، AN - BAR مشيرين به الى ان آن تعني السماء وبار تعني الحديد ويترجم الاصطلاح بمعدن السماء او المعدن - النيزك . وسموه ايضا البار - كال BAR - GAL ويراد به ان يكون المعدن المعظم .

وعلى الرغم من ورود هذه الاشارات بوضوح في الكتابات العراقية القديمة : السومرية والاكديّة . والتي تؤكد معرفتهم لهذا المعدن الهام منذ حدود الالف الثالث قبل الميلاد ، فلم يتم العثور على نماذج مقنعة وعديدة تدل

على شيوع استخدام السومريين له . هذا على عكس ما نجده عند الآشوريين الذين استفادوا بشكل كبير من هذا المعدن وخاصة في تطوير عدة جيوشهم وحركاتها وفي صناعة العربات وبعض انواع الاسلحة وغرفوه باسم بارزيلو Parzillu الذي يقابله الاصطلاح السومري AN. BAR .

وفي الواقع ان الاشارة الواضحة التي تربط المعدن بالسماء وبالنيازك الساقطة على الارض وتشخيص العراقيين القدماء لمثل هذه الظاهرة يمكن ان تؤكد معرفتهم لهذا المعدن مع فترة اشارتهم له في الكتابات السومرية ، هذا علما بأن نتائج تحليل بعض الادوات المصنوعة من قبل الاخيرين اثبتت انها تحوي نسبة حوالي ١٠٪ من النيكل الذي يتوفر في الحديد عادة بنسبة ٥٪ على الاقل بالنسبة للحديد النيزكي .

والمعروف ان مصادر الحديد الرئيسية هي فلزاته ومنها أكاسيد الحديد والهمتايت وهو خام الحديد الاحمر وأوكسيد الحديد المائي الاصفر . وتوضح نتائج التنقيبات الاثرية المستمرة المزيد من المعلومات الوثائقية الخاصة بتفاصيل الحرف والصناعات العراقية القديمة وفي موضوعنا هذا اماطت التنقيبات اللثام عن استخدام واسع للمعادن من عصر جمدة نصر . وان المتبقي والمكتشف حتى الان يدل بوضوح على مراحل التطور التي بلغها الحرفيون من المتخصصين في الصناعات المعدنية على نطاق واسع بضمنها تلك المتميزة بالصناعة التي توضح براعة تقنية وتحسسا جماليا . ولقد زودتنا المقابر الملكية في اور وحدها بمجموعات كبيرة ومتنوعة مصنوعة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة النادرة والصدف والقواقع اضافة الى نماذج الاسلحة والخوذ الحربية والالات والادوات الموسيقية . كذلك اشتهرت صناعة التماثيل للالهة والملوك من الذهب والفضة والنحاس

والبرنز وكانت مثل هذه التماثيل توضع في المعابد وبعضها في مداخل المعابد ومن النماذج الاخيرة وجدت ثيران كبيرة من الفضة في معبد نابو في بورسيا •

وعملت نماذج عديدة من العدة الحربية من المعادن اضافة الى ان نماذج مصغرة لقلاع حربية وتفاصيل ابنية تم انجازها من البرنز وخاصة عند الاشوريين • وعرف الاخرون تليس بعض بوابات مدتهم المصنوعة من الخشب بصفائح معدنية من البرنز مزينة بموضوعات مألوفة في النحت البارز الاشوري واهم هذه النماذج بوابة مدينة بلوات الاشورية كذلك تسم تليس الاعمدة بالصفائح المعدنية •

وتذكر النصوص المسمارية المتخصصين من الحرفيين الذين كانوا يعملون تحت اشراف الملوك مباشرة وتتناول مضامين الرسائل الخاصة بانجاز اعمال صب التماثيل او صناعة موضوعات كبيرة مهمة منها تفاصيل على درجة كبيرة من الاهمية الوثائقية لما تحويه من معلومات عن أسماء الصناع وعلاقاتهم الخاصة بالطبقة الحاكمة بفعل تخصصهم الدقيق وحاجة السلطة لهم كذلك الحال في صلاتهم مع المعبد وطبيعة العمل وما هو واجب منه او بالعكس • وفي نص رسالة اشورية من الفترة المتأخرة ما يوضح جانباً من هذه التفاصيل وطبيعة التماثيل « وبعد ذكر لكمية من الذهب تزن حوالي ثلاثة كيلوغرامات ونصف من النوعين المصنفي وغير المصنفي ذكر انها في مخزن البيت - الورشة التابع لرئيس الحرفيين » ويناشد كاتب الرسالة الملك ان يسمح بالبدء في عمل تمثال الملك والملكة الام ويأمر سيد القصر وامين البلاط بفتح الذهب حيث ان العمل في بداية هذا الشهر يكون مفضلاً وان يسلموا الذهب الى الفنانين الحرفيين لبدءوا العمل •

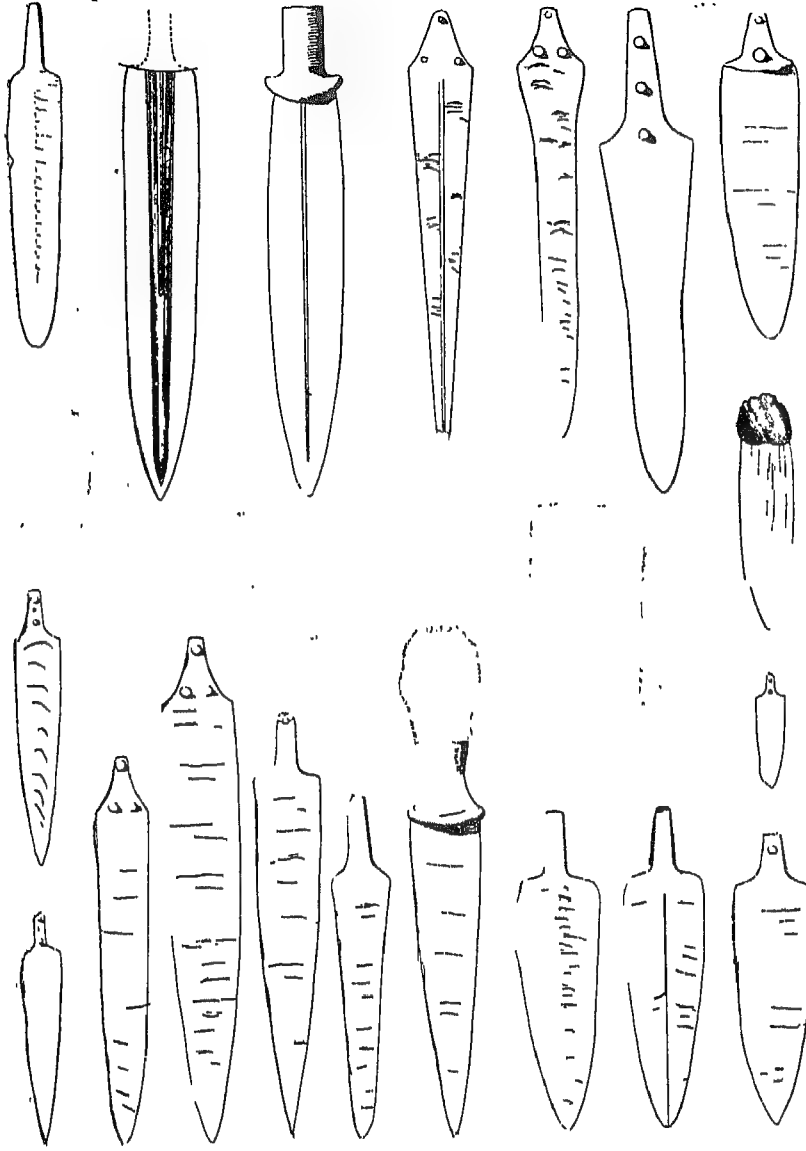
والطريف ان الاله ايا المعروف بكونه سيد المعرفة كان رمزا لمثل هذه الصناعات الخاصة بالمعادن • وكان معدن الذهب ينسب ايضا الى الاله انليل وكان المتخصص في صياغة الذهب والفضة يسمونه كوتيجو المأخوذ من السومرية KU - DIM .

ويبدو انه كانت هناك ترانيم خاصة تردد لبعض المعبودات وتصاحب الاعمال الخاصة بصناعة تماثيل الالهة من المعدن لوضعها في المعابد وما يذكر من هذه الترانيم :

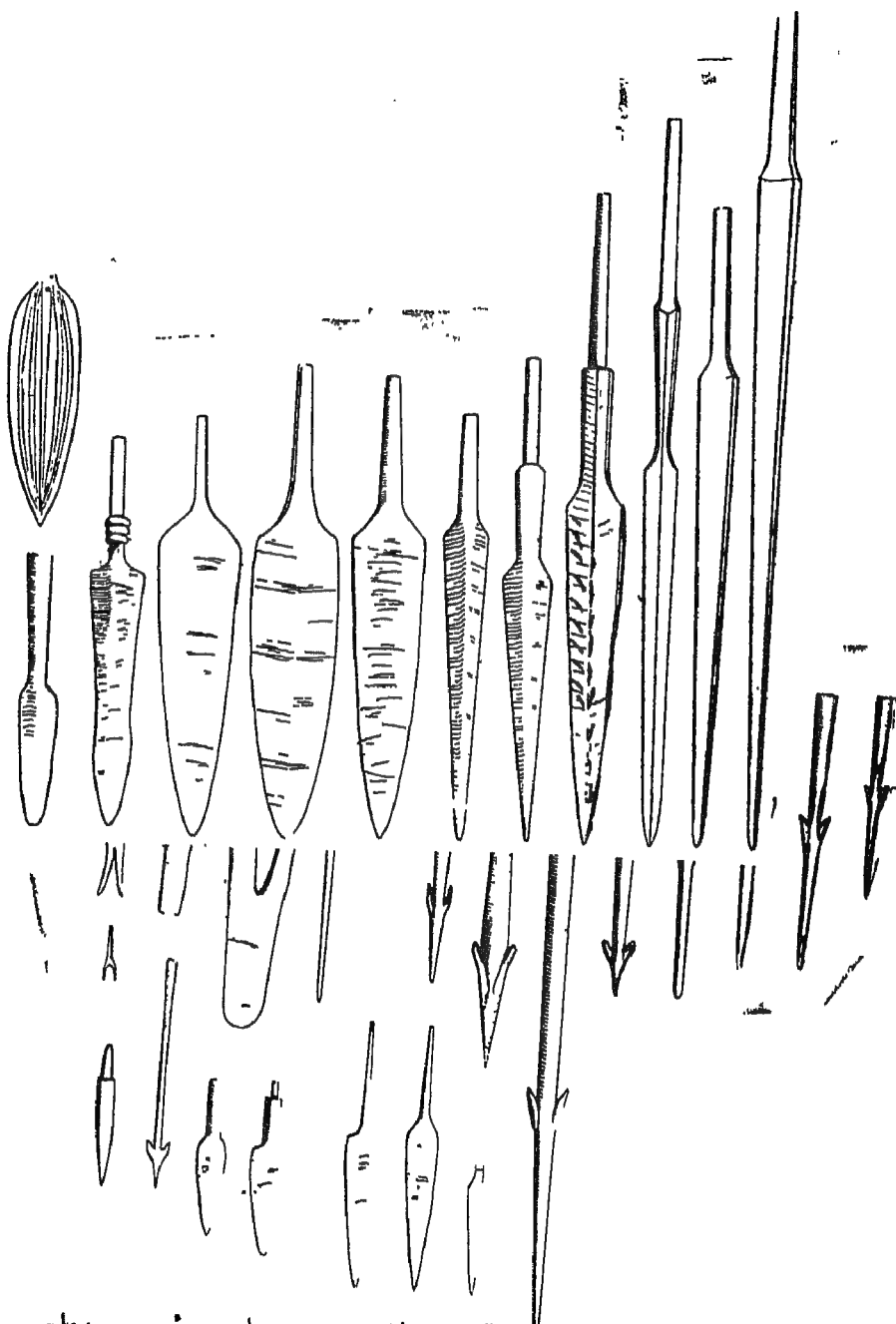
سبع حبات من الفضة
سبع حبات من الذهب
سبع حبات من البرنز
سبع حبات من الرصاص
سبع حبات من النحاس

ومن تفاصيل رسالة اخرى نجد ذكر ما يلي :

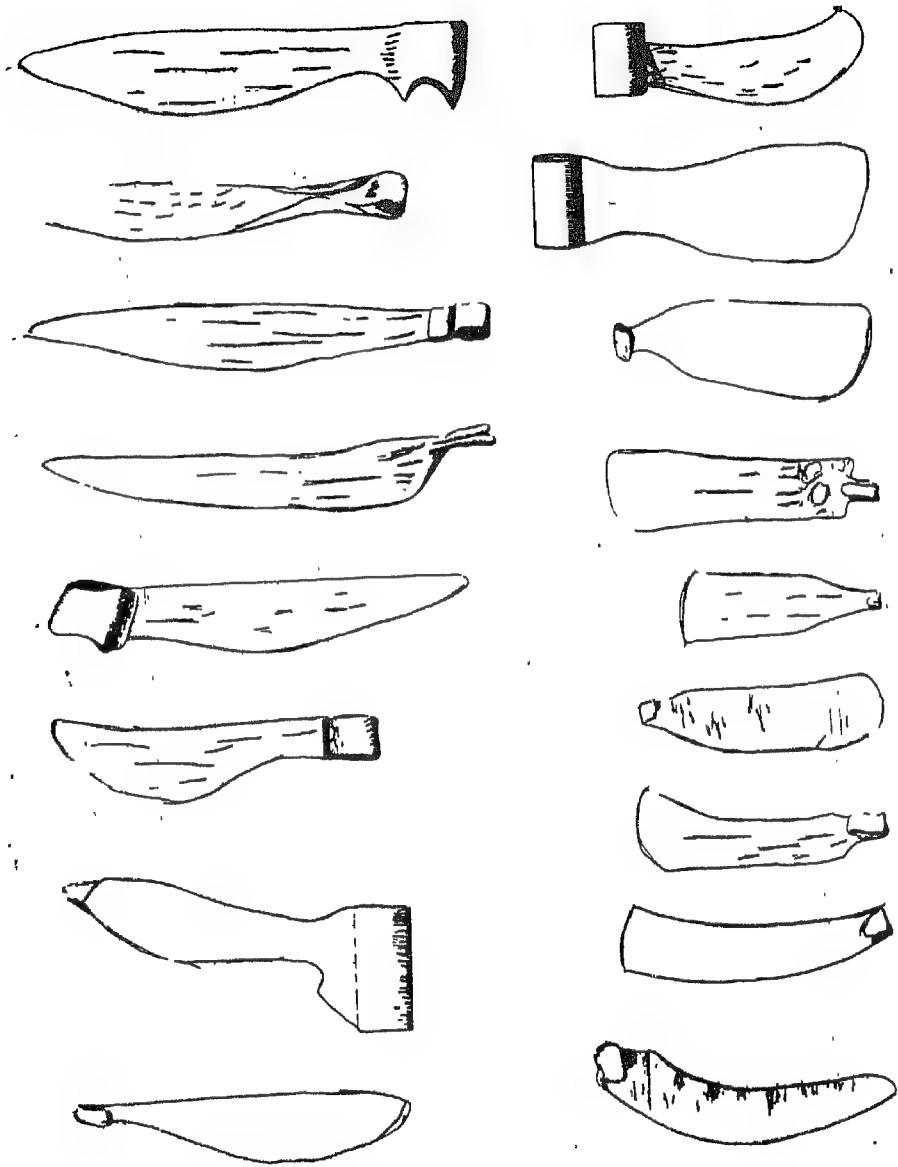
اما ابواب المعبد فقد عملتها من خشب السرو ذات العطر الطيب .
وزينتها بشرائط من الذهب • وغلفت بالذهب مسطبة الاله اشور سيدي •
وفي الغرفة الخاصة بالمصائر والصومعة المقدسة : مرقد آشور ، حيث يحدد مصير السماء والارض ، فقد شيدها اجدادي الملوك من الطابوق المغلف بالفضة • واعدت بناءها وغلفت الطابوق بحوالي ٦٠ كيلو غراما من الفضة المذابة (eshmaru) وفي داخل الغرفة هذه وضعت تماثلي في وضعية توصل الى الالهة وصلاة من اجل حياتي ووضعت تماثلا آخر الى اشور بانيبال ولدي ووريثي •



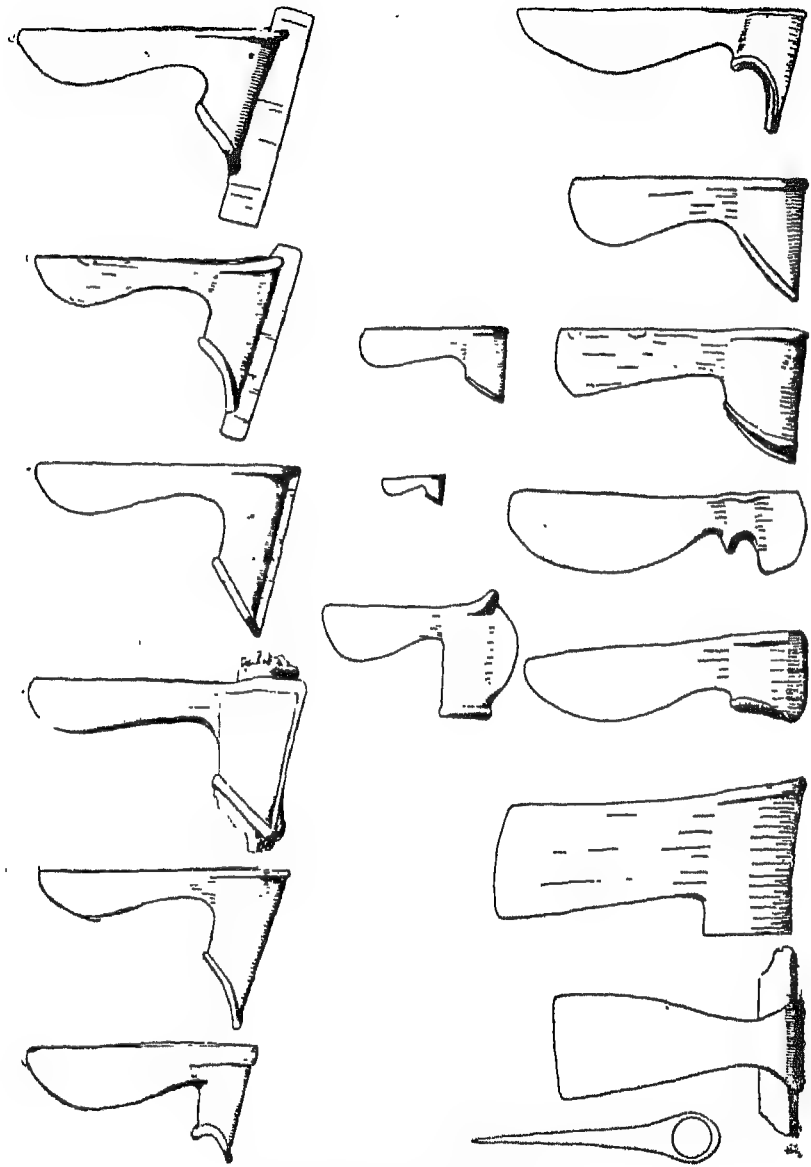
نماذج من السكاكين والخناجر التي كانت من استخدامات
العراقيين القدماء وخاصة السومريين منهم



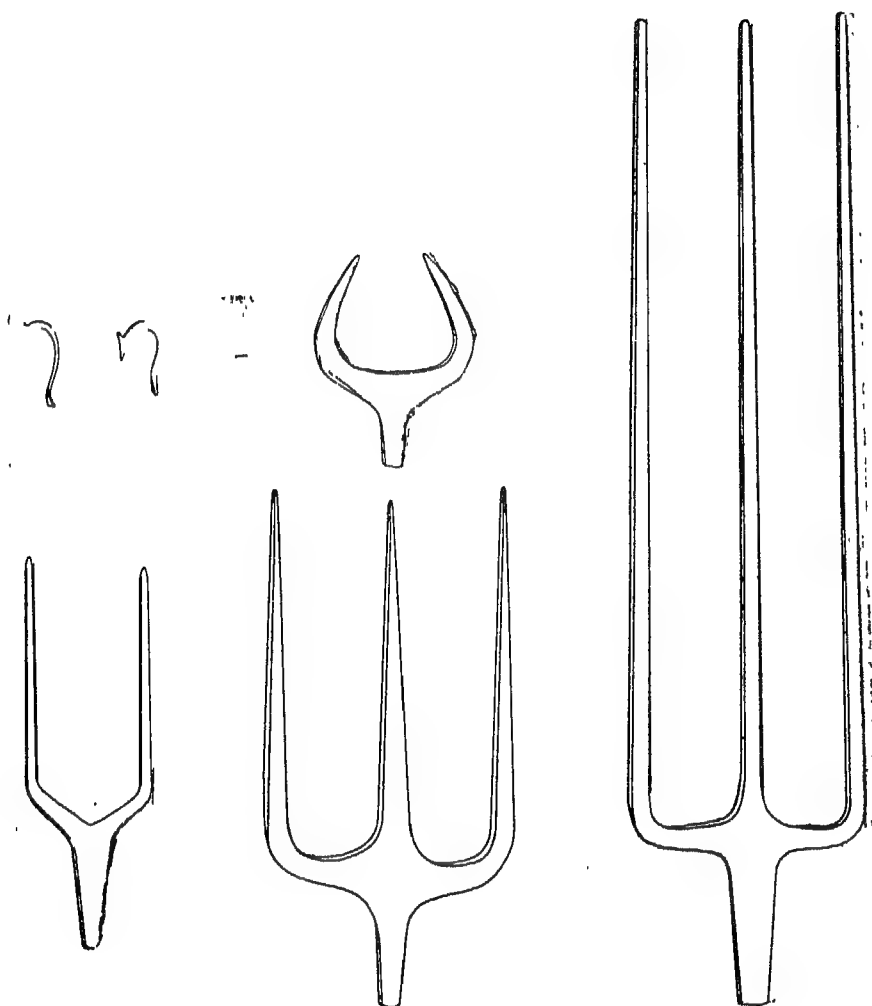
سهام وفالات صيد عراقية قديمة مع نماذج من حريات ورؤوس رماح



نماذج من الفؤوس النحاسية



نماذج من السؤوس البرنزفة



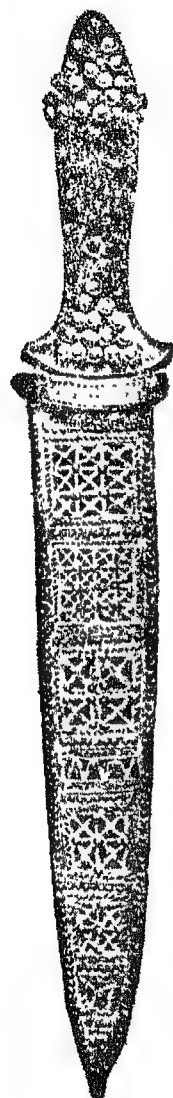
نماذج من فالات الصيد



نموذج مجسم من الذهب، واللازورد، والصدف يمثل عنزة على رمز
لشجرة من الذهب



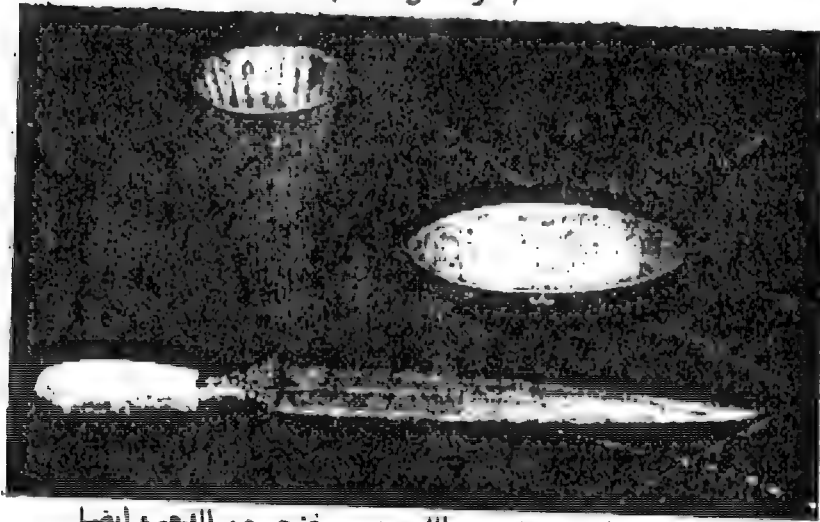
من قطع الصدف المستعملة
في تطعيم الفسارات



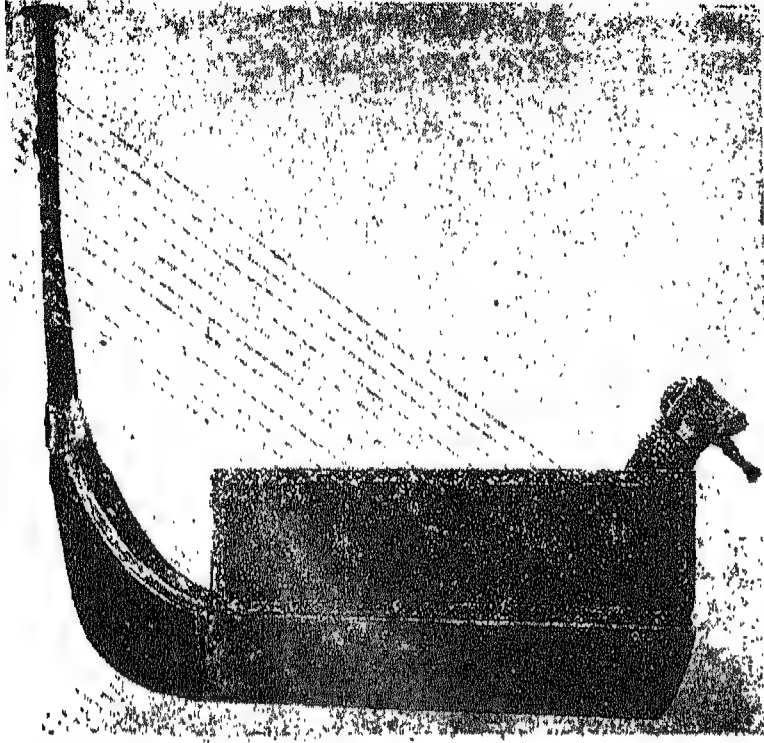
خنجر من الذهب وغمده
مزين بتخريم دقيق



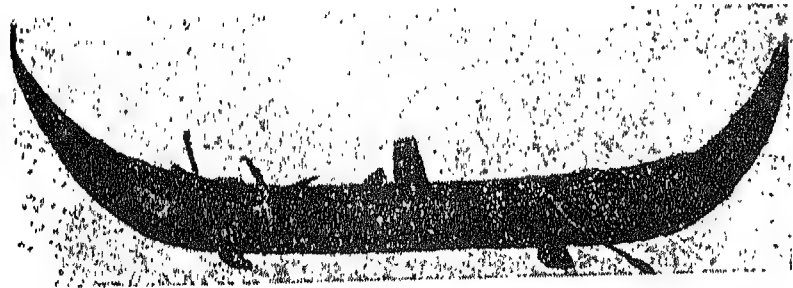
(خوذة من الذهب)



طاسة وكاس مضلع من الذهب مع خنجر من الذهب أيضا



من نماذج القيثارات السومرية



نموذج قارب من الفضة



رأس تمثال من البرنز بالحجم الطبيعي يرجح أنه يعود إلى سرجون الأول ملك أكد

المراجع

- Limet, . Le Travail du métal au pays de Sumer au temps de la 3^e Dynastie d' Ur. Les Belles Lettres, Paris. 1960.
- Dossin, G. Le nom du Cuivre en Sumérien. In : Bull. Académie royale de Belgique. 1952.
- Forbes, R.J. Studies In Ancient Technology. Vol. VIII, Leiden. 1964.
- Levey. Martin. Chemistry And Chemical Technology In Ancient Mesopotamia. Netherlands. 1959.
- Leemans, W.F. The Old Babylonian Merchant, his business And Social Position. Leyde. 1950.
- Oppenheim, L. The Seafaring Merchants Of Ur. In : JAOS. 74 (1954).
- Falkenstein, A. La cité - Temple Sumérienne. In : Cahiers d'Histoire Mondiale. I. (avril), 1954.
- De Genouillac, H. Inventaire des tablettes de Tello conservées au Musée Impérial Ottoman. Paris. 1910 - 1921.
- Scheil, V. Mémoires de la Délégation (France) en Perse. XIV.
- Van Loon, M.N. Urartian Art. Its Distinctive Traits in The Light Of New Excavations. Istanbul - Netherlands. 1966.
- Luckenbill, D. The Annals Of Sennacherib, OIP. II. Chicago 1924.
- Garelli, P. Les Assyriens en Cappadoce. Bibliothèque Archéologique et Historique de l'Institut Français D'Archéologie d'Istanbul. XIX Paris 1963.
- Contenau, G. La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens Paris. 1947.
- Tosi, M. Journal Of Oman Studies. I (1976).
- Woolley, L. The Antiquaries Journal. XI (1931).
- Muhly, J. D. The Copper OX - Hide Ingots And The Bronze Age Metals Trade In : IRAQ. XXXIX. Part. I. (1977).
- Muhly, J. D. Supplement To Copper And Tin (Hamden. Conn. Trans. of the Conn. Academy of Arts and Sciences. Vol. 46 (1976).

الفصل الثامن

العلوم والمعارف

د. فاروق ناصر الراوي

كلية الآداب - جامعة بغداد

البحث الأول

تدوين التاريخ

ان ما يجعل من التأريخ علما هو طريقة البحث او منهج الباحث الذي يعتمد اساسا على الوثائق التي لا يمكن بدونها ان يكون هناك تأريخ .
فبواسطة تلك الوثائق يستطيع المؤرخ التوصل الى مجموعة منظمة ومنتظمة من المعلومات عن مسيرة تأريخ القوم او الاقوام وارتباط بعضها ببعض وذلك من اجل التوصل الى معرفة القوانين او الظواهر العامة التي حكمت حركة تطور المجتمعات وذلك لتعليل ظواهر حياته الحاضرة لانها وليدة الماضي ، ومن خلالها ينظر الى المستقبل الذي سيكون وليد الحاضر .

سبقت الاشارة الى أن ما يصل اليينا من وثائق تخص المعارف والعلوم لا تمثل اولى المحاولات فجذور المعارف تمتد الى ابعد من اختراع الكتابة فان اللغة هي التي مكنت الانسان من نقل

خبراته الى الاجيال اللاحقة ، وهذا ما ينطبق على معارف العراقيين بـ «التاريخ» وذلك عبر تناقلهم الاخبار والاحداث ومحاولة تفسيرهم لها او على الاقل تبريرها . ولايثبات ذلك نقول بالرغم من مرور آلاف السنين على اختراع الكتابة الا ان العديد من الامم ظل يستخدم النقل الشفوي للقصص التاريخية والملاحم البطولية وغيرها . ويمكن ان نورد العديد من الامثلة في هذا المجال وبخاصة ما يتعلق بملحمة جلجامش والايلاذة والاوديسا في الادب اليوناني والوقائع الحربية الروائية عن المآثر العربية او ما يعرف بـ «ايام العرب» التي رويت شفاهاً . وقبل البدء بعرض معارف العراقيين عن التاريخ وطرق تدوينه نجد لزماً ذكر شيء ما حول كلمة «تاريخ» فاللغويون العرب ينسبون الكلمة الى اهل الكتاب من عبرانيين وسريان والباحثون الاوريون يذهبون الى ان اول من اطلق تسمية «التاريخ» (History) هو المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس (الذي دون في حدود منتصف القرن الخامس قبل الميلاد) وقصد هيرودوتس بكلمة التاريخ التحري وتسجيل احداث الماضي وروايتها . ويرى المرحوم الاستاذ طه باقر ان التأصيل الصحيح لمادة أرّخ يؤرخ بمعنى «عين الزمن وحدوده» ومنها تأريخ وتورّخ وانها من المفردات الاكديّة warhum او arhum ومنها وردت كلمة تأريخ لتعني تحديد الزمن .

وكان من بين ابرز الانتاجات الفكرية العراقية القديمة هي كتابة التاريخ ، وموقف المؤرخ العراقي القديم من الحدث التاريخي وكما يقول الاستاذ شبايزر فان المؤرخ العراقي القديم اعتبر التاريخ «نتاجاً لعوامل سابقة عليه» وقوة فعالة في الحاضر وفعلاً لتشكيل المستقبل . ويرى الاستاذ سارتون بان العراقيين الاوائل لم يحسبوا انفسهم محدثين في الحضارة ، بل وارثين لتراث ماضٍ مجيد ، وهم اول المبتكرين لفكرة مرور الانسان في عصر ذهبي، معتمداً في ذلك على ما ورد في احد الاساطير التي قام بترجمتها الاستاذ كريم والتي تورد ما يلي :

« في تلك الايام لم تكن الحية في الوجود ، ولم يكن العقرب ، ولم يوجد الضبع ولا الاسد ، ولم يكن الكلب الوحشي ولا الذئب ، لم يكن خوف ولا هلع ، ولم يكن للانسان من غريم » .

« في تلك الايام كانت ارض الشرق ، موضع الخير العميم وموضع الاحكام العادلة » « وكانت بلاد سومر ذات اللسان الواحد المنسجم ، هي البلاد العظيمة التي نبعت منها احكام الامارة » « وكان الشمال ، الارض المحتوية على كل ما يحتاج اليه وكانت بلاد الغرب آمنة مطمئنة » كان الكون جميعه ، والناس كلهم ، يجدون انليل بلسان واحد » . ومع ايماننا بأن منهجا علميا في تفسير وتقييم الحدث التاريخي لا نجده الا في وقت متأخر الا ان العراقيين القدماء كانوا السابقين في العديد من مجالات العلم والمعرفة . وبضمنها « الحس التاريخي » أي الاهتمام بتدوين الاحداث المهمة ومحاولة تفسيرها ولفهم هذا الحس التاريخي وطريقة تدوينه لابد لنا من ايراد الامثلة . فمن ادب العراق القديم الذي ربما يعود بتاريخه الى عصور قبل التاريخ ، نقرأ في ملحمة جلجامش ما يلي :

« هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي

وهو الذي عرف جميع الاشياء وافاد من عبرها

وهو الحكيم العارف بكل شيء

لقد أبصر الاسرار وكشف عن الخفايا المكتوبة

وجاء بانباء ما قبل الطوفان

لقد سلك طرقا بعيدة متقلبا ما بين التعب والراحة

فنقش في نصب من الحجر كل ما عاينه وخبره . . . »

وفي مكان اخر من نفس الملحمة نقرأ الايات التالية :

« ابحث عن اللوح المحفوظ في صندوق الالواح النحاسية . .

وافتح مغلاقه المصنوع من البرونز . .

واكشف عن فتحته السرية

تناول لوح الحجر اللازورد وأجهر بتلاوته .. »

كما ان اترا خاسيس بطل قصة الطوفان البابلية لم يفكر في اعتى واحلك الظروف بشيء اكثر من تفكيره بايصال « الكلمة » الينا فاشار على اهل سبار (ابو حبة - قرب اليوسفية) يدفن ما بحوزتهم من كتابات لكي لا تضيع « الكلمة » بعد ان يغمر الطوفان بلاد بابل ..

وهكذا حفظوا « الكلمة » للعائدين بعد الطوفان ليقيموا معابدهم ودورهم من جديد وليشيدوا بكل اعتزاز بابل ، ولحسن الحظ فان تلك « الكلمة » التي كتبوها بقيت محفوظة كما هي على الطين الخالد لبلاد وادي الرافدين .

ولعل ما يعرف بقوائم الملوك (King Lists) وبخاصة قائمة الملوك السومرية ، كانت من ابرز المصادر التي عرفتنا بفهم العراقيين القدماء للتاريخ . وزودتنا تلك القوائم باسماء الكثيرين من الملوك وسنوات حكمهم وفي بعض الاحيان اسماء عواصمهم . ولم تخل مثل تلك القوائم من الاشارة الى احداث تاريخية وبخاصة تلك الاحداث المتعلقة بالحروب والانتصارات . فكان ينص في قائمة الملوك السومرية مثلاً على ضرب مدينة ما او بلد ما بالسلاح ونقل الملوكية الى مدينة او بلد آخر . وبالرغم من ذهاب بعض الباحثين الى ان العراقيين القدماء لم يعرفوا حدثاً تاريخياً فاصلاً يمكن بموجبه معرفة مدى عمق الامتداد التاريخي لهذا البلد ، الا اننا نرى وبكل وضوح ان كاتب تلك القوائم يشير الى « الطوفان » باعتباره الحدث الفاصل ما بين السلالات التي حكمت قبل حدوثه والسلالات التي جاءت بعده . وتجدر الاشارة الى ان العديد من الامور المتعلقة بهذه القائمة لا تزال غامضة ، وكمثال على ذلك نشير الى الارقام الكبيرة لسني حكم بعض الملوك وعدم ذكر بعض السلالات الحاكمة ... وكل ما نستطيع قوله بهذا الخصوص هو

ان سني الحكم الكثيرة ربما تخص سلالات وليس الحاكم المذكور فقط ،
اما بالنسبة لاغفالها ذكر بعض السلالات التي عرفناها من خلال التنقيبات
الاثرية فيمكن ان يكون السبب هو ما كان قائماً من عداوة او حروب بين
تلك السلالات والسلالات التي جاءتنا منها تلك القائمة . وبالرغم من كل
هذا وذاك تبقى هذه الوثيقة الخاصة بتدوين التأريخ الاولى من نوعها في
العالم .

وعلى صعيد آخر فان ما وردنا من قوائم ملوك العصور اللاحقة ،
الاكديّة والبابليّة والاشورية يشير بكل وضوح الى تقدم هذه المعارف حيث
مكتنتنا تلك القوائم من معرفة الاحداث الرئيسية التي وقعت ابان حكم كل
ملك حيث اشتق اسم تلك السنة من ذلك الحدث وبالتالي الوصول الى تدوين
الاحداث ، فاذا اراد احد الملوك معرفة اعمال من سبقه من الملوك فما عليه
الا ان يقرأ قائمة سني حكمه التي تتضمن عادة اعماله الحربية وانتصاراته
واعماله العمرانية وهداياه الثمينة للمعابد والكوارث التي المت به او ببلاده
وما الى ذلك من احداث هامة .

وعند الحديث عن معرفة العراقيين بالتأريخ فلا بد لنا من الاشارة ايضا
الى بعض الاعمال العمرانية وبخاصة المعابد التي بقيت لقرون عديدة على
نفس المخطط واستطاع الاثاريون الكشف عن معابد قد اعيد تشييدها عدة
مرات ففي اريدو وغيرها من المدن العراقية القديمة يمكننا ان نتبع بناء معبد
لاكثر من عشرين طبقة بنائية ، ولعدد أكبر من ذلك باسماء ملوك او حكام
قاموا باعادة تشييد او ترميم هذا المعبد او ذاك . وهذا ان دل على شيء فانما
يدل على شعور العراقي القديم بالفكرة الرمزية للتأريخ . وما دما بصدد
الحديث عن تخليد بعض الملوك لاعمالهم العمرانية فلا بأس اذن من ذكر
شيء عن الوثائق التي وضعت بالاصل لخدمة هدف محدد وهو التأريخ .
هناك بعض الملوك الذين لم يكتفوا باعادة البناء لمعبد ما بل التحري عن

السسه الاولى « تاريخه » ومعرفة ما اصابه من تجديد على ايدي الملوك
السابقين له .

فالملك شيلمنصر الاول الذي حكم بلاد اشور خلال القرن الثالث عشر
قبل الميلاد يخبرنا عن اصل بناء أحد المعابد في اشور قائلاً بان ذلك المعبد قد
شيد على ايدي اوشيبا (Ushipa) واعيد بناؤه من قبل ايريشوم الاول واعيد
بناؤه ثانية بعد ١٥٩ سنة من قبل شمشي أدد ورمم من قبله اي شيلمنصر
الاول بعد ٥٨٠ سنة من بنائه الاول ، ولعل من الطريف ذكره ان الملك
أسرحدون يخبرنا في كتاباته الخاصة بترميم المعبد نفسه باسماء ملوك آخرين
قد قاموا بترميم وتجديد هذا المعبد وانه قام بنفسه بترميم المعبد المذكور بعد
٥٨٠ سنة ايضاً من الترميم الذي قام به شيلمنصر الاول .

اما اشور بانينال فيخبرنا عن واقع احداث سابقة لعصره باكثر من الف
عام فنقرأ في حوليات هذا الملك المنتصر : « اما الالهة نانا (عشتار) Nanā
التي كانت غاضبة لمدة ١٦٣٥ سنة والتي اجبرت على الاقامة في عيلام ، البلد
الذي لا يليق بها ، فانها عندما اسمتني هي والالهة الاخرى من آبائها لحكم
هذه البلاد اعادتني على اعادتها الى مكانها الاصلي وبهذه الكلمات خاطبتني :
اجل انه آشور بانينال الذي سيخرجني من عيلام المذبذبة وسيدخلني الى
(اي - انا) E-AN-NA وهكذا عمدت على جلب هذه الالهة واعادتها الى
الوركاء مكانها الخالد وفي معبد اي - خليانا E. hilianna الذي تحبه »
فاشور بانينال يخبرنا هنا وبكل وضوح عن احداث الغزو الهيجي الذي
تعرضت له البلاد ابان حكم الملك العيلامي كوتر - ناخوتتي الذي نهب العديد
من الدور والقصور الموجودة في المدن العراقية وبخاصة مدينة الوركاء .

وتأتي بنفس الاهمية او ربما تزيد اعمال ومدونات الاثاري العراقي الاول
الملك نبونائيد الذي يخبرنا بانقضاء ٣٢٠٠ سنة بين وضع حجر الاساس
لترميم معبد شمش في سبار من قبل الملك الاكدي نرام سين وبين حجر

الاساس الذي عمله لنفس الغرض * * ومن الطريف ذكره ان العاملين في مشروع احياء مدينة بابل عثروا على صندوق يحتوي على ثلاثة نصوص أسطوانية الشكل مكتوبة بالخط المسماري احدها يعود الى الملك نبونائيد * يخبرنا فيه انه وجد كتابات ملك آخر ووضعها مع كتاباته وبالفعل فبقية النصوص تعود الى الملك نبوبولاصر *

وتجدر الاشارة ايضا الى فكرة العراقي القديم عن النظرة المستقبلية للتأريخ * وما دمننا بصدد الحديث عن الملك نبونائيد فنستشهد بكلام هذا الملك وبنفس النص الوارد ذكره اعلاه بانه اذا ما تهدم البناء واراد احد الملوك اعادة بنائه فعليه ان يحتفظ (ذلك الملك) بكتابات نبونائيد مع كتاباته وان لا يغير فيها وستحل عليه بركات الآلهة * اما اذا حُرف كتاباته فستنزل عليه وعلى ذريته اللعنات وسوف تسخط عليه الالهة * * والحق ان نبونائيد لم يكن اول من قال بذلك بل سبقه العديد من الملوك العراقيين ومنذ العصر الاشوري القديم وبالتحديد من زمن الملك ايريشوم السالف الذكر *

وتتوضح اهمية دراسة التأريخ من قبل العراقيين القدماء من خلال اهتمامهم بالمكتبات والارشيفات وتنظيمها وفهرستها ، فالملك اشور بانيال صاحب اكبر مكتبة معروفة ارسل الى عماله على بعض المدن ومنها بورسيا بان يرسلوا اليه كل ما هو مفيد من نصوص قديمة دينية او كتابات على الحجر او ما ينفعه في حكمه او شؤون قصره * ومكتبة آشور بانيال ذاتها حفظت لنا استنساخات من نصوص سومرية واكدية وبابلية قديمة وذات مواضيع متنوعة * وما عثر عليه في مكتبة بيت الكاهن في اشور من استنساخات لقوانين حمورابي يمكن ان نورد لها كمثال اخر على اهتمام شريحة اخرى من المجتمع العراقي القديم بهذا الحس التأريخي *

ومن النصوص المهمة التي امدتنا بمعارف العراقيين عن التأريخ نصوص العرافة (Omen Texts) فبالرغم من ارتباط هذه النصوص بالامور الدينية

والسحرية احيانا الا ان البعض منها يتضمن مادة تأريخية خالصة وبخاصة تلك النصوص التي تحتوي على اشارات عن سقوط ملك ما وارتقاء العرش من قبل ملك اخر . او تلك التي تحدثنا عن انتصارات بعض الجيوش وعن دحر الغزاة .

ومن الكتابات التقليدية التي ترينا بوضوح اهتمام العراقيين القدامى بالتأريخ ، الرسائل ، بخاصة الرسائل الملكية المقدمة للالهة ، ففي هذه الرسائل كثيرا ما يخبرنا الملوك عن اعمال قاموا بها سواء كانت اعمال حرب وانتصارات او أعمال شرور قام بها الغزاة . ولدينا رسائل كثيرة من هذا النوع ومن فترات مختلفة ، ومن بين هذه الرسائل رسالة من ماري . قدمها الى الاله الامير يسمخ - ادد وفيها يذكر لنا هذا الامير الاجيال الثلاثة التي سبقتة على حكم ماري . ويعتقد البعض من الباحثين بان ذلك كان تقليدا يمارسه الاموريون في تقديم الشكر او طلبا لمغفرة الذنوب وتلبية الرغبات وانتقلت هذه العادة الى الآشوريين بواسطة اشمي - داكان وشمشي - ادد .

وبالرغم من الصبغة الدينية التي تحاط بها مثل هذه الرسائل الا ان البعض منها يخبرنا باحداث تأريخية كاملة . وخير مثال يمكننا ان نسوقه في هذا المجال رسالة الملك الاشوري سرجون الثاني الى الالهة . ومن الطريف ان هذه الرسالة قد امتدتنا وبشكل كامل تقريبا باحداث الحملة الثامنة لهذا الباهل الآشوري الشهير . وتأتي بعد ذلك بالاهمية رسالة سبقتها بقرن من الزمان رفعت الى احد الالهة من قبل الملك الآشوري شمشي - ادد الخامس .

• وعن النظرة الموضوعية لتسجيل التأريخ ، فيمكن ان نورد العديد من الامثلة وبخاصة تلك التي تتمثل بكتابات الملوك الذين يحاولون تبرير فشلهم في عمل ما أو نسبة ذلك الى نقمة الالهة، وهذا ما ذكره لنا الملك نبونائيد حول تخريب بابل من قبل الملك الآشوري سنحاريب وتبريره لهذا الحدث

بغضب الاله مردوخ كبير آلهة بابل عليها ولكونها تستحق هذا الخراب ، ومن الطريف ذكره ان مثل هذا التصور يمكن تتبعه الى ازمان سبقت حكم بونائيد بعشرات القرون وبالتحديد الى العصور السومرية والاكديّة •
ونتقل الان الى الكتابات النذرية • ففي البدء احتوت مثل هذه الوثائق الهامة كلمة او بضع كلمات او عبارة شكرا للاله او الآلهة لمعبدا ما •

الا انه سرعان ما تطورت مثل تلك النصوص واخذت تكتب وبشكل تفصيلي عن طبيعة المناسبة ، ونخص بالذكر من هذه الكتابات ما دون على بعض الآنية و التماثيل والمسلات بالاضافة الى المسامير والمخاريط والمواشير التي تدون حدثا واحدا • ولعلنا لا نجازف ان اشرنا في هذا المجال الى الموائيق والمعاهدات المبرمة فيما بين ملوك العراق القدامى او بين احدهم وملك اخر من البلدان المجاورة فكل الوثائق اعلاه تتحدث عن تدوين تأريخ حدث واحد • وهذا النوع من التواريخ يمكن ان نصفه بتأريخ احداث سياسية لا بد من تدوينها •

وتبقى نصوص الحوليات (Annals) الملكية أي ذكر الحوادث عاما بعد عام عند تدوين اخبار الملوك ، احد ابرز الشواهد على اضطلاع العراقيين بمعرفة التأريخ وتدوينه • ويمكننا ان نتبع تأريخ مثل هذه المدونات الى ايام حكم الملك السومري ائتمينا فلم يخبرنا هذا الملك عن المعارك التي دارت بين دولة لكش واوما فحسب بل استعرض لنا في مدوناته احداث سبقت عهده بما لا يقل عن اربعة اجيال ••• ولقد تطور هذا الاسلوب التأريخي الى ان وصل مرحلة نضجه ابان حكم السلالة الآشورية الحديثة • وخلف لنا الآشوريون نصوصا مطولة تخص اعمالهم الحربية والعمرانية • اضافة الى ذلك توصل الآشوريون الى ما يعرف بالتأريخ التعاصري (Synchronistic History) الذي هو عبارة عن استعراض لتأريخ الاحداث

الهامة التي وقعت في بلاد آشور وما يعاصرها من احداث في بلاد بابل ،
وتناولت مثل هذه المدونات تأريخ حكم ملوك آشورين وبابليين منذ العهدين
الآشوري والبابلي القديمين .

وخلف لنا الكتبة البابليون ، نوعا آخر من المدونات التاريخية المعروفة
بكتب الاخبار Chronicles امدتنا هذه الكتب بمعلومات لاحداث هامة يعود
قسم منها الى القرن الثامن عشر ق.م اما احداثها فتصل بنا الى العهد
السلوقي ، وطريقة هذه الكتب الاخبارية في تدوين الحوادث ، هي ذكرها
عاما بعد عام ، على غرار ما عمل به المؤرخون اليونان والرومان والعرب .
وتجدر الاشارة الى اهتمام العديد من الباحثين الاوربيين بهذا الموضوع
ومنهم وايدنر Weidner وجاد Gadd ووايزن Wiseman وجريسون Grayson
وقد جمع الاخير كل النصوص الخاصة بكتب الاخبار الآشورية والبابلية ونشرها
في كتابه الموسوم Assyrian and Babylonian Chronicles سنة ١٩٧٥ .

وقبل انهاءنا الحديث لابد من اشارة الى المستوى الراقي الذي وصل
اليه العراقيون القدماء في مجال البحث التاريخي على يد برحوشا Berossus
الذي عاش في القرن الثالث ق.م . ابان حكم الغزاة السلوقيين . ألف هذا
المؤرخ العراقي كتابا عن تأريخ بلاد وادي الرافدين منذ الخليقة والطوفان
الى عهد الاسكندر (٣٣١ ق . م) . وللأسف الشديد لم يصل الينا من هذا
الكتاب سوى شذرات في كتب المؤرخين اليونان والرومان ، واخيرا لابد من القول
بان الوثائق التي اشرنا اليها سافا قد احتفظت بمعان تاريخية غنية . . ونحن
نعتقد ان مراجعة موضوعية للكتابة التاريخية العراقية ستجعل من « كتب
الاخبار » الآشورية والبابلية سابقة تاريخية على ما انجزه هيرودوتس وجعل
منه أبا للتأريخ . .

البحث الثاني الجغرافية

من دراستنا للنصوص المسمارية المكتشفة في بلاد وادي الرافدين تصادفنا معلومات جغرافية غزيرة يمكنها ان تكون اساس « علم الجغرافية » فكما هو معروف كان للعراق القديم علاقات تجارية قديمة تمتد بجذورها الى عصور ما قبل التأريخ وغطت تلك العلاقات مناطق وبلدان قاصية ودائية . فمن اواسط آسيا الصغرى شمالا الى الخليج العربي والجزيرة العربية جنوبا ، ومن موهنجو دارو في وادي السند وبلاد فارس في الشرق . الى بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وبعض الجزر فيه ومصر وليبيا وغيرها من البلدان الافريقية في الغرب وكثيرا ما تناولت النصوص المسمارية طرق المواصلات البرية والمائية وامتدنا بتسميات للبحار والانهار والمدن والقرى الواقعة على تلك الطرق . ان بعد الامصار التي اتصل بها العراقيون وفي جميع الاتجاهات يكمن في تصورهم لبابل كمركز للعالم بأسره وخير مثال يمكن ان نسوقه في هذا المضمار الخارطة الآتية :

التي تمثل العالم القديم • فالعالم بنظرهم عبارة عن دائرة تشتمل على بلاد بابل وبلاد آشور تحف بهما الجبال من الشمال والاهوار من الجنوب ، ويحيط بهذه الدائرة المحيط وعلى اطرافه رسمت مثلثات ربما تمثل بعض الجزر او الطرق البعيدة الى سلكها بعض الملوك في حملاتهم العسكرية •

تناولنا في المبحث السابق وباسهاب معارف العراقيين القدماء بعلوم التدوين التأريخي • ولا مجال للشك في أن كتبة التأريخ كانوا على معرفة بالجغرافية • فالمعلومات الواردة في المدونات التأريخية سرعان ما كثر خلال العهد البابلي القديم مما تطلب بعض التوضيحات والشروح لذلك فقد زدنا الكتبة العراقيون القدامى بالعديد من النصوص المعجمية Lexical Texts التي احتوت على قوائم للبلدان والاقاليم والمدن • وربما استخدمت تلك القوائم كدليل للرحلات التجارية او للامور الادارية او العسكرية •

ان ارقى ما وصل اليه الكتبة العراقيون القدامى في هذا المجال ، النصوص التي تخص فتوح البلدان • وقد اشتهر العديد من الباحثين الذين فكوا رموز تلك النصوص وحاولوا تفسيرها ومن اشهرهم الاساتذة ايرنست وايدنر Ernst Weider والبرت كوتسه A. Goetze وأ • ك • كريسون

• **A.K. Grayson** وغيرهم •

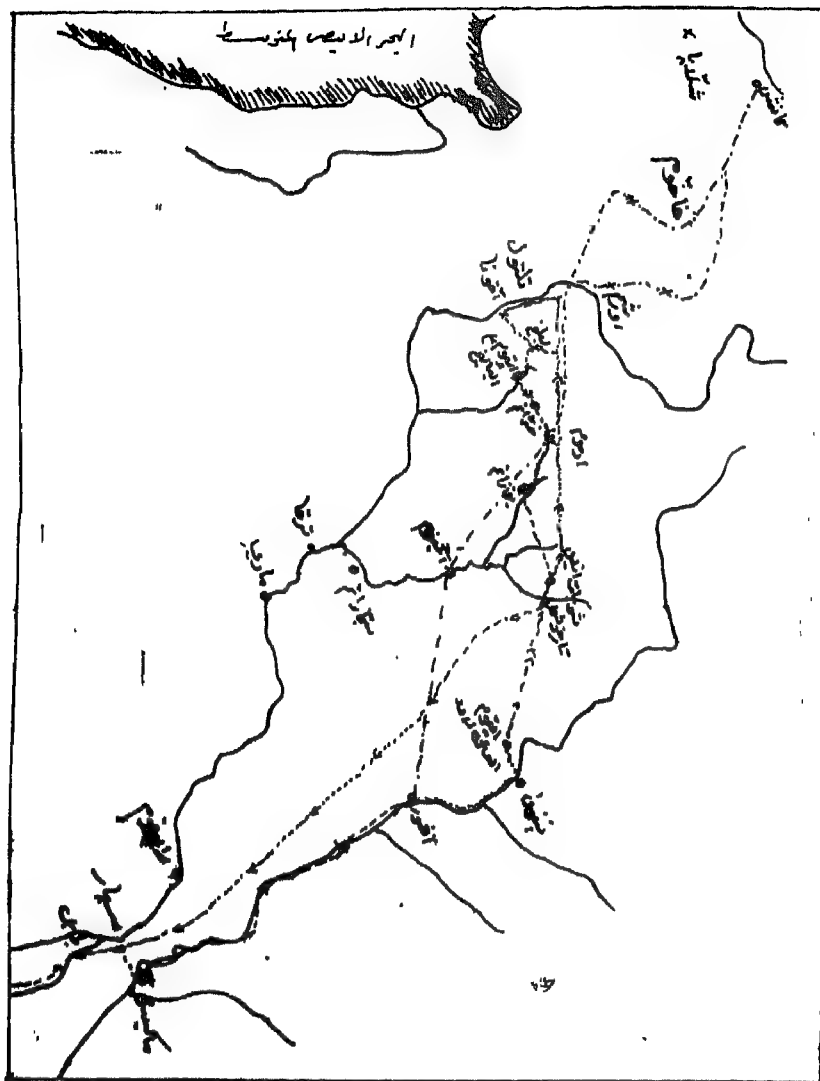
ويبقى النص المتضمن ثبثا بفتوحات الملك الاكدي سرجون خير مثال على ذلك • فنطالع في هذا النص بعد تدوين اسماء البلدان والمدن التي فتحها وحركته من مدينة الى اخرى ما نصه : « مسيرة ١٢٠ ساعة مضاعفة بين منابع الفرات وبلاد ميلوخوا ومكان • الحدود التي فتحها سرجون ملك

العالم ، عند سيطرته على كل البلاد المغطاة بالسماء • الحدود التي حددها بالقياسات التي ثبتها » • وبعد ذلك يدون الكتبة ثبثاً بأبعاد حدود كل بلد وكمثال على ذلك « ٩٠ ساعة مضاعفة(*) مساحة بلاد عيلام، ١٨٠ ساعة مضاعفة مساحة بلاد أكد » • وبعد ذلك يخبرنا النص بالحدود العامة وتخصيص بعض البلاد المجاورة لها ومن ذلك ذكره للبحر العلوي A. AB. BA elīti (البحر المتوسط) وبعض البلدان عبر ذلك البحر • والبحر السفلي A. AB. BA šaplīti (الخليج العربي) مقترنا بدلمون (البحرين) ومكان (عمان) ويمضي فيخبرنا بالاقاليم من الشرق الى الغرب •

ويأتي بنفس الاهمية النص المتضمن مسيرة جيش من لارسا (سنكره) الى بلاد آشور • نقرأ في هذا النص ان الكاتب دوّن عدد الايام التي يستغرقها الجيش في مسيرته من مدينة الى اخرى • فمثلا من بابل الى سبار (ابو جبة قرب اليوسفية) مسيرة خمسة أيام • ومن سبار الى دور أبل - سين (قرب ديالى) مسيرة عشرة ايام ... الخ ويستمر النص ليخبرنا بالوصول الى بلاد آشور والمسافات فيما بين مدنها ومن ثم العودة بطريق آخر الى لارسا :

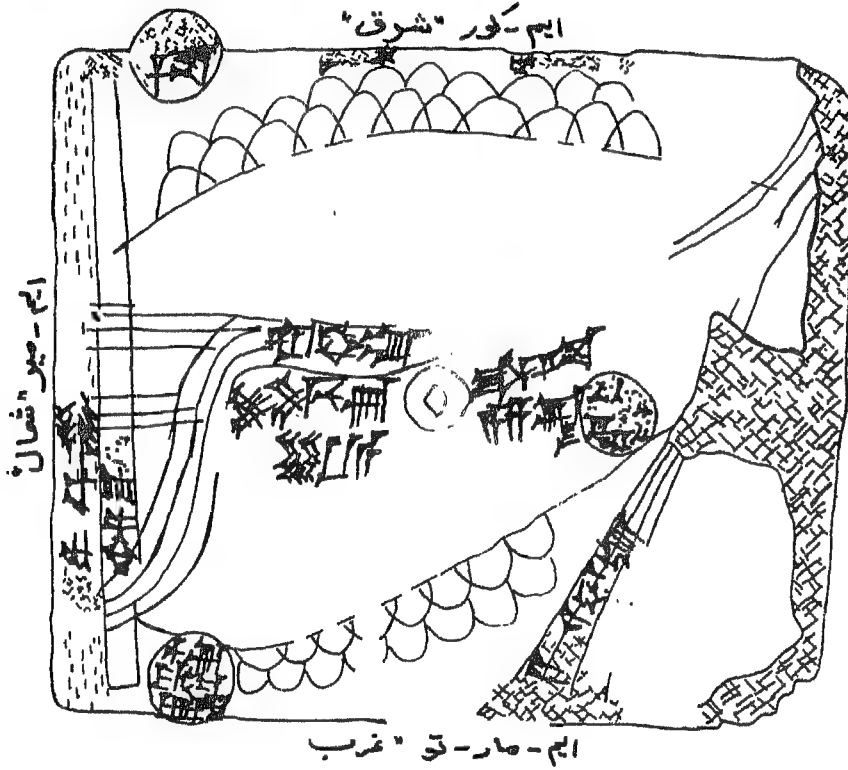
ومن الناحية الطبوغرافية فان العراقيين القدماء قد اهتموا بالجبال والصحارى والمسطحات المائية والانهار والبحار ودونوا قوائم باسمائها • اضافة الى ما تركه لنا بعض الملوك من منحوتات تصور تلك الجبال والاهوار والانهار وغيرها • وخير مثال على ذلك نراه من خلال المشاهد المرسومة على مسلة النصر لنرام - سين والنحت البارز على جدران قصر آشور بانيال ... وكذلك الخارطة الطبوغرافية التي عثر عليها في مدينة نوزي

* المقصود بالساعة المضاعفة الساعة البابلية التي كانت تساوي ضعف زمن الساعة الحالية • وتقدر المسافة التي يستطيع الانسان قطعها في الساعة البابلية حوالي فرسخين (= ١٠.٨ كم) وبذلك تساوي مسافة ١٢٠ ساعة مضاعفة ١٢٩٦ كم •



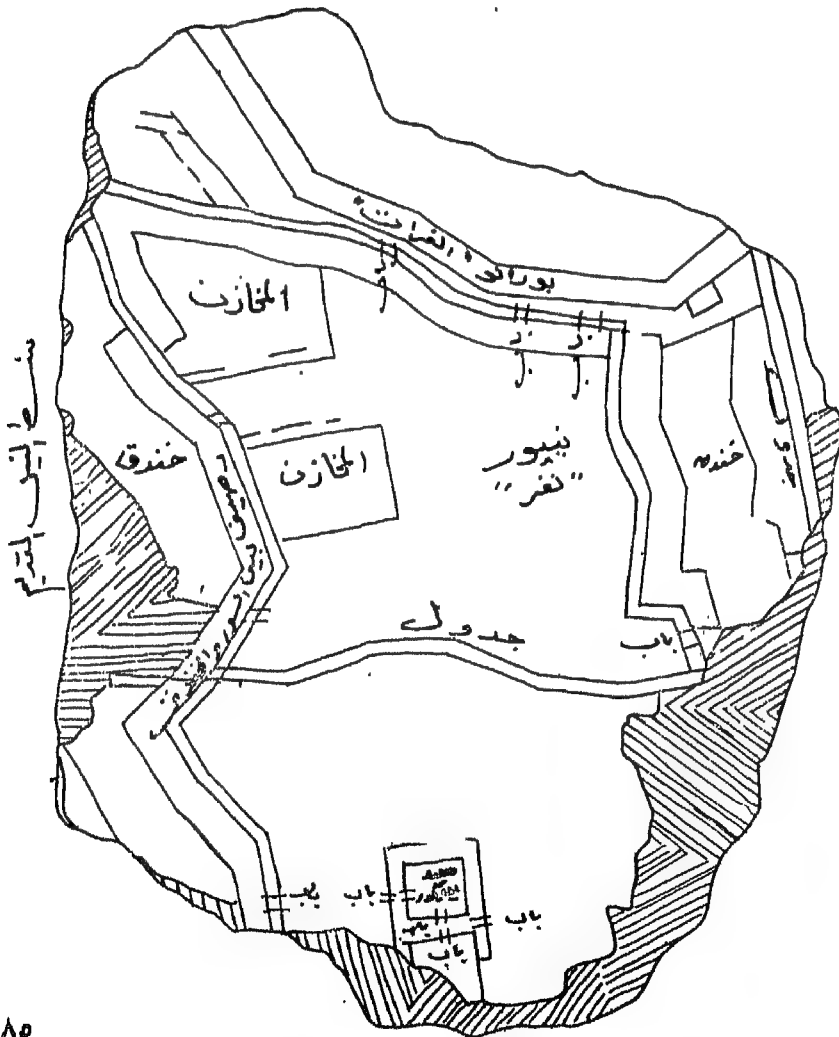
- مقياس ١ : ٣٥.٠٠٠
- - - الطريق الذي يمكن تتبعه
 - الطريق غير مؤكد
 - . - . الطريق المعروف والواصل الى كبدوكيا
 - المواقع المعلومة
 - x مواقع المدن غير المؤكدة

قرب كركوك وتظهر عليها الجبال والانهار والطرق وبعض المدن واسوارها
ومن ابرز ما جاءت به هذه الخارطة هو تحديد الاتجاهات الاربعة التي لم
تظهر على الخوارط الا في وقت متأخر :

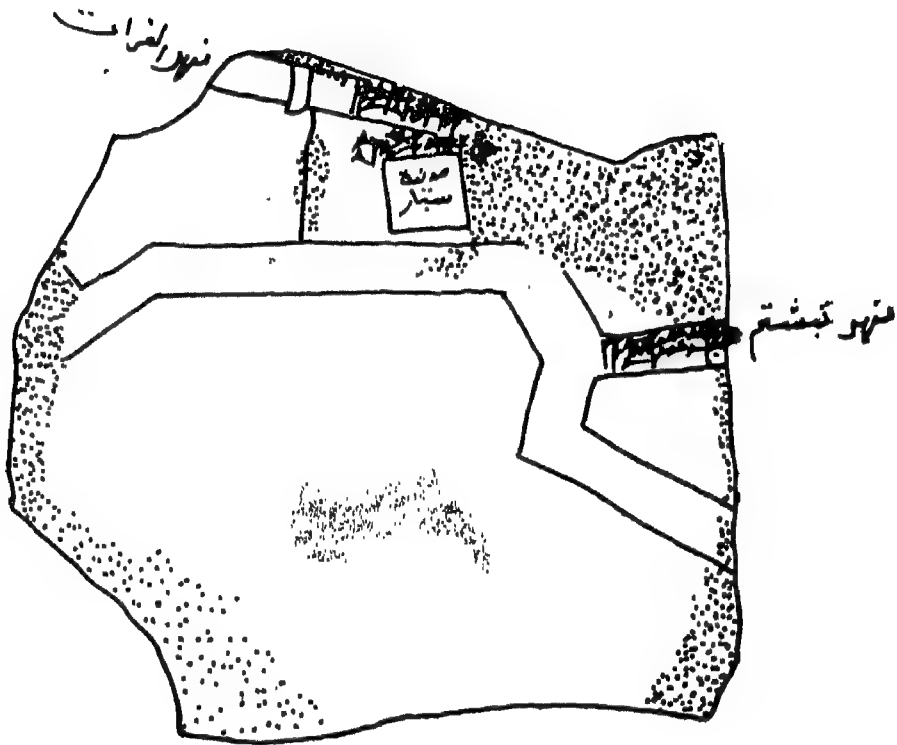


اما بخصوص تخطيط المدن فلا مجال للشك في قصب السبق للعراقيين
القدماء الذين اهتموا ببناء « المدن » منذ عصور قبل التاريخ ومطلع فجره .
ودليلنا على ذلك أقدم القرى والمدن واكثر من ذلك عثور المنقبين على خوارط
من العهد البابلي القديم لمدينتي نمر وسپار .
تمثل الخارطة الاولى الجزء الشرقي من مدينة نمر القديمة ، ويظهر على
هذه الخارطة اسم مدينة نمر واسم نهر الفرات واسماء القنوات والجداول
التي تمر بها اضافة الى بعض المعالم الرئيسية فيها مثل معبد أي - كور

E. KUR والمخازن والسور والبوابات والخنادق المحيطة بالسور *** ومن الجدير ذكره ان البعثة الامريكية التي عملت في هذه المدينة قد اعتمدت هذه الخارطة للكشف عن العديد من المرافق البنائية :
 اما الخارطة الثانية فتمثل مدينة سيار * عشر على هذه الخارطة خلال التنقيبات التي قام بها هرمز رسام (١٨٨١ - ١٨٨٢) * ويظهر على هذه الخارطة سور مدينة سيار المستطيل الشكل ، والذي ما يزال قائما الى يومنا هذا ، والانهار والقنوات التي تمر بهذه المدينة :

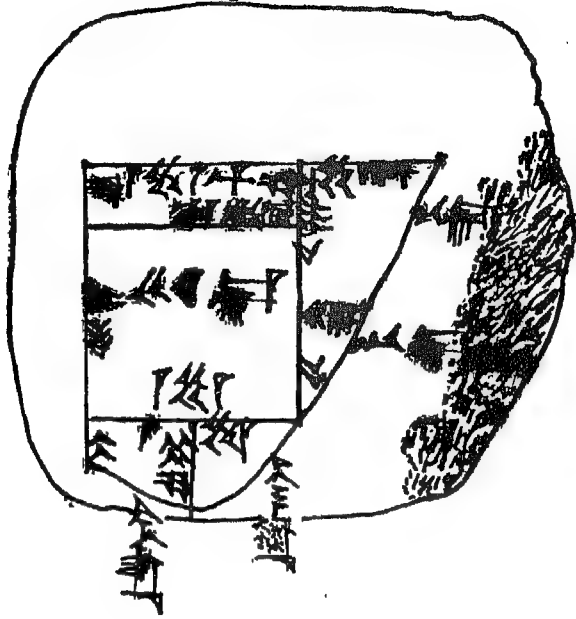


وما دمنّا بصدد الحديث عن الخرائط لأبد من ذكر بعض الشيء عن ما
توصل اليه العراقيون في مجال رسم خرائط بمساحات الحقول وموقع كل



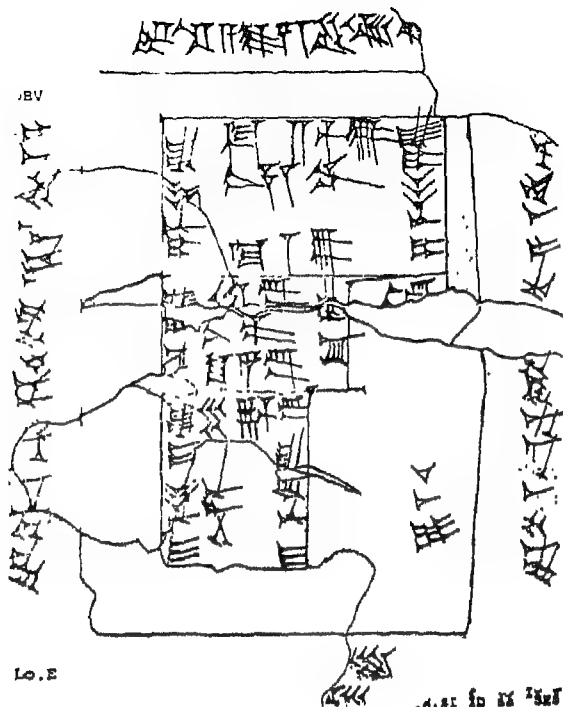
منها بالنسبة لجيرانه • والخوارط التالية تمثل هذا الابتكار خلال عهود
مختلفة • الاولى من عهد سلالة اور الثالثة ، والثانية من العهد البابلي القديم
والثالثة من العهد البابلي الحديث (الاشكال - ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) •

الشكل - ٦



خارطة لقتل برسمت من قبل احد
العساكين العراقيين القداماء
عليها تاريخ السنة الثانية من حكم الملك
بورس سيجنا من سلالة اوجر ايتا لثة

استنسخة من F. J. Stephens مجلة JCS



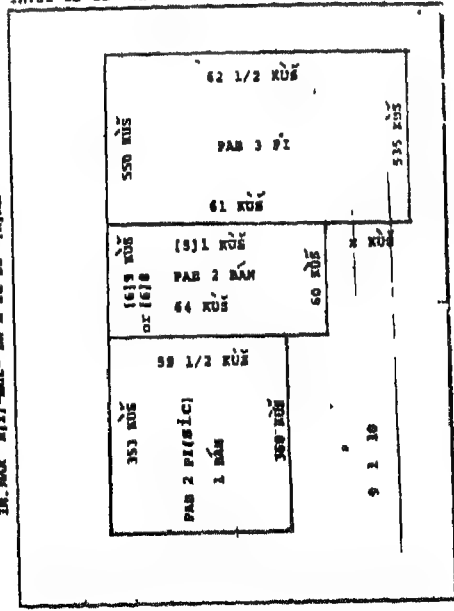
ب.ب

ب.ب

مبنى 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

مبنى 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

الشكل - ٨



مبنى 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

واذا ما اردنا الحديث بخصوص الجغرافية الاقتصادية ومعارف العراقيين
القديمي واهتمامهم فيها تبرز امامنا امثلة كثيرة ومتعددة * من ابرزها تحديد
المواقع التي ترد منها البضائع المستوردة وتسمية بعض السلع باسماء تلك
المواقع كما في قولهم نحاس مكنان (عمان) * وكما اسلفنا القول فان من
مقومات الجغرافية الاقتصادية تحديد طرق المواصلات اضع الى ذلك
النشاطات التجارية وصولا الى تأسيس بعض المراكز التجارية في الاناضول
وغيرها ، اضع الى ذلك ما احصته القوانين العراقية القديمة *

اما في مجال معارفهم بالمناخ فخير مثال على ذلك هو ما خلفه لنا
العراقيون من نصوص تخص مواعيد الزرع والحصاد او ما يعرف « بكتاب
الفلاحة » ومعارف العراقيين بما يعرف بالانقلاب الشتوي والصيفي ***

خلف لنا الكتبة العراقيون مدونات عديدة تخص المجتمعات البدوية
والحضرية وقوائم باسماء القبائل والاقوام والشعوب الا انهم لم يتوصلوا
الى بحث ما يعرف بجغرافية الاجناس * اما في مجال الجغرافية الحضارية
فخلف لنا العراقيون مدونات كثيرة تخص بعض الصناعات وبخاصة صناعة
صناعة النسيج والزجاج وسبك المعادن وصياغتها * وفي مجال هندسة الري
فالمخططات الاثرية خير شاهد وبخاصة مشاريع ارواء اربيل وبنوى وكركوك
وغيرها ، والتي قام بها الملك الآشوري سنحاريب *

يتضح مما تقدم ان العراقيين القدماء كانوا اول من وضع اسس العلوم
الجغرافية بفروعها المختلفة والتي اخذها عنهم اليونان والرومان والفرس
والهنود وغيرهم من الاقوام .

البحث الثالث الرياضيات والفلك

اعتاد الباحثون في تأريخ العراق الحضاري عند تعرضهم للنتاجات الفكرية ، ان يتناولوا القصص والملاحم او طبيعة النظم السياسية والادارية والقانونية وتطورها . كما أن اولئك الباحثين غالبا ما أكدوا على النزعة الاسطورية التي تلازم الننتاجات الفكرية ، ومع ذلك فان معظم مباحثهم تؤثر حقيقة التطبيقات التجريبية على ارض الواقع التي تؤثر بدورها مناهج علمية صحيحة ، ولكن تفسير نتائجها بقي حبيس الفكر الاسطوري .

وعلى الرغم من ذلك فإن العلوم والمعارف التجريبية تؤدي بمرور الوقت الى موقف فكري نظري مجرد وبخاصة في العلوم الرياضية بعيدا عن التأويلات الاسطورية . وعليه فان العلوم الرياضية العراقية القديمة تعد الننتاج الفكري المتميز بأسلوب علمي ، الذي لو ساد في بقية المعارف لقاد العراقيين حتما الى فكر فلسفي نظري يعلل العديد من الامور بشكل مجرد . وعلوم الرياضيات من الافرازات الطبيعية لجوانب التطور الاقتصادي الاجتماعي والفكري في بلاد وادي الرافدين ، وعلى الرغم من كون خطواته

الاولى تقترب من المعارف التجريبية ، لكنه حقق بعدئذ خطوات في غاية التقدم والابداع صوب اكتشاف مجموعة من الحقائق العلمية التي افرزتها التأملات النظرية المجردة •

وباختصار يمكننا التأكيد بان ما حققته العلوم الرياضية لا يقل اهمية عن غيرها من جوانب الفكر والادب ، ولعلها تزيد بقية العناصر الحضارية خطورة لانها تنفي عن الحضارة العراقية القديمة صفة الفكر المثالي او الاسطوري ، وتكشف عن توجهات علمية نظرية سبقت معارف اليونان والهنود في هذا الشأن بعشرات القرون •

وعليه ، فان حضارة تمتلك مثل هذه المقومات حرية بمواجهة كل التحديات وفي كل الظروف والاقوات • ومما يؤكد ديمومة الحضارة العراقية القديمة ان علوم الرياضيات شهدت فترات اخرى من الازدهار بعد فتراتا الذهبية الاولى في العهد البابلي القديم (بحدود القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق م) وذلك في اثناء فترات الاحتلال الكشي والاخميني والسلوقي • ويشهد على ما ذهبنا اليه كتاب ومؤرخون معاصرون لفترة ازدهار الرياضيات في العراق • وهم من الكتاب والمؤرخين اليونان الذين المحوا الى قصب السبق والتقدم الذي حققه العراقيون في مجال الرياضيات والفلك •

دراسة النصوص الرياضية

بات من المعروف ان فك رموز الخط المسماري وترجمة العديد من المدونات التي جاءتنا من حضارة بلاد وادي الرافدين قد تم بعيد سنة ١٨٥٠ ، وان الآلاف من الرقم قد دخلت في حوزة المتاحف الاوربية في الثمانينات من القرن الماضي ، الا ان الباحثين في علم الآشوريات لم يشخصوا أي نص رياضي • يستثنى من ذلك النص السومري المتضمن قائمة باعداد •

كما قدم الاستاذ الفرنسي الشهير في مجال علم الرياضيات ثيوردانجان Thureau-Dangin قائمة للعلامات الخاصة بالارقام وبعض الكسور .
ثم زاد الاهتمام بالرياضيات العراقية القديمة في مطلع القرن الحالي وأهتم الباحثون بشكل واسع بهذه العلوم في الثلاثينات منه . ومن بين أشهر العلماء المشتغلين في هذا الحقل الاستاذ الالماني نويكيوير D. Neugbauer وساكس A.J. Sacks اعقبهم في الاهتمام بهذا الحقل من علوم العراقيين استاذنا المرحوم طه باقر والاستاذ كوتسه والاستاذ برونز E.M. Bruins والاستاذ البريطاني ساكرز Saggs والعالم السويدي فرايرك J. Friberg
أضافة الى العشرات من الباحثين الآخرين الذين اهتموا بالرياضيات العراقية القديمة . ان دراسة النصوص الرياضية القديمة على جانب كبير من الصعوبة من حيث فرز دلالات العلامات المسماية او من حيث المعرفة التفصيلية بعلم الرياضيات . ويبرز من بين اهم الصعوبات التأريخ الطويل للمعارف بالرياضيات التي يمكن ان تمتد الى بداية وجود الانسان لان العدد جزء اساس من اجزاء الكلام . وتعزيزا لما ذهبنا اليه هناك آثار عظيمة تحتوي على حوز بارقام مختلفة يمكن ان يعود تأريخها الى حوالي ثلاثين الف سنة مضت . والذي يزيد في صعوبة دراسة النصوص الرياضية القديمة هو ندرة الوثائق الرياضية التي تشكل عاملا اخر في الابتعاد عن تناول هذه النصوص .
فبالرغم من وجود مئات الآلاف من الوثائق والنصوص المسماية الا ان حصة الرياضيات منها تكاد لا تتجاوز اربع مائة وثيقة . ولكن اعمال التنقيبات الحديثة التي تجريها المؤسسة العامة للآثار والتراث في مواقع شتى ، واعمال جامعة بغداد في سبار ، قدمت نصوصا جديدة في الرياضيات ، مما يجعلنا نحن الباحثون امام مسؤولية علمية وتاريخية ، وهذا ما دأبت عليه منذ بضع سنوات . وعلى الرغم من كل الصعوبات فحري بنا حمل رسالة الآباء

والاجداد ، وازاحة ركام الحيف الذي يلحقه البعض بمعطيات حضارتنا وبخاصة في توجهاتها العلمية . وبذلك نضيف موقفا متحديا لكل المحاولات التي تستهدف امتنا وعطاءها الحضاري التاريخي المتواصل . فلم تكن حضارة العراق القديم شامخة بفنها وادبها وتنظيمها وقوانينها فحسب ، وانما تعزز شموخها بعلومها ومعارفها التجريبية ، وليست الممارسات الفكرية في مجال الرياضيات والجبر او العمارة والري او التطبيق وتحضير الادوية ، او رصد معالم الطبيعة من انهار واشجار وحيوانات الا امثلة واضحة على العمق والاصالة في حضارة وادي الرافدين .

أدوار الوثائق الرياضية

اعتاد الباحثون في حقل الرياضيات البابلية التأكيد على دورين من ادوار تأريخ العراق القديم . الدور الاول يتمثل بالعهد البابلي القديم (في حدود القرن العشرين والى القرن الخامس عشر ق م) . والثاني متمثلا بالاحتلال السلوقي (اواخر القرن الرابع والى منتصف القرن الثاني ق م) ونحن بدورنا لا نشك في رقي وازدهار علم الرياضيات في هذين الدورين الا ان المباحث الحضارية الحديثة قد اضافت في السنوات الفليلة الماضية معلومات جديدة مهمة عن الرياضيات في فترات اخرى . فبالرغم من اهتمام بعض العلماء ومنهم لنگدون Langdon وثورودانجان ، بالرياضيات السومرية وجذورها ، الا ان الفضل في اشاعة دراسة النصوص التي لها علاقة بالرياضيات يعود الى معهد الرياضيات في السويد وبخاصة الى الاستاذ فرايرك الذي كتب الكثير من الابحاث الموسومة « الجذور الاولى للرياضيات البابلية » "The Early Roots of Babylonian Mathematics" وبسوجبها استطاع هذا الباحث في سنة ١٩٧٩ من التوصل الى ان معارف العراقيين في مجال علوم

الرياضيات يمكن ان يمتد تأريخها الى بداية نضج الحضارة العراقية في حدود ٣٠٠٠ ق م .

من خلال ما تقدم يندنا ان نقول بان عصر فجر السلالات والعهد التاريخي التي نبعته وبالتحديد العهد الاكدي وعهد سلالة اور الثالثة يمكن ان تكون الاساس الذي بني عليه علم الرياضيات والذي ازدهر في العهد البابلي القديم . ومثل ذلك يمكن ان يقال ايضا عن اهمية النصوص الآشورية الحديثة والبابلية الحديثة بالنسبة لعهد الاحتلال السلوقي . يبقى املنا قائما في الكشف عن نصوص رياضية اخرى ومن فترات تأريخية أخرى يمكن ان تلقي الضوء على تطور هذا العلم عبر العصور باجمعها .

نظام العدد


سبق وان ذكرنا بان معرفة الانسان بالعدد يمكن ان تمتد الى بداية ادراكه وتحديداته بلغة ما . فالعدد جزء اساس في كلام اية لغة من لغات العالم باجمعه ، وانه ليس بالشيء المفاجيء لنا ان نجد العدد على اقدم الوثائق المدونة المعروفة والتي يرقى زمنها الى اكثر من خمسة آلاف سنة ماضية .

كان السومريون يستخدمون السهم العشري في العدد ، كاستخدامنا له اليوم في كتابة الاعداد ، الا انهم استخدموا الاساس الستيني ايضا وبخاصة عند كتابتهم الاعداد . ويعتقد البعض من العلماء بان النظام العشري قد استخدم قبل النظام الستيني وان السومريين قد ابتدأوا كتابة اعدادهم به .

استخدم العراقيون القدامى نوعين من العلامات في كتابة الاعداد مثل : دوائر واخر دائري . وعند استقرار التدوين وتطور الخط المسماري

استخدم العراقيون علامتين احدهما للواحد ٢ والثانية للعشرة <
فبتكرار الواحد نحصل على اثنين ٢٢ والجدول التالي يبين كيفية كتابة
الارقام :

١	٢	٣	٤	(٤)
٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤
٢٠	٢١	٢٢		
٣٠	٤٠	٥٠		
٥٩		٦٠		

ويكررون ٢ مرتين ايضا للحصول على ١٢٠ وتسعة مرات  للحصول على رقم ٥٤٠ اما اذا بلغوا ٦٠٠ فيكتبونها بنفس علامة العشرة <
وهكذا فان الرقم ٢ كان يشير الى ١ أو ٦٠ أو ٣٦٠٠ او ٢١٦٠٠٠

الخ • اما الرقم < فيمكن ان يمثل الرقم عشرة أو ٦٠٠ أو ٣٦٠٠٠٠
 الخ • ويمكن التعبير عن قراءة الارقام ومعرفة قيمتها بالشكل الذي عرفنا
 بان ٢ يمكن ان يقوم مقام الرقم ١ أو ٦٠ أو ٦٠×٦٠ أو ٦٠×٦٠×٦٠ الخ •
 اصف الى ذلك ان ٢ يمكن ان يعني ايضا $\frac{1}{60}$ او $\frac{1}{60} \times 60 = 1$ الخ •
 وهكذا فان معرفتنا بقيمة العدد ٢ يتحدد من سياق المسألة الرياضية او
 موقع العدد المذكور في الجدول الذي يرد به •

ولكون العدد ٦٠ يقبل القسمة على العديد من الارقام كالواحد
 و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ١٠ الخ • وبذلك أشاروا الى الكسور المختلفة من
 ناتج القسمة فالربع كتب بالرقم (١٥) < والثالث بالرقم (٢٠) <<
 والخمس بالرقم (١٢) <<< والثلثان بالرقم (٤٠) <<<<

اما كتابة الارقام من ٦٠ الى ٩٩ فيعبر عنها البابليون بالاشكال
 التالية :

سبعون أي $70 = 10 + 60$	٢<
ثمانون أي $80 = 20 + 60$	٢<<
تسعون أي $90 = 30 + 60$	٢<<<
خمسة وتسعون أي $95 = 5 + 30 + 60$	٢<<<٣
تسعة وتسعون أي $99 = 9 + 30 + 60$	٢<<<٣٣

اما المائة فكتبت في الشكل التالي ٢<<<< اي $100 = 40 + 60$
 واحيانا كتبت بالعلامة < التي تلفظ me مي أي مائة • وكان البابليون
 احيانا يكتبون العدد ١٠٠٠ بالعلامات <<< أي 100×10 •

المرتبة العددية وكيفية كتابة الارقام

تدين حضارتنا الحديثة للعراقيين القدماء بالعديد من جوانبها ومن ذلك مبدأ المرتبة العددية اي تحديد موقع الاعداد بالنسبة لقيمتها وفيما اذا كانت من الآحاد او العشرات او الالوف كما في نظامنا العشري . فالمعنون من الكتبة العراقيين ميزوا بين الرقم واحد ٢ والرقم ٦٠ ٣ بـ كبير الحجم ، الا ان ذلك لم يدم فترة طويلة .

ومن الطرائف التي تروى بخصوص المرتبة العددية والتي طالما رواها المختصون بالرياضيات العراقية القديمة ، هي ان الملك الآشوري اسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق م) قد استخدمها للاغراض السياسية . ففي زمن والده سنحاريب الذي هدم بابل نتيجة تحالفها مع العيلاميين وغيرهم تنبأ كهنة معبودها الرئيسي مردوخ باستمرار خرابها لمدة سبعين سنة ٣٠ . الا ان اسرحدون اراد ارضاء البابليين واستمالتهم فادعى بان الاله مردوخ امر بقلب الرقم والمباشرة بترميم المدينة وتجديدها بعد ١١ سنة ٣١ .

لم يعرف العراقيون القدماء المرتبة الخالية او الصفر الا في عهد الاحتلال السلوقي حيث كتب على شكل ٤٠ او ٤٠٠ والذي لم ينضج استعماله الا على أيدي الرياضيين العرب .

ان عدم وجود الصفر زاد في تعقيد قراءة قيم الارقام وغموضها احيانا . فالعدد ٣٣ يمكن ان يعني $2 \times 60 + 40 = 160$ او :

$$2 \frac{40}{60} = \frac{40}{60} + 1 + 60 \times 60 \text{ أو حتى } 2 \frac{2}{3} = \frac{40}{60} + 2$$

..... الخ . ولإزالة مثل هذا الغموض عمد الكتاب البابليون الى كتابة

مراتب العدد متباعدة فالرقم 𐎶𐎵𐎶 ٣ يعني $60 \times 60 + 59 = 3659$ أما اذا كتب بهذه الصورة 𐎶𐎵𐎶𐎵 ٣ فيعني $60 \times 60 + 50 + 9 = 6609$.
ومن الجدير ذكره ان استخدام نظام المرتبة العددية والفواصل فيما بين الارقام لم يستخدم الا في النصوص الرياضية . اما النصوص الاقتصادية فتكتب بشكل مبسط فالعدد ١٣٠ يكتب بالشكل «𐎶𐎵𐎶» أي
 $1 \times 100 + 30 = 130$ والرقم ٨٠ «𐎶𐎵𐎶𐎵» أي $1 \times 60 + 20 = 80$
... الخ .

اما سبب اختيار العراقيين للنظام الستيني فيرجعه العلماء الى طبيعة نظام القياسات والاوزان التي كانت لديهم اضافة الى تقسيمات ساعات الليل والنهار وتقسيم السنة الى أشهر وايام . ثم ان القوى الستينية بقيت الى يومنا هذا في تقسيمات الدائرة وسهولة استخدام هذا النظام بالنسبة للارصاد الفلكية وما الى ذلك ... كل هذا اضافة الى ما جئنا على ذكره عن مرونة هذا النظام وخصائصه المتميزة على النظام العشري عززت من مكانة السلم الستيني الذي اخذت به العديد من الامم كال يونان والهنود .

العمليات الحسابية وانواع النصوص الرياضية

عرف العراقيون القدامى عمليتي الجمع والطرح . فعبروا حيناً عن جمع رقم مع آخر بوضع a-na بين الرقمين ، اما طرح رقم من آخر فقد استخدموا الكلمة السومرية LAL بين الرقمين ، وعلى الرغم من وجود هاتين العلامتين او الكلمتين لعمليتي الجمع والطرح فغالبا ما كان الكتبة يجرون العمليتين عقليا ودون شرح لهما .

واستخدم العراقيون القدماء الكلمة a-ra بين رقمين للدلالة على

عملية الضرب ومن الجدير بالذكر أن الكتبة العراقيين تركوا لنا العديد من جداول الضرب التي كانت تستخدم كتمارين للطلبة او جداول مطولة للضرب والتي ربما استخدمت كمراجع لهم .

اما عملية القسمة فكانوا يجرونها بطريقة طريفة ، فاذا ارادوا ان يقسموا

عددا على ١٥ ضربوا ذلك العدد في $\frac{1}{15}$ وغالبا ما كانوا يحصلون على قيمة

معكوس الاعداد من جداول معدة لهذا الغرض . ويمثل لنا الاستاذ طه باقر

العملية بشكل رمزي $\frac{1}{b} = \frac{1}{b} \times 1$. ومن المعروف ان الكتبة العراقيين

عرفوا جواب القسمة وقربوه الى ثلاثة كسور ستينية . ومن الكلمات

الحسابية المهمة SU. NIGIN اي المجموع العام للاعداد . ومصطلحات اخرى

مثل IB. SI « الجذر التربيعي » BA. SI اي « الجذر التكعيبي »

وغير ذلك من الكلمات والمصطلحات الخاصة بالنسب الثابتة واسماء الاشكال

الهندسية وابعادها وكيفية الحصول على مساحاتها وحجومها .

وغني عن البيان ان معظم النصوص الرياضية جاءتنا من مدارس الكتبة

وكان اكثرها عبارة عن تمارين للطلبة . تقسم هذه النصوص الى صنفين

اساسيين ، الاول جداول رياضية مختلفة والثاني يخص مسائل جبرية وهندسية

متنوعة . ربما استخدمت الجداول الرياضية « كمصادر » اولية للكتابة كي

يستخدموها عند اجراء حساباتهم اليومية . وأشهر تلك الجداول جداول

معكوس الاعداد الصحيحة أي التي تنتهي دون تقريب واخرى بالاعداد التي

تنتهي فيها القسمة حيث زدونا بنتائجها مقربة الى ثلاثة كسور ستينية .

وجاءتنا ايضا مجموعة كبيرة من النصوص الخاصة بجداول للضرب وعملوا
ايضا جداول لمربعات الاعداد ومكعباتها وجداول أخرى بلوغاريتيمات بعض
الاعداد *

اما المسائل الرياضية فتخص الكثير من المواضيع * منها ما يخص مسائل
بالهندسة المستوية والمجسمة ، ومعادلات آنية ومعادلات خطية من الدرجة
الثالثة * . حلت بطرق جبرية او حسابية * ومن الجدير بالتنويه ان تلك
المسائل لم تحل بشكل رمزي ، فالكتبة العراقيون القدامى حلوا تلك المسائل
بشكل عملي واقروا مسائلهم مثلا : بحفر قناة او بايجاد العدد اللازم من
طابوق لبناء جدار ، أو مساحة حقل * . على ان العلماء المتخصصين بموضوع
الرياضيات القديمة كثيرا ما كانوا يؤكدون على الصبغة النظرية لمثل تلك
المسائل مقرنين اياها بما اخذ عليه العلماء العرب وغيرهم من المسلمين *
ولا ثبات مذهبوا اليه يورد الباحثون بعض الامثلة ومنها المثال التالي المأخوذ
عن كتاب الاستاذ ساكر The Greatness that was Babylon :-

جمعت المساحة وضلع المربع : ٤٥

ضع (في حسابك) الرقم ١ ، كوحدة (معلومة)

وقسمه الى نصفين : ٣٠

اضرب ٣٠ × ٣٠ : ١٥

اضف ١٥ الى ال ٤٥ : ١

هذا هو مربع ال ١

اطرح العدد ٣٠ الذي ضربته بنفسه جانبا

(و) من ١ (بقي) : ٣٠ ، (وهو طول) ضلع المربع *

واذا ما عرفتكم قيم الاعداد الواردة اعلاه بالنظام الستيني يمكن ان

تكون المسألة كما يلي :

$$\frac{1}{4} = \frac{15}{60} = 15 \text{ و } \frac{1}{2} = \frac{30}{60} = 30 \text{ و } \frac{3}{4} = \frac{45}{60} = 45 \text{ فال } 45$$

وهكذا فالمسألة يسكن وضعها بالشكل التالي :

$$\frac{3}{4} = \text{مساحة المربع} + \text{احد اضلاعه}$$

خذ المعامل كوحدة (لقياس الطول) معلومة •

$$\frac{1}{4} = \text{نصف الواحد}$$

$$1 = \frac{1}{4} \text{ ربع ال}$$

$$1 = 1 \text{ جذر}$$

$$\frac{1}{4} = 1 - \frac{1}{4}$$

واذا ما عبرنا عن هذه المعادلة بالرموز الحديثة بنتج الآتي :

$$\frac{3}{4} = س + \frac{1}{4}$$

$$\frac{1}{4} + \frac{3}{4} = 1 \left(\frac{1}{4} \right) + س + \frac{1}{4}$$

$$1 = 1 \left(\frac{1}{4} + س \right)$$

$$1 = 1 \sqrt{\frac{1}{4} + س}$$

$$\frac{1}{4} = 1 - 1 = س$$

أ - نماذج من الجداول الرياضية

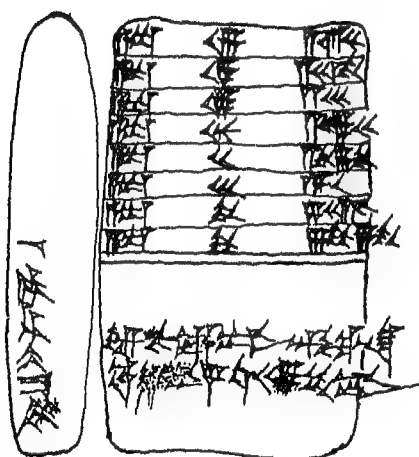
بعد ان انتهينا من عرض العمليات الحسابية والقينا بعض الضوء على انواع الجداول الرياضية ، ومن اجل ان يكون القارئ على بينة من امر تلك الجداول ، فلا بد من عرض بعض النماذج منها :

١ - جداول معكوس الاعداد - الجدول التالي يمثل النموذج الشائع لدى الكتبة العراقيين القدامى مستخدمين بطبيعة الحال النظام الستيني :

العدد	معكوسه	العدد	معكوسه
٢	٣٠	٤٥	١٢٠
٣	٢٠	٤٨	١١٥
٤	١٥	٥٠	١١٢
٥	١٢	٥٤	١٠٥

٢ - جداول الضرب :

ان النماذج التي سنقدمها في هذه الفقرة هي من نوع نصوص الجداول الرياضية التي تتناول جداول ضرب الاعداد ٠٠٠ فقد كانت جداول الضرب المعروفة سابقا تقف عند الرقم (٥٩) وهو رقم لا يتناسب مع حجم الاعمال والنشاطات الاقتصادية الواسعة التي اشتهر بها العراقيون وكان الامل قائما في اكتشاف جداول اخرى تصعد بالرقم الى مراتب اعلى ، وهذا ما حققه لنا واحد من هذه النصوص حيث يمتد جدول الضرب فيه من رقم ١ × ٥٠٠ والى ٥٠ × ٥٠٠ .



«« IF ~~FF~~ F ««

IF F

IF F ««

$$20 \text{ a-Ad } 1 \ 30 = 30 \times 1 \ 30 = 30 \times 1 = 30$$

$$2 \quad 1 = \times 2 \ 1 = \times 2 = 60$$

$$3 \quad 1 \ 30 = \times 3 \ 1+30 = \times 3 \ 60+30 = 90$$

«« IF ~~FF~~ IF FF IF

«IF FF ««

«IF FF ««

$$18! \text{ a-Ad } 14 \ 4.12 = 18 \times 14 \ 240+12 = 18 \times 14 = 252$$

$$15 \quad 4.30 = \times 15 \ 240+30 = \times 15 = 270$$

$$16 \quad 4.48 = \times 16 \ 240+48 = \times 16 = 288$$

٣ - جداول بالجذور التربيعية :

كان العراقيون القدامى يستخرجون الجذور التربيعية من جداول مربعات الاعداد ووجد العديد من هذه الجداول المنظمة بالشكل التالي :

مربع ١ = ١	1-e 1 fb-si ₈
مربع ٢ = ٤	4-e 2 fb-si ₈
مربع ٣ = ٩	9-e 3 fb-si ₈

ويمكن ان تستمر مثل هذه الجداول في ايجاد جذور او مربعات اعداد كبيرة مثل الرقم :

$$\text{مربع } ٦٧ = ٤٤٨٩ \quad 1,14,49\text{-e } 1,7 \text{ fb-si}_8$$

٤ - جداول بالجذور التكعيبة

ترد هذه الجداول على النحو الآتي :

أي مكعب ١ = ١	1-e 1 ba-si ₈
مكعب ٢ = ٨	8-e 2 ba-si ₈
مكعب ٣ = ٢٧	27-e 3 ba-si ₈

وبطبيعة الحال يمكن ان تتضمن مثل هذه الجداول ارقاماً عالية .

٥ - جداول بالجذور التربيعية والتكعيبة معا :

ومنها الجدول التالي :

١٢ = ٢	٢	٤
٢٢ = ٤	٣	٨
٢٢ = ٨	٤	١٦
٤٢ = ١٦	٥	٣٢
٥٢ = ٣٢	٦	٦٤
٦٢ = ٦٤	الخ

كما وجدت جداول أعداد فسر بعضها الباحثون بكونها جداول
لوغاريتمات وأخرى بكونها جداول بالأعداد الفيثاغورية .

عرف العراقيون القدامى العديد من الجداول الاخرى الخاصة بالاوزان
والمكاييل ومساحات المربعات والمستطيلات ... الخ ولا مجال لاستعراضها
جميعا . ولا يفوتنا في ختام هذا البحث التأكيد على اهمية تلك الجداول في
تعميق الفكر الرياضي العراقي القديم وازفاء الصبغة الجبرية والاتجاه
الجبري التجريدي لذلك العلم . والاهم من كل ذلك تمكين الرياضيين من
وضع مسائل هندسية وجبرية سنأتي لاحقا على استعراض البعض منها .

ب - نماذج من المسائل الرياضية

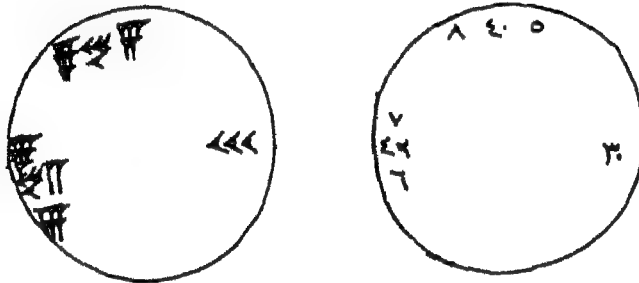
قبلولوج في استعراض المسائل لابد من التنويه بان العراقيين القدامى لم
يستخدموا الرموز والاشارات الجبرية كما في الجبر الحديث ، ولكنهم حلوا
مسائلهم بالطرق الجبرية الخطائية ، أي اقران المسائل الجبرية والهندسية
بالمال والربح الذي ينتج عنه او بالحقل وامكانية تقسيمه الى اشكال مختلفة
او بالعصا (للاستعاضة عن الاسطوانة) ... الخ وتمكن العراقيون القدامى
من حل المعادلات الاسية والخطية والآنية من الدرجة الاولى المحتوية على
مجهول واحد او عدة مجاهيل . ومعادلات اخرى من الدرجة الثانية والثالثة
وغيرها من المعادلات المشابهة او المطابقة احيانا لما نعرفه الان من مسائل
الجبر الحديث .

اما في مجال الهندسة فخلفوا لنا على الواح الطين الخاصة بالمسائل
الرياضية العديد من الاشكال الهندسية ، وكانوا على معرفة بكيفية ايجاد
مساحة المربعات والمستطيلات وشبه المنحرف والمثلثات القائمة الزوايا
والمساوية الساقين وصولا الى سبقتهم في نظرية فيثاغورس . كما استطاعوا
قياس حجوم العديد من المجسمات كالاسطوانة والمخروط والمخروط المقطوع

والهرم الرباعي المقطوع وغيرها • وفيما يلي بعض النماذج لمثل ما تقدم ذكره
من مسائل رياضية •

١ - من المسائل الرياضية البسيطة والطريقة مسألة عن كيفية تعليم
القاسم المشترك الأصغر للطلبة •

وقد رتب « المعلم » الأرقام على قرص من الطين كالاتي :



فالرقم ٤٠ هو القاسم المشترك الأصغر (المضاعف المشترك البسيط) بين
الرقمين ٨ و ٥

الرقم ٤٢ يمثل القاسم المشترك الأصغر للرقمين ٦ و ٧ •

أما الرقم ٣٠ فيمثل بالتأكيد القاسم المشترك الأصغر بين الرقمين ٦ و ٥
والمهم في هذا الرقم هو توضيحه بكيفية استجواب الطلبة ومحاورتهم
على أساس فكر رياضي •

٢ - معادلة من الدرجة الثانية تتضمن ادخال مجهول مساعد •

رُبعت زيادة طول مستطيل على عرضه وطرحتها من المساحة فنتج ٨٢٠
فاذا كان الطول ٣٠ فما هو عرض المستطيل ؟ •

ربع ال ٣٠ فيكون الناتج ١٥٠٠ واطرح ٨٢٠ ينتج ٦٨٠ نصفاً طول
٣٠ فتحصل على ١٥ ربع ال ١٥ تحصل على ٣٨٥ اضعف ٣٨٥ الى ٦٨٠

فتحصل على ١٠ر٢٥ خذ الجذر التربيعي ل ١٠ر٢٥ فتحصل على ٢٥ اطرح ال ١٥ من ٢٥ فتحصل على ١٠ اطرح ال ١٠ من ٣٠ فيكون ٢٠ وهو مقدار عرض المستطيل .

ومن تحليل وتفسير استاذنا المرحوم باقر نقرأ ما يلي :

اذا فرضنا ان طول المستطيل ط والعرض ع فيكون وضع المسألة بحسب النص ط - ع - (ط - ع) ٢ = ٨٢٠ .

وط بحسب الفرضية = ٣٠ .

ومن هاتين المعادلتين نحصل على :

$$٣٠ (٣٠ - ط - ع) - (ط - ع) ٢ = ٨٢٠ .$$

$$اي ١٥٠ - ٣٠ (ط - ع) ٢ = ٨٢٠ .$$

وبجبر المعادلة اي نقل الحدود المتشابهة من طرف الى طرف آخر بتغيير اشاراتها نحصل على :

$$(ط - ع) ٢ + ٣٠ (ط - ع) = ١٥٠ - ٨٢٠ = ٦٧٠ .$$

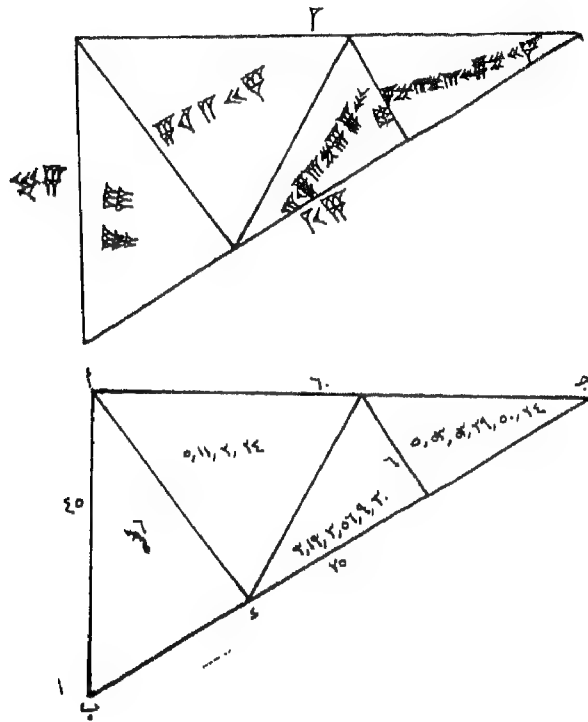
وهنا يدخل الرياضي القديم مبدأ المجهول المساعد فيفرض ان ط - ع مجهولا نقرضه س فيكون وضع المسألة :

$$س٢ + ٣٠س = ٦٧٠ .$$

٣ - مبدأ تشابه المثلثات (نظرية فيثاغورس)

ويبقى اللوح الرياضي الهندسي الذي عثر عليه في تل حرمل خير مثال على تقدم علم الرياضيات في العراق القديم . ولا مجال هنا لعرض كل ما يتضمنه هذا الرقيم . فقد رسمت في اعلى هذا اللوح صورة مثلث قائم الزاوية ، قسم داخل هذا المثلث الى اربعة مثلثات صغيرة . وقد اعطى الكاتب ابعاد المثلث المذكور ومساحات المثلثات الصغيرة ودون تحت هذا الشكل الهندسي

نص القضية وكيفية حلها • ادناه صورة المثلث المذكور والابعاد بالارقام المكتوبة بالمسمارية • وصورة اخرى بترجمة للارقام •



ويوجز الاستاذ طه باقر حل المسألة بالمعادلة التالية :

$$ب د = \frac{40}{60} \times 2 \times \text{مساحة المثلث ا ب د}$$

$$وبالارقام المعطاة ب د = \frac{40}{60} \times 2 \times 11 = 15.33$$

٤ - وكانوا يحسبون مساحة شبه المنحرف بضرب الارتفاع بنصف

مجموع القاعدتين السفلى والعليا • وكانت هذه المعرفة سببا في تمكنهم من معرفة المبدأ المعروف بالتناسب والتوازي والدساتير لحل ذلك •

• — وكانوا يستخرجون حجوم بعض الاشكال المجسمة بضرب مساحة القاعدة بالارتفاع ومن ذلك ايجادهم لحجوم الاشكال المنشورية • كما انهم كانوا على بينة من ايجاد حجم الهرم المربع والهرم المربع المقطوع واوجدوا الدستور الخاص بايجاد حجم المخروط المقطوع بضرب نصف الارتفاع في مجموع مساحتي القاعدتين السفلى والعليا •

ويمكن تمثيل الدستور بالرموز التالية :

اذا ما عرفنا ان ح = الحجم و ع = الارتفاع ، وأ ، ب ضلعا القاعدتين المربعتين العليا والسفلى للهرم فان الدستور الذي عرفوه كالاتي :

$$ح = ع \times \left(\frac{أ+ب}{٢} \right)^2 + \frac{١}{٣} \left(\frac{أ-ب}{٢} \right)^2$$

والمسائل كثيرة على ايجاد حجم المخروط المقطوع •• وقد عثر على سلسلة من المسائل الخاصة به مكتوبة على رقيم كبير عثر عليه في تل حداد بمنطقة حميرين •

الفلك

بدأت المباحث الاثارية الاهتمام بعلم الفلك او كما يسميه العلماء العرب « علم النجوم » او « علم الهيئة » بعد سنة ١٩٢٧ اي بعد ان تمكن المتخصصون بالرياضيات العراقية القديمة من حل رموز بعض النصوص المسمارية الخاصة بعلم الفلك • وتكرر احيانا أسماء نفس الباحثين في الرياضيات ، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين الموضوعين • فعلم الفلك ارتبط ارتباطا مباشرا بعلم الرياضيات وبخاصة في العهود المتأخرة من تاريخ

العراق القديم * * أما أسس هذا العلم واصوله ومبادئه فيمكن ان تعود الى عصور قبل التاريخ * وخير مثال يمكن ان يعزز مذهبنا اليه ماورد في قصة الخليقة التي تمتد جذورها الى تلك العصور :

في العلى عندما لم يكن للسماء اسم بعد * * *
وفي الاسفل عندما لم يكن للارض اسم بعد * * *

صنع مردوخ منازل للالهة
خلق الابراج ، ثبتها في اماكنها
حدد الازمنة ، جعل السنة فصولا
ولكل شهر من الاشهر الاثني عشر ثلاثة ابراج (المجموع ٣٦)
حدد الايام بابراجها *
ثبت برج « نيرو » (المشتري ، كوكب مردوخ) *
فلايجعل نجم عمله ولابرج وظيفته
في الوسط ثبت السمى
والى الشرق والغرب فتح بوابة (انليل وأيا)
وسلط القمر (اله القمر) على الليل
وجعله زينة في الليل
به يعرف الناس موعد الايام
في بدء الشهر يطل القمر
يحدد الاسبوع
وبعد اسبوعين وفي نصف الشهر
يواجه الشمس ، يكون بدرا
ينحسر ضوء الشمس عن وجهه - يصفر
يدركه المحاق ، يعود ثانية الى الارض *

ادوار النصوص الفلكية

لقد ازدهرت الدراسات الفلكية في العراق القديم في نفس فترات ازدهار الرياضيات ، حيث تعد فترة العهد البابلي القديم والفترة السلوقية من فترات الازدهار الرئيسية ، ولكن ذلك لم ينف الاهتمام بالدراسات الفلكية عن الفترات الاخرى ، ولكن بدرجات متفاوتة .

لقد حاول البعض من الباحثين المفرضين الصاق الصبغة الاسطورية او الخرافية على معارف العراقيين في هذا المجال وذلك من خلال تأكيدهم على ان منشأ علم الفلك من التنجيم . لكن الابحاث الحديثة أكدت بأن التنجيم ربما كان من النتائج الثانوية لعلم النجوم الذي نشأ اساسا لتنظيم الوقت والتقويم . والذي ساعدهم على توسيع معارفهم التجريبية الفلكية وتطويرها والوصول بها الى مرحلة علمية متقدمة ، هو اعتمادهم العلوم الرياضية - التي لامجال للشك في رقيها - في ارسادهم .

وقبل البدء بتناول انواع النصوص الفلكية لابد من الاشارة الى مكانة علم الفلك العراقي القديم وعلمائه عند المؤرخين اليونان والرومان وغيرهم . واذا ما استطاع العلماء اليونان والرومان وغيرهم طمس تفوق ورقي علوم الرياضيات العراقية القديمة وعدم ذكر علمائها فالظاهر انهم لم يستطيعوا عمل شيء من هذا القبيل ازاء الارصاد المطولة التي خلفها العراقيون القدماء فاشاروا كثيرا الى الكلدانيين والاشوريين وبعض المبرزين منهم في هذا المجال .

اصناف النصوص الفلكية

قسم الباحثون النصوص الفلكية بشكل اولي الى نوعين ، الاول ويشتمل على المسائل الفلكية ، والثاني عبارة عن جداول وازياح فلكية .

وفیما یلی تعریف باہم انواع النصوص التي امدتنا بمعارف وعلوم
العراقیین القدماء فی الفلك :

۱ - نصوص التنجیم لاغراض الفأل (Astrological Omens)
یعود تأریخ البعض من هذه النصوص الى الفترة الاکدیه ولكن معظمها جاءنا
من العهد الکشی . وقد رتبت هذه النصوص علی شکل مسلسلات ومن
اشهرها ما یعرف بـ Enuma Anu Enlil « عندما کان آنو انلیل »
ومنها المثال التالی :

اذا وقع خسوف فی الیوم الرابع عشر من شهر سیفان ، وكان القمر
معتما عند الجانب الشرقي من فوق ، ومنیرا عند الجانب الغربي من اسفل ،
وهبت ریح شمالية فی لیلة الرصد الاولى ولكنها خفت عند منتصف لیلة
المراقبة فسیحدد القمر ذو العتمة علی الجانب الشرقي من فوق وذو النور علی
الجانب الغربي من تحت مصیر مدینة اور وملكها . . فسیواجه ملك
اور المجاعة وسیكون عدد الموتی کبیرا ، اما ملك اور فسیثور علی ابنه ، ولكن
ذلک الابن الذی سبب الثورة ضد ابيه ، سیقبض علی الاله شمس وسموت
لکونه عاقا لاییه . وسیتولی ابن اخر للملك - ومن غیر المطالبین بالملکیة
- عرش (اور) .

۲ - التنجیم للنبوءات Judicial Astrology

ويعتمد العارف به علی الارصاد الفلکیة او الجداول الریاضیة ذات
الاعراض الفلکیة . ومن خلاله یمکن ان یتنبأ العرافة بالمستقبل القرب للملك
أو البلاد وبخاصة ما یتعلق بأمر الحصاد أو الفیضان أو الغزو أو المجاعة
. . . . الخ كما فی المثال التالی :

اذا حلت الشمس موقع القمر ، فان ملك البلاد سیثبت علی العرش .

واذا حلت الشمس فوق او تحت موقع القمر ، فان اسس العرش ستكون متينة
وامنة وسيكون الملك عادلا . واذا كانت الشمس والقمر غير مرئيتين فسيتهلج
الملك بالحكمة الواسعة .

عند اقتراب زحل من موقع القمر ، وزحل هو نجم الشمس ، فسيتهلج
الآتسي :

انه طالع حسن للملك ، فالشمس هي نجم الملك .
اذا حدثت هزة ارضية في شهر نيسان ، فستثور البلاد على الملك .

٣ - ارساد كوكب الزهرة وبعض الكواكب الاخرى

واقدم ماجاءنا من هذه النصوص يعود الى فترة العهد البابلي القديم
وبالتحديد زمن امي - صدوقا حيث زودنا الكتبة البابليون بسلسلة
ارصاد لكوكب الزهرة عند ظهورها وقت غروب الشمس وشروقها وطول
مدة اختفائها . وتمكن البابليون بواسطة تلك الارصاد من معرفة دورة ظهور
كوكب الزهرة خمس مرات في نفس المواضع من السماء كل ثماني سنوات .
ومن الجدير ذكره في هذا المجال ان هذه النصوص كانت المفتاح لتعريف
الباحثين بالتأريخ النعاصري وايجاد التواريخ المضبوطة لحكم السلالات
العراقية وتعاقبها .

٤ - النصوص الاسطورية

وجاءتنا من العهد البابلي القديم والعهود اللاحقة وبخاصة فترة
الحكم الكشي ، وهذه النصوص عبارة عن خوارط فلكية . تتضمن
كل خارطة من هذه الخوارط دوائر ثلاث متداخلة ومقسمة الى ٣٦ قسما وكل
قسم من تلك الاقسام يحتوي على ارقام يرتبط الواحد منها بالآخر من

الناحية الحسابية •• ولا يزال الباحثون غير متأكدين من السبب الداعي لصنعها أو الغرض الذي صنعت من أجله •

٥ — النصوص الخاصة بطرق (دروب) الكواكب
جاءتنا مستنسخات من عهود مختلفة اقدمها من العهد البابلي القديم •

وتعرف السلسلة التي تضم هذه الطرق او الدروب بـ *mul APIN* وفيها تثبت ثلاثة طرق لكل كوكب او جرم سماوي ، وهي عبارة عن وصف مقتضب للأجرام ويعزوها البعض من الباحثين الى كونها خرافات •

٦ — نصوص رصد الخسوف والكسوف
يثفق الباحثون وبضمنهم P.J. Huber على ان اولى تلك الارصاد المنتظمة لا يرقى زمانها الى اكثر من ٢١ ايلول ٧٤٨ ق م ولكنه يؤكد على ان احدث تأريخ لاولى تلك الارصاد لا يمكن ان يكون بعد ٢٠ آذار ٧٣٩ ق م • اما آخر الارصاد فيثبت زمنه اما بـ ٣١ كانون الاول ٣١٦ ق م أو ٩ تموز ٣٠٧ ق م • وهذه الارصاد عبارة عن تقاويم فلكية *Astronomical Diaries* • وبطبيعة الحال هناك ارصاد من هذا النوع استمر بعد هذا التاريخ ولكنها وجدت على نصوص اخرى متفرقة • واخرها على حد قسول الاستاذ ساكر يعود الى تأريخ ٧٥ للميلاد وفي ختام حديثنا عن الخسوف والكسوف ننقل اليكم احد الامثلة الشائعة :

« اذا خسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تموز ، فهو نذير للملك الكوتي : سوف يسقط الكوتيون بالمعركة وتتححر البلاد » •

٧ — النصوص الخاصة بكبس السنوات
بالرغم من وجود بعض الصدف التي بموجها كبس البابليون بعض

سنيهم الا ان الاستاذ نويكيور يعتقد بان كبس السنة لم يتم بشكل منتظم الا بعد سنة ٥٠٠ ق م الا ان سارتون يؤكد بان ذلك كان معروفا منذ فترة اور الثالثة وفترة حكم حمورابي ودليله وجود الشهر الثالث عشر في رسائل حمورابي فالسنة البابلية سنة قمرية أي أن عدد أيامها يساوي ٣٥٤ يوما أي أنها تقل عن السنة الشمسية التي تساوي $\frac{1}{4}$ ٣٦٤ يوما . وكان العراقيون القدماء قد توصلوا الى معادلة مفادها أن كل ٢٣٥ شهرا قمريا تساوي ١٩ سنة شمسية فاضافوا سبعة شهور كبيسة تكرر كل ١٩ سنة . والجدول التالي يمثل احد هذه النصوص ، فارقام الحقل الاول تمثل السنوات الكبيسة ، ونكبس السنة الاولى عند منتصفها بينما السنين الاخرى تكبس عند نهاية العام :

السنوات الكبيسة		
١	٢	٥
٣	٤	٨
٦	٧	
٩	١٠	
١١	١٢	١٣
١٤	١٥	١٦
١٧	٨١	١٩

ويمثل هذا الجدول دورة ١٩ عاما او السنوات التي يجب ان يضاف اليها الشهر .

خلاصة المبادئ التي اضطلع بها فلكيو العراق القديم

استطاع العراقيون القدماء رصد العديد من الظواهر الطبيعية وكانت ارسادهم اطول الارصاد في جميع الحضارات . وتمكنوا من استخدام

الرياضيات الراقية في حساب دوراتها ، ومن ابرز تتاجاتهم الفلكية معرفتهم بان الشمس هي مركز الكون والاجرام السماوية الاخرى • كما انهم ادركوا اثر القمر على عملية المد والجزر • ويعتقد معظم العلماء بان البابليين هم اول من اوجد النظرية الكوكبية او القمرية التي مكنتهم من تحديد زمن ظهور الهلال في اول كل شهر قمري • ويؤكد الاستاذ نويكيور بان حساب حركة القمر هو من بين احسن الانجازات في العصور القديمة ويمكن اقراها باعمال علماء الفلك من اليونان والرومان • ومن الشائع ان العراقيين هم اول من استطاع تقسيم السنة الى فصول وكانوا على علم بالاعتدال الربيعي ووقت حصوله في نيسان وفي ذلك قالوا :

« في اليوم السادس من شهر نيسان

يتساوى النهار والليل

ست ساعات نهارا وست ساعات ليلا » •

(الساعة البابلية تساوي ضعف الساعة الحالية)

وقسم العراقيون السنة الى ١٢ شهرا و اضافوا شهرا آخر كل ثلاث سنوات • وكانوا يضيفون هذا الشهر ، اما في الشهر السادس ، اي عند موسم الحصاد ، أو في الشهر الثاني عشر اي موسم جني التمور • وغالبا ما كانت اسماء شهورهم مقترنة بحصاد القمح او جنيه او حفظ المحاصيل او يقرنون البعض منها باسماء أعيادهم الدينية • ومن اسماء اشهرهم الشائعة الآتي :

١ - نيسانو	Nisannu	لاحظ ان بداية السنة او رأس
٢ - ايارو	Ayaru	السنة عند العراقيين القدامى هو

٣ - سيمانو	Simanu	شهر نيسان *
٤ - دوزو - تموز	Duzu	
٥ - آبو	Abu	
٦ - اولولو	Ululu	- وعند هذا الشهر يضاف شهر
٧ - تشريتو	Tašritu	آخر يسمى كن-در Kin. dir
٨ - ارخسمنا	Araḥsamna	او كن - ٢ - كم Kin-2-kam
٩ - كسليمو	Kislimu	او كن - آ Kin-a
١٠ - طيبيتو	Tebetu	
١١ - شباطو	Šabaṭu	
١٢ - ادارو		- وعند هذا الشهر يضيفون
		شهر آخر كل ست سنوات
		يسمونه شي - در še-dir
		او در - شي dir-še

وبالرغم من معرفتهم بالاسبوع واقامتهم الاحتفالات في بداية كل شهر وفي اليوم السابع منه وفي منتصفه وفي اليوم الاخير منه ، الا انهم كانوا يعودون الى اليوم الاول من الاسبوع عند بداية كل شهر جديد *

ومما يعزى الى معارف وعلوم العراقيين الفلكية ما يعرف بالبروج الاثني عشر Zodiac * واطلقوا عليها اسماء حيوانية او آدمية او خرافية كما نطالعها في العديد من المجالات في يومنا هذا * وقسموا كل برج منها الى ٣٠ درجة لتطابق ايام الاشهر المثالية *

ويتفق الباحثون في هذا المجال بأن للعراقيين القدامى قصب السبق في معرفة قياس المسافات الواقعة بين النجوم الثابتة •

ومن المراكز الرئيسية لرصد الكواكب يرد في النصوص السومرية اسم ارييل والوركاء وبابل وسپار • ولا يوجد ما يؤيد معرفة العراقيين بالتلسكوب بالرغم من عثور الآثاريين على عدسات من حجر الكرستال • وعلى أية حال وكما كررنا ، فإن رقي هذا العلم وانجازاته كانت بسبب تطبيق النظريات الرياضية • على انه يجب التنويه بأن العراقيين كانوا على معرفة ببعض الآلات والادوات التي ربما ساعدتهم أيضا ومنها ما يعرف بالساعة المائية والساعة الشمسية او المزولة •

ويؤكد البعض من العلماء على ان العراقيين كانوا على بينة من القطب المغناطيسي • وكان على شكل نصف كرة مقعرة ، وكرة صغيرة ثائية معلقة في وسطها تعكس ظلا من الداخل ، حيث مكنت حركة هذا الظل ، الراصد العراقي القديم ، من تتبع حركة الشمس وبالتالي امكانية تحديد الانقلاب الصيفي والشتوي • وقد اخذ اليونان هذه الطريقة وطوروها •

وفي ختام هذا المبحث لابد من الاشارة بالمستوى الراقي الذي وصل اليه العراقيون في رصدهم للعديد من الكواكب وبخاصة كوكب الزهرة • حيث شاع استخدام ارسادهم تلك من قبل مشاهير العلماء اليونان والرومان ... وتجدر الاشارة أيضا الى ان العراقيين القدامى ربما كانوا

ينشدون الشواب من جراء اهتمامهم برصد الظواهر والكواكب وهذا ما
يمكن ان نستشفه من التذييل الذي يتركونه عند نهاية كل رقيم خاص
بالارصاد ، حيث يقول الراصد « بأنه كتب الرقيم او استنسخه من اجل عمر
مديد ومن اجل حفظ ذريته من كل سوء ومن اجل ثباته متعافيا متشافيا » •

البحث الرابع العلوم الطبية

قبل البدء بالحديث عن العلوم الطبية والمعارف المرتبطة بها لابد من التنويه عن محاولة المؤرخين اليونان وغيرهم تضليل الاجيال اللاحقة عن حقيقة ومكانة العلوم الطبية العراقية القديمة ، حيث اختلقوا القصص الغريبة بهذا الخصوص وورد جزء منها على لسان كبيرهم هيرودوتس الذي قال « بان العراقيين يخرجون مرضاهم الى الشوارع لانهم لا يمتلكون اطباء . فالناس الذين يمرون بالمرضى يقدمون النصائح ، اما من خلال تجربتهم لدواء قد شفاهم ، او من خلال معرفتهم باحد ما قد تعافى لتناوله دواء معين ، وكل المارة يسألون دون استثناء » . لا شك بان هذه العبارة تبين انسانية وعطف العراقي على اخيه ، الا ان المقصد منها هو تشويه حقيقة المستوى العلمي الذي وصل اليه العراقيون القدامى واسدال الستار على معارفهم المتقدمة التي لم يستطع اليونان التوصل اليها الا بعد عشرات القرون . ويعود الفضل لعلم الآثار الذي مكن العلماء من الكشف عن زيف مثل هذا الادعاء وغيره . حيث تم العثور على العشرات من الرقم الطينية التي دونت لنا معارف الاسلاف بالطب وغيره من المعارف المرتبطة به .

وبالرغم من ارتباط العلوم الطبية بالعرافة والسحر فذلك يسحب جذور المعارف الطبية الى عصور ما قبل التاريخ • فالمدون منها والذي يؤكد لنا سمو هذا العلم يمكن ان يعود الى الالف الثاني ق.م وخير دليل على ذلك ما جاء في قانون حمورابي الشهير الذي ميز بين الطبيب والجراح والبيطري وحدد اجور كل منهم • والاكثر من ذلك فالقانون يعين العقوبات التي تقع جراء الاخطاء المهنية والتي قد تصل الى قطع اليد • ونحن لا نشك بان المعارف الاولى جاءت نتيجة للتجربة والخطأ والصواب في معالجة بعض الامراض بواسطة الاغذية أو الاعشاب او ما شابه ذلك •

فالغريزة الانسانية للدفاع عن النفس ودفع الاذى عن الاقربين قد دفعت الانسان ومنذ القدم الى تجربة ما تجود به الطبيعة من نبات وحيوان واحجار أو معادن بالاضافة الى ممارسة الطقوس الدينية والسحر • اضيف الى ذلك كله رصده لحركات وافعال بعض الحيوانات في معالجة نفسها • وبتكرار التجارب وباكتشاف علاقة نبات ما أو مادة معدنية او حيوانية بشفاء مرض • وبتعميم تلك الخبر وتبادلها ، وصل الى نتائج افضل في المعالجة والشفاء • وبظهور التدوين وانتشاره زادت معارف الانسان المتعددة ومن بينها معارفه بالطب الذي وصل الى مرحلة راقية ابان العهد البابلي القديم شانه شأن بقية العلوم الاخرى التي ازدهرت في هذه الفترة والفترات اللاحقة • والذي عجل برقي هذا العلم في العهود الآشورية والبابلية الحديثة هو سهولة الاتصال بالامم الاخرى وتبادل الافكار وتطوير التجارب الناجحة واشاعتها كي يستفيد منها العدد الاكبر من الناس الذين هم عماد حياة اية دولة •

وعلى الرغم من اهتمام البعض من علماء الآشوريات في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن بالعلوم الطبية الا ان الدراسات المستفيضة في هذا المجال لم تظهر الا بعد النصف الثاني من هذا القرن •

ادوار النصوص الطبية

فيما عدا معرفتنا بالاصل السومري للفظة طبيب الاكدية وهي *nsb* ، والتي تشعرا بأن السومريين قد ميزوا بينه وبين المعزم أو الساحر *ašipu* . فأن معلوماتنا عن الطب ومعارفه محدودة جدا من الفترات السومرية الاولى . ففي كل الادوار التاريخية وفي معظم النصوص ان لم يكن جميعها يعزى المرضى الى هذا او ذاك من الآلهة او الارواح الشريرة . ولقد خص العراقيون الطب ببعض الآلهة ومنهم ايا ، اله الماء . وحامية الطب الالهة كولا واله الطب ننازو *d NIN.A.ZU* « سيدة العارف بالماء » نكيزيدا الذي يرمز له بالحية الملتفة على العصا الذي ما يزال يستخدم شعارا لجمعيات الطب والدواء في العالم .

ولكن الفترة الاكدية والى نهاية سلالة بابل الاولى أي في حدود ٢٤٠٠ - ١٥٠٠ ق م زودتنا بالقليل من النصوص ومن مختلف المدن الآشورية والبابلية اضافة الى بعض النصوص التي جاءتنا من مدن حثية . وتجدر الاشارة الى ان ما وصلنا عن فترة العهد البابلي القديم من نصوص وبخاصة النصوص القانونية والمعجمية ينم على رقي العلوم الطبية في هذه الفترة شأنها شأن العلوم الاخرى وماتزال الاعمال الآثرية تزودنا بنصوص طبية مهمة ، وخير مثال على ذلك ما عثر عليه حديثا في تل حداد في منطقة حميرين .

ويمثل العهد الكشي والى نهاية العصر الآشوري الحديث عصر الازدهار بالنسبة للعلوم الطبية حيث جاءتنا منه مئات الرقم . وعثر على القسم الاكبر من هذه النصوص بين مخلفات مكتبة الملك العظيم آشور بانيبال ، فشكرا لجهود « صاحب الاسمرين » ، السيف والقلم الذي اوصل الينا مفاخر الاسلاف في هذا المجال وغيره من مجالات العلم والادب . ومن اجل ان نكون دقيقين في تقسيمنا للنصوص لابد من التنويه بكون معظم تلك النصوص

عبارة عن استنساخات سومرية واكدية وبابلية قديمة وآشورية • وبالإضافة الى ذلك عثر العلماء على نصوص طبية كثيرة في مدينة آشور •

وساهم العهد البابلي الحديث بمجموعة من النصوص البابلية الحديثة والمتأخرة وهي قليلة العدد بالمقارنة مع النصوص الآشورية او نصوص مكتبة آشور بانيبال •• ومعظم هذه النصوص استخلص من الوثائق المسماة الخاصة بالآل والتعاويذ التي هي عبارة عن استنساخات من رقم تعود لازمان اقدم •

انواع النصوص الطبية

من المعروف ان تقسيم النصوص الطبية بشكل كامل وواضح ما يزال مجال البحث ، وخير مثال يمكن ان نسوقه في هذا المجال هو عدم الاتفاق بين العلماء على معاني العديد من المصطلحات الطبية الواردة في النصوص • وعلى اية حال فهناك بعض الباحثين الذين اخذوا على عاتقهم هذه المهمة حيث يمكن في ضوء نتائج جهودهم أن نورد الانواع التالية :

١ - الوصفات الطبية

وهي من اقدم انواع النصوص الطبية التي وصلتنا لحد الان • يعود تأريخها الى فترة سلالة اور الثالثة أي نهاية الالف الثالث ق.م ومن الغريب ان هذه النصوص من الناحية العلمية ترقى على ما يماثلها من نصوص متأخرة لكونها لم تذكر اي شيء عن المعزم او الساحر او دورهما في تنفيذ الوصفات الطبية •

وفيما يلي اقتباسات لبعض هذه النصوص :

« بعد سحق جذور النباتات (المنصوص عليها) مع القير المجفف الذي

يؤخذ من النهر ، ومزجه بالجة ، يدعك المكان المصاب بالزيت ويوضع
(الدواء) على شكل كمادة » •

« بعد سحق بذور النباتات (المنصوص عليها) تمزج مع الجعة ، ومن
ثم يشربها المريض » •

وفي وصفة اخرى يشار على المريض بأخذ العديد من « الادوية »
النباتية الاصل مثل التين المجفف « وادوية » مستحضرة من املاح مختلفة
يشار عليه بان يقوم بتسخين المواد ومن ثم مسح المكان المصاب بالمزيج » •

ويستنتج الباحثون من هذه الوثيقة التي تضمنت العديد من الوصفات
الطبية ، ان العراقيين القدامى كانوا على معرفة بالادوية النباتية والمعدنية
وانهم استخدموها باشكال مختلفة خارجيا كالكمدات والدعك بالزيت
وداخليا كالجرع والحقن وما الى ذلك • وهناك المئات من النصوص الخاصة
بوصفات طبية جاءنا معظمها من مكتبة اشور بانيال وقسم آخر من اشور
وبعض المدن الحثية تعود للقرن الثالث عشر ق • م ونصوص قليلة من عهد
الحكم الكشي ونصوص محدودة من فترة العهد البابلي القديم • وقد تضمنت
وصفات تتألف من مواد نباتية كالجذور والبذور واللحاء والاوراق والفاكهة
والاغصان ومن اكثر المواد الطبية شيوعا الثوم وعرق السوس ومئات اخرى
من انواع الاعشاب التي جاءتنا عنى شكل قوائم معجمية او خلال الوصفات
الطبية • كما انهم استخدموا الادوية الحيوانية بما فيها البانها ولحومها وحتى
فضلاتها • واستخدموا ايضا الطيور على مختلف انواعها كالبوم والنعام
والصقر والغراب والدجاج • ومن استخداماتهم في الادوية الاصداف واكثرها
شيوعا صدفة السلحفاة • هذا اضافة الى انواع الاملاح والاحجار والمعادن ،
ولعل معرفتهم بالكيمياء هي التي مكنتهم من استخلاص الادوية من بعض
المعادن والاملاح • كما انهم ميزوا بين الدواء بشكل عام والدواء المجرب ،

اي الشافي • ومن الطريف ذكره في نهاية هذا المبحث انهم اهتموا بأكل المريض
واشاروا عليه بالابتعاد عن بعض المأكولات ونقل المثال الآتي :
« على الذين عندهم مرض في اعينهم عدم أكل الكراث او الكزبرة ،
وعلى الذين يشكون الما في آذانهم عدم تناول الباقلاء » •

٢ - نصوص التشخيص والانداد

لاشك ان الطب وبخاصة في العصور التاريخية قد ارتبط ارتباطا مباشرا
بأمور السحر والعرافة والتعزيم لذلك فان معظم النصوص القديمة التي
وردتنا ، وتخص الطب ، كانت اما نصوصا سحرية او وثائق خاصة بالعرافة
Omen Texts او رقما خاصة بالرقى والتعاويذ Incautation Texts وهذا شيء
ليس بالغريب لان الاعتقاد السائد لدى العراقيين القدماء هو ان المرض سببه
استحواذ الالهة او الشياطين على المريض • على اننا يجب ان ننوه هنا بان
العراقيين القدماء كانوا على بينة من نوعين من السحر ، الاول ذلك السحر
المضر المؤذي الذي يمارس من قبل المشعوذين وقد حرّمته القوانين ، اما
الثاني فهو السحر النافع ويمارس من قبل رجال الدين او ما يمكن ان
نطلق عليهم المعزّمين وكانت ممارسته مقدسة وهدفه الحماية • على ان معرفة
المرض وتشخيصه كانت تتم من قبل الطبيب ويستدل على ذلك من خلال ورود
التذليل القائل « بان المريض لم يشف من قبل الطبيب او المعزم » أو « اما
الساحر فله ان يعمل ما يشاء » • وباختصار فان للمعزم دورا كدور الطبيب
النفساني في شفاء المرض وعلى حد قول الاستاذ عبداللطيف البدري فان
الطبيب قد عززت مكانته وجعلت « ممارسته اكثر واقعية باضافته ما يرفع
من حالة المريض النفسية علما منه ان المريض المتفائل المملوء بالامل أكثر
احتمالا للمرض وأقرب الى الشفاء من المتخاذل امام رهبة المرض » •

ومن ابرز النصوص في هذا المجال سلسلة عثر عليها في مكتبة آشور

بانيال كما عثر على كسر منها في بوغازكوي الحثي وغيره من المدن •
وتتضمن اربعين فصلا وفيما يلي استعراض لاهم ما جاء به :

الفصل الاول والثاني عبارة عن نصوص فال خاصة بالمعزم القادم لزيارة المريض ونقتبس منهما الآتي :

- « اذا رأى المعزم كلبا اسود او خنزيرا اسود ، فسيموت المريض »
- « اذا رأى المعزم خنزيرا ابيض ، فسيعيش المريض » •
- « اذا سقطت افعى على فراش المريض ، فسيشفى ذلك الرجل المريض »
- « اذا سقطت عقرب على مريض فانه سيموت في اليوم العاشر » •
- « اذا لازمت عقرب من غير انقطاع وسادة مريض فان مرضه سيتركه » •

ودون الجزء الثاني من هذا المسلسل على ١٢ وثيقة مسمارية وخصصت هذه الوثائق لدراسة الاعراض التي تطرأ على اجزاء الجسم الظاهرة وقد قسمت حسب ظهور الاعراض على الاعضاء المرئية من الجسم • ومن المفيد التنويه ان هذه النصوص قد اهتمت بمسألة التشخيص اكثر من اهتمامها بالمرض او نوعه • وفيما يلي بعض الامثلة :

« اذا صرخ رجل مريض بغير انقطاع ، جميعتي ، جميعتي ، فانها يد الاله » •

« واذا ما اشتد الالم في الجهة اليمنى ، فانها يد الاله ادد » •
« واذا ما اشتد الالم (حرفيا الضرب) في رأسه وثقت دما ، فانها يد التوأمين ، وسيموت » •

« واذا ما تألم من رأسه ، واحمرت عضلات حاجبيه ويديه ورجليه واخذت تحرقه ، فان ذلك يد احد الالهة ، وسيعيش » •

« واذا ما غطت جسمه البثور الحمراء من رأسه حتى قدميه ، وكان جسمه ابيض فلقد اصاب عند جماعه بامرأة ، يد الاله سين » •
« اذا كان حاجباه ابيضين ولسانه ابيض ، فان مرضه سيطول لكنه سيشفى » •

« اذا كانت رقبته تستدير بغير انقطاع نحو اليسار وكانت يداه وقدماه متدليتين وكانت عيناه شاخصتين نحو السماء ومفتوحتين وكان زبده يسيل ويشخر وفقد وعيه واخذ يهذي فان ازمت هذه هي (النوبة الشديدة) وانها يد الاله سين » •

« اذا كانت رقبته تؤله وكان يطلب الماء باستمرار فانها يد الاله عشتار وانه مصاب برقبته وسيموت » •

اما الجزء الثالث من هذا المسلسل الطبي فكتب على عشرة رقم • ومن الطريف ان الكاتب صنف تدرج المرض بالاستناد الى بقاءه يوما واحدا او يومين او ثلاثة ، او خمسة عشر يوما او اذا ما دام المرض شهرا او شهرين او اطول ، ومن ذلك نقبس الآتي :

« اذا استمر المرض اربعة ايام وبقي المريض يضع يده على بطنه (من شدة الالم) وكان وجهه مصفرا فانه سيموت » •

« اذا بعد اربعة او خمسة ايام ظل يعرق فسيخف المرض » •

« اذا كان مريضا لخمس ايام وكان جلده مصفرا وعيناه محمرتين فانه سيموت » •

« اذا كان مريضا لخمس ايام وليس هناك حمى او عرق انها يد الاله سين انه سيموت » •

وهكذا يستمر الكاتب في تشخيص المرض وانذار المريض الى نهاية هذا الجزء •

ويبحث الجزء الرابع الذي يضم عشرة رقم ايضا في الخدر وعدم القدرة على الجماع والهذيان والحالات النفسية كاختلال العقل والصرع ... وفيما يلي امثلة مأخوذة من هذا الجزء :

« اذا كان يتلعثم في كلامه فان هذا الرجل قد قدم له طعاما مسحورا ليمرضه » *

« اذا ... اعتراه واذا كان يتكلم باستمرار مع نفسه ويضحك لسبب او دون سبب فانه يعاني من مرض الحب وان ذلك سواء بالنسبة للرجل والمرأة » *

« اذا كان الرجل مصابا بالتهاب شديد لدرجة ان لا يستطيع ان يرتاح وكان بصدرة خراخر عند السعال وبه زيادة على ذلك انطلاق في بطنه فانه مريض » *

« اذا كانت اعضاؤه مشلولة وكان ينزف دما فانه مصاب من الخلف وانه سيموت » *

ونكتفي بهذا القدر من الامثلة عن هذا الجزء لننقل الى الجزء الخامس والآخر والذي كتب على ست الواح ويتعلق بأمر المستقبل او المرأة الحامل والوليد أو ما يمكن ان نطلق عليه ، وحسب رأي الدكتور كمال السامرائي بمعارف العراقيين القدماء « بالامراض النسوية » * وما يلي مقتطفات من هذا الجزء : « اذا كان اعلى جبين المرأة الحامل لامعا بالبياض فان الجنين الذي تحمله سيكون بنتا وستكون غنية » *

« اذا كان طرف انف المرأة الحامل متورما من الناحية اليسرى واكثر اسودادا فان الجنين الذي تحمله سيموت وسيجيا » *

« واذا كان وجهها احمر فان الجنين الذي تحمله بنت » *

« اذا كانت حلمتا ثديي امرأة حامل مصفرة فانها ستسقط ما في رحمها » *

« اذا كانت حلمتا ئيدي المرأة الحامل منكمشتين فانها لن تتم اجل حملها » •

« فاذا زال هذا عنها ستم اجل حملها »

« اذا كان هذا قاتم السواد فانها حامل بولد » •

« واذا كان احمر اللون فانها حامل ببنت » •

« اذا اخذ الطفل الثدي ولكنه لم يشبع وظل يصرخ فانه مجروح داخليا » •

٣ - النصوص الطبية التي تجمع بين التشخيص والوصفات

كما اسلفنا القول فان المراقين القدماء عرفوا نوعين من الوصفات ، الادوية المجربة ، والوصفات المتنوعة التي جئنا على ذكرها في المبحث السابق فالوصفة المجربة بالضرورة ارتبطت بعدد من الامراض وهذا قاد الكتبة الى تدوين التشخيص والوصفة او العكس على رقم منفصلة • وخير مثال في هذا المجال ، التأليف الطبية التعليمية التي غالبا ما شملت ثلاثة اعمدة من الكتابة يخص الاول منها اسماء الاعشاب المجربة ، والعمود الثاني يتناول ذكر اسماء المرض اما العمود الثالث فيدرج فيه الكاتب او الناسخ الطريقة الموجزة لتحضير واعطاء الوصفة للمريض : - « الصبر ، دواء لمعالجة المرارة ، يفت ويدق ويسخن ويوضع فوق اللسان ويشرب قبل الفطور مع الزيت المصفى » « اذا كانت معدة رجل حارة ولا تقبل طعاما ولا شرابا يأخذ بذور الطرفاء ويمزجها مع العسل وخثرة اللبن ويأكلها ويشفى » « للتخلص من خراطة المعدة اسحق الادوية السبع ، البيان والقصب الحلو ... والحلتيت والتمر وزيت التريبتين وبعد ان تصفى تنقع بالجمعة وتسخن بالفرن ثم تصفى بعد تبريدها • وتضيف عليها قشور الشعير وتصب عليها ماء الورد وتضع ذلك في شرجه فيشفى » •

وهذا مثال لشفاء احد امراض الرئتين :

« اعد اناء كبيرا وقوم جوانبها بعجين الحنطة ، واغلر الشراب المخمر فوق النار ، وضع خلاله انبوب قصب ودعه يستنشق البخار بحيث يضرب رثتيه ويشفى » •

٤ - ما يخص الطب في شريعة حمورابي

تعد شريعة حمورابي من اعظم الوثائق التي امدتنا بمعلومات طبية خاصة عن قوانين الجراحة عند العراقيين القدماء • فمن بين مئات الرقم الطينية التي تعنى بالعلوم الطبية لا توجد سوى كسرتين تخص الجراحة ، الاولى ربما تخص ازالة « الماء الازرق » من العين ، والثانية ربما تتعلق بعملية ازالة الجزء الملتهب من احد العظام ونقرأ فيها « اذا كان المرض قد وصل الى داخل العظم فعليك ان تكشطه وتزيله » •

فالمواد ٢١٥ - ٢٢٣ من قانون حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق م) تعد من اقدم القوانين الطبية في الوجود ، وتبين مدى المكانة المرموقة التي يحتلها الطبيب في المجتمع العراقي القديم • وفي نفس الوقت ترينا مدى صرامة العقوبات التي يمكن ان ينالها الطبيب المهمل • فالمادة ٢١٥ من قوانين حمورابي تنص على « اذا جرى جراح عملية كبيرة لنيل من النبلاء بمبضع من البرونز ، وانقذ حياة النبل ، او اذا فتح محجر عين نيل من النبلاء بمبضع من البرونز وانقذ عين النبل ، فيأخذ عشرة شقيقات من الفضة اجرة له ، اما اذا تسبب في موت ذلك النبل او في تلف عينه فتقطع يد الجراح » وتنص المادة ٢٢١ على « اذا جبر جراح عظم نيل من النبلاء ، او انه عالج عضلا ملتويا فشفاه ، فعلى المريض ان يدفع خمسة شقيقات من الفضة اجرة الجراح » اما في حالة كون المريض من الطبقة العامة او من العبيد فبكون الاجر اقل من ذلك • ومن الطريف ذكره ان المادتين ٢٢٤ و ٢٢٥ من

قوانين حمورابي تتعلق بالطب البيطري وتنص الاولى على « اذا اجرى جراح بيطري عملية كبيرة على ثور او حمار ، وانقذ حياته ، فيدفع مالك الثور او الحمار الى الجراح البيطري ١/٦ شيقل من الفضة اجرة له » اما المادة الثانية فدون فيها الاتي « واذا اجرى عملية كبيرة على ثور او حمار وتسبب عن ذلك الموت ، فانه يعوض مالك الثور او الحمار بمقدار ربع ثمنه » .

٥ - الرسائل ونصوص اخرى متفرقة

تميزت بعض المراكز الحضارية العراقية عن غيرها في مجال العلوم الطبية ومن تلك المراكز مدينة نمر ومدينة ايسن وآشور ونيوى وبورسبا ، كما تميز العراق على غيره من البلدان القديمة في هذا المجال . وكتيجة لمكانة العراق القديم في العلوم الطبية ارسل العديد من الملوك الرسائل طلبا لهذه الخبرة للاستفادة منها في بلادهم بشكل عام ولمعالجة حاشياتهم الملكية بشكل خاص . فعلى سبيل المثال لا الحصر عثر على رسائل بهذا الشأن مرسلة من مملكة ماري الى اشور . يرقى زمن هذه الرسائل الى حدود القرن الرابع عشر ق . م وقد اكدت تلك الرسائل على ان الاطباء العراقيين القدماء كانوا ذوى مكانة عظيمة ونستشف منها بان الاطباء كانوا يرفعون الى درجات اعلى نتيجة لخدماتهم الجليلة في البلدان المجاورة والقاصية كما مكنتنا تلك الرسائل من معرفة بعض الشيء عن طبيعة تنظيم وترتيب الاطباء استنادا لمراتبهم العلمية كرئيس الاطباء rab âsi كما كان الطبيب ملزما باداء القسم او يمين الولاء الذي يمكن مقارنته بما عليه الحال الان من قسم الاطباء بعدم خيانة المهنة والوطن . . .

وامدتنا النصوص المسمارية الحثية بمعلومات عن وجود اطباء ومعزمين عراقيين في البلاط الحثي في حدود القرن الثالث عشر ق . م كما امدتنا رسائل

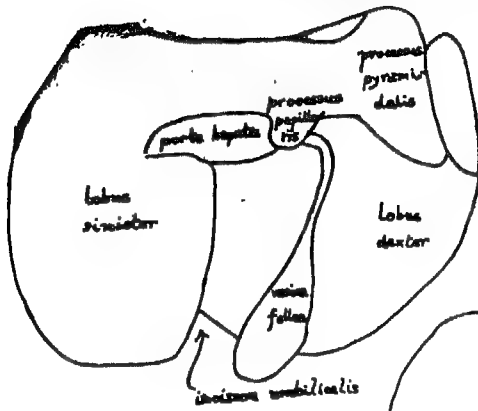
تل العمارنة بمعلومات عن تواجد الاطباء العراقيين القدامى في البلاط المصري ايضا .

ومن خلال بعض الرسائل من عهد الحكم الكشي يستشف وجود مراكز أو ما يمكن تسميتها بالمستشفيات لعلاج مغنين ومغنيات احد المعابد في نمر . كما نعرف أيضا عن وجود مجلس للاطباء معترف به في بلاد اشور . وينقل البعض عن سترابون وجود كليات للطب في بورسبا والوركاء .

وكما اسلفنا القول فان العصر الاشوري الحديث يمكن ان يعد العصر الذهبي بالنسبة للعلوم الطبية العراقية القديمة .

ويظهر من خلال كل ماتقدم ان العراقيين القدماء عرفوا الطب ومارسوه كما عرفوا تشخيص العديد من الامراض وشخصوا الاعضاء التي يصيبها المرض أيضا من ذلك تسمياتهم لمرض العين والمعدة والقلم والاذن والاسنان والامراض الصدرية والتناسلية والامراض النسوية والتوليد والجلدية والامراض النفسية او معرفتهم بالجراحة وبخاصة جراحة العين والكسور ومعرفتهم بالتشريح وبخاصة تشريح الكبد (كما في الشكل التالي) واقسام القدم وغير ذلك من المصطلحات الخاصة بالتشريح . اما معارفهم بالادوية وتعدد مصادرها النباتية أو الحيوانية والمعدنية وتلك المستخرجة من الاملاح ومن تراكيب كيميائية اخرى فواضح كل الوضوح من خلال ذكر المثات من قوائم الاعشاب والنبات والاملاح والاحجار الخ .

The Liver of a sheep

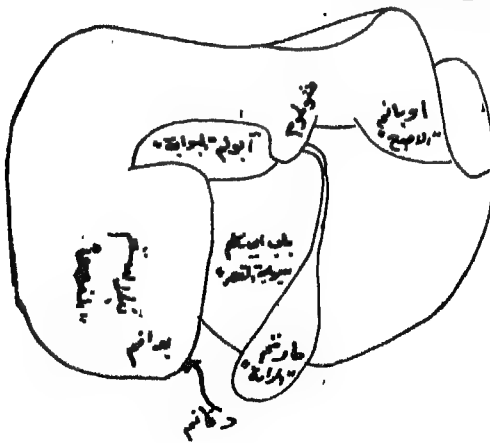


الدمىء لظمية
المنشأوة

الدمىء بالالدية



ترجمة هوية
للدمىء



البحث الخامس

الكيمياء

أكدت المباحث الاثرية على قدم معارف العراقيين القدماء في التكنولوجيا والكيمياء وتم ذلك من خلال دراسة المخلفات الاثرية التي تم العثور عليها في اعمال التنقيبات الواسعة التي جرت في العراق ابان النصف الثاني من القرن الماضي وبداية هذا القرن واستمراريتها الى الوقت الحاضر . واذا كان متعذرا على الباحثين تتبع الجذور الاولى لبعض المعارف والعلوم وبخاصة العقلية منها ، نظرا لعدم تدوينها ، فان ذلك لا ينطبق على المعارف التقنية والعلوم الكيميائية التي وضعت بذورها منذ عصور قبل التاريخ . وعندما اخترعت الكتابة واتسع وازدهر التدوين في مطلع الالف الثاني ق . م واخذ اهل المعرفة يوثقون معلوماتهم التكنولوجية والكيميائية وغيرها من العلوم لحفظها للاجيال القادمة ، انتقلت هذه المعارف الى مراحل متقدمة اخرى في طريق صيرورتها علوما نظرية .

وعلى الرغم من ملازمة تلك المعارف التقنية والعلوم الكيميائية لتطور الحضارة واتساع المدن بالاضافة الى تكوين اولى الامبراطوريات في التاريخ الا ان ذلك لا يعني بان هذه المعارف والعلوم هي السبب الرئيسي او حتى اهم الاسباب التي ادت الى نهوض الحضارة ، فالفضل يعود ايضا الى العمل

والتنظيم والاهتمام بالوقت والكتابة والحساب والمقاييس والاوزان وما الى ذلك ... وباختصار فان المعارف التكنولوجية وعلوم الكيمياء العراقية القديمة كانت احد الاسباب المهمة في نهضة الحضارة العراقية القديمة . آخذين بنظر الاعتبار ماذهب اليه الاستاذ طه باقر وغيره من الباحثين في كـون المعارف العلمية او التقنية ظلت في دائرة المهارات الصناعية او الاساليب الصناعية وبخاصة عمليات اذابة وصب وسبك بعض المعادن ومزجها لتكوين معادن مركبة او مزيجة كالبرونز وصناعة الزجاج والتزجيج وغير ذلك .

ان المتتبع لعصور قبل التأريخ يرى وبكل وضوح حقيقة تقدم العراقيين على غيرهم في مجال رفد الحضارة الانسانية بعدد لا يحصى من المظاهر الحضارية .

فعلى سبيل المثال لا الحصر فان العراقيين عرفوا استخدام النار منذ اقدم العصور وأول من ابتكر صناعة الفخار الملون واول من عرف مكانة المعادن والاحجار وعملوا على الاستفادة منها في مجالات كثيرة .

وفي نهاية الالف الرابع ومطلع الالف الثالث توصل العراقيون القدماء الى صناعات معدنية غاية في الدقة ومن ذلك تنقية النحاس وصهره من الزنك او القصدير وصبه باشكل مختلفة واستخدامه لاغراض متعددة . هذا بالاضافة الى مزجهم الفضة والذهب وسبك ذلك وصبه في قوالب لعمل عدد كبير من التماثيل والالات والادوات المختلفة وخير شاهد على ذلك ماتم العثور عليه في المقبرة الملكية في مدينة أور . وعلى الرغم من دور المعبد وبخاصة كهنته في مثل تلك الصناعات ومحاولتهم اطفاء الصبغة الطقوسية الدينية او السحرية عليها ، الا ان حل رموز مدوناتهم اكد كون العراقيين القدماء عمليين واصحاب منهج في عملهم الذي سادت فيه الممارسة العلمية لصناع ماهرين ووصولاً في أواخر عهودهم التأريخية القديمة الى تطوّر ملحوظ في الجانب النظري لهذه العلوم التكنولوجية والكيميائية . وتجدر

الإشارة هنا الى عدم اغفال كون المعرفة التكنولوجية والكيميائية غير مشاعة بين الناس وتميزت الكتابات المسمارية الكيميائية بالسرية وصولا الى اعتبارها من الاسرار الخفية او من عمل الالهة ، حيث استخدمت الضحايا والقرايين لانجاح بعض العمليات الكيميائية لصنع الزجاج . والاكثر من ذلك ان نصوصا تكنولوجية او كيميائية قد ذيلت بالآتي :

« دع المُلَقِّن (للصنعة) يريها للمُلَقَّن ولا يراها غير الملحق ، انها تخص الاشياء المحرمة للالهة العظام » .

مصادرنا عن الكيمياء

على الرغم من صعوبة حل رموز الكتابات المسمارية الخاصة بالتكنولوجيا والكيمياء ، والتي لم يتناولها الباحثون المتخصصون الا بعد منتصف العقد الثاني من هذا القرن ، فهناك العديد ممن استهوتهم مثل هذه النصوص وأنصرفوا لدراستها .

وقد تناولت المباحث الإثارية في مجال التكنولوجيا والكيمياء المصادر الأساسية . وطرقت البحوث ثلاثة اتجاهات الاول خصوا به الاجهزة والالات المستخدمة في علم الكيمياء وكيفية استعمالها واغراضها . اما الاتجاه الثاني فخصوا به الكتابات المسمارية الخاصة بتصنيع بعض المعادن مثل الزجاج والتزجيج . وتناول الثالث جرد النصوص المسمارية بشكل عام والتركيز على كل مايمت بصلة الى التكنولوجيا وعلم الكيمياء . كما ان الباحثين اعتادوا على تناول المعادن بانواعها والمركبات المختلفة في مباحث منفصلة ، وهذا ماسنقوم به لاحقا . ومن ابرز المصادر الثانوية التي اعتمدها الباحثون كتابات الاقوام المعاصرة كالمصريين والحثيين ، وما كتبه العلماء اليونان والرومان والعرب المسلمون .

الاجهزة الكيميائية

استخدم العراقيون القدماء العديد من الاوعية والمدقات والهاونات والمطاحن ولم يصلنا عبر اعمال التنقيبات الا القليل من تلك الاوعية والآلات . اما ذكرها في النصوص المسماة وبخاصة في القوائم المعجمية فكثير جدا . والاتي عرض سريع لبعض الآلات والوعية والاfran . . .

١ - المدق والهاون

استمر استخدام المدق والهاون الحجري عبر عصور طويلة خصوصا عند تحضير الالوان في صناعة الفخار في العصور القديمة ، فالي وقت قريب كنا نشاهد المدقات والهاونات الحجرية في القرى العراقية . وتم العثور على نماذج من هذه المدقات والهاونات في العديد من المواقع الاثرية مثل تبة كاورة واريديو . وتستخدم مثل هذه الاجهزة لاغراض تجزئة المادة الى اجزاء صغيرة او سحقها جدا وصولا الى طحنها وبخاصة اذا ما اريد اذابة المادة بالماء او محلول ما . ولدينا امثلة كثيرة حول سحق الزجاج لعدة مرات قبل الحصول على الزجاج النقي . او دق وسحن عدد من المواد لتكوين وصفة طبية وما الى ذلك .

٢ - المطاحن

وعملت من حجر شديد الصلابة ووجد العديد من النماذج لها وعلى مر العصور وباحجام مختلفة ، فالكبيرة منها ربما استخدمت للطحن اما الصغيرة فنظرا لخفة وزنها ربما استخدمت للسحق . وكانت مؤلفة من حجرين مستديرين شديدي الصلابة . وفي منتصف الحجر السفلي محور يدخل في ثقب في مركز الحجر العلوي . وتسكب الحبوب او المواد المسحوقة في هذا الثقب فتطحن ويخرج دقيقتها من بين الحجرين عند محيط دائريتهما ويدار الحجر العلوي بواسطة مقبض خشب مثبت في وجهها العلوي . والظاهر من خلال النصوص ان عملية الطحن كانت تمارس من قبل النساء كما هي عليه الحال في يومنا هذا عند اهل القرى .

٣ - انواع الاوعية والدوارق

عرف العراقيون القدماء صناعة أشكال متعددة من الآنية والاعوية الفخارية منذ الالف السابع ق . م وبالتحديد خلال الفترة الحضارية المعروفة باسم حسونة . وتطورت صناعة الفخار بعد ذلك التأريخ ووصولاً الى زخرفته وتلوينه بلون واحد او عدة الوان . وازدهرت صناعة الفخار وتعددت انواع الآنية خلال الالف الرابع ق . م حيث تم ابتكار دولاب الفخار وتعددت مجالات استخدام الاعوية . وتجدر الاشارة هنا الى ان الاعوية الحجرية بقيت تستخدم جنباً الى جنب مع الاواني الفخارية شأنها شأن الاعوية المصنوعة من الخشب او الجلد التي للأسف لم تصلنا نماذج منها خلال عمليات التنقيب . ونستدل على وجودها من الكتابات المسمارية فقط . اما الاواني المصنوعة من المعدن فقليلة ومنها ، ماهو مصنوع من النحاس او البرونز او الفضة او من electrum مزيج الفضة والذهب . وباختصار فان العدد الاكبر من الاعوية المستخدمة للاغراض الكيميائية او تكنولوجيتها انما عرفناه من خلال النصوص المسمارية .

وعلى اية حال فقد كشفت التنقيبات الاثرية عن العشرات من أشكال الآنية كالدوارق والجرار المختلفة الانواع والحجوم . اما اغراض استخدامها فكان للتسخين وبخاصة تلك الآنية المستديرة القعر ، وللتخزين وتكون عادة كبيرة وذات فوهات كبيرة ايضاً . كما شاع ومنذ عصور قبل التأريخ استخدام المصفاة واواني الترشيح ، وبالرغم من وجود هذين النوعين الاخرين من الاواني الا ان الاستاذ ليقي يؤكد استخدام قماش الصوف او الشعر لهذا الغرض . كما عثر المنقبون على آنية اكدت معرفة العراقيين بالتكنولوجيا والكيمياء ومنها الآنية المستخدمة في عمليات الاستخلاص والتصفيد والتقطير . هذا اضافة الى معرفة العراقيين باجهزة قياس الحجوم ، وكانت عبارة عن

دوارق صغيرة وكبيرة وعثر المنقبون على نماذج لبواتق فخارية وبوتقة نحاسية من نوزي تشبه البواتق المستخدمة في عصرنا •

٤ - قوالب الصب

عثر المنقبون على عدد من القوالب معظمها فخارية وعدد قليل من القوالب الحجرية • ويشرح العلماء طريقة أخرى للقوالب وذلك « بصنع نموذج للآلهة المراد صنعها من الشمع ثم تغليف النموذج بالطين واخيرا فخره • بذلك ينصهر الشمع ويتخلص منه ويبقى النموذج الفخاري للآلهة المراد صنعها من السبائك المختلفة • وفي المتحف العراقي والمتاحف العالمية الاخرى نماذج كثيرة لآلات معدنية متنوعة •

٥ - الوقود والاfran

أستخدم العراقيون العديد من انواع الاشجار والشجيرات والحشائش والاعشاب ، وسعف النخيل كمادة للوقود ولا يزال البعض من صنّاع الجص والفخار يستخدمون مثل هذا الوقود • ومن خلال الخبرة الطويلة للعراقيين القدماء كانوا يستبعدون استخدام الاخشاب او الحطب الذي يكون دخانا عند قيامهم بعمل الزجاج •

واستعمل العراقيون القدماء الكانون وعرفوه باسم kinūnum ، اي الموقد البسيط والذي ما يزال يستخدمه البدو بشكل واسع وهو اصغر انواع المواقد • وقد عثر على العديد من النماذج خلال اعمال التنقيبات ومنذ عصور قبل التاريخ • ويأتي بعد ذلك من ناحية شيوع الاستخدام التنور حيث لا تكاد حفريات اثرية تخلو منه • ويؤرخ المتحف العراقي والمتاحف العالمية الاخرى بانواع متعددة من المواقد المتنقلة ، يعود القسم القليل منها الى عصور قبل التاريخ ، واجمل النماذج التي وصلتنا تعود الى العهد البابلي القديم والوسيظ ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ قبل الميلاد اضافة الى النماذج الاخرى التي

عشر عليها في مدينة نوزي (قرية تاركلان قرب كركوك) في حدود القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد . والنماذج بشكل عام اما مخروطية ناقصة او اسطوانية الاشكال وغالبا ما تعمل من طابقين وتتخلل جدرانها الثقوب او الفتحات للتهوية . وهناك فتحة كبيرة نسيا عند القاعدة لادخال الوقود اما الافران الكبيرة الثابتة فربما لا تختلف عن ما يعرف بالكور وبالاكدية kûrum وعرف المنقبون والمختصون بالكتابات المسمارية انواعا من هذه الكور فمنها المقبب او المقبب ذو الفتحات عند القاعدة ومنها ذو الاقواس او غير ذلك من الاسماء . ولا اجد نفسي مبالغا ان قارنت بين الكورة والاتون ومعمل الطابوق الصغير في يومنا هذا وما كانت عليه الحال في العراق القديم بالنسبة لانواع الافران . وللأسف الشديد ما نزال نجهل الشيء الكثير عن طبيعة تلك الافران في العراق القديم وبخاصة افران الصاغة والحداين وغيرهم .

بعض العمليات الكيميائية

عرف العراقيون القدماء العديد من العمليات الكيميائية كصناعة الفخار وتلوينه واذابة وصب المعادن كالنحاس والفضة والذهب ومن ثم الحديد . ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا يمزجون بعض المعادن للحصول على معادن جديدة اقوى كالبرونز والالكترم وحاولوا بنجاح تلوين بعض الاحجار لمحاكاة الاحجار الثمينة المستوردة فلونوا حجر الصوان بواسطة بعض المعادن او أكاسيدها وبخاصة السلكات كما انهم عاملوا بعض الاحجار بالنار لزيادة بريقها وعمليات اخرى مكنتهم في نهاية الامر من صنع الزجاج والتفنن بالتزجيج وصولا الى درجة تمويه بعض الاحجار الرخيصة وجعلها كأحجار اللزورد وارسال كميات من هذه الاحجار الى ملوك الحيثيين والمصريين دون ان يكتشفوا طبيعة هذه الاحجار الا بعد مضي وقت طويل . وتمكن العراقيون القدماء في مطلع الالف الاول ق.م من كربنة Carbonization الحديد واستغلاله

في صنع الاسلحة الثقيلة والخفيفة • كما عرفوا فن تمويه الزجاج بالذهب مما يشير الى معرفتهم ببعض الحوامض • ويعتقد العالم كامبل تومبسون بان العراقيين القدماء ابتكروا الثقاب من الكبريت • واستغلوا معارفهم الكيميائية هذه وصولا الى انهم استخرجوا المركبات العديدة مثل ملح الامونيا والزئبق والرصاص الابيض وغيره • ومكنتهم هذه المعارف العلمية من استخراج انواع كثيرة من الادوية • وفيما يلي بعض الامثلة على عمليات كيميائية عثر المنقبون على اجهزة ربما كانت تستخدم لغرض القيام بها : —

١ — التقطير

حدد الباحثون منشأ اولى اجهزة التقطير بحوالي ٣٥٠٠ ق م وذلك بعد عثور المنقبين على جهاز متطور للتقطير في موقع تبه كاوره • اما الدليل اللغوي على معرفة العراقيين القدماء بالتقطير فيعود الى فترة العهد البابلي القديم • وتم التعرف على ذلك من خلال الوصفات الخاصة بصنع العطور وبخاصة « ماء الورد » •

وجهاز التقطير عبارة عن وعاء مخروطي الشكل ذو حافتين ، الاولى داخلية اقيمت بشكل مستقيم مع البدن وترتفع نحو الاعلى بمستوى الحافة الخارجية • اما الحافة الثانية فبرزت نحو الخارج عن سطح البدن من الخارج مكونة قناة بينها وبين الحافة الداخلية الاولى • ويقرن الباحثون هذا الجهاز باجهزة التقطير المعروفة عند العرب المسلمين •

وموجز طريقة استخدام هذا الجهاز هو تكرار عملية غلي المحلول او الماء او الزيت وامتصاص ما يتكثف من بخار في اعلى الوعاء بواسطة قطعة قماش بين الحين والاخر •

٢ — الاستخلاص

وتتم هذه العملية بواسطة نفس الجهاز المذكور اعلاه وذلك بوضع

المادة الحيوانية او النباتية في القناة الموجودة بين الحافتين اخذين بنظر الاعتبار ان الحافة الداخلية فيها عدة فتحات نافذة الى داخل الاناء ، وبعد وضع كمية من الماء او الزيت في داخل الدورق وبعد تغطية الوعاء يبدأ بتسخين الجهاز والعمل على تبريد الغطاء بين الحين والآخر وبذلك تتكثف الابخرة وتنزل بالقناة فتذيب جزءا من المادة المراد استخلاصها وتنساب الى داخل الاناء وتكرر العملية عشرات المرات الى ان يشبع الماء او الزيت بالمادة المراد استخلاصها •

٣ - التصعيد (التسامي)

وتتم هذه العملية الكيميائية باستخدام جهاز مشابه لاجهزة التقطير والاستخلاص • الا ان وعاء التصعيد (التسامي) اكبر وذو قناة اوسع بالاضافة الى عدم وجود فتحات في الحافة الداخلية • وطريقة استخدام هذا الجهاز تتم بوضع المادة المراد تصعيدها او تساميها داخل الوعاء وتسخن هناك • وتكثف الابخرة المتصاعدة عند ملامستها لسطح الغطاء الداخلي البارد وتتجمع داخل القناة • ثم يصار الى جمع السوائل المقطرة من القناة بواسطة ملاعق خاصة • ويبرد الغطاء بين الحين والآخر او ربما يصار الى ابعاد الجهاز كله عن النار وتعاد العملية وتكرر عدة مرات •

ويؤكد الاستاذ كامبل تومبسون ان العراقيين القدماء قد اتقنوا عملية التصعيد (التسامي) وميزوا بين مركبات ثقيلة وأكاسيد طيارة وعرفوا كيفية استحصال الامونيا من سخام نار الروث • كما ويرجح الاستاذ تومبسون ان معرفتهم تلك قادتهم الى اكتشاف المتصعد الاحمر من كبريتيد الزئبق الذي مكنهم من اكتشاف الزئبق •

الصناعات الغذائية

اشتهر العراقيون القدماء بصناعات غذائية متعددة كصنع الجبن والخاثر

والقشدة والقيمر وغير ذلك من مشتقات الالبان التي نعرفها في يومنا هذا . وبالرغم من استخدام الحليب ممزوجا مع بعض المواد الاخرى كوجبة للطعام، الا ان العراقيين استخدموه بشكل اوسع في الوصفات الطيبة واغلب الظن انهم كانوا يحولونه الى منتجات اخرى لحفظها الى فترات اطول والطريقة المستخدمة لذلك وبخاصة بالنسبة للجبن او الدهن تتمثل في تعبئة تلك المنتجات في قرب معمولة من جلود أو معد الحيوانات يمكن ان تفرغ من الهواء بعد كل استعمال ويعاد ربطها وتعليقها . وما تزال بعض القرى العراقية وبخاصة في المنطقة الشمالية تعتمد الى استخدام نفس هذا الاسلوب في حفظ الجبن .

اما اللحوم على اختلاف انواعها كالحم الضأن أو البقر أو الماعز او الاسماك فكانت تحفظ اما بواسطة التمليح والخن في الجلود بعد ان تضاف اليها بعض التوابل ، او التقديد أي التجفيف بالشمس ومن ثم الحفظ وكانت هذه الطريقة بل وبقيت الى وقت قريب هي الطريقة المثلى لحفظ انواع معينة من الاسماك في المناطق الجنوبية من العراق .

اما المشروبات فكثيرة ومنها النبيذ الاحمر والنبيذ الابيض اللذان صنعا من بذور السمسم والفواكه المختلفة . ولعمل النبيذ كان العراقيون ينقعون التمر والتين والزيت والخميرة بالماء ويضيفون اليه التوابل وبعض العطور بالاضافة الى رحيق العسل . وبعد التخمير يصفى ويعطر ثانية بالعطر المناسب وحسب الامكانية المادية للعائلة او حانات الشرب .

والمشروب المنعش والمفضل لدى العراقيين القداماء هو الجعة بمختلف انواعها . وتحضر الجعة بتنقيع الشعير اولا في الماء ثم تسخينه بدرجة معتدلة لتنشيط الانزيمات الضرورية للتخمير ، ثم يجفف الشعير بالفرن ويفصل عنه النشاء والقشور بواسطة الغربال . وتعاد عملية تنقيع الشعير وتنقيته ومن ثم يرفع ويترك ليخمر . وما دام الشعير لا يحتاج الى الكثير من العناية لحفظه

فيمكن ان تجرى العملية في أي فصل من فصول السنة • ونعرف عن عشرات
الانواع من الجعة واسعارها المختلفة طبقا الى طريقة التنقيع والسحن والمزج
والتخمير والتحلية والتعطير وغير ذلك من العمليات التي تجرى عليها •
وهناك مشاهد فنية جميلة ترينا عملية صنع الجعة وطرق شربها المختلفة وجدت
منقوشة على الاختام الاسطوانية ومنها الشكل الآتي :



اما الفواكه فكانت كثيرة ومنها التمر والتين والمشمش والاعناب والتفاح وغير ذلك من الانواع فتحفظ بواسطة التجفيف • ولا نعتقد بان التمر يحتاج الى الكثير من اجل حفظه • اما الفواكه الاخرى فتعصر وتلف بشكل لا يسمح للهواء بان يحدث عملية التخمر غير المطلوبة • اما الخضروات وعلى اختلاف انواعها فكانت تجفف بالشمس • واما بذور بعض النباتات والتوابل فكانت تطحن بمطاحن خاصة وتحفظ في جرار •

من كل ما تقدم يمكننا ان نؤكد ان العراقيين القدماء كانوا على مستوى جيد في معرفة بعض التقنيات التي تدخل في بعض الصناعات ومنها عمليات التسخين والطحن ، والسحن ، والمزج ، والتكثيف ، وضبط درجات الحرارة ، بالإضافة الى معرفتهم بعدد لا يحصى من انواع الآنية وانواع النباتات التي تمكنوا بواسطتها من الحصول على الالوان ومزجها لايجاد الوان اخرى • ومزج الاعشاب والبذور لاستخلاص ادوية متعددة •

الدباغة وصناعة الجلود

عرف العراقيون القدماء العديد من انواع الحيوانات كما استطاعوا تدجين عدد كبير منها واستخدامها في مجالات متعددة من حياتهم اليومية • فأكلوا لحومها وشربوا البانها وغزلوا ونسجوا اصوافها واوبارها وشعرها • والاهم من ذلك بالنسبة لنا في هذا المبحث هو استخدامهم لجلودها في عمل الاحذية والحقائب المختلفة وحافظات لبعض اسلحتهم مثل السيوف والخناجر والسكاكين او عملها كخوذ حربية او دروع او سروج لخيولهم او ملابس لهم • وقبل استخدامها وحتى تهيأ الجلود للاستخدام كانت تمر بعمليات متعددة بدءاً من سلخها وحفظها وتعطينها او ازالة الشعر او الصوف منها وبشرها بضرها ودباغتها وانتهاءً بعملية صبغها وتلوينها • ويدخل ضمن هذه الصناعة العديد من العمليات الكيميائية • فبعد السلخ وتفسخ وتأكسد المواد البروتينية

تغس الجلود في مياه مشبعة بالاملاح ومن ثم اخراجها وتجفيفها وتنظيفها وحفظها • وتجري عليها بعد ذلك عملية البشر او الضرب لتنظيفها جيدا ولاكسابها الليونة وبعد ذلك حفظها في مخازن لفترة الى ان تسهل عملية ازالة الشعر منها بتأثير البكتريا •

وتمر الجلود بعمليات اخرى كتغطيسها باليوريا واملاح الامونيا الى ان تتفسخ ومن ثم تحك بشرتها الخارجية مرة اخرى بالسكاكين لازالة الفضلات وجذور الشعر • ولازالة الانتفاخات والعمل على تجانس سطح الجلد يعملون على ضربها وبشرها مرة اخرى ومن ثم دباغتها • وغالبا ما تتم دباغة الجلود اما بواسطة الزيوت او الشحوم وتضرب وتطرق الى ان تزال جزيئات الماء من الجلد وينفذ الدهن الى المسامات لكسبه الطراوة اللازمة • وهناك طريقة اخرى للدباغة بواسطة الاملاح المعدنية • فاستخدم الشب غير النقي المحتوي على شوائب الحديد المفيدة في عملية الدباغة مخلوطا مع مواد دباغية اخرى ككبريتات الصوديوم • اما الطريقة الدباغية الشائعة الاخرى والتي يمكن ان نراها حتى يومنا هذا فهي استخدام المواد النباتية في الدباغة كالعفص وقشور الرمان وغلاف ثمرة البلوط والسماق والطحين وعمل ذلك على شكل محلول ووضعه والجلد في جرار خاصة للدبغ •

الدهن الحيواني وصناعة الزيوت والشمع

عرف العراقيون القدماء ومنذ عصور قبل التاريخ انواعا متعددة من الدهون الحيوانية والزيوت النباتية كزيت السمسم وزيت الخروع وغيرها • وغالبا ما كانوا ينقعون البذور في الماء ومن ثم يكبسونها ويعصرونها لاستخراج الزيوت • وترك لنا الكتبة العراقيون انواعا لا تحصى من الزيوت بالاضافة

الى عدد كبير من انواع الدهون الحيوانية ومنها دهن الكلى ، ودهن
عين الخروف ودهن العصفور ، ودهن عظم الغزال ودهن الحية السوداء
ودهن الثور ودهن السمك ودهن الاسد ... الخ اما الشمع فغالبا ما كانوا
يستخرجونه من اوراق الاشجار ويستخدمونه في عمل النماذج المراد صبها
بالمعادن كما عرفوا شمع العسل .

صناعة النسيج والصباغة والالوان

كان العراق القديم مركزا تجاريا وصناعيا وقد اشتهر ومنذ القدم
بصناعة انواع كثيرة من الاقمشة والالبسة وزودتنا النصوص المعجمية بعشرات
الاسماء للاقمشة والالبسة وبطرق صناعتها وصباغتها . منها المصنوعة
من اصواف مختلفة الانواع او من الكتان او شعر الماعز على اختلاف انواعه .
ولصناعة مثل تلك الاقمشة والالبسة كان العراقيون يقومون اولا بتنظيف
الصوف او الغزل ومن ثم قصره وصباغته وتثبيتته وبعد ذلك تحويله الى
غزل ونسجه او حياكته . ويقصر الصوف او الشعر بواسطة حفر خاصة
وتضرب ومن ثم تجفف بالشمس التي تساعد على القصر . وبعد ذلك ينقع
الصوف بالجمعة ويسخن تدريجيا بواسطة اثناء نحاس على نار هادئة وتضاف
الصبغة ويحرك الصوف بهدوء كي تأخذ الصبغة شكلا متجانسا وبعد ذلك
تضاف اليه المواد المثبتة للاصباغ كالعفص والبلوط وقشور الرمان وقلف
الاشجار والزيوت الطيارة . ويمكن ان تثبت الصبغة ايضا بواسطة الاملاح
المعدنية كالشرب والترتر (الليمندوزي) مضافا الى املاح الامونيا . وعرف
العراقيون عددا من الالوان ومنذ عصور قبل التأريخ وبخاصة تلك الالوان
البراقة الموجودة على فخاريات تلك العصور والتي يزخر المتحف العراقي
بانواعها الكثيرة كما عرفوها في صنع البستهم واقمشتهم في العصور اللاحقة .

ومن تلك الالوان الاسود الذي استخرج من اكاسيد الحديد المزوج مع السماق او من مزج الشب بالعفص • وتجدر الاشارة هنا الى معرفة العراقيين باملاح الامونيوم او الشب الابيض واملاح الحديد أي الشب الاسود • اما الصبغة الحمراء فكانت تستخرج من اشجار البلوط او من تفاعل اكاسيد الحديد في محلول قاعدي • اما اللون الازرق فاستخرج بواسطة الصودا الكاوية او الجير النهري • اما اللون الاصفر فمصدره الزعفران والكرم •

وقد استعمل الارجوان في صبغ الالبسة والاقمشة المختلفة • والمعروف ان هذه المادة تستخرج من حيوان صغير يعرف باسم موركس ترونكولوس يعيش في صدفة كالحلزون وله تحت رأسه غدة تحتوي على مادة الصبغ فاذا استخرجت هذه المادة وعرضت للشمس فانها تتلون تباعا باللون الاخضر فالازرق فالاحمر فالارجواني وكان الكنعانيون يصطادون الموركس بالشباك والسلال ويستخرجون الغدد من الحيوان وهو حي لان اللون يفسد بعد الموت •

وينبغي تمليح الغدد وطبخها لفترة من الزمن ومن ثم تعريضها للشمس ليتحول لونها الى اللون القرمزي • هذا اضافة الى معرفتهم بعدد اخر من الالوان التي يمكن ان تستخرج من الالوان السائلة الذكر او من مزج بعضها ببعض الاخر او من خلال معاملة البعض منها بالنار •

المطهرات والصابون

صنع العراقيون القدماء الصابون المعمول من الطينخاوة واصماغ الاشجار • كما يعتقد البعض من العلماء ان العراقيين القدماء قد انتجوا

الصابون المستحضر من الزيوت النباتية والقلويات. المعالجة باضافة الكبريت
او المواد الصمغية . كما ان الاستاذ ليثي أشار الى امكانية صنع الصابون
الحقيقي او المعروف بالصابون البارد ، او شبه المغلي الذي تظل فيه المواد التي
تتضمن الغليسرين والماء ، في حالة متخثرة او سائلة . ان عملية الصابون
البارد أو شبه المغلي تطبق طبعا ، في صنع الصابون من الزيوت الصابونية
الجاهزة . ويضمن زيت الخروج هذه المتطلبات . وثمة دليل ما على ان
الصابون كان يفصل عن الغليسرين بعملية الترسيب الملحي .

البحر السافرة الطيور والنبات

دون العراقيون القدامى أسماء مئات الانواع من الحيوانات المدجنة والوحشية والطيور على الرقم المعجمية ووصلتنا نصوص تحتوي على قوائم مطولة في هذا المجال منذ عهد سلالة اور الثالثة وازداد عددها في الالف الثاني قبل الميلاد وبلغت ذروتها في العهد الآشوري الحديث . ومن تلك الحيوانات ما انقرض وجوده في العراق ومنها ما هو باق الى يومنا هذا . كما زودتنا النصوص الادارية والكتابات الملكية والرسائل بعدد كبير من اسماء الحيوانات الغريبة عن بلدنا في ذلك الوقت جاء بها الملوك كغنائم او ارسلت لهم كهدايا من مناطق مختلفة . كما ان النقوش والاعمال الفنية حفظت لنا العديد من تلك الحيوانات والطيور . ومن اكثر الانواع شيوعا في النصوص المسماة الاسود والضأن والماعز والابقار والجمال والخيول والكلاب والحمير والبغال والغزلان وعشرات الانواع من الاسماك .

اما الطيور فكثيرة وتعد بالمئات وبخاصة الطيور المذكورة في القوائم المعجمية والتعليمية . ومنها الديك والدجاج والبط والنعام والسنونو والغراب والعصفور بانواعه المختلفة والبلبل والحجل والكوركي والدراج والنسر والصقر والعقاب . ومن الجدير بالذكر ان نصوص تل حرمل زودتنا باكثر من

(٢٧٠) نوعا من الطيور . كما تجدر الاشارة الى اكتشافنا لرقيم في مدينة

سپار ، يتضمن (٧٠) نوعا من الطيور مع رقم عديدة تعود لتاجر مما يدل على تعلق العراقيين القدماء بتربية ورعاية الطيور وربما رصد حركتها . وعلى الرغم من معرفتنا بعدد لا بأس به من تلك الطيور والحيوانات فما نزال نجهل معنى اسماء العديد من الحيوانات والطيور الواردة بتلك القوائم .

ومن الطريف ذكره في هذا المبحث ان الحثين خلفوا لنا رسالة مكتوبة بالخط المسماري تتضمن وصفا بتدريب الخيول يوما فيوم وساعة فساعة تقريبا، والى بلوغها ستة اشهر ، حيث اختيرت احسن الخيول ، وبدأ المدربون بتخفيض وزنها بواسطة قطع العلف عنها وتعريقها ومن ثم تدريبها على السير والعدو اشواطا تزداد بالتدرج خبا او رهوا ، واطعامها وسقيها في اوقات منتظمة وبكميات مقدرة ومعينة ، فيخلط التبن مع العلف ، لتسهيل المضغ الجيد . وعلى الرغم من عدم العثور في العراق على مثل هذه الرسالة الا ان الاستاذ سارتون يؤكد معرفة العراقيين بطرق تربية الحيوان ، ويمكن ان ندعم رأيه ايضا بما ورد في نصوص نوزي التي تسبق الرسالة الحثية بحوالي مائة سنة ، من معلومات عن الخيول واشارات عن تضريبها وتدريبها . اضافة الى قائمة باسماء الخيل واسماء نسبها عثر عليها في نقر وتعود الى عهد الحكم الكشي .

اما في مجال معارف العراقيين بالنبات وطرق رعايته فالحديث عنها طويل ومتشعب ويمكن ان تحتل لوحدها مجلدا خاصا ، فالاستاذ كامبل تومبسون زودنا بقاموس يتألف من (٤٠٥) صفحات بانواع النبات والحشائش والاعشاب والعليق والشجيرات والاشجار وما الى ذلك . كما اتحفنا الاستاذ المرحوم طه باقر بمقالات قيمة في النصوص التي اكتشفت بعد ذلك وبخاصة نصوص تل حرميل ومحاويلته اقران اسمائها باسماء ماورد في كتب العلماء العرب المسلمين هذا اضافة الى ما زودنا به الاستاذ لاندزيركر وغيره من

المشتغلين في حقل النصوص المعجمية • ومن اشهر انواع الاشجار ، النخيل ،
والصفصاف والطرفاء والغرب واشجار الفواكه واللوزيات الخ •

النخلة

اشتهر العراق وما يزال بزراعة الشجر المبارك النخيل ، وقد خلف لنا
العراقيون القدماء كتابات مطولة عن النخيل وانواعه واوصافه ومنتجاته ،
كما تناول الباحثون النخلة بالعديد من المقالات والكتب التي تكشف بدورها
عن غزارة المصادر القديمة في الموضوع •

سمى العراقيون القدماء النخل باسم كšimmar أو gišimmaru
وهو يقرب من لفظة « الجمار » كما عرفوه باسم ثمره أي الثمر suluppu
وقد دلت المخطافات الآثارية من عصور قبل التأريخ في العراق على معرفة
العراقيين بهذه الشجرة وغيرها من خلال المتفحيمات التي اكتشفوها • ويؤيد
ذلك ويدعمه وجود العلامة الصورية الخاصة بالنخل على أقدم الرقم
الطينية التي يرقى زمنها الى حوالي نهاية الالف الرابع وحتى منتصف الالف
الثالث ق.م • وبتقدم الزمن وزيادة التدوين كثرت الاشارات الى النخل
وانواعه وما يمكن ان يعمل منه • وكان العراقيون يقدسون هذه الشجرة
العظيمة لما تقدمه لهم من منافع حتى ان المؤرخ سترابو قال بحقها في معرض
حديثه عن اهل العراق « تجهزهم النخلة بجميع حاجاتهم ما عدا الحبوب »
وقال بلجريف Palgrave بأنها « خبز البلاد ، ومادة الحياة وعماد التجارة » ،
على حد ما اورده لنا الاستاذ طه باقر في مقالته الموسومة « دراسة في النباتات
المذكورة في المصادر المسمارية » • واهم ما يدلنا عن اهمية النخل بالنسبة
للعراقيين القدماء ، تخصيص بضع مواد قانونية تتعلق بزراعته ورعايته في
قوانين حمورابي ذائعة الصيت • فالمادة ٥٩ من هذا القانون تنص على دفع
نصف « منا » من الفضة كغرامة تترتب على قاطع شجرة النخل • ونص

المشرع في المادة (٦٠) على اقتسام محصول النخل مناصفة بين مالك الارض والبستاني بعد اربع سنوات من قيام الاخير بغرس النخل . اما المادة ٦٤ من قانون حمورابي فتذكر لنا « اذا اعطى رجل بستانه لبستاني لتلقيحها ، فعلى البستاني ما دام الحقل بيده ، ان يعطي لصاحب البستان ثلثي محصول البستان ويستلم هو الثلث الاخر » .

عرف العراقيون القدماء طريقة تكثير النخيل بواسطة « التال » وهي الطريقة المثلى لتكاثر النخل ويعمل بها في العراق الحديث . ومن الطريف ذكره ان العراقيين القدماء اطلقوا نفس الاسم على الفسيلة اي *tālu* « تالة » والراكوب *rukku* . كما قارن العديد من الباحثين بين المسافات التي تترك بين نخلة واخرى في العراق قديما وحديثا فوجدوها متقاربة او تكاد تكون متطابقة . وتشير بعض النصوص المسمارية الى ما تنتجه النخلة الواحدة من التمر فتعطي ارقاما كبيرة كالرقم (١٠٥) كيلو غرامات او اكثر وهذا يدل على العناية الفائقة بهذه الشجرة المباركة .

سبق وكررنا ان العراقيين القدامى قدسوا هذه الشجرة المباركة حتى ان بعضهم ومنذ عهد سلالة اور الثالثة أطلق على أبنائه من اسمائها . ومن المآثر المشهودة للعراقيين القدماء معرفتهم بانواع كثيرة من النخل تعدت الخمسين نوعا .

كما تشهد النصوص المعجمية على معرفتهم باجزاء النخلة وطرق العناية بغرسها ورعايتها . فعرفوا القلب *libbu* « اللب » والجذع والسعف واوراقه كما وصفوا لنا النخل استنادا الى مكان تواجداه او عمر النخلة كالتالة *tālu* اذا كان عمر النخلة اربع سنوات ، وهناك صفات تشير الى نوعية التمر وجودته . ومن الكلمات شائعة الاستعمال في عراق اليوم « التبيلة » اي ما

يستخدمه الفلاح عند تسلقه لاشجار النخل ، وهي نفس الكلمة الاكديّة *tubalā* وتمر « الشيص » بالاكديّة *šišūtu* و « الكرمات » بالاكديّة *gurummadu* و « الليف » *laptu* و « الرطب » *raṭbu* وغير ذلك .

وفي ختام هذا البحث نؤكد ما اسلفنا ذكره حول فوائد النخل والتمر حيث ذكرت له (٣٦٥) فائدة في احد النصوص البابلية المتأخرة . وفي نص من تدمير عدد العرب التدمريون (٨٠٠) فائدة لنخل تدمر .

وعرف العراقيون القدماء الدبس *dišbu* واستخرجوا انواعا متعددة من الخمور القوية مثل « خمر التمر » والخمر المستخرج من الجمار . اما استخدامات النخل ومنتجاته في عمل الوصفات الطبية فكثيرة ، حيث استخدم التمر والزيت كلبخة لشفاء الاورام والرضوض . ومن الوصفات الشائعة خلط قمع التمرة مع العسل والزيت لشفاء بعض الامراض الصرعية .

وخلط نقيع التمر مع ماء الورد لمعالجة المعدة . وضمت وصفة طبية لشفاء عسر التبول بشرب نقيع التمر والحليب . كما استخدم مسحوق النوى وماء الورد لمعالجة بعض امراض العيون . ان ما ذكر في هذا البحث ما هو الا شذرات قليلة وباستطاعة من يريد الاستزادة مراجعة الكتب المذكورة في مصادر هذا الفصل .

البحث السابع

المعادن والحجارة والاعمال

يصف لنا الاستاذ فوربز Forbes مكانة المعارف الاولى بالمعادن والتعدين بقوله « ان علم المعادن احد الخطوات الحضارية العظيمة في تاريخ البشرية ، ولكنه ليس الخطوة الرئيسية لتقدم البشرية » * ويستطرد القول ويؤكد على اننا يجب ان لا نبالغ باهمية المعدن للمجتمعات القديمة لان تطور « علم المعادن » كان بطيئا ولا يوجد شك في ان المعادن لم تكن افضل من الحجارة ، واستغرق الانسان ردحا طويلا من الزمن لحين توصله الى صنع البرونز الذي هو بطبيعة الحال افضل من الحجر المصقول وشظايا الصوان * وعلى اية حال فالمعادن اثرت في الاقتصاد القديم لان المعدن ساعد بشكل ملحوظ على ظهور المدن وربما تكوين الامبراطوريات القديمة » *

وعبر دراسة مستفيضة « لعلم المعادن » وارتباطه بعلم الآثار استطاع هذا العالم التوصل الى ايجاد تسميات جديدة ، تخدم الآثاريين وعلماء التعدين وغيرهم ، تخص تقسيم العصور القديمة ومراحل تطورها ، فمن التسميات التقليدية أي عصور الحجارة ، والنحاس ، والبرونز ، والحديد توصل الى الآتي :

- ١ - مرحلة المعادن المحلية كالحجار
- ٢ - مرحلة المعدن المحلي (المطروق او المقطوع والذي يشمل نحاساً وذهبا وفضة والحديد النيزكي) *

٣ - مرحلة خام المعادن (أي من خام المعدن الى مزج بعض المعادن بشكل اولي) وشملت هذه الفترة معادن الرصاص ، والفضة ، والنحاس ، والالتمون ، والقصدير والبرونز والصفير (النحاس الاصفر) .

٤ - مرحلة الحديد (اي الحديد المحضر بشكل اولي ، ومن ثم سبك الحديد وحديد الصلب) .

وعلى اية حال ففي الكثير من الحالات نعجز عن تحديد زمن اختراع ما او حتى كيف توصل الانسان اليه . وعلى سبيل المثال لا الحصر فنحن لا نعرف الزمن الفاصل بين استخدام الانسان للطين وبين صناعة اولى الاواني الفخارية .

ولعل اللغة لعبت دورا أساسياً في نقل ما توصل اليه السلف عن طريق الكلام المباشر اما اختراع الكتابة فادى الى حفظ الخبرات وتطويرها . لا بل حتى ايجاد نظرة مستقبلية لتلك الخبرات . ووصلنا العديد من النصوص المسمارية التي قدمت لنا الدليل القاطع على معارف العراقيين القدامى بالمعادن والاحجار والاملاح ... فيحدثنا الاستاذ كامبل تومبسون عن « الجيولوجي الآشوري انه بالتأكيد عرف درجة صلابة الصخور وتحديد انواعها » . وقد أستنتج ذلك من اقتران الحجر الصلب بالعلامات التي تعني حجر اللازورد .

ويستطرد العالم كامبل تومبسون القول « الجيولوجي الآشوري كان على بينة بما يعرف بالاستخدام السحري للمرجان الابيض كرقية (او تعويذة) مع مسحوق الحديد والنحاس ، وذلك لتقوية اواصر المحبة ، وبوصف ادق يمكن اقران ذلك بالحديد الممغنط والحديد المحشو بتعويذ الحبيب ، على حد قول الاستاذ تومبسون . وهذا يقودنا للاعتقاد ان للآشوريين علماً بانجذاب بعض المواد بعد دلكها بمادة اخرى » .

أكدت لنا المباحث الآثارية والنصوص المعجمية معرفة العراقيين القدماء بمئات الانواع من الاحجار وعشرات الانواع من الاملاح والمعادن . وكامثلة يمكن ان نورد اسماء الاحجار التالية : حجر السماء ، ومنه احجار مؤنثة ومذكرة ، (احجار املاح) الشب الابيض والاسود ، حجر الخفاف او الزجاج البركاني المسامي الذي يستعمل في عملية صقل الآلات والادوات . ويجب ان ننوه هنا عن امكانية معرفة انواع متعددة منحدره من نفس الحجر وذلك من خلال وجود صفة التذكير والتأنيث التي تطلق على الحجر الواحد . كما عرفوا العقيق الاحمر ، وحجر الصوان ، وحجر الشذر او الفيروز . وحجر العقيق الاحمر . وهناك نوع من الاحجار يدعى بحجر العين ومن المعادن عرف العراقيون الآتي :

الذهب ، والذهب الاحمر ، واوراق الذهب ، والفضة ، والفضة النقية والنحاس ، والبرونز ، والتتنك ، والنحاس الملمع ، والصفير ، والحديد ، والحديد الممغنط ، والحديد النيزكي او حديد النار ، والرصاص . ومن الاملاح والمركبات عرفوا الآتي :

ملح الطعام ، والملح المستخرج من النهر ، وملح الجبال ، وتترات البوتاسيوم الابيض والاسود والمغسول وغير المغسول ، وكاربونات الصودا وتترات البوتاسيوم . والبورق ، والطين ، والجص ، والكبريت ، وكبريت الانهر ، والكبريت الاسود والاصفر . والقار ، والقار النهري . وهناك انواع لا تحصى من الاحجار كالاحجار المستخدمة لعمل التماثيل واحجار البناء ، واحجار اخرى كثيرة تتعلق بنعوت الالهة واكثر انواع الاحجار شيوعا الآتي :

حجر العين اليمنى وحجر عين الطير واليشب وهو حجر كريم اخضر مائل الى السواد وحجر العقرب وحجر السمك وحجر العشرين ، اي حجر الطلق او البوطرة .

مراجع الفصل الثامن

- ١ - ابو الوفاء البوزجاني ، علم الحساب العربي - « حساب اليد » ، تحقيق دكتور احمد سعيدان ، الاردن ، ١٩٧١
- ٢ - اوبنهايم ، ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق ، بلاد ما بين النهرين ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨١
- ٣ - د . احمد سوسة ، العراق في الخوارط القديمة ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٩
- ٤ - جورج كونتينو ، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٧٩
- ٥ - جورج سارتون ، ترجمة د . مصطفى الامير واخرون ، تاريخ العلم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٧ .
- ٦ - هنري وليم فردريك ساكز ، ترجمة د . عامر سليمان ، عظمة بابل ، موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ، جامعة الموصل ١٩٧٩ .
- ٧ - دكتور وليد الجادر ، « الطب البابلي والاشوري » ، مقالة مترجمة عن الاستاذ لابات ، سومر ، ٢٤ ، ١٩٦٨ ص ١٩١ - ٢٠٦ .
- ٨ - دكتور وليد الجادر ، « صناعة الجلود في وادي الرافدين » ، سومر ، ٢٨ ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٩ .
- ٩ - طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ .
- ١٠ - طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ١٩٧٣ .
- ١١ - طه باقر ، موجز تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الاسلامية ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ .
- ١٢ - طه باقر ود . عبدالعزيز حميد ، طرق البحث العلمي في التاريخ والاثار ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ .

- ١٣ - طه باقر و د . فاضل عبدالواحد و د . عامر سليمان ، تاريخ المراق القديم ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ .
- ١٤ - طه باقر ، ملحمة كلكامش ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٧٦
- ١٥ - طه باقر ، مقالات متعددة في سومر ، ٨ و ٩ وما يتبع .
- ١٦ - الدكتور ياسين خليل ، العلوم الطبيعية عند العرب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠
- ١٧ - الدكتور ياسين خليل ، الطب والصيدلة عند العرب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩
- ١٨ - الدكتور كمال السامرائي ، الامراض النسوية في التاريخ القديم واخبارها في المراق الحديث ، الموسوعة الصغرى ، ٩١ ، ١٩٨١
- ١٩ - مارتين ليفي ، ترجمة د . محمود فياض المياحي واخرون ، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٢٠ - محمد بن موسى الخوارزمي ، كتاب الجبر والمقابلة ، تقديم وتعليق د . علي مصطفى مشرفة و د . محمد مرسي احمد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر فرع مصر ، ١٩٦٨ .
- ٢١ - مرغريت روثن ، ترجمة د . يوسف جي ، علوم البابليين ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٢٢ - مجموعة من الاساتذة والباحثين ، العراق في التاريخ ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٣ .
- ٢٣ - د . سامي سعيد الاحمد ، « الطب العراقي القديم » ، سومر ، ٣٠ ، ١٩٧٤ ، ص ٧٩ - ١٣٦ .
- ٢٤ - عبدالاله الديوهجي ، « خوارزميات من التراث القديم وعلاقتها بالبرمجة ولغاتها » ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- ٢٥ - د . عبداللطيف البدري ، التشخيص والانداز في الطب الاكدي ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٠ .
- ٢٦ - د . فاروق ناصر الراوي « الرياضيات : احد اهم المظاهر الحضارية في العراق القديم » الندوة الوطنية العلمية للمؤسسة العامة للاثار والتراث ، بغداد ، ١٩٨٣ .

- ٢٧ - د . فاروق ناصر الراوي ، « التحدي الحضاري للامة » الندوة الفكرية الثانية في فكر الرفيق القائد صدام حسين ، ١٩٨٤/٥/٥ .
- ٢٨ - د . فاروق ناصر الراوي « الاعتداء والايذاء » سومر ، ٣٨ ، ١٩٨٢ .
- ٢٩ - د . فاضل عبدالواحد علي و د . عامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ .
- ٣٠ - د . فاضل عبدالواحد علي « طرق العرافة في النصوص المسماوية » ، مجلة كلية الاداب ، ٢٥ ، ١٩٧٦ .
- ٣١ - د . فرج حبه ، « الكيمياء وتكنولوجياها » ، سومر ، ٢٥ ، ١٩٦٩ ، ص ٩١ - ١١٣ .
- ٣٢ - رضا جواد الهاشمي ، نظام العائلة في العصر البابلي القديم ، بغداد ، دار الاندلس ، ١٩٧٠ .

33. Adamson, P.B., "Anatomical and Pathological Terms in Akkadian", JRAS, 1974-1981.
34. Civil, Miguel, "Prescriptions médicales sumériennes" RA, 54, 1960, pp. 57-72.
35. Danguin, F. Thureau, Textes Mathématiques Babyloniens, Brill Leiden, 1938.
36. Driver, G.R. and Sir Miles, J.C. The Babylonian Laws, 2 Volumes, Oxford, 1968.
37. Ellison, R., "Some Thoughts on the Diet of Mesopotamia from c. 6000-3000 B.C." Iraq, 45, 1983.
38. Forbes, R.J., Metallurgy in Antiquity, Brill Leiden, 1950.
39. Friberg, J., Methods and Traditions of Babylonian Mathematics; An Old Babylonian Catalogue with Equations for the Square and Circle, Department of Mathematics, Chalmers University of Technology and the University of Göteborg, Sweden, 1979.
40. Friberg, J., "An Annotated Bibliography of Works on Babylonian Mathematics", op. cit., Sweden, 1980.

41. Friberg, J., *The Early Roots of Babylonian Mathematics*, op. cit., Sweden, 1979.
42. Goetze, A., "An Incantation against diseases", *JCS*, 9, 1955, pp. 8-18.
43. Goetze, A., "An Old Babylonian Itinerary", *JCS*, 7, 1953, pp. 51-72.
44. Grave, M. Ch. De, *The Ships of the Ancient Near East; (c. 2000-500 B.C.)*, Leuven, 1981.
45. Grayson, A.K., *Assyrian and Babylonian Chronicles*, New York, 1975.
46. Grayson, A.K., "The Empire of Sargon of Akkad", *AFO*, 25, 1974-77, pp. 56-64.
47. Hartman, L.F., and Oppenheim, A. Leo, *On Beer and Brewing Techniques in Ancient Mesopotamia*, Baltimore, 1950.
48. Hyrup, J., *Babylonian Algebra from the Viewpoint of Geometrical Heuristics*, Sweden, 1982.
49. Huber, Peter J., "Babylonian Edipses Observations 750 B.C. to O", Harvard University, 1972.
50. Labat, R., *Traité akkadien de diagnostics et pronostics médicaux*, Paris and Brill Leiden, 1951.
51. Leemans, W.F., *Foreign Trade in Old Babylonian Period*, Brill Leiden, 1960.
52. Landsberger, B., *The Date Palm and its By-products according to the Cuneiform Sources*, Graz, 1967.
53. Langdon, S., *Babylonian Menologies and the Semitic Calendars*, London, 1935.
54. Meyer, Léon De, *Tell Ed-Dēr, Sounding at Abū Habbah (Slippar)*, Leuven, 1980.
55. Moore, H., "Reproductions of an Ancient Babylonian Glaze", *Iraq*, 10, 1948, pp. 26-33.

56. Moorey, J.R.S., (editor), **The Origins of Civilization**, Wolfson College.
57. **Lectures 1978**, Clarendon Press, Oxford, 1979.
58. Nemet-Nejat, K.R., **Late Babylonian Field Plaques in the British Museum** Rome, 1982.
59. Neugebauer, O. and Sachs, A., **Mathematical Cuneiform Texts**, AOS, 29. New Haven, 1945.
60. Neugebauer, O., **The Exact Sciences in Antiquity**, Harper and Brothers, New York, 1962.
61. Oppenheim, A. Leo, **Letters from Mesopotamia**, University of Chicago Press, 1967.
62. Oppenheim, A. Leo, **Glass and Glass making in Ancient Mesopotamia**, New York, 1970.
63. Oppenheim, A. Leo, "On the Observation of the pulse in Mesopotamia Medicin", **Orientalia** 31, 1962, pp. 27-33.
64. Pritchard, J.B., **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament**, Princeton University Press, 1955.
65. Raux, J., **Ancient Iraq**, Penguin Books, 1964.
66. Roaf Michael, "Counting in Cuneiform", Gonville and Caius College, Cambridge, 1979.
67. Sachs, A.J., "A Late Babylonian Star Catalog", **JOS**, 6, 1952, pp. 146-150.
68. Saggs, H.W.F., **Everyday Life in Babylonia and Assyria**, B.T. Batsford Ltd., London, 1965.
69. Saggs, H.W.F., **The Greatness that was Babylon**, Sidgwick and Jackson, London, 1966.
70. Saggs, H.W.F., "A Babylonian Geometrical text", **RA**, 54, 1960, pp. 131-146.

71. Speiser, E.A., "The Idea of History in the Ancient Near East", in R. C. Denton, **Ancient Mesopotamia**, AOS, 38, YUP, New Haven Oxford University Press, 1955.
72. Thompson, R. C., **A Dictionary of Assyrian Chemistry and Geology**, Clarendon Press, Oxford, 1936.
73. Thompson, R. C., **A Dictionary of Assyrian Botany**, London, 1949.
74. Thompson, R. C., "Assyrian Medical prescriptions for Diseases of the Stomach", **RA**, 26, 1929, pp. 47-92.
75. Townend, B. R., "An Assyrian Dental Diagnosis", **Iraq**, 5, 1, 1938, pp. 82-85.
76. Wiseman, D. J., **Chronicles of Chaldaean Kings**, London, 1956.

الفصل التاسع

جولان من الحياة اليومية

د. فاروق ناصر الراوي

كلية الآداب - جامعة بغداد

توطئة

حفل تاريخ العراق القديم بالكثير من الانجازات الثقافية والعلمية جعلته طليعة بلدان العالم القديم . وتميز قطرنا العراقي بحضارته الاصلية والمتواصلة باعتباره ينبوع الذي لا ينضب للعطاء في كل مجالات الحياة . لرفد الحضارة العربية والانسانية ببتكرات حضارية جديدة ومناهيم فكرية وعادات وتقاليد سليمة لاغناء البشرية بما فيه خيرها وسعادتها .

فحضارة العراق تستمد اصالتها من جذورها القديمة الممتدة عميقا في تربة هذه الارض المعطاء ، وقدمها قدم وجود الانسان . ان البحث عن الحياة اليومية للعراقيين القدماء موضوع طويل ومتشعب ولكننا سنحاول ايجاز بعض مظاهر تلك الحياة ، اخذين بنظر الاعتبار ما تعرض له الكتاب في فصول اخرى ، عن المقومات الاساسية للاقتصاد العراقي القديم وعماد حياتهم .

الفكرية والاجتماعية والفنية والذي يصب بطبيعة الحال في مجال معارفنا عن الحياة اليومية للفرد والمجتمع العراقي .

الدراسات السابقة

انصبت الدراسات الاثرية واللغوية منذ منتصف القرن الماضي والى الثلاثينات من هذا القرن على تناول ماله علاقة بالتوراة والقصص الواردة بها ، كما اخذ العلماء المتخصصون في حقل الاثار واللغات القديمة يركزون على بعض المباحث العلمية وبخاصة في الرياضيات والطب والفلك وعلوم النبات والحياة وما الى ذلك . واخذت الصورة تتوضح تدريجيا عن طبيعة النظم والقوانين والعادات والتقاليد وصولا الى معرفة العلماء بدقائق الامور من خلال تحليلهم للمخلفات الاثرية او دراساتهم للنصوص المسماة العراقية القديمة .

ومن خلال تظافر جهود العديد من الباحثين صدرت مباحث واسعة في الدراسات الاقتصادية في اواسط الخمسينات من هذا القرن كما صدرت بعد ذلك بقليل أي في نهاية الخمسينات وبداية الستينات كتب عن الحياة اليومية ومن اشهر الدراسات السالفة الذكر دراسات دياكونوف والمدرسة الاقتصادية التي يمثلها . كما صدر كتاب الاستاذ الفرنسي كوتينو الموسوم (الحياة اليومية في بلاد بابل واشور) وكتاب الاستاذ البريطاني ساكر بنفس العنوان . كما كتب الاستاذ طه باقر وبعض الباحثين العرب بحوثا قيمة ومتنوعة تناولت بعض مظاهر الحياة اليومية في العراق القديم وبخاصة تلك الدراسات التي عنيت بدراسة مخلفات عصور قبل التاريخ من خلال التنقيبات الاثرية العراقية او دراسة بعض النصوص المسماة ، كما صدرت لهؤلاء الباحثين كتب عامة تناولت جوانب حضارة العراق القديم واثرها على الحضارات القديمة الاخرى .

واتحفنا الاستاذان الدكتور فاضل عبد الواحد علي والدكتور عامر سليمان في سنة ١٩٧٩ بكتابهما الموسوم (عادات وتقاليد الشعوب القديمة) ضمن ماأتحفانا به من كتب منهجية لطلبة كليات جامعات القطر .

ونود ان نؤكد هنا ، وكما كررنا ، اننا لن نتناول طبيعة الاظمة الادارية او الاقتصادية او الاجتماعية او الدينية . لان مثل هذه الموضوعات تم التطرق اليها في مواضيع اخرى من هذا الكتاب . وسنكتفي بتناول بعض النشاطات اليومية والمظاهر التي تختفي بين الموضوعات الرئيسية .

حياة الاسرة

لا تختلف الاسرة العراقية القديمة عن الاسرة في عراقنا الحديث من حيث التركيب الا في عدم احتواء الاخيرة على الاماء والعييد وخضوعها لقوانين متطورة ربما كانت ذات صلة بالقوانين العراقية القديمة . فمولد ورضاعة ونشأة وخطوبة وزواج الابن ربما كان في نفس البيت الذي يعرف بالاكديية بيتو bitu .

الحقل

كانت ملكية الارض محدودة في العصور العراقية الاولى ولكنها اتسعت خلال العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م) . وتمكن الباحثون من تمييز نوعين من الملكية ، الملكية الخاصة ، وملكية الاقطاعات مقابل الخدمة العسكرية . ويمكن ان يحصل المرء على حقل اما بواسطة الشراء او بالتبني الحقيقي ليرث قطعة من الارض او بالتبني الخاص بالاموال غير المنقولة او ما يسميه الباحثون (تبني البيع) Sale adoption ، أو كشرىك في أعمال زراعية مشتركة تشبه نظم الجمعيات التعاونية الزراعية . وغالبا ماتقع الحقول خارج المدينة ، ولكن البعض منها كان ضمن سور المدينة .

تبني البيع

ان هذا الموضوع من الاهمية ما يدفعنا لتناوله مستقلاً ولو باختصار .
فقد شخص الاستاذ كاد Gadd طبيعة هذا النوع من التبني منذ العشرينات
وذلك من خلال تأكيده على الطبيعة الاقتصادية لنوع من النصوص المعروفة
باسم mārūtu أي « التبني » . واستخدم كل من كيرا وشبايزر
مصطلح « تبني البيع » وقبلت تسميتهم هذه من قبل معظم الكتاب . ومال
البعض لتسميته بـ « التبني الكاذب » أو « التبني الخاص بالاموال غير
المنقولة » وشاع استخدام المصطلح الاخير لدى بعض الباحثين .

فقد تبين للباحثين ان الحكومة قد منعت بيع الاراضي بعد ان اقطعتها
الى من يستحقها من الناس . لكن « الاقطاعيين » آنذاك استطاعوا
وبواسطة حيلة قانونية ان يلتفوا على القانون . فنقرأ في مئات من النصوص
ان اكثر من مائتي فلاح تبنوا « اقطاعيا » واحدا ، واصبح ابنهم البكر
والمستحق للحصة المفضلة والمنصوص عليها وعلى موقعها في العقد ، لقاء
هدية « أي الثمن » يقدمها لمتبنيه . وهذا النوع من العقود يستند شرعا على
المواد القانونية الخاصة بالتبني الصحيح . والآتي ملخص لاحد تلك
النصوص : عقد تبني بين الطرف الاول والطرف الثاني ، واستنادا اليه
سيعطي الطرف الاول « المتبني » للطرف الثاني (المتبني) قطعة ارض في
المدينة (المنصوص عليها في العقد) غرب الحقل العائد « للشخص المنصوص
عليه في العقد » . (واستنادا الى هذا العقد ايضا) اعطى الطرف الثاني
(المتبني أو « الاقطاعي ») الى المتبني (صاحب الارض) عشرونان من
الشعير (وكذا) من الفضة كهدية له . واذا مادعى احد بخلاف ذلك فعليه
الطرف الاول (المتبني) ان يزكي Zaku الطرف الثاني . (ويأتي بعد
ذلك شرط جزاء ينص على دفع من* من الذهب كعقوبة تترتب على اخلاله
احد طرفي العقد ببنوده) . ثم يختم العقد بقائمة من الشهود وبضمنهم كاتبه

العقد ، وطبعت اختتام الشهود والاطراف المعنية واحيانا بعض الاداريين
من المدينة •

البستان

عرف العراقيون القدماء البساتين وعملوا على رعايتها وزرع انواع من
الشجر فيها كالنخل والاعناب والتين والرمان والكرام والكشمري والسفرجل
وغير ذلك • كما عملوا على العناية بالغابات من أجل الاخشاب لعمل اثاث
معابدهم ودورهم كالاسرة والكراسي والصناديق والسلال وما الى ذلك •

دور السكن

تقوم جامعة بغداد منذ عام ١٩٧٨ باعمال التنقيب في مدينة سبار
القديمة ، وركزت هذه التنقيبات المنبثقة عن قسم الآثار اعمالها في منطقة
سكنية عامة • ومن النتائج المهمة لتلك التنقيبات انها عرفتنا على مخططات
(بيوت العامة) للعراقيين القدماء في حدود الالف الثاني ق • م فاليوت على
اختلاف مساحاتها تتضمن غرفة واحدة او غرفتين او ثلاث غرف وساحة
وسطية وصولا الى عشر غرف في بعض البيوت مع بقاء الساحة الوسطية •
ويشاهد في بعض الدور شبكة مجار ومرافق ، وقد تبنى اقسام من
البيت او تبلط بعض الغرف بالطابوق بينما السائغ في البناء استخدام اللبن
(الآجر المجفف بالشمس) ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان سعة البيت وعدد
غرفه وربما اثاثه تعتمد اساسا على المستوى الاقتصادي الاجتماعي للملكه •
كما قد تكون بعض البيوت مشيدة من طابقين • وقد تترك حرفة صاحب
البيت ووضعه الاقتصادي أثرهما على مخطط مواد البناء وتأثيث البيت •

فالبيت يمكن ان يؤث بالاسرة الخشبية والارائك والكراسي ، ويمكن
في نفس الوقت اذا ماكان مالكة فقيرا ان يخلو من الاثاث سوى الحصران

هو البسط والدكاك وعدد من الجرار الفخارية ، كما يمكن ان يحتوى على بعض المسارج للانارة .

ان الذي عرضنا له يمثل البيت الذي يقع في المدينة ويتجاور مع غيره على امتداد شارع او زقاق ، اما في الريف او القرية فقد يكون البيت عبارة عن خصّ (بالاكدية husu خصو) او بيت مبني بالطوف كما هي عليه الحال في بعض القرى والى وقت قريب .

وعلى الرغم من كل ماتقدم فقد عرف العراقيون بناء منازل كبيرة وقصور عظيمة ذات زخارف ومرافق متعددة وغالبا ماتلحق بها حدائق غناء وعلى سبيل المثال لا الحصر قصور الملوك الاشوريين وبخاصة قصر سنحاريب وقصر اشور بانيبال وقصور ملوك ماري وقصور ملوك العصر البابلي الحديث وبخاصة قصر نبوخذ نصر الثاني .

الغذاء وما يرتبط به من آلات وادوات

لا يخلو بيت عراقي من موقد نار للطبخ وعلى حد قول الاستاذ مارتن اليفي « لم يكن الموقد ليظفاً » والاعنى ذلك الموت او كارثة في البيت ويذكرنا هذا القول الطريف بيت الشعر العربي :

متى تأتته تعشو الى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

كما كان لكل دار او بضعة دور على اقل تقدير تنور لعمل الخبز ، وغالبا ماتتم عملية اعداد الطعام على يد ربة البيت وعثر المنقبون على عدد كثير من النماذج لتنانير ومواقد ثابتة ومتنقلة كما عثروا على تجهيزات المطبخ من اواني الطبخ واوعية الشراب ، اغلبها صنع من الفخار او الحجر وقليل منها من النحاس وامثلة نادرة من الفضة او الذهب . كما عثروا على العديد من الهاونات والمدقات والمجارش . وعلى الرغم من شيوع تناول الاطعمة باليد

مباشرة ، لكن العراقيين خلفوا لنا شوكات معمولة من العظم وسكاكين من النحاس او العظم وملاعق من الفخار او العظم ومغارف من الطين . وبالتأكيد استخدم الخشب لعمل العديد من الادوات المنزلية الا اننا لم نعثر على نماذج كاملة لحد الان لانه من المواد العضوية التي تبلى بمرور الزمن . ولكن النقوش الجدارية كثيرا ماترينا مثل تلك النماذج . ويجب الا يفوتنا التأكيد في هذا المجال على امكانية تغير الادوات السالفة الذكر من عصر الى عصر او من قصر الى قصر او بيت او خصص .

كان العراقيون يعتمدون في غذائهم على الحبوب والسوائل والمنتجات الحيوانية وبخاصة الحليب والجبن والسمن ولحم الغنم او لحم البقر الذي اعتبره البعض من المشهيات ، بالاضافة الى البقول والدرنيات والخضروات والتوابل والبصل والثوم والخبز والمعجنات والحلويات وصنوف من العصائد والاطعمة اللينة والنيذ والخمر . وكانوا يتناولون وجبتين رئيسيتين من الطعام يوميا وجبة الصباح ووجبة المساء .

ويخبرنا الاستاذ ليفي من خلال تتبعه لانواع الاطعمة وتوزيعها بان الجيش في العراق القديم كانت لديه مؤن رئيسية ومنها الطحين والخمر . كما يخبرنا بان الفقراء كانوا يتناولون الخضروات والفاكهة ، كل ذلك اضافة الى الماء العذب من نهري دجلة والفرات او البئر او القناة .

الزينة والنظافة

احتوت القصور وبعض الدور على الحمامات التي كانت حكرًا على الموسرين ، اما عامة الناس فكانوا يستحمون بالانهار او القنوات . وغالبًا ما كانوا يمسحون اجسامهم بالزيت لتنعيم البشرة . كما اعتاد العراقيون قص شعرهم وحلاقة ذقنهم ، وتصفيف الشعر وتقليم الاظافر وارتداء الملابس المتنوعة وتعصيب الرأس او تغطيته بانواع مختلفة من العمامة او القلنسوات

المختلفة وبموجب مقدرة او مركز كل منهم اقتصاديا واجتماعيا، وتفنت النساء
يعمل ازيائهن وتصفيف شعرهن وتعطير اجسامهن ولبس الاساور والقلائد
والحلقات ودبايس الشعر ومالي ذلك من مواد الزينة المختلفة والمتعددة .

الحياة اليومية للناس

بالرغم من قلة النصوص ذات العلاقة بتدوين مذكرات الافراد اليومية
او الاسبوعية او الشهرية او حتى السنوية ، الا اننا نستطيع ان نرصد عددا
الابأس به من العادات التي ربما كان معظم الناس يقومون بها يوميا او على
اقل تقدير بين فترة واخرى ...

فالراعي ، لا بد وان يذهب لرعي غنمه وسقيها وحلبها وعمل مشتقات
حليبها بالتعاون مع اهله او مع اصحاب الغنم او المواشي . والصياد اما ان
يطارد الغزلان او الماعز او الارانب او الحيوانات الاخرى أو أن يصطاد
البط او الطيور المتنوعة والمتوفرة في الحقول او البساتين القريبة من مكان
سكنه . والفخّار يعمل على تنقية الطين وعمل اوانيه المختلفة وتحضير الكورة
او القرن او الاتون لفخرها . والنجار والحداد والتاجر والفلاح والكاتب
والجندي والضابط والاداري وحاكم المدينة او المقاطعة والكاهن والملك
وحاشيته كل يعمل على الحفاظ على منصبه وادامة آلاته ونتاج او بيع نتاجه
او شراء انتاج الاخرين . كل هؤلاء يمكن ان يذهبوا الى المعبد للتعبد او
السوق لاجراء المعاملات التجارية او الحقل لانتاج او تبادل السلع او السفر
في رحلة تجارية او توظيف الاموال لهذا الغرض او ذاك .. الخ وباختصار
فان لكل صاحب حرفة او تلميذ او رجل دين او رجل ادارة حياته اليومية
الخاصة به .

ولاشك بان هناك الكثير من المعلومات التي تصل الينا عن نشاط العراقي
القديم اليومي ، ولكن يمكن للقارئ ان يطلع على الامثلة التالية كاطار عام
للنشاطات التي قام بها العراقيون آنذاك :

١ - فلنأخذ على سبيل المثال ما كان يقوم به أحد الصاغة الموسرين والمدعو بيل - ابني، الذي يستيقظ وزوجته قبل طلوع الشمس فيقبل أحدهما الآخر ، ويقبلان الاطفال ، ومن ثم يذهبان الى الحمام وينتهيان منه. بوضع زيت الزيتون على جسميهما وشعرهما ومن ثم تعطير نفسيهما بالعطور المختلفة . وبعد ذلك تقوم الزوجة بالاشراف على الاماء والعيبد الذين يعدون طعام الفطور بينما اخذ الزوج والاطفال يتمشون فوق سطح المنزل. يتعبدون ويتطلعون الى شروق الشمس . وبعد تناول طعام الفطور يذهب السيد بيل - ابني الى معبد صغير قريب من البيت ، ويقدم قربانا وهو خرف. اشتراه قبل يوم وربطه في باحة الدار خلال المساء . وعند دخوله المعبد سمع صنوذا وشاهد حراسا يقبضون على رجل دخل مكانا ما في المعبد قبل تقديمه الفروض المتعارف عليها .

اعطى السيد بيل - ابني الخروف الى احد الكهنة فسارع احد الكتبة. وقدم وصلا بذلك الى بيل - ابني وبنفس الوقت كتب رقما آخر دون فيه. مصدر الضحية لحفظه في ارشيف المعبد . وبعد انتهاء هذه العملية توجه السيد بيل - ابني الى المعبد الكبير معبد أيساكيلا Esagila مارا بمحاذاة النهر ، ووقف قليلا يتأمل حركة السفن المستمرة . وعند المرسى (الميناء) ، شاهد عملية تفريغ احدى السفن القادمة من الخليج العربي والمحملة بالنحاس. لحساب معبد المدينة الكبير أيساكيلا . كما شاهد قاربا صغيرا محملا بالشب. من كركميش ينتظر دوره لتفريغ حمولته . بينما اخذ بعض العمال يحملون. احد القوارب ببدور السمسر المرسله لاحد المعابد الكائنة الى الجنوب من. بابل . وبعد مغادرته الميناء توجه بيل - ابني الى احدى غرف المعبد الكبير، أيساكيلا ، حيث سلمه احد الاداريين الموجودين في المعبد كمية من الذهب. وقام الاداري باعطائه التوجيهات لعمل خواتم وحلقات وخلاخل لتزيين التمثال.

الجديد للالة مردوخ • كما اعطاه ايضا كمية من الفضة على شكل شريط وهي تمثل اجرة المدفوع مقدما •

وهناك ايضا كتب رقيم ينص على وزن الذهب ووزن الفضة التي تمثل اجر الصائغ بيل - ابني • ثم ذهب الصائغ ليشتري كور من الحبوب (حوالي اربعة اكياس) ودفع مقابل ذلك وزنا معيننا من شريط الفضة الذي يحمله • فأرسل التاجر الحبوب مع احد العبيد الى بيت بيل - ابني •

ولما كان يوم بيل - ابني قد بدأ حوالي الساعة الخامسة صباحا بتوقيتنا خان الوقت قد شارف الثامنة عندما وصل الصائغ الى دكانه • وعند دكانه في سوق الصاغة ، رأى بيل - ابني ولده كودا ينتظره ، وقد قام باعداد الفرن واشعال النار اللازمة ، فتلا الاب والابن التعاويذ الخاصة بالصاغة ووضعوا الذهب في البوتقة الفخارية وأخذوا يحركاها تدريجيا نحو النار الشديدة • ثم تولى الابن مهمة ادامة نفخ النار بينما راح بيل - ابني يعد قوالب الصب ويسخنها كي لا تتكسر عند سكب الذهب فيها • واخيرا ذاب الذهب الموجود في البوتقة فتناولها بيل - ابني وسكب الذهب في القوالب • وبعد ان ترك الذهب ليتصلب ويبرد ، اخرجت الحلي من القوالب • ثم انكب الوالد والولد على تنظيف الحلي وجليها مستخدمين المبرد والازميل والمطارق الخفيفة • وبعد ذلك اخذا يكفتان الذهب ببعض الاشرطة الفضية وينقشان الزخارف الجميلة عليها •

وبينما كانا منغمكين في العمل المتواصل سمعا مناديا فتوقفا لسماع ما يبتغيه المنادي فاذا به يصرح حول هرب احد العبيد • وتوقفا تارة اخرى عند بكاء وعويل عائلة تجاورهم لوفاة احدى النساء منها • وعندما انتصف النهار جمع بيل - ابني وابنه كودا الادوات والقوالب ووضعها في صندوق فخاري وهدأ النار المشتعلة في الفرن ونظفها جوانبه ومن ثم توجهما نحو البيت • فأخذوا الحلي وبقياء الذهب لوزنه امام المسؤول في المعبد • وفي طريق

عودتهما مرا بمعبد فلاحظا جلوس بعض الجيران يستمعون الى قضية رفعت من قبل رجل ضد احد الاشخاص، وكانت القضية تدور حول ملكية قطعة ارض تقع ما بين داري الرجل المشتكى والمشتكى عليه . فاستمع القضاة الى الشهود ووجدوا ان بعض الرجال قد زوروا العقود ، فعاقبهم . وعند اقتراب بيل - ابني وكودا من مجلس المحاكمة شاهدا احدهما الرجلان يجلس جانبا وهو يصرخ من الالم وبجواره صديقه الذي ابتلت ثيابه بالزيت وظهرت نقطة حمراء كبيرة على جبينه : حيث سخن الرقيم المزور وكويت جبهته عقابا له على تزويره .

وعند وصولهما البيت راي بيل - ابني زوجته في حالة غير اعتيادية بسبب مرض الامة amatu التي اشتراها قبل اسبوعين فقط لولده كودا . فهدأ بيل - ابني من غضب زوجته بقوله ان الامة مضمونة لمدة ثلاثة اشهر وما عليه الا اعادتها واسترجاع ثمنها .

فتناول بيل - ابني وزوجته وكودا والاطفال الطعام . وبعدها ذهب بيل - ابني وزوجته للتمتع بالقيولة ولم تكن القيلولة بالنسبة للزوج والزوجة متعة فقط بل واجبا ، لان الزوجة كانت حاملا في شهرها الخامس ، ونصوص الفال والعرافة كثيرا ما تؤكد على جماع الزوج والزوجة في مثل هذه الحالة .

اخذ بيل - ابني حماما وبعدها عاد مع ولده كودا الى الدكان واخذا يعملان حتى غروب الشمس ثم عادا الى البيت لتناول وجبة العشاء . وقد اقيم في ذلك المساء احتفال صغير في احد المعابد ، فارتدى افراد العائلة ملابسهم النظيفة والجميلة وصفف كل واحد منهم شعره وذهبوا للتمتع بالاحتفال . ولا يوجد بين المصادر ما يشير الى تحجب زوجة بيل - ابني كما هي عليه الحال في بلاد اشور او في المهود السالفة في بلاد بابل .

كانت المشاعر المعمولة من حزم القصب المطلي بالقار متوهجة . وكان

العديد من معارف العائلة متواجدين يرقصون ويغنون • وعند المدخل الكبير
للمعبد شاهدوا احد الكهنة يشرف على تضحية ثور كبير •

وهذا الجميع لسماع التراتيل التي لا يفهمها غير دارسي اللغة السومرية،
ولكن تمثيل المشاهد من قبل الكهنة المقنعين جعل فهمها بسيطاً •

ولما قارب الاحتفال على الانتهاء تهيأ ييل - ابني وافراد العائلة
للعودة الى البيت • وقبل وصولهم الى البيت شاهدوا مدخل الدار منورا
وعند الدخول لاحظوا ان العبيد قد اشعلوا المسارج في ساحة البيت والغرفة
الرئيسية ايضا • وبينما كانت زوجة ييل - ابني تعطي التوجيهات الى العبيد،
راح الاب والاولاد يلعبون بعض اللعب المسلية • وتناول الجميع طعاما خفيفا
أو بعض الحلوى وهكذا اختتم ذلك اليوم من حياة تلك الاسرة العراقية
القديمة • لقد اعتمدنا في روايتنا هذه على دراسات الاستاذ ساكر للرقم
الطينية البابلية الحديثة التي تعود لتلك العائلة •

٢ - بيت الالواح E.DUB.BA (المدرسة) : وهو كما يصفه لنا
العراقيون القدماء « يدخل فيه من عيناه مسدودتان ، ويخرج منه من عيناه
متفتحتان » •

أن احسن من تحدث لنا عن يوميات طالب مدرسة عراقية قديمة هو
استاذ سومري قام بتدوين مذكراته عن ايام التلمذة • وصلتنا تلك المذكرات
مكتوبة على الواح الطين التي يرقى زمنها الى حدود ٢٠٠٠ ق م •

وتبدأ مذكرات الاستاذ بطريقة شيقة تتخذ شكل حوار يقول فيه :
« ايها المتخرج القديم ، الى اين كنت تذهب (عندما كنت صغيرا) ؟ »
فيجيب المتخرج « كنت اذهب الى المدرسة » ثم يسأله الاستاذ « وماذا
كنت تفعل في المدرسة ؟ » وهنا يجيب التلميذ :

« كنت اقرأ لوحى واتناول غذائى
ومن ثم احضر لوحى (الجديد) لانتهى من كتابته
(وقبل المساء) كانت الواح التمارين تجلب الى
وعندما انصرف من المدرسة كنت اعود الى البيت
وكنت اجد ابي جالسا هناك
فاشرح لابي (مايتضمنه) لوح تمارينى
وبعد ان امثل أمام ابي كنت اقول :
انا عطشان ! اعطونى ماء لأشرب
انا جوعان ! ، اعطونى خبزا لأأكل
اغسلوا قدمي وتهيئوا فراشي
فاني ذاهب لانام
يقظونى مبكرا
لكي لاأتأخر والا اقتص منى استاذى »

وربما قبل شروق الشمس ينهض الاب والام فيوقظان تلميذنا من
فراشه مبكرا للصلاة وتأمل شروق الشمس كما سبقت الاشارة الى ذلك
أثناء كلامنا عن عائلة بيل - ابني ، على اية حال فالتلميذ يخبرنا :

« عندما استيقظ في الصباح الباكر
كنت ألقى امي فاقول لها :
اماه ! ، اعطينى غذائى لاذهب الى المدرسة
فتعطينى امي رغيفين واشرع بالذهاب
أجل ! ، لقد كانت تزودني برغيفين فاذهب الى المدرسة .
وفي المدرسة قال لي مسؤول الدوام :
اليم انت متأخر ؟

فدخلت على معلمي بقلب يخفق واديت له التحية باحترام •
لقد قرأ « مدير » مدرستي لوجي وقال :
« هناك شيء غير موجود » • وضربني بالعصا
وقال الشخص المشرف على الاناقة :
« لقد تسكعت في الطريق ولم تنظم ملابسك » • وضربني بالعصا •
قال الشخص المسؤول عن السكون (أثناء التدريس) :
« لم تكلمت بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال الشخص الموكل بالاصطفاف :
« لم استرخيت بالوقوف بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
قال المسؤول عن حسن السلوك : « لم نهضت بلا اذن ؟ » وضربني
بالعصا •

وقال مراقب البوابة :
« لم خرجت (من البوابة) بدون اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال المسؤول عن السوط :
« لماذا اخذت •• بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال المسؤول عن اللغة السومرية :
« لماذا لم تتكلم باللغة السومرية (الصحيحة) ؟ » وضربني بالعصا •
وقال استاذي (المشرف) :
« خط يدك سيء لا يرضي » وضربني بالعصا •

وبعد ان يبتس تلميذنا يذهب الى ابيه ملتسماً دفع أجر المعلم
(المشرف) ورعايته ودعوته وتكريمه ، فيستجيب الوالد لطلب ولده ،
ويكرم المعلم الذي قال للتلميذ بعد ذلك : « ايها الشاب ، (لانك) لم تكرمه
كلماتي ولم تهملها (عسى) ان تتقن فن الكتابة من بدايته الى نهايته ••

-عسى ان تخلو تمارينك من الاخطاء .. وبين اصدقاتك عسى ان تكون الرئيس .. وعسى ان تكون منزلتك بين الطلاب اعلى منزلة .. »

٣ - وفيما يلي نص قصير عن عتاب اب لابنه التلميذ المتقاعس في دراسته:

« لم اجعلك قط في حياتي تحمل حزم القصب الى الاجمة
ولم تحمل في حياتك حزم البردي التي يحملها الصبيان الصغار
لم ارسلك قط للعمل في حراثة حقلي
لم ارسلك قط لتشتغل عاملا
ولم اقل لك في حياتي « اذهب واعمل لتعيني » .

ومع كل هذا العتاب نرى الاب في نهاية حديثه يتوسل الى الالهة
لحماية ابنه ومنحه المراكز المرموقة في المجتمع .

٤ - نشر الاستاذ مجول سفيـل Miguel Civil بعض النصوص
الخاصة بذكرات شهرية نص البعض منها على تخصيص ايام معينة لانجاز
الاعمال معينة تقتطف منها الاتي :

« يوم واحد لانجاز الاعمال المتعلقة بالقصب
يومان لشد حزم القصب
يوم لغسل الملابس
يوم للعمل في البيت
يوم للذهاب الى المعبد »

وهذا نص آخر يتحدث بالتخصيص عن الاعمال لايام الشهر تقتبس منه الاتي :

« اليوم التاسع :
لتزييت صنارات الابواب
والذهاب الى القطع » . القصب

اليوم العاشر :
لتنظيف المعبد
اليوم الحادي عشر :
لقطف التمر وعسل المكاس
وجرش الشعير
اليوم الثاني عشر :
لتحصيل الشعير المجروش وتخدير الجعة :
ولجلب التقدّمات والنذور في وقت مبكر لمعبد الاله انليل
اليوم الثالث عشر :
تفتيش البيت والمعبد
وعمل الحطب اللازم
اليوم الخامس عشر :
لفصل تمثال الاله
ولادامة المطاحن لمدة يومين »

هـ - عشر المنقبون على آلاف الرقم الطينية التي تحتوي على رسائله ذات مواضيع متنوعة منها الادارية او الاقتصادية ورسائل ملكية وقليل منها ذو طابع يتعلق بتفاصيل الحياة اليومية وفيما يلي بعض الامثلة المأخوذة عن كتاب الاستاذ اوبنهايم الموسوم « رسائل من بلاد الرافدين » :

أ - « اخبر السيدة زينو » : أدن - سين يرسل الرسالة التالية : ليحفظك الى الابد الالهة شمش ومردوخ وايلبرات وليديموا الصحة الجيدة عليك من اجلي من سنة لآخرى ، فان ملابس الرجال هنا تتحسن ، بينما ملابسني تسوء من سنة لآخرى . والحقيقة انك تتعمدين في جعل ملابسني من سيء الى اسوأ . ففي الوقت الذي كان لدينا الصوف كثيرا كوفرة الخبز ، فانك عملت لي ملابس بسيطة . ابن ادد - اداام الذي

ابوه مساعد لابي ، لديه بدلتان جديدتان •• بينما تماطلين حول بدلة واحدة لي • وعلى الرغم من انك انجبتني بينما والدته قد تبنته ، امه تحبه ، بينما انت ، انت لاتحيينني ا » •

ب - « اخبر سيدي : امتك دايتم ترسل الرسالة التالية : ما اخبرتك به قد حدث لي : لمدة سبعة اشهر والطفل في احشائي ، ثم مات الطفل منذ شهر ولا يريد احد العناية بي • اتمنى ان اسر سيدي ولو قبل موتي ، تعال وزرني واجعلني ارى وجه سيدي ••• لماذا لم تصلني هدية منك ؟ واذا مامت ، فاجعلني اموت (ولكن) بعد ان ارى وجه سيدي ثانية » •

ج - « اخبر والدي : الذي ترعاه وتحفظه بصحة جيدة الالهة كولا •• ودامو وارماشم : ورد - كولا يرسل الرسالة التالية : لتحفظ الالهة كولا ودامو وارماشم بالصحة الجيدة ، لتثبت اقدامك في المركز الذي تتسنمه • لانني لم ارك او اكتب اليك وذلك لسفري المفاجيء ، فان احد الاداريين قد سجنني وارسلني مخفورا الى ايسن • ولا استطيع الخلاص منه للمثول امامك • لاتبالي ، حول مصيري على اية حال ، فسوف ارسل لك الفضة التي بذمتي ، وستكون جاهزة ، واذا ماسافر دامو - ابكالي فسوف يجلبها اليك • والا فسأتوجه اليك بنفسي بعد عشرة أيام ، أي بعد الحصول على الحبوب التي تعود لي • لاستطيع النوم في الليل من شدة قلقي عليك » •

د - « اخبر ازالم : ابنك ادد - ابرم يرسل الرسالة التالية : لتحفظك الالهة شمشن وویر بالصحة الجيدة • لم اكتب اليك من قبل حول شيء ثمين • ولكن اذا ما اردت ان تكون ابا لي ، فحصل لي على خيط مليء بالخرز ، لالبيه حول رأسي • اختمه بختمك وسلمه لحامل رسالتي هذه ليجلبه

ئي • واذا لم يكن لديك الان ، فاحصل عليه ولو من تحت الارض وارسله لي • فانا شديد الحرص على حيازته • لاتمعه عني • وبهذا سأرى ان كنت تحبني كوالد حقيقي يحب ولده • وبطبيعة الحال ، ثبت ثمنه من اجلي ، اكتبه وارسل لي رسالة • فالشاب سيصل اليك يجب ان لا يرى خيط الخرز • اختمه بداخل رزمة واعطه له يجب ان لا يرى الخيط ، الخيط الذي يلبس حول الرأس • الذي سترسله • يجب ان يكون مليئا بالخرز ويجب ان يكون جميلا • واذا مارأيته ولم احبه فسوف اعيده اليك : ارسل كذلك الرداء الذي سبق لي وتكلمت لك عنه » •

هـ - « اخبر بيلشونو : قودوشا يرسل الرسالة التالية : ليحفظك الاله شمش بصحة جيدة • كما سمعت بالتأكيد فان الريف مرتبك والاعداء يتربصون سوءا • ارسلت الرسائل الى ابني - مردوخ وغيره ، واليك خذ حملا من القطيع الى العراف واحصل على رأيه فيما يتعلق بالماشية وقطعان الغنم ، وهل يجب ان تجلبها الى جورانا أو ان هجوم الاعداء وقطاع الطرق سيتوقف ، او يتوجب جلب الغنم والماشية بالقرب مني - والا ، اجلبها (الغنم والماشية) الى مدينة كيش وبذلك فلن يستطيع الاعداء التمكن منها • واجلب ايضا كل مايمكن توفره من حبوب الى مدينة كيش واكتب لي تقريراً مفصلاً » •

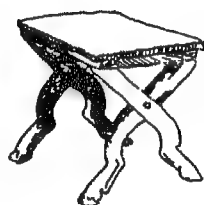
و - « اخبر السيدة الميشوم ، سيرم ترسل الرسالة التالية : ليحفظك الاله شمش وبانيكينكارا للأبد وبصحة جيدة من اجلي، هذه هي الوسيلة التي يمكنك بها ان تريني اخوتك • على الرغم من معيشتنا سوية (منذ كنا اطفالا) ، فانك لم تفكري بي منذ ان اصابك الحظ ، فلم احصل حتى على هدية ذات ثمن بخس منك • فعلى الرغم من جلبك لي الهدية في المرة الفائتة ، الا انك لم تترتاحي الا باستعادتها مني قائلة لي

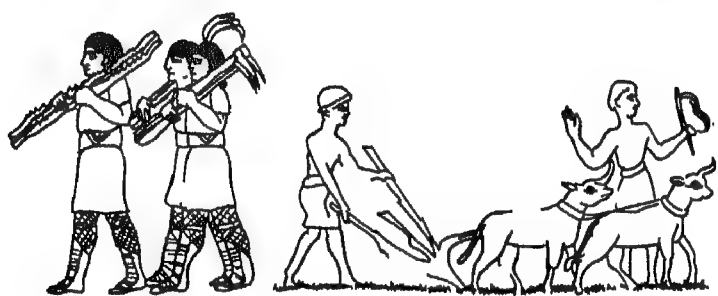
« سارسل لك فيما بعد هدية ثمينة و ،،، و ،،، الخ » ولكنك لم ترسلني لي شيئاً

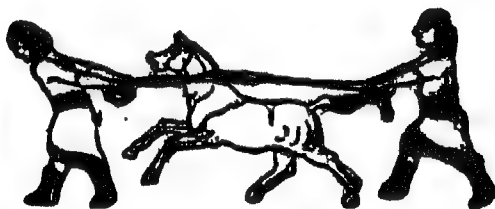
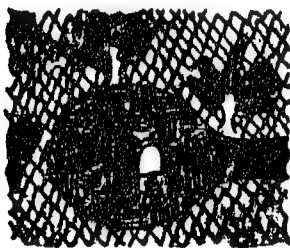
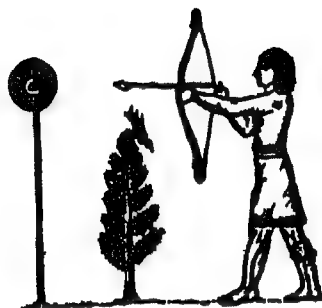
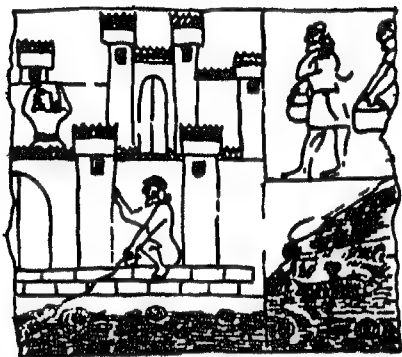
واخبرتك كذلك « اذا ما احتاج صاحب الشرف زوجك ! »
آبي - امورم اي علب ، فليكتب لي وسارسل له خمس علب « . الان ارسل اليك الرجل الذي يصلكم في رحلة تجارية لمعبدا دد . ارسلني لي مائة جراداة وطعام بقيمة سدس شيقل من الفضة وبهذا سأرى اخوتك نحوي »

لقد حاولنا من خلال صور النشاطات لجوانب الحياة اليومية للمواطنين العراقيين القدماء ان نهيء للقارئ الكريم فرصة تلمس جوانب الاحاسيس والمشاعر التي تفرزها ممارسات الحياة اليومية وهي في اقرب نقاط التصاقها بالواقع وبعيدا عن الرسم النظري او الادعاءات التي تسطرها النصوص التاريخية .

وعلى الرغم من عجالة العرض ، ولكن الموضوعات تؤثر من دون شك اهمية البحث في هذه الجوانب الهامة من الحضارة العراقية وصولا الى تحديد السمات الاساسية للشخصية الحضارية العراقية القديمة . وان مباحث هذا الفصل تكمل الصور التي رسمت لجوانب الحضارة العراقية القديمة في فصول اخرى .







المراجع

- ١ - دكتور فاضل عبد الواحد علي ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ،
جامعة بغداد ، بالاشتراك مع دكتور عامر سليمان ١٩٧٩ .
- ٢ - دكتور فاضل عبد الواحد علي ، هكذا كتبوا على الطين ، مجلة كلية
الاداب ٢٧ ، ١٩٧٩ .
3. Al-Rawi, Farouk N.H., **Studies in the Commercial Life of
an Administrative Area of Eastern Assyria in the Fifteenth
century B.C., Based on Published and Unpublished Cuneiform
Texts**, Unpublished Ph. D. Thesis, University College
Cardiff, United Kingdom, 1977.
4. Chiera, E. **They Wrote on Clay**, University of Chicago
Press, 1959.
5. Civil, Miguel, "Daily Chores in Nippur", **JCS**, 32/4, 1980
pp. 229-232.
6. Contenau, G., **Everyday Life in Babylon and Assyria**, Lon-
don, 1954.
6. a Diakonoff, I.M., **Ancient Mesopotamia**, Moscow, 1969.
7. Driver, G.R. and STR Miles, J.C. **The Babylonian Laws**,
2 volumes, Oxford, 1868.
8. Gadd, C.J., **Teachers and Students in the Oldest Schools**,
London, 1956.
9. Kramer, S.N., **The Sumerians; their history, culture and
character**, University of Chicago Press, 1963.
10. Laessle, **People of Ancient Assyria**, Routledge and Kegan
Paul, 1963.

11. Levey, M., **Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia**, London, 1959.
12. Müller, V., "Types of Mesopotamian Houses", **JAOS**, 60, 1940, pp. 151-180.
13. Oppenheim, A. Leo, **Ancient Mesopotamia**, U.S.A. 1965.
14. Oppenheim, A. Leo, **Letters from Mesopotamia**, The University of Chicago Press, 1967.
15. Saggs, H.W.F., **The Greatness that was Babylon**, Sidgwick and Jackson London, 1966.
16. Saggs, H.W.F., **Everyday Life in Babylonia and Assyria**, B.T. Batsford Ltd., London, 1965.
17. Starr, R.F.S. Nuzi; **Report on the Excavations at Yorgan Tapa Near Kirkuk, Iraq, Conducted by Harvard University in Conjunction with the American Schools of Oriental Research and the University Museum of Philadelphia, 1927-31, with Appendixes by R. S. Chute, R.W. Ehrich, H.W. Elliott, R. J. Gettens and E.R. Lacheman**, Vol. 1, Text, Harvard University Press, 1939; Vol. 2, Plates and Plans Harvard University Press, 1937.

المحتوى

لعصور القديمة (٢)

لفصل الاول - الادارة ونظام الحكم

٣٨ - ٧

د. سامي سعيد الاحمد

لفصل الثاني - الجيش والسلاح

٦٢ - ٣٩

د. فوزي رشيد

لفصل الثالث - القانون والاحوال الشخصية

١٠٨ - ٦٣

رضا جواد الهاشمي

لفصل الرابع - العلاقات السياسية الخارجية

١٥٢ - ١٠٩

د. عامر سليمان

لفصل الخامس - الزراعة والري

١٩٤ - ١٥٣

د. سامي سعيد الاحمد

لفصل السادس - التجارة

٢٣٨ - ١٩٥

رضا جواد الهاشمي

لفصل السابع - صناعة التعدين

٢٦٨ - ٢٣٩

د. وليد الجادر

لفصل الثامن - العلوم والمعارف

٣٦٨ - ٢٦٩

د. فاروق ناصر الراوي

المبحث الاول - تدوين التاريخ

٢٧٨ - ٢٦٩

المبحث الثاني - الجغرافية

٢٩٢ - ٢٧٩

المبحث الثالث - الرياضيات والفلك

٣٢٤ - ٢٩٣

المبحث الرابع - العلوم الطبية

٣٣٨ - ٣٢٥

المبحث الخامس - الكيمياء

٣٥٤ - ٣٣٩

المبحث السادس - الحيوان والنبات

٣٥٩ - ٣٥٥

المبحث السابع - المعادن والاحجار والاملاح

٣٦٨ - ٣٦٠

لفصل التاسع - جوانب من الحياة اليومية

٣٩٢ - ٣٦٩

د. فاروق ناصر الراوي

رقم الايداع في المكتبة الوطنية – بغداد
(١٤٩٣) سنة ١٩٨٤